ليف شستوف



# دوستويفسكي ونيتشه
# فلسفة المأساة

ترجمة: إبراهيم إستنبولي

ليف شستوف

# دوستويفسكي ونيتشه
# فلسفة المأساة

ترجمة: إبراهيم إستنبولي

مراجعة: د. غسان مرتضى

PG3415 .P5 S5125 2023

Shestov, Lev, 1866- 1938

دوستويفسكي ونيتشه: فلسفة المأساة / تأليف ليف شستوف ؛ ترجمة إبراهيم إستنبولي ؛ مراجعة غسان مرتضى. - ط. 1. - أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2023.

287 ص. ؛ 21 سم.

ترجمة كتاب : (Достоевский и Ницше (философия трагедии

تدمك: 5-30-770-9948-978

1- دوستويفسكي، فيودور (1821– 1881)– فلسفة. 2– نيتشه، فريدريش فيلهلم (1844– 1900). 3– الفلسفة الروسية– القرن 19. 4– الفلسفة الألمانية– القرن 19. أ– إستنبولي، إبراهيم. ب– مرتضى، غسان. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:

Достоевский и Нищше (философия трагедии) by Лев Исаа́кович Шесто́в
Saint Petersburg, 1903

---

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام– وزارة الثقافة والشباب– رقم الطلب MC-03-01-2435418.
طبع في المتحدة للطباعة والنشر– أبوظبي– 80022220

---

مركز أبوظبي للغة العربية
Abu Dhabi Arabic Language Centre

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

---

دوستويفسكي ونيتشه
فلسفة المأساة

# مقدِّمة المترجم

يتحدَّث الفيلسوف الروسيُّ ليف شِستوف في كتابه «دوستويفسكي ونيتشه: فلسفة المأساة»، عن عملاقين في الثقافة العالمية: عملاق الأدب الروسي فيودور دوستويفسكي، وعملاق الفلسفة الألماني فريدريك نيتشه ... وكلاهما كان، وما زال، أيقونةً ثقافية وأدبية، وكلاهما يُعدُّ معياراً لثقافة الإنسان ونوعية قراءاته.

يكشف الناقد والفيلسوف شِستوف لنا بعينه النقدية الثاقبة والخبيرة ما لا تراه عينُ القارئ العادي، سواء في روايات دوستويفسكي التي تغوص في أعماق النفس البشرية، أو في أبحاثِ نيتشه الفلسفية حول الجمال والإلحاد والعدمية. فهو يلقي الضوءَ على كثيرٍ من الجوانب التي نجهلها في الإبداع الروائي عند دوستويفسكي، وكثيرٍ من اختراقات نيتشه في فلسفة الوجود والعدم والجمال.

وليف شِستوف ليس فيلسوفاً بالمعنى التقليدي للكلمة، بل فيلسوفٌ بالمعنى نفسِه الذي يُعدُّ فيه شكسبير ودوستويفسكي وغوته فلاسفةً؛ إذ إنَّ أعماله بمجملها تقريباً تمثِّل نزهاتٍ أدبية عميقة ومبتكَرة بصورةٍ فريدة في الأدب.

لقد كرَّس شِستوف حياتَه كلَّها في سبيلِ مهمةٍ صعبة، تتمثَّل في تقديمِ دراسة غير متحيِّزة للنُّظم الفلسفية عند الآخرين، ومن أجلِ محاربة الأفكار الرشيدة «في الفهم العقلاني»، بهدفِ التوصُّل إلى إدراكٍ عبقري لوظيفة الفلسفة بوصفها عِلماً؛ «أن تعلِّمنا العيشَ ونحن غير معروفين» ...

أزعم أنَّ هذا الكتاب من أكثرِ المقاربات النقدية جرأةً وبُعداً عن التأثيرات العاطفية لأعمالِ كلٍّ من دوستويفسكي ونيتشه في المكتبة العربية؛ على الأقل. وأنا واثق بأنَّه سيكون مرجعاً للنقاد والكتَّاب والدارسين على حدٍّ سواء.

وأخيراً، لا يسعني إلا أن أتوجَّه بالشكر إلى جميع العاملين في مشروع «كلمة» الذين كان لتعاونهم دورٌ أساسي في إنجاز هذا الكتاب، وفي إخراجه إلى القرَّاء الكرام.

إبراهيم إستنبولي

# مقدّمة المؤلف

## 1

فلسفةُ المأساة! لعلَّ مِثل هذا الجمعِ بين الكلمات سوف يستدعي الاحتجاجَ لدى القارئ الذي اعتاد أن يرى في الفلسفةِ آخِرَ تعميماتِ العقل البشري، وقمَّةَ ذلك الهرمِ المهيبِ الذي يقال له العِلم الحديث. كان يمكن للقارئ أن يقبَل، غالباً، بتعبيرِ «سيكولوجيا المأساة»، ولكن على مضضٍ أيضاً ومع تحفُّظاتٍ كبيرة؛ لأنه مقتنِع في أعماقِ قلبه بأنه ينبغي لاهتماماتنا كافةً أن تنتهيَ هنا، من حيث الجوهر، حيث تكون المأساة. أما فلسفةُ المأساةِ أَفَلا تعني فلسفةَ فقدانِ الأمل واليأس والجنون، بل حتى فلسفةَ الموت؟! هل يمكن الحديثُ هنا عن أيِّ شكلٍ من أشكال الفلسفة؟ لطالما قاموا بتعليمنا: «دعِ الموتى يدفنون موتاهم»[1]- وقد فهِمنا ذلك وقبِلنا به على الفورِ بمنتهى السعادةِ.

صاغ الشاعرُ الكبير وأحدُ أعظم المفكرين المثاليِّين في القرن التاسع عشر، ذلك القولَ شعراً فهتف قائلاً: und der Lebende hat rech[2]، أما نحن فذهبنا أبعدَ من ذلك: لم يكن

---

(1) «فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «دَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُم، وأَمَّا أَنْتَ فَاذْهَبْ وَنَادِ بِمَلَكُوتِ الله»»» (لوقا 9: 60). (المترجم)

(2) «والحي على حقٍّ» (ألماني).

كافياً بالنسبة إلينا أن نتخلّص من موتانا، ولم نكتفِ بأن نؤكّد على حقوقِ الأحياء منّا. لقد بقي لدينا أولئك الأحياءُ الذين أثاروا وما زالوا يثيرون ارتباكَنا بسببِ وجودِهم وبدرجةٍ أكبرَ من الإرباكِ الذي يسبِّبه لنا، طبقاً لذلك التعليم، أولئك الأمواتُ الذين دفَنّاهم. بقي لدينا جميعُ أولئك الذين لا يوجد لديهم أيُّ آمال دنيوية، جميع أولئك اليائسين وجميع أولئك الذين مسَّهم الجنون من جرّاء فظاعاتِ الحياةِ وأهوالها. ماذا يمكننا أن نفعلَ بهم؟ مَن ذا الذي سيأخذ على عاتقه مثلَ هذا الواجبِ اللاإنساني، وهو دفن هؤلاء في التراب؟

المثالية موجودةٌ منذ زمنٍ طويل، قبل ألفي سنة ونيِّف، لكنَّ دورَها قبل العصر الحديث كان قليلَ الأهمية نسبياً. وقد لاحظنا أكثرَ من مرة خاصةً لدى أفلاطون - الذي يُعدُّ عن حقٍّ تامٍّ ومن الناحيةِ الشكليةِ الأبَ الروحيَّ ومؤسِّسَ ذلك العِلم الرفيع - نوعاً من التناقضِ الغريبِ في الأفكار وفي البراهين لا يوجد سوى تفسيرٍ واحدٍ له، ألا وهو أن أفلاطون كان بعيداً كلَّ البُعد عن «نقاء» الرؤيةِ المثاليةِ التي بلغَها عصرُنا. بل كانت واضحةً تماماً في مناقشاته بقايا الفَهم المجسِّم[1] anthropomorphic للألوهية، وهذا ما سيدفع حتى التلميذَ المعاصرَ المطِّلع ولو قليلاً على خفايا علمِنا وبواطنه، أن يبتسمَ غيرَ مرةٍ بسبب إدراكه تفوُّقَه عند قراءةِ

(1) التجسيمُ أو التشبيهية يَعني إسباغَ الصفاتِ والمشاعر والنوايا البشريةِ على الكِيانات غير البشرية، وهو إحدى النَّزْعات المتأصلة في النفس البشرية. التشخيص نزعةٌ بشرية قريبة من التجسيم، وتعني إسباغَ الهيئات والخواص البشرية على المفاهيم المجرَّدة مثل الأمِ والمشاعر، وعلى القوى الطبيعية مثل المواسم والمناخ. يعود تاريخُ كلا المفهومين إلى العصور القديمة في صورةِ الحكايات والأعمال الفنية، وتتميز معظمُ الثقافات بحكاياتٍ تقليدية تضم شخصياتٍ حيوانيةً في هيئة بشرية. إلى جانب ذلك، يُضفي الناسُ المشاعرَ البشرية والطِّباع السلوكيةَ على الحيوانات البرِّية والمستأنَسة على حدٍّ سواء بصفةٍ روتينية. (المترجم)

محاوراتِ أفلاطون. ذلك أنَّ أفلاطون ما زال من وجهةِ نظرنا بربرِيّاً ومتوحشاً، ولا يفقه شيئاً بخصوصِ المبادئ الموحّدة والجامعة لدينا: حتى أرسطو فصَل السماءَ عن الأرض. كلّا، إنَّ المثاليةَ الحقيقية والخالصة هي نتاجُ القرنَين الأخيرَين. وقد ظهرت المثاليةُ خلالهما بالتزامنِ مع الميلِ نحو الفهْم «الأحادي النظرة» الذي رسخ في العلم.

لا يمكن للعقلِ المعاصرِ أن يتحمَّل الفلسفةَ التي تقترح عليه بضعةَ مبادئَ أساسية. فهو يسعى بشتَّى السُّبل ومهما كلَّف ذلك باتجاهِ النظرةِ الأحاديَّة - نحو البداية الجامعة، كما يقال عندنا، والأدقّ - نحو المبدأ الواحدِ والوحيد. وهو بالكاد يستطيع أن يتحمَّل المثنويَّة[1]: يبدو له حِمْلًا ثقيلاً جدّاً أن يقوم بحَمْلِ مبدأين اثنين على عاتقِه. وهو يسعى بكافة الوسائل للبحثِ عن تسهيلاتٍ، بل مستعدٌّ أيضاً إذا لزِم الأمرُ لأنْ يؤمِن ببعض الهُراء الدقيقِ بشرط ألا يكون مضطرّاً إلى التعامل مع ما هو معقَّد. الروح والمادة شيءٌ صعبٌ وكثير جدّاً: أليس من الأفضل أن نختار واحدة منهما؛ إمَّا الرُّوح وإمَّا المادة؟ أو، في أسوأ الحالات، أليس من الأفضلِ أن نعترفَ بأنَّ الرُّوح والمادة وجهان مختلِفان في حقيقةِ الأمر للجوهر نفسِه؟ الحقيقةُ هي أنه ما مِن أحدٍ فهِمَ حتى الآن الطريقةَ التي يمكِن من خلالها للروح والمادة أن تكونا «وجهَين مختلفين»، بيدَ أن هذا التفسيرَ في الفلسفة، لا سيما الحديثةُ، لم يكن الوحيدَ على الإطلاقِ الذي لم

---

(1) المثنويّة هي النظرةُ الفلسفية التي ترى أنَّ هناك وجوداً لمصطلحَين أساسيَّين، غالباً ما يكونان متعاكسَين، مثل الخيرِ والشر، النور والظلام، الذَّكر والأنثى؛ ولكنْ ثمَّة أمرٌ يجب تسليط الضوء عليه؛ فمن الممكن أن تكون المصطلحات صحيحةً أو خاطئة حسب ما تدفعها حقيقةُ الأشياء؛ فالمثنوية ليست حبيسةَ المصطلحات، بل هي عقيدةٌ تبيِّن أن هناك إلهَين؛ أحدهما النور والخير، والآخر الظُّلمة والشَّر. (المترجم)

يفهمه أحد. بل أكثر من ذلك أيضاً: كانت الفلسفةُ تقوم وتصمُد بقوةٍ أكبرَ بفضل مثلِ هذه التفسيرات، خصوصاً إذا ما عُدِّلت بطريقةٍ ذكية وفي الوقت المناسب. المهم ألا يكونَ هناك مبادئُ غيرُ لازمة!

لقد كانت وجهةُ النظرِ الواحدية[1]، المدعَّمةُ والمفسَّرةُ بطريقةٍ كافية، والشكلُ الشائعُ لها؛ الماديةُ - التي تكتفي، كما هو معروف، بأقلِّ عددٍ ممكنٍ من المفردات الأجنبية ومن المفاهيم المجرَّدة - هما الأكثر قبولاً بهذا المعنى بالتأكيد. بيدَ أنَّ المفردات الأجنبيةَ والمفاهيمَ المجرَّدة تثير الرعبَ فقط عند الجمهورِ العريض غيرِ المعتاد على هذا العمل؛ في حين أنها في المجالات الفلسفية، على العكس، تحظى بالثقةِ التامة، حتى إنَّها تتمتَّع بقوةِ جذبٍ كبيرة. والناس المطَّلِعون يعرفون أنه من السهلِ التعامُل مع مثل هذه الصعوبات. لن يكون بإمكان مصطلحٍ إضافيٍّ ومفهومٍ جديد، بغضِّ النظر عن طريقة بناء أيٍّ منهما، أن يشكِّلا إعاقةً في نهاية المطاف، بل يمكنهما في حالاتٍ معيَّنة أن يقدِّما مخرجاً من الحالة الصعبة. وللعلم، لا يجري اختيارُ المصطلحات أو المفاهيم بشكلٍ اعتباطي، بل بطريقةٍ مدروسةٍ ولأهدافٍ معروفةٍ ومحدَّدةٍ بطريقةٍ صارمة. وحْدَه «المبدأ» يمكِن أن يعرقل، لا سيَّما أنه يحمِل معه إلى الحقلِ الفلسفي مجموعةً من الظواهر الجديدة التي لم تتأقلم مع المنظومة، ويطلب اهتماماً خاصّاً به بطريقةٍ مستفِزة. وهنا بالتحديد يصبح الفيلسوفُ بحاجة ماسَّة إلى قوةِ الإقناع بأكملِها؛ وذلك لكي يُغلقَ المدخلَ أمام الوافدِ المُلِحّ. وهنا بالضبطِ يصبح ضروريّاً كلُّ علوٍّ وكذلك متانة الجُدران الإيديولوجية التي تحضُن وتحمي

(1) الواحدية هي الاعتقاد أن الكون (أو الطبيعة) والله (أو الألوهية) حقيقةٌ واحدة. والواحدية هي ترجمةٌ للمصطلحِ اليوناني "Pantheism" الذي يعني «الكل هو الله». (المترجم)

العلـمَ مـن الحيـاة. فالفلسـفة تريـد أن تصبـح «علـماً» مهـما كلَّـف الثَّمـن، علـماً كـما هـي الرياضيـات، وفي حـال كان ذلـك ممنوعـاً تحقيقُـه بـأي طريقـةٍ أخـرى، فسـوف تقـوم نظريـةُ الإدراك بالمسـاعدة عـلى أيِّ حـال. سـوف تبرهِـن أنـه لا يمكـن سـؤالُ الفلسـفة عـن كل شيء، حتـى إنـه لا يجـوز سـؤالها عـلى العمـوم، وإنـما يمكـن الإصغـاءُ إلى مـا تقولـه فقـط. مـع هـذه الشروط، وفقـط مـع مثـلِ هـذه الـشروط، هـي توافـق عـلى الكشـفِ عـن أسرارهـا للمتعطشـين إلى الحقيقـة، وبـما أنـه لم يكـن ثمَّـة مصـدرٌ حتـى الآن لكـي تُعـرَف الحقيقـة منه، فقـد اتَّجهـوا نحـو الفلسـفةِ وأصغَـوا إليهـا وتذكَّـروا تعاليمهـا، وإنْ لم يكـن في تلـك الحـالات التـي كان لا بـدَّ فيهـا مـن إيجـادِ حـلٍّ لمسـألةٍ حياتيـة صعبـة، فعـلى الأقـل في تلـك الحـالات التـي كان يتعـيَّن فيهـا «تعليـم» الآخريـن.

هـذه قسـوة، إلَّا أنـه سـوف يكـون عـلى خطـأٍ ذاك الـذي سينوي أن يـرى في المهـمَّات التـي تضعهـا لنفسـها نظريـةُ الإدراكِ مجـرَّدَ ادعـاءاتٍ نظريـةٍ بحْتـة. لـو أنَّ الأمـر كان عـلى ذلـك النحـو، لَـما كانـت رؤيـةُ العالَـم المعـاصرة، عـلى الأغلـب، عـلى هـذه الدرجـةِ مـن الانتشـار، مـن ناحيـة، ولَـما كانـت صادفَـت كلَّ هـذا الكـمِّ مـن العِـداء. يؤكِّـد نيتشـه أنَّ أيَّ فلسـفة هـي نـوعٌ مـن المذكِّرات والاعترافـات اللاإراديـة للفيلسـوف. وأنـا أعتقـد أنَّ هـذا الـكلام لا يقـول كلَّ شيء بعـدُ. بـل سـوف تجـدون في المنظومـة الفلسـفية، في الآونـة الأخـيرة، إلى جانـب الموعظـةِ، شـيئاً مـا آخـرَ أكثـرَ أهميـةً بـما لا يُقـارن: التبريـر الـذاتي عنـد المؤلِّـف، ومعـه الاتهـامُ في الوقـت نفسـه، اتهـامُ جميـع أولئـك الذيـن يبعثـون مـن خـلال حياتهـم الشـكوكَ في عدالـةٍ غـيرِ مشروطـةٍ لتلـك المنظومـةِ، وفي المزايـا الأخلاقيـة الرفيعـة لخالقِهـا. لم نَعُـد نؤمِـنُ ولا يمكننـا أن نؤمِـنَ بالبحـثِ النزيـهِ غـيرِ المغـرِضِ عـن الحقيقـةِ، الـذي لطالمـا أحـبَّ النـاسُ أن يفاخـروا بـه

ذاتَ يوم. بل كيف يمكننا أن نؤمنَ به، بعد أن بات واضحاً للجميع أننا لا نعرفُ على وجهِ التحديد ماذا نقصد حين نقول إننا نبغي الحقيقةَ. لعلَّنا إذا قلنا «نريد الحقيقةَ»، يكون المقصودُ من قولنا ابتغاءَ السَّكينة، وربما هذا يعني أننا نبحثُ عن دافعٍ جديد من أجل الكفاح، وقد يكون المقصودُ أننا نرغبُ في العثورِ على «وجهةِ نظر» فريدةٍ بشكلٍ خاصٍّ ولم يسبق أن خطرَت على بالِ أحدٍ من قبلُ. كلُّ شيء واردٌ! ولكن في حالِ كانت كل منظومةٍ تسعى، من الناحية الشكلية، لأن تضعَ حدّاً لمختلِف أسئلة «الماذا» التي لا تنتهي والتي يبتكرها عقلُنا غيرُ الخلَّاق عادةً في جميعِ النواحي الأخرى بطريقةٍ حاذقة، فإنَّ أيَّ فلسفةٍ تضع من حيث مضمونها، من الناحية الداخلية - أكرِّر - البحثَ عن تبريرٍ ذاتي هدفاً لها بكلِّ تأكيد ومن دون أدنى شكٍّ، وذلك على الرغم من أنها قد لا تكون تأخذ ذلك بالحسبان. وقد كان هذا الهدف من سماتِ المثالية؛ إذ إنَّ المثاليةَ كانت على الدوام تضع أمام البشرِ مهمَّاتٍ، وترفع أولئك الذين وافقوا على تحقيقِ تلك المهمَّات. أما أولئك الذين رفضوا تلك المهامَّ، فكانت المثاليةُ تصبُّ عليهم اللعناتِ وتحيلهم إلى العار، دون أن يكون لديها الصبرُ أو الرغبةُ في الاستفسار عن الأسبابِ التي تجعل هؤلاء يرفضون تعاليمَها في حالاتٍ معينة (وغالباً!). كان ثمَّة تفسيرٌ جاهز لدى المثالية لجميعِ حالات إخفاقها؛ إذ كانت تؤكِّد في الحالات التي تُرفَض فيها أفكارُها، أنها اصطدمت بنوعٍ من الجنون والسُّعار، أو بنوايا خبيثةٍ وشريرة. وقد تسلَّحت المثاليةُ بضرورةٍ حتمية منحَتها الحقَّ بأن تعتبر نفسها عاهلاً مستبِدّاً، وأن ترى جميعَ الرافضين لطاعتها متمردين ومثيرين للشغب يستحقُّون الاضطهادَ والإعدام. وكم كانت فظيعةً وأنيقةً تلك

القسوةُ التي تبديها الضرورةُ الحتمية في كلِّ مرَّة تُخرَق شروطُها ومطالبُها! وأنا أنصحُ أولئك الذين لا يمتلكون سوى القليلِ من القدرةِ على التخيُّل وخبرةٍ قليلة في هذه الأمورِ، أن يعيدوا قراءةَ «ماكبث» لشكسبير. إنه يوضِّح للناسِ البريئين وأصحابِ النوايا الطيبةِ ما الذي حقَّقته المثالية، والأهم بأيِّ وسائل! ربما كان من الضروري للرُّوح البشرية والمادة المفرطة في عنادها، ربما بالإضافة إلى «السياط» الأخرى، أن تُنزِّل المثاليةُ أيضاً للبشرِ الفانين. بيدَ أنَّ هذه كلَّها ألغازٌ تفاؤليةٌ فقط، وهي حتى ليست ألغازاً من ناحيةِ العقل المعاصِر، الإنساني والعلمي البحت، وإنما ميثولوجيا خالصة لا تستحقُّ أيَّ ثقة. مَن ذا الذي يعترف بطريقةٍ جِدِّية أنَّ «السياط تجلد» لأهدافٍ سامية معيَّنة، وليس بسبب القوانين الميكانيكية؟ وفي حالِ كان الأمرُ كذلك، فلا يجب الاستغرابُ من أنه بين الناس الذين جرَّبوا على أنفسهم أساليبَها التربوية، هنالك مَن رفض أن يُقبِّل اليدَ التي تُعاقب ...

## 2

درجت العادةُ لدينا، وليس لدينا وحسب، بل في أوروبا أيضاً (إذ إنَّ مستوى الأفكارِ اليومَ واحدٌ في جميع البلدان، كما يكون مستوى الماء في الأواني المستطرقة) ومنذ مدةٍ طويلة؛ أن يُنظَر إلى الإبداعِ الأدبي والفني على أنه عمليةٌ رُوحية لا واعية. ويبدو أنَّ ما يُعرَف بالنقدِ الأدبي كان قد بُعِث إلى الحياةِ بواسطة هذه الآراء. بمعنى أنَّ الفنانين إنما ينجزون عملَهم بطريقةٍ لا واعية بما فيه الكفاية، ولذلك لا بدَّ من أن يقومَ أحدٌ ما بالتحقُّق من أعمالهم وشرحها، وفي حقيقةِ الأمر أن يضيف إليها.

هـذا مـا فهِمـه نقَّـاد الأدب تقريبـاً مـن دَورهـم، فراحـوا يبذلـون أقـصى مـا لديهـم مـن أجـلِ إقامـةِ صلـةٍ مـا بـين تفكيرهـم الواعـي والإبـداعِ اللاواعـي للأعـمال الأدبيـة التـي يُخضِعونهـا للمراجعـة. وقـد كانـت هـذه المهمـةُ في بعضِ الأحيـان أكثـرَ صعوبـةً بكثـيرٍ ممـا كان متوقَّعـاً. ذلـك لأنَّ العمـلَ الأدبي لم يقبَـل بـأن يُربَـط بـأي شـكلٍ مـع أي واحـدةٍ مـن تلـك الأفـكارِ المعـترَف بهـا، التـي لا يمكـن للموقـف «الواعـي» مـن الحيـاة أن يكـون مقبـولاً وممكنـاً عـلى الإطـلاق مـن دونهـا. وأمـا في تلـك الحـالات التـي وجـد النقَّـاد فيهـا أنفسـهم يتعاملـون مـع مبـدعٍ مـن الدرجـة الثانيـة أو حتـى غـير موهـوب، فإنهـم لم يكونـوا يصدِّعـون رؤوسـهم قـط؛ إذ كانـوا يربِطـون بـين غيـابِ الفكـرةِ وغيـابِ الموهبـةِ الكافيـة، بـل حتـى أكثـر مـن ذلـك؛ حيـث جعلـوا مـن غيـابِ الفكـرة سـبباً لغيـابِ الموهبـةِ الكافيـة، وبهـذه الطريقـة بـدا الأمـر كـما لـو أنـه أُكِّـد عـلى الحقيقـة «الخالـدة» التـي تقـول بأنَّـه يتعيَّـن عـلى الشـعراء أن يقصـدوا، دون أن يعـوا ذلـك، تلـك الأهـدافَ نفسَـها الموجـودة عنـد النقَّـاد، في حـالِ أنهـم كانـوا يتمنَّـون بالفعـل ألا يبقـى مُنجَزهـم الإبداعـي مـن دون جـدوى. وهـذا مـا قـاد إلى اسـتنتاجٍ أن الإبـداعَ الشـعري اللاواعـي يجـب أن يقـومَ عـلى خدمـةِ الغايـة نفسِـها، التـي يعمـل عـلى خدمتِهـا الإبـداعُ الواعـي للنقَّـاد؛ وعندئـذٍ سـوف تنقـضي اللحظـةُ الخطـيرة بسـلام.

بيـدَ أنَّ الأمـرَ حـدَث بطريقـةٍ أخـرى؛ إذ وقعـت في أيـدي النقَّـاد أعـمالُ فنَّـان أو مبـدع كبـير، أحـدِ النجـوم الكبـار في هـذا الميـدان. وعندئـذٍ يكـون الناقـد معجبـاً وميـالاً إليـه مسـبقاً، مـا يجعلـه يبـدي تجاهَـه مطالـبَ متسـاهلةً جـدَّاً، فيغفـر لـه غيـابَ المَثـل الأعـلى أو القُـدوة السياسـية - عـلى الرغـم مـن أنَّ الناقـد كان يتمنَّـى كثـيراً أن يعثـرَ لـدى هـذا المبـدعِ بالتحديـد عـلى

دعـمِ لحزبـه السياسي. كـما أنـه يغفـر لـه عـلى مضـضٍ، لا مبالاتـه بالمهمَّـات الاجتماعيـةِ التـي يـرى الناقـد أنهـا تسـتحقُّ العنايـة، وأنَّ كافـة طاقـاتِ البـلاد يجـب أن تكـونَ في خدمتِهـا. لكنـه عـلى ثقـةٍ مـن أنـه سـوف يعثـر في العمـل الجديـد عـلى مشـاعرِ التعاطـف المعلَنـةِ بطريقـة عفويـة (لا شـعورية) تجـاه المُثُـل الأخلاقيـة الأصيلـة والأزليـة. ليكـن هـذا عـلى الأقـلِّ، في الحـدِّ الأدنـى. ليقـمِ الشـاعرُ بتمجيـدِ الخـير والحـق والجـمال؛ ففـي حـالِ كان ذلـك موجـوداً لديـه، فـإن النقـدَ الأدبي سـوف يهتـمُّ بـكلِّ مـا تبقَّـى. ولكـن، مـاذا لـو أنَّ هـذا أيضـاً لم يكـن موجـوداً لديـه؟ مـاذا لـو أنَّ الفنـان أغفـل الجـمال وسـخِر مـن الحـق وأهمـل الخـير؟ رُبَّ قائـلٍ يقـول إنَّ هـذا غيـرُ وارد. بيـدَ أني أقـترح الانتقـالَ مـن حقـلِ التنظـير والحديـث المجـرَّد إلى مثـال محـدَّد. مثـال واحـد، بالطبـع. لأن المقدمـة تشـكِّل إطـاراً ضيقـاً جـدّاً بحيـث إنهـا لا تتَّسـع لطـرحِ مـادةٍ أدبيـةٍ كبـيرةٍ. لكنـي آمُـل أن ينبِّـه هـذا المثـالُ أولئـك الذيـن باتـوا يخافـون مـن التذكُّـر، وآخريـن كُثـراً مـن هـذا القبيـل.

إني أتحـدَّث عـن روايـةِ ليرمنتـوف «بطـلٌ مـن هـذا الزمـان». مـن المعـروف أنَّ بيلينسـكي كتـبَ مقالـةً كبـيرةً مفعمـةً بالحماسـة والحـرارة عـن هـذه الروايـة، يبرهِـن فيهـا أنَّ بيتشـورين انطلـق في ممارسـةِ أعمالِـه الشريـرةِ لأنـه لم يجِـد في روسـيا مطلـعَ القـرن الثامـن عـشر اسـتخداماً مناسـباً وحقيقيّـاً لطاقاتِـه الهائلـة. لم أعُـد أذكـر الآن إن كانـت تلـك المقالـةُ كُتِبـت بمناسـبةِ الطبعـةِ الأولى أم الثانيـة لروايـةِ «بطـلٌ مـن هـذا الزمـان»، إلَّا أنَّ ليرمنتـوف وجـد نفسَـه مُلزمـاً، لهـذا السـبب أو ذاك، بـأن يقـدِّم تفسـيرَه لروايتـه، وهـذا مـا قـام بـه في مقدمـةِ الطبعـةِ الثانيـة. وقـد جـاءت المقدمـةُ قصـيرةً لا تزيـد عـلى صفحتـين، لكنَّهـا تؤكِّـد عـلى أمـرٍ واحـد

تأكيداً تامّاً؛ أنَّ ليرمنتوف، في حالِ أراد، كان يمتلك المهارةَ الكافيةَ لأنْ يتعاملَ مع أعماله الإبداعية بطريقةٍ «واعية» جداً، وأن يمرِّر «الأفكار» بطريقةٍ ناجحة لا تقلُّ عن طريقة أيِّ ناقد. وهو يعلن في مقدمتِه بوضوحٍ أنه بالرغم من التفسيرات الشائعة، فإنَّ المؤلف لم يصوِّر من خلالِ شخصيةِ بيتشورين، ولم يشأ أن يصوِّر نفسه ولا حتى أيَّ بطل محدَّد، وإنما كان يريد أن يكشفَ عن «عيوب» زماننا وحسب. ربما سأل أحدُكم: لماذا؟ ولهذا السؤال جواب. إنَّ المجتمع بحاجةٍ إلى أن يفهم نفسَه في الدرجةِ الأولى، وأن يأخذَ بعين الاعتبارِ عيوبَه ونواقصَه. «يكفي أنه - ينهي ليرمنتوف توضيحَه - كُشِف عن الداء، أما علاجُه فهذا شأنُ الرب». يكاد ليرمنتوف في مقدِّمته، كما هو واضح، يتَّفق مع بيلينسكي؛ إذ إنَّ بيتشورين داءٌ، بل هو داءٌ عُضال بالنسبة إلى المجتمع. إلا أنَّ تفسيره يخلو من أي حماسةٍ أو حرارة، فضلاً عن أن ثمَّة أمراً واحداً غريباً ومثيراً؛ أنه يهتمُّ بالداء في المجتمع، ولكنه لا يكترث ولا يبالي بأمرِ علاجه ...

فما السببُ الذي يجعل الشخصَ الذي يتقِن تشخيصَ المرضِ وتوصيفه، فاقداً لأي رغبةٍ في علاجه؟ ولماذا، على العموم، جاءت مقدِّمته هادئةً على الرغم من أنها مكتوبةٌ بأسلوب قوي بليغ؟

سوف تعثُرون على الجواب عن هذا السؤال في الروايةِ نفسها، سوف تكونون على قناعةٍ ومنذ الصفحات الأولى، بأنه في حالِ كان بيتشورين مَرضاً للمجتمع، فإنه ليس سوى واحد من تلك الأمراض التي يجدها المؤلِّف عزيزةً عليه أكثرَ من أي سلامة أو صحَّة. قد يكون بيتشورين مريضاً، ولكن مَن ذا الذي هو سليم ومعافى؟ هل هو الضابط مكسيم مكسيميتش، أو غروشنيتسكي مع رفاقه، أو أخيراً الأميرة الحسناء ميري أو

بيـلا المتوحِّشـة، إذا مـا أخذنـا النسـاءَ بالحسـبان؟ يكفـي أن تطرحـوا مثـلَ هـذا السـؤال فقـط، وسـوف تفهمـون الغايـةَ التـي كُتِبَـت مـن أجلِهـا روايـة «بطـلٌ مـن هـذا الزمـان»، وأيضـاً لـماذا أُضيفـت المقدِّمة فيـها بعد. لقـد صوَّر بيتشـورين في الروايـةِ عـلى أنـه منتـصر؛ إذ إنَّ جميـع الشـخصيات الأخـرى تُسـحَق سـحقاً تامّـاً أمامـه. حتـى إنـه لا يوجـد في الروايـة، كـما هـي الحـال عنـد بوشـكين في مسرحيـة «أونيغـين»، مثيـل تاتيانـا لكـي تذكِّـر بطـلَ الروايـة، ولـو مـرة واحـدة عـلى الأقـل، بـأنَّ ثَمَّـة مـا هـو أكثـرُ قداسـةً مـن إرادة بيتشـورين خاصـةً، وأنَّ ثَمَّـة واجبـاً وفكـرةً أو شـيئاً مـا مـن هـذا القبيـل. يصـادف بيتشـورين في طريقـه القـوةَ والمكـرَ، لكنـه ينتـصرُ بذكائـه وبثبـاتِ عزيمتـه وطبْعِـهِ الأصيـل عـلى هـذه وذاك. جرِّبـوا أن تدينـوا بيتشـورين؛ إنـه خـالٍ مـن أيِّ عيـوب، باسـتثناء عيـبٍ واحـد؛ القسـوة. فهـو شـجاعٌ ونبيـلٌ، ذكـي وعميـق، مثقَّـف وجميـل، وحتـى إنـه ثـريٌّ (وهـذه أيضـاً ميـزةٌ كريمـة!)، وأمـا مـا يتعلَّـق بالقسـوة، فهـو يعـرف أنَّ لديـه مثـلَ هـذا العيـب، وهـو يتحـدَّث عنـه كثـيراً، ولكـن للأسـف! عندمـا يكشـف شـخصٌ ذو موهبـةٍ عاليـةٍ جـدّاً كهـذا عـن عيـبٍ مـا، فـإنَّ هـذا العيـبَ يليـق بـه، بـل وأكثـر مـن ذلـك؛ يبـدأ هـو نفسُـه بالاعتقـادِ أن تلـك ميـزةٌ، بـل ميـزةٌ رائعـة أيضـاً. وبيتشـورين نفسُـه يعلِّـق عـلى قسـوتِه فيقـارن نفسَـه بالقـدَر! ومـا قيمـةُ أن تصبـحَ كومـة مـن الوضيعـين ضحيـةَ الإنسـان؟ «المهـم هـو أن يُشـخَّص الـداء، وأمـا علاجـه فهـذا شـأنُ الـرب». إنَّ هـذه الكذبـة الصغـيرة التـي تلخِّـص تلـك المقدِّمـةَ القصـيرةَ لروايـةٍ طويلـة، لافتـة جـدّاً ومميـزة. ويمكنكـم أن تعثـروا عـلى مثيلِهـا لا عنـد ليرمنتـوف فقـط، بـل عنـد كلِّ شـاعر عظيـم تقريبـاً، ومـن ضِمنهـم بوشـكين؛ إذ تُقـدَّم للقـارئ مـن حـينٍ لآخـر، عـلى عَجـلٍ، كـما لـو كانـت صدفـة وبشـكلٍ عابـر، حيـن يصبـح توصيـفُ

«الـداء» مغريـاً جـدّاً بحيـث يُطـرح، أحيانـاً، في شـكلِ إشـادةٍ لا يمكـن أن تُسـتثنى منهـا حتـى العقـولُ الأكثـرُ امتيـازاً. وعنـد بوشـكين أيضـاً: تذكَّـروا الأدعيـاءَ عنـده، وحكايـة بوغاتشـوف[1] عـن النَّـسر والغـراب وجـواب غرينِـف. هنـاك، حيـث يـرى النقـاد داءً، فـإنَّ الإبـداع «غـير الواعـي أو اللاشـعوري» هـو أيضـاً يـرى نوعـًا مـن الانحـراف، شـيئاً مـا لـه جوانـبُ رهيبـةٌ وملغِـزة. بيـدَ أنَّ النقـد لا يـرى أيَّ شيء آخـرَ سـوى المـرضِ، ويسـارع quand meme[2] (مهـما كلَّـف الأمـر) إلى البحـثِ عـن طريقـةٍ للعـلاج. في حـين أنَّ المبـدعَ لا يفكِّـر في ذلـك، ولكنـه مـن بـابِ اللباقـة يخفِّـف مـن حكمِـه وإدانتِـه باسـتخدام عبـارةٍ شـائعةٍ ومتعـارَفٍ عليهـا ... يَنتـج مـن جـرَّاء كلِّ ذلـك أنـه في حـالِ اسـتخدام التعبـير «إبـداع لا واعٍ»، فمـن الـضروري ألا يُسـتخدم بحـقِّ الفنانـين والمبدعـين، وإنمـا بحـقِّ النقَّـاد تحديـداً، الذيـن يسـعون دائـماً إلى ربـطِ أفـكارٍ جاهـزة معيَّنـة، مريحـة لأنهـا معتمَـدة عـن طريـق الإيـمان بهـا، مـع تلـك الأحـداثِ الحياتيـةِ التـي تُصـوَّر في الأعـمالِ الشـعرية. أمَّـا أنَّـه لم يكـن ثمَّـة «أفـكار» لـدى الفنانـين، فهـذه حقيقـةٌ. بيـدَ أنَّ عمقَهـم إنـما تجـلَّى في ذلـك؛ إذ إنَّ مهمَّـة الفـن لا تكمُـن أبـداً في الخضـوعِ للترتيـب والمقايسـة، اللذيـن يبتكرهمـا النـاس المختلِفـون عـلى هـذا الأسـاس أو ذاك، وإنـما في تحطيـمِ تلـك السلاسـلِ التـي تثقِـل وتقيِّـد العقـلَ البـشريَّ الطامـحَ للحريـة. «إنَّ أمثـال بيتشـورين داءٌ، وأمـا كيفيـةُ الشـفاء منـه فهـذا شـأنُ الـربِّ وحـدَه». غـيِّروا الصياغـةَ فقـط، وسـوف تجـدون خلـفَ هـذه الكلـماتِ الفكـرةَ الأكثـرَ صدقـاً وحميميـةً عنـد ليرمنتـوف: مهـما كانـت الحيـاة صعبـةً مـع أمثـال

---

(1) من رواية ألكساندر بوشكين «ابنة الضابط». (المترجم)

(2) مهما كلّف الأمر (فرنسي).

بيتشورين، فإنه لن يقدِّمَهم قرابين لِمَن هم في حكمِ الوسَطي والمعياري. في حينِ أنَّ الناقدَ يريد علاجَهم بكلِّ تأكيد. إنه يؤمنُ أو مضطرٌّ إلى أن يؤمنَ بالأفكار العصرية؛ بالسعادةِ القادمة للبشرية، وبالسلام على الأرض، بمذهبِ وحدانية الكون، وبضرورةِ القضاءِ على جميعِ النسور التي تتغذَّى على اللحمِ النِّيء، حسب تعبيرِ بوغاتشوف، وذلك في سبيلِ حماية وإنقاذ الغربان التي تعيشُ على الجِيفة. فالنُّسور وحياتها عبارةٌ عن «شذوذ» ...

شذوذ! هذه هي الكلمة الرهيبة التي يُرعِب بواسطتها رجالُ العلم وما زالوا يرعبون كلَّ شخصٍ لم يَفقد بعدُ الأملَ اليائس والمنتهي بأن يعثرَ في هذا العالَم على شيءٍ ما، باستثناء الإحصاء و«الضرورة الفولاذية»! كلُّ مَن يحاول أن ينظرَ إلى الحياةِ بطريقة مغايرة عن تلك التي تطالب بها المعتقَداتُ العصرية، يمكنه أن يتوقَّع، ويجب أن يتوقَّع، أنهم سوف يَعُدُّونه في عِداد الناس غيرِ الطبيعيين. وإن يَعُدُّوه كذلك، فهذا أمرٌ لا بأس فيه بعدُ؛ إذ سيكون ذلك وساماً! ذلك لأنَّ الفظاعة تكمُن في أنَّه ما مِن أحدٍ من الأحياء على الإطلاق، على ما يبدو، لن يكون قادراً بقواه الذاتية على تقبُّل الفكرة باحتمالِ وجودِ فهْمٍ آخرَ ومختلِف للكون. وفي كلِّ مرَّة يخطُر في باله أن الحقائق العصرية هي في واقع الأمر مجرَّدُ حقائقِ لحظةٍ زمنيةٍ خاصةٍ بها وحسب، وأنَّ «قناعاتنا» يمكنها أن تكونَ مزيفةً، كما هي حال المعتقَدات التي كان يؤمن بها أجدادُنا البعيدون؛ بحيث يبدأ بالاعتقاد كما لو أنه خرج عن جادَّة الصواب الوحيدة، وأنه يسيرُ نحو الشذوذ بكلِّ تأكيدٍ ومباشرة. والمثال الدامغ للغاية على ذلك هو الكونت تولستوي. كم كان مقيتاً، وكم كان كريهاً بالنسبة إليه مجملُ البناءِ الفكريِّ المعاصر! فقد راح منذ سنوات شبابه يقول «لا» لكلِّ ما كان

العِلم حينذاك يقول له «نعم»، دون أن يخشى أيَّ عواقبَ، ودون أن يتوقَّفَ حتى أمام خطورة النطق بها هو سخيف. كان على استعدادٍ لأن يصدِّق كلامَ فلاحٍ غيرِ متعلِّم، وامرأةٍ ريفيةٍ غبية، وأن يصدِّق كلامَ طفلٍ أو أحدِ صغارِ الكَسَبة في ملابسَ منزليةِ الصُّنع وتاجرٍ بدين، بشرطِ أن يقولوا ما هو مختلِف عن السائد وعن الشائع الذي يقوله العِلم! وبالمناسبة، لقد انتهى الأمر بأنه سلَّم وقبِل في الأمورِ الرئيسة بكلِّ ما كان العِلم يلقِّنه، بحيث إنه بقي ملتزماً بالمُثل «الإيجابية»، شأنُه شأنُ غالبية الإصلاحيِّين في أوروبا. إنَّ مسيحيَّته هي المَثل الأعلى للبشرية التي تعيش حياةً حسنةَ التدبير. وهو يطالب الفنونَ بأن تبشِّر بالمشاعر الطيبة والحميدة، ويطالب العلمَ بأن يقدِّم النُّصحَ للفلاح. لم يكن يفهم لماذا يشعر الشعراءُ بالحزن وبالحنين، ولماذا هم يسعَون للتعبير عن أدقِّ التفاصيل في أمزِجَتهم وحالاتهم النفسية، فكان هؤلاء الباحثون القلِقون والمضطرِبون يَبدون له غريبي الأطوار، وقد راحوا يَهيمون في القطبِ الشمالي أو يُمضون اللياليَ المؤرِّقة وهم يراقبون السماءَ المليئةَ بالنجوم. لماذا كلُّ هذا السعي المحموم نحوَ ما هو غامض وغير مكشوف وغير معروف؟ كلُّ هذا بلا جدوى ولا معنًى له، ومن ثَمَّ فهو أمرٌ غيرُ طبيعي وشاذٌّ.

لطالما مارس شبحُ «الشذوذ» الرهيبُ الضغطَ، وما زال يمارس الضغطَ على العقل الجبَّار مرغِماً إيَّاه على التصالح مع محدوديةِ المَدارك، وعلى البحثِ عن المَدارك المحدودة في نفسه هو خاصةً. وإنَّ مخاوفَه لَمفهومةٌ؛ فعلى الرغم من أنَّ العصرَ الحديث طرحَ من جديدٍ فكرةَ القَرابة بين العبقرية والجنون، فإننا جميعاً ما نزال نخشى الجنونَ أكثرَ مما نَهاب الموتَ. وبغضِّ النظر عن الصلةِ القائمة هنا، تبقى العبقريةُ

عبقريـةً، ويبقـى الجنـونُ جنونـاً. يمكننـا أن نشـكَّ في أيِّ أمـرٍ كان، لكـنَّ هـذا يبقـى بديهيّـاً مسلَّماً بـه بالنسـبة إلينـا، وسـوف ننهـي كلَّ التجـاربِ عـلى أنفسـنا هنـاك؛ حيـث يصبـح الجنـونُ تهديـداً بالنسـبة إلينـا. أمـا أبحـاثُ لامـبروزو فلم تُلـقِ الضـوءَ عـلى الإطـلاق عـلى ذلـك الظـلامِ الـذي خلقَـه عمّانـا والإيجابيـةُ العصريـةـُ حـول الجنـون. لكـنَّ الحقيقـة هــي أنَّ لامـبروزو لم يكن الشـخصَ المناسـبَ لهـذه القضيـة؛ فهـو أيضـاً رجـلٌ تجريبـيٌّ في نهايـة المطـاف ويحكـم عـلى الحـالات الروحيـة بنـاءً عـلى العلامـات الخارجيـة. ربـما كانـت أبحاثـه سـتصبح أكثـرَ إثـماراً وأعظـم فائـدةً، لـو أنَّـه كانـت لديـه هـو خاصـةً شرارةٌ واحـدة مـن العبقريـة أو قليـل مـن الجنـون. إلَّا أنـه لم يكـن لديـه هـذا ولا ذاك. فهـو مجـرَّدُ أحـدِ أنصـارِ الفلسـفة الوضعيـة الموهوبـين فقـط لا غـير. والنظريـة لا ترغِـم شـخصاً عـلى تجاوُز الحـدِّ الفاصـل الـذي ينتظـره خلفَـه الجنـون - وهـا هـو ذا الكونـت تولسـتوي قـد عـاد إلى المُثـل الإيجابيـة. ثمَّـة منطقـةٌ مـن الـرُّوح البشريـة لم تعـرف بعـدُ المتطوعـين؛ إذ يذهـب النـاس إلى هنـاك رُغـماً عنهـم وضـد إرادتهـم وحسـب.

إنهـا منطقـةُ المأسـاة. فالإنسـانُ الـذي سـبق أن زار ذلـك المـكانَ، سـوف يبـدأ بالتفكـير بطريقـة مختلفـة، وسـوف يشـعر شـعوراً مغايـراً، ويتمنَّـى بطريقـةٍ أخـرى. كلُّ مـا هـو عزيـز وقريـب وغـالٍ عـلى قلـوب الآخريـن، سـوف يصبـح غـيرَ ضروري بالنسـبة إليـه وغريبـاً عنـه، لكنـه سـيبقى في حقيقـةِ الأمـر مرتبطـاً مـع حياتِـه السـابقة إلى درجـةٍ معيَّنـة. مـا زالـت لديـه بقايـا مـن إيـمانٍ سـابقٍ كانـوا قـد لقَّنـوه إيَّـاه منـذ الطفولـة، كـما بقيـت حيَّـةً فيـه مخـاوفُ وآمـالٌ قديمـة. ومـن المحتمـلِ أنـه انتعـش عنـده أكثـرَ مـن مـرةٍ الإدراكُ المـؤلمُ لحالـةِ الرُّعـب القائـم مـن جـرَّاء وضعِـه، والسـعي إلى العـودةِ

إلى ماضيه الهادئ. بَيدَ أنه لا يمكن «استعادةُ الماضي»؛ فالسُّفن جميعها محروقة، وجميعُ الطرقِ إلى الوراء مسدودة؛ لذا يجبُ السيرُ إلى الأمامِ نحو المستقبلِ المجهول والمرعب دائماً. وها هو ذا الإنسانُ يمضي نحو الأمام، دون أن يتساءل تقريباً عمَّا ينتظره. تبدأ أحلامُ الشباب التي أصبحت بعيدةَ المنال، تبدو كاذبةً ومخاتلةً وغيرَ طبيعية بالنسبة إليه. يبدأ بتحريرِ نفْسِه بطريقةٍ مُفعَمةٍ بالحقد والقسوة من كلِّ ما كان يؤمنُ به وما كان يحبُّه ويَروقُ له ذاتَ يوم. يبدأ بالبحثِ عن طريقةٍ للحديثِ مع الناسِ عن آمالِه الجديدة، ولكنَّ الناس ينظرون إليه بخوفٍ وارتباك. يريد الناسُ أن يرَوا علاماتِ الجنونِ على وجهِه المُتعَب والمثقَل بالأفكار المقلِقة، وفي عينيه المحمرتين والمشتعلتين بنورٍ غيرِ معروف، وذلك لكي يكتسبوا الحقَّ في الابتعاد عنه وإنكاره. وهم يستدعون لمساعدتهم في ذلك مذهبَ المثاليةِ الخاصَّ بهم بأكمله، وجميعَ نظرياتِ الوعي المجرَّبة، التي لطالما قدَّمت لهم إمكانيةَ العيشِ بهدوءٍ وراحةِ بالٍ وسط ذلك الغموضِ المبهمِ لتلك الأهوالِ التي تحدُث أمام أعينهم؛ إذ إنَّ المثاليةَ سبق أن ساعدت في نسيانِ الكثير، فهل اختفَت قدرتُها وسِحرُها وباتت مضطرَّةً إلى أن تنسحبَ وتتراجعَ أمام هجوم العدو الجديد؟ ولذلك فهم يردِّدون مع نوعٍ من التوتُّرِ المصحوبِ بالقلقِ المموَّهِ بشكلٍ سيئ، السؤالَ القديمَ نفسَه: ومَن هؤلاء جميعهم، في نهاية المطاف، من أمثال دوستويفسكي ونيتشه، الذين يتكلَّمون كما لو أنهم أسيادٌ وأصحابُ سلطة وقرار؟ وماذا يعلِّموننا، يا تُرى؟

بَيدَ أنهم لا «يعلِّموننا» أيَّ شيء. لا يوجد ضلالٌ أكبرُ من الرأي السائدِ في أوساط الجمهور الروسي، القائلِ بأن الكاتبَ إنما هو موجودٌ

لأجـل القـارئ. في حـين أنَّ الواقـع هـو العكـس؛ القـارئ موجـودٌ لأجـل الكاتــب. إنَّ كلّاً مــن دوستويفســكي ونيتشــه لا يتحـدَّث أو يكتــب لكــي ينشر آراءَه وقناعاته بـين القـراء، أو مـن أجـلِ تنويـرِ الأقربـين والمحيطـين بـه، بـل إنَّ كلّاً منهـما إنـما يبحـثُ عـن النـورِ لنفسـه، وهمـا غيــرُ واثقَـين بأنفُسـهما بخصـوص أنَّ مـا يبـدو لهـما نـوراً هـو نـورٌ بالضبـط، وليـس شـعلةً مخادِعـةً وتائهــة، أو أســوأ مــن ذلــك؛ أنــه مــن هلوســات خيالهــما المضطـرب. وهمـا يدعـوان القـارئ إليهـما بوصفـه شـاهداً؛ لأنهـما يريـدان أن يحصـلا منـه عـلى حـقِّ التفكـير عـلى طريقتهـما، وأن يكـون لديهـما الأمـلُ والحـقُّ في العيـش. إنَّ المثاليـة ونظريـة الوعـي تعلنـان لهـما بصـورةٍ واضحـة وصريحـة: أنتـما شـخصان مجنونــان، عديــما الأخــلاق، مُدانــان وهالــكان. وهمــا يســتأنفان القــرارَ إلى المرجعيـة الممكنـة، عـلى أمـلِ أن يُلغـى هـذا الحكـمُ الفظيـع ... ربـما كانـت غالبيــةُ القــراء لا تريـد أن تعـرف ذلـك، لكـن أعـمال دوستويفسـكي ونيتشـه تنطـوي في ذاتهـا عـلى السـؤال وليـس عـلى الجـواب. السـؤال: هـل ثمَّـة أمـل لـدى النـاسِ الذيـن أنكرهـم العلـمُ والأخـلاق؟ أيْ هـل فلسـفةُ المأسـاة واردةٌ وممكنــة؟

**ليف شستوف**

*... Aimes-tu les damnés?*
*Dis moi connais-tu l'irrémissible?*[1]

***Ch. Baudelaire.***

# 1

كتب دوستويفسكي في «يوميات كاتب» الخاصة به عام 1873: «كان سيصير من الصعب جداً بالنسبة إلي أن أرويَ قصةَ الانقلابِ أو الارتداد الذي طرأ على قناعاتي، لا سيما أنَّ ذلك ربما لا ينطوي على ما هو طريفٌ بدرجةٍ كبيرة»[2].

إنه من الصعب على الأرجح. أمَّا أنَّ ذلك غيرُ طريف بما يكفي، فمن المشكوك فيه أن يوافقه في ذلك أحدٌ. وهل يمكن، يا تُرى، أن تكون ثمَّة قصةٌ أخرى في مجال الأدب عموماً، أكثرُ إثارةً للاهتمام والفضول من قصةِ التحوُّل في القناعات؟ ذلك أنَّ قصةَ إعادةِ النظر في القناعات تمثِّل في جوهرها قصةَ نشوءِ تلك القناعات في الأصل. فالقناعاتُ تتوالد لدى الإنسانِ من جديد ومرةً أخرى أمام عينيه، وفي تلك السِّن، عندما يصبح لديه ما يكفي من الخبرة ودقة الملاحظة، بحيث يكون قادراً على متابعةِ هذا اللغزِ العظيمِ والعميق من أسرار الرُّوح عنده. ما كان دوستويفسكي ليكون خبيراً سيكولوجيّاً، لو أنَّ تلك العملية مضت دون أن تَلفِت نظرَه. وما كان ليكون كاتباً أيضاً، لو أنه لم يسمح لنفسه بأن يُشاطِر ملاحظاتِه

(1) «هل يروقُ لك الملعونون؟ هل تحبُّ ما هو ممنوع؟» – بودلير (فرنسي).

(2) الأعمال الكاملة لدوستويفسكي، المجلد التاسع، صفحة 342.

مـع القـرَّاء. مـن الواضـح أنَّ النصـف الثـاني مـن تلـك العبـارةِ أعـلاه قـد كتبَـه بطريقـةِ اللامبـالاة، مـن بـابِ اللباقـةِ التـي تَفـرض عـلى الكاتـب أن يعـبِّر عـن ازدرائـه الشـكليِّ لشـخصِه. أمـا الحقيقـةُ فهـي أنَّ دوستويفسـكي كان يعـرفُ بصـورة رائعـة تلـك الأهميـةَ الحاسـمةَ التـي يمكـن أن تتمتَّـع بهـا بالنسـبة إلينـا مسـألةُ نشـوء القناعـات؛ كـما أنَّـه كان يعـرف أنَّـه يمكـن توضيـحُ تلـك المسـألةِ ولـو بالحـدِّ الأدنـى، مـن خـلالِ طريـقٍ واحـد فقـط؛ هـو أن يـرويَ حكايتَـه الخاصـةَ في هـذا الأمـر. هـل تتذكَّـرون كلـماتِ البطـلِ في روايـة «مذكِّـرات مـن العالَـم السـفلي»؟ «عـمَّ يمكـن لشـخصٍ في غايـة اللطـف والتـأدُّب أن يتحـدَّث بأكـبرِ قـدْرٍ ممكـن مـن المتعـة؟ الجـواب: عـن نفسِـه. وهكـذا أنـا سـوف أتحـدَّث عـن نفسـي، إذن». إنَّ مؤلَّفـات دوستويفسـكي تقـوم بتحقيـقِ هـذا البرنامـجِ إلى درجـةٍ كبـيرة. وقـد راح مـع مـرور الوقـت، بعـد أن ازدادت موهبتُـه عمقـاً ونضجـاً، يتحـدَّث عـن نفسِـه بجُـرأةٍ وصراحـةٍ أكـبرَ. ولكنـه، مـع ذلـك، ظـلَّ حتـى آخـرِ أيـام حياتـه يتخفَّـى إلى هـذه الدرجـة أو تلـك وراء أسـماءٍ وهميـةٍ ومتحَلـةٍ لأبطـالِ رواياتـه. إلا أنَّ الأمـر هنـا، والحق يقـال، لم يَعُـد يـدور حـول اللباقـةِ الأدبيـة أو الحياتيـة.

وفي ختـام نشـاطِه الأدبي بـات دوستويفسـكي لا يخشـى مـن خـرْقِ مـا هـو أكثـرُ جِدِّيـة مـن القواعـد التـي تنظِّـم العلاقـاتِ بـين البـشر. لكنـه كان مضطرّاً عـلى الـدوام إلى أن يتحـدَّث مـن خـلال أبطـال رواياتِـه عـن تلـك الأشـياء التـي مـا كانـت لتتبلـور، حتـى في لا وعيـه، في صيغـةٍ صارخـةٍ ومحـدَّدة، لـولا أنهـا كانـت تتجـلَّى لـه في صيغـةٍ مخادعـةٍ مـن الأحـكام والرغبـات عنـد بطـلٍ غـير موجـود في الروايـة، وليـس «الأنـا» الخاصـة بـه هـو تحديـداً. وهـذا مـا سـوف يشـعرُ بـه القـارئ عـلى نحـوٍ خـاص وبوضـوح شـديد

في ملاحظاتٍ على هامش رواية «مذكِّرات من العالَم السفلي». يُصرُّ دوستويفسكي هناك على أنَّ مؤلِّف «مذكِّرات من العالَم السفلي» مختَلَق، كما هي الحال مع المذكِّرات نفسِها، وأن مهمَّته كانت محصورةً في تصويرِ «أحد ممثِّلي الجيل المتبقي الذي يقضي آخرَ أيامه». تُحقِّق مثلُ هذه الأساليب، بالطبع، أهدافاً مناقِضة تماماً؛ إذ إنَّ القارئ سوف يقتنعُ، ومنذ الصفحات الأولى، باختلاقِ التنويهِ التفسيري المُرفَقِ بالمذكِّرات، وليس المذكِّرات في حدِّ ذاتِها ومؤلِّفها. ولو أنَّ دوستويفسكي واصلَ في مؤلَّفاته اللاحقة الأسلوب نفسَه من الملاحظات، لَما أعطى إبداعُه كلَّ هذا الكمِّ من المبرِّرات من أجلِ تقديم تفسيراتٍ وقراءات متنوِّعة جدّاً. لكن الملاحظة لم تكن بالنسبة إليه مجرَّد شكلٍ فارغ وحسب، بل كان هو نفسُه يشعر بالذعرِ من التفكير في أنَّ «العالَم السفلي» الذي صوَّره على ذلك النحو الواضح، لم يكن بالشيء الغريبِ عنه تماماً، بل كان شيئاً عزيزاً عليه وقريباً منه. كان يخاف هو نفسه من الفظائعِ التي تكشَّفت له، وكان يستنفر طاقاتِه الروحيةَ بالكامل لكي يختبئَ منها بواسطةِ أيِّ شيء كان، حتى ولو كان بواسطةِ أول المُثُل العليا التي يصادفُها في طريقه. بهذه الطريقة خُلِقت شخصيةُ كلٍّ من الأمير ميشكين وأليوشا كارامازوف. ومن هنا تلك المواعظُ المحتدِمة غيظاً والحانِقة التي كان ممتلئاً بها دفترُ يومياته. كلُّ هذا يريد أن يذكِّرنا وحسب بأنَّ أمثالَ راسكولنيكوف وإيفان كارامازوف وكيريلوف وآخرين من الشخصياتِ الرئيسيةِ في روايات دوستويفسكي يتحدَّثون بأنفسهم عن أنفسهم، ولا يمُتُّون إلى مؤلِّفهم بأيِّ صلة. وهذا كلُّه مجرَّد شكلٍ جديد وحسب من الملاحظات لرواية «مذكِّرات من العالَم السفلي».

للأسـف، إنَّ الملاحظـةَ هـذه المـرَّة مضفـورةٌ مـع النـص إلى درجـةٍ كبـيرةٍ جـدّاً، بحيـث إنــه لم تَعُــد ثَمـة إمكانيــةٌ للقيــام بعمليــةِ فصــلٍ ميكانيكــي لآلام دوستويفسـكي الحقيقيــةِ عــن تلــك «الأفــكار» التــي اختلقهــا هــو. إلا أنَّـه يمكـن، في حقيقـةِ الأمـر، الإشـارةُ إلى حـدٍّ مـا إلى الاتجاه الـذي ينبغـي إجـراءُ عمليــةِ الفصــل فيــه. هكــذا، إنَّ جميــع الترَّهــات والأماكــن المشــتركة لا تخبرنــا، عــلى ســبيل المثــال، شــيئاً عــن دوستويفســكي تحديــداً. كلُّ ذلــك مجرَّد اقتباسـاتٍ وحسـب. حتـى إنـه مـن السـهلِ تخمـينُ المصـادرِ التـي غـرفَ منهـا دوستويفسـكي، في واقـع الأمـر، بيـدٍ سـخيَّة. والعلامـة الثانيـة شـكلُ التوضيـح أو الـشرح. بمجـرَّد أن تُسـمَع نـبرةٌ هسـتيريةٌ في كلام دوستويفسـكي، نوتـةٌ مرتفعـة جـدّاً بشـكلٍ مقبـول، وصراخٌ غـير طبيعـي؛ يكـون بإمكانكـم الاسـتنتاجُ وبـكل ثقـةٍ أنَّ هـذه هـي بدايـةُ «الملاحظـة». أمـا دوستويفسـكي فهــو نفسُــه لم يَعُــد يصــدِّق كلامَــه، وســعى إلى اســتبدال «الإحســاس» والفصاحـة بالنقـصِ في الإيـمان. إنَّ مثـلَ هـذه الفصاحـةِ اليائسـةِ والمختنِقـة، ربـما هـي التـي تمـارِس تأثيرَهـا عـلى الأذُن الخشِـنة بطريقـةٍ لا تقـاوم، في حـين أنَّهـا سـوف تخـبِر الأذُنَ الأكثـرَ خـبرةً بـما هـو مختلِـف تمامـاً.

مـن البديهـيِّ أنَّ تلـك العلامـاتِ المشـارَ إليهـا لا تقـدِّم أسـلوباً صحيحـاً بصـورةٍ آليـة مـن أجـلِ حـلِّ المسـألةِ التـي تشـغَل بالَنـا هنـا. ويبقـى معهـا مجـالٌ كافٍ مـن أجـلِ الشـكوك وعـدم الوضـوح. فمـن الطبيعـيِّ أن تكـونَ ثمَّـة إمكانيــةٌ للخطــأ في تفســيرِ بعــضِ الأماكــنِ المعزولــةِ في مؤلَّفــات دوستويفسـكي، بـل ربـما في تفسـير روايـات بأكملِهـا أيضـاً. فـما هـو المأمـولُ هنـا في هـذه الحالـة؟ هـل يمكـن المراهنـةُ عـلى الحـسِّ النقـدي؟! لكـنَّ القـارئَ غيـــرُ راضٍ عـــن مثـــل هـــذا الجـــواب؛ إذ تَفـــوح منـــه رائحـــةُ الميثولوجيـــا،

والشيخوخة والعفونة والرياء، وحتى الكذب المتعمَّد. وماذا إذن؟ لا يبقى عندئذٍ سوى أمرٍ واحد: التعسُّف. لعلَّ هذه الكلمةَ سوف تجذِب إليها، بمصداقيتها الصريحةِ أولئك الأشخاصَ الذين يرتابون كثيراً في أحقيةِ الحَدْس النقدي - لا سيما إذا كانوا يخمِّنون أنَّ هذا التعسُّف apres tout،[1] لن يعود قسريّاً بالمعنى الدقيقِ للكلمة.

إنَّ مهمَّتنا محدَّدة بهذا الشكلِ أو ذاك. يتعيَّن علينا أن نقومَ بالعمل الذي وضعناه نُصبَ أعيننا والذي لم ينجِزه دوستويفسكي؛ أن نرويَ حكايةَ التحولات التي طرأت على قناعاته. أشيرُ هنا إلى أمرٍ واحدٍ فقط؛ ألا وهو أنَّ تلك التحوُّلات كانت بالفعل تحولاتٍ غيرَ اعتياديَّة. لم يبقَ أيُّ أثرٍ من تلك القناعاتِ السابقةِ عند دوستويفسكي، مما كان يؤمن به في شبابه، عندما شارك في حلقةِ بيلينسكي لأولِ مرة. درجَت العادةُ على أن ينظر الناس إلى معبوديهم الذين أُسقِطوا على أنهم آلهة، وإلى المعابدِ التي غادروها على أنها معابد. في حين أنَّ دوستويفسكي لم يكتفِ بأن أحرقَ كلَّ شيء، بل مرَّغ أيضاً بالوحلِ كلَّ ما كان يعبُده ويبجِّله ذات يوم. بات لا يَمقُت عقيدتَه السابقة فحسب، بل صار يزدريها أيضاً. وتاريخ الأدب لا يعرف سوى عددٍ قليلٍ من مثلِ هذه الأمثلة. ولا يمكِن للعصر الحديث أن يذكر أحداً آخَر في هذا المجال، بالإضافة إلى دوستويفسكي، سوى نيتشه؛ إذ حدثَت مع نيتشه حكايةٌ مماثلة تماماً؛ إذ إن القطيعة بينه وبين مُثُله العليا ومعلِّميه في مرحلةِ شبابه لم تكن أقلَّ حِدَّةً وعصفاً، بل كانت فوق ذلك مؤلمةً جداً في الوقت نفسه. وإذا كان دوستويفسكي يتحدَّث عن تبدُّل في قناعاته، فإنَّ الحديثَ عند نيتشه يدورُ حولَ إعادةِ

(1) في نهايةِ المطاف (فرنسي).

تقييم كامل لمجملِ القيم عنده. كِلا التعبيرين في جوهرهما مجرَّد اختلافٍ في المفردات بهدفِ الإشارة إلى العمليةِ نفسِها. وإذا ما أخذنا هذا الأمرَ بعينِ الاعتبار، فلن يكون غريباً، على الأرجح، أن يكون لدى نيتشه تقديرٌ كبيرٌ لدوستويفسكي. وها هي ذي كلماته التي قالها عنه: «إنَّ دوستويفسكي هو عالِم النفس الوحيدُ الذي كان بإمكاني أن أتعلَّم عنده شيئاً ما؛ وأنا أعُدُّ معرفتي به واحدةً من أنجح محطات حياتي»[1]. كان نيتشه يرى في دوستويفسكي إنساناً عزيزاً وقريباً جدّاً منه.

وهذا أمرٌ صحيحٌ ودقيق؛ لأنه في حالِ كان الناسُ يرتبطون بعضهم ببعض، ويصبح بعضهم قريباً من بعض على أساسِ التشابه في تجربتهم الداخلية، وليس على أساسِ مكانٍ ولادتهم أو أصلهم، ولا على أساسِ العيش معاً أو تشابه الطِّباع؛ يكون من الممكنِ اعتبارُ نيتشه ودوستويفسكي شقيقين بلا أدنى مُبالغة، بل اعتبارهما حتى شقيقين توأمين. وأنا أعتقدُ أنهما لو كانا يعيشان معاً، لَكرِهَ أحدُهما الآخر بذلك النوعِ نفسه من الكراهية الخاصة، التي كان يشعرُ بها كيريلوف تجاه شاتوف (في رواية «الشياطين») بعد أن قاما معاً برحلةٍ مشتركة في أرجاء أمريكا؛ حيث وجدا نفسيهما مضطرَّين إلى أن يبقيا مستلقيَين مدةَ أربعة أشهر في سقيفة واحدة وهما شبه جائعَين. لكنَّ نيتشه لم يعرف دوستويفسكي إلا من خلالِ رواياته وكتبه، وبعد أن كان قد تُوفي. والميت يمكن عُذره على كلِّ شيء، ويشمل ذلك أنه كان يعرف السرَّ الذي تكشَّف لكلٍّ من كيريلوف وشاتوف عندما كانا في ذلك الكوخ. فهو لن يفضح الأمر ...

---

(1) Nietsche's Werke المجلد الثامن، صفحة 158.

بيـدَ أنَّ نيتشـه كان عـلى خطـأ؛ لأنـه مـا مِـن أحـدٍ كان قـادراً عـلى فضحِـه بدرجـةٍ كبـيرة، أكثـرَ مـن دوستويفسـكي بالتحديـد. كـما أن العكـس صحيـحٌ أيضـاً: يمكــن لمؤلَّفــات نيتشــه أن تــشرح وتفــسِّر الكثــيرَ ممــا كان غامضــاً ومظلـماً عنـد دوستويفسـكي. وسـوف ننـوِّه لأولِ مـرَّة إلى أمـرٍ مثـيرٍ للذهـول. كان دوستويفســكي، كــما هــو معــروف، يحــب التنبــؤَ والتكهُّــن، وأكثــرُ مـا كان يتنبـأ بـه هـو أنَّ روسـيا سـتعيد إلى أوروبـا فكـرةَ الأخـوة الإنسـانية التي طواهـا النسـيانُ هنـاك. وقـد كان دوستويفسـكي نفسـه أحـدَ أوائـل الـروس، الذيــن أثَّــروا تأثــيراً كبــيراً في الأوروبيــين. ولكــن، هــل وجــدت موعظتُــه تربـةً خصبـةً هنـاك، يـا تُـرى؟ لقـد تحدَّثـوا عنهـا هنـاك وأُعجبـوا بهـا، لكنهـا سرعـان مـا باتـت منسـيةً فيـما بعـد. أولُ هِبـةٍ تلقَّتهـا أوروبـا مـن روسـيا مـع الشـكر هـي «سـيكولوجيا» دوستويفسـكي؛ أي الإنسـان مـن العـالم السـفلي، مــع تنوُّعاتــه مــن أمثــال راســكولنيكوف وآل كارامــازوف، وكيريلــوف. يـا لهـا مـن سـخرية القـدَر، أليـس كذلـك؟ بيـدَ أنَّ القـدَر أكثـر مـا يسـخرُ مـن المُثُـل العليـا ومـن نبـوءات الموتـى، وينبغـي الظـنُّ أنَّ حكمتَـه العظيمـة إنـما تكمُـن في ذلـك.

# 2

يمكن تقسيمُ النشاطِ الأدبي لدوستويفسكي إلى مرحلتَين. تبدأ المرحلةُ الأولى من «أناس فقراء» وتنتهي مع «مذكّرات من بيت الموتى». أما المرحلةُ الثانية فتبدأ من «مذكّرات من العالَم السفلي» وتنتهي بـ«الخطاب البوشكيني»[1]، ذلك التمجيد القاتم والكئيب من إبداع دوستويفسكي. سوف يعرف القارئُ بشكلٍ مباغتٍ وغير متوقَّع بتاتاً بالنسبة إليه، من خلال مذكّرات من العالَم السفلي التي تقع بهذه الطريقةِ على تخومِ المرحلتين؛ أنه بينما كان دوستويفسكي يعمل على كتابةِ الروايات والمقالات الأخرى، كانت تعتمل في أعماقه واحدةٌ من أفظعِ الأزمات التي يمكن لأيِّ رُوح بشرية أن تحضُرها لنفسها وأن تتحمَّلها. فما كان سببُ ذلك؟ هل هو النَّفي والأشغال الشاقَّة؟ على الأرجح لا، على الأقل ليس بشكلٍ مباشر. كتب دوستويفسكي بعد السَّجن مجموعةً كبيرة من المقالات، لم ينكِر فيها قناعاتِه السابقة قط، بل على العكس فكَّر فيها

(1) «خطاب دوستويفسكي عن بوشكين» كان خطاباً ألقاه فيودور دوستويفسكي على شرفِ الشاعرِ الروسي ألكساندر بوشكين في 20 يونيو من عام 1880 أثناء إزاحة الستار عن نصب تذكاري لبوشكين في موسكو. يُعتبر الخطاب إنجازاً كبيراً في سنواته الأخيرة، ورفعه إلى رتبةِ نبيٍّ وعزَّز مكانته بصفته أعظمَ كاتب روسي معاصر. (المترجم)

مليّاً مع قوةٍ من الموهبة والنبوغ، لم يكن ليجرؤ أن يحلُم بها في سنواتِ شبابه؛ إذ إنه كتب بعد السَّجن «يوميات من بيت الموتى»، تلك الروايةَ التي يمدحُها ويثني عليها الجميعُ بلا استثناء، ومن ضِمنهم أعداءُ الاتجاه الجديد عند دوستويفسكي، معتبرين أنها تمثِّل «على نحوٍ خاص» عملاً جديراً، وبشكلٍ أدقَّ، عملاً يتميَّز عن جميع الروايات الأخرى التي كتبَها في وقتٍ متأخِّر. ما زال موجوداً هنا دوستويفسكي ذاك، الذي أُعيدت قراءةُ قصَّته الأولى ومناقشتها بحماسةٍ كبيرةٍ في حلْقة بيلينسكي. إنَّ «مذكِّرات من بيت الموتى»، من حيث «الفكرة» و«القَناعات»، تنتمي بلا أدنى ريبٍ إلى التلميذِ النجيبِ والأمينِ لفيساريون «الحانقِ والمسعور»، إلى جورج صاند وغيرِه من المثاليِّين الفرنسيِّين في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

والأمر هنا قريبٌ نوعاً من «المساكين» أيضاً. لكن الحقيقة هي أنه يوجد هنا ما هو جديد؛ فثَمَّة حَدْس الواقعِ والاستعدادُ لرؤية الحياة كما هي في واقع الأمر. ولكن مَن كان يظنُّ أن حَدْس الواقع يحمل في طياتِه تهديداً كبيراً جدّاً لليقينيات وللمُثُل العليا؟ كان الجميع، ومن ضِمنهم دوستويفسكي نفسُه، يتوقَّعون مثلَ ذلك الافتراضِ بدرجة قليلة جدّاً. مما لا شك فيه أنَّ الواقعَ مظلِم ومنفِّر، وخاصةً واقع الأعمال الشاقَّة، في حينِ أنَّ المُثُل العليا واضحةٌ ومنيرة. بيدَ أنَّ هذا التناقضَ كان هو التربةَ التي نشأت عليها المُثُل العليا، وهي لم ترفُضها قط، بل على العكس، برَّرتها. لم يبقَ سوى أن تطوِّعَ الواقعَ وتستحِثَّه إلى أن يُتوصَّل بالمسافة بينه وبين المُثُل العليا إلى قيمةٍ صغيرةٍ جداً، إلى الصفر. وبالتوافق مع ذلك، كان تصويرُ الواقع المزري السوداوي يقصد هدفاً واحداً

بعينه؛ الصراع معه، ومن ثَمَّ تدميره في المستقبل البعيد، الذي يبدو مع ذلك قريباً.

بهذا المعنى، تكون كلٌّ من «المساكين» و«مذكّرات من بيت الموتى» قد خرجتا من مدرسة واحدة، وتقومان بالمهمةِ نفسِها؛ ويكمُن الفرْق في مهارة المؤلِّف الذي استطاع خلال 15 سنة أن يطوِّر من أسلوبه ومن مهارته في فنِّ الكتابة. ففي «أناس فقراء»، كما في «الشبيه أو القرين»[1] وفي «ربَّة البيت»[2]، نحن أمامَ قضيةٍ مع تلميذٍ نجيبٍ لكنَّه غيرُ حاذق، يروِّج للمعلم العظيم غوغول، كما سبَقَ أنْ شرحه له بيلينسكي. عندما نقرأ القصصَ المُشارَ إليها، نتذكَّر بطبيعة الحال، قصةَ «المِعطَف» و«الانتقام الرهيب»، ونقول في أنفُسنا ربما لم تكن ثَمَّة ضرورةٌ للترويج له وجعْلِه في متناوَل الجميع. كان القارئ سيخسر قليلاً، بكلِّ تأكيد، إذا ما بقيت القصصُ الأولى لدوستويفسكي في رأسِ مؤلِّفها إلى الأبد. لكنها كانت ضروريةً للكاتبِ نفسِه. كان دوستويفسكي يتدرَّب منذ نعومةِ أظفاره - كما لو أنه كان يستشعِرُ مهمَّته المستقبلية - على تصويرِ المَشاهِد الثقيلة والكئيبة ورسْمِها. كان حينئذٍ يقلِّد، ولكنَّ زمانه سوف يحين وسوف يهجُر معلِّمَه ويكتب على مسؤوليته الخاصة. بالطبع، كان من الغرابةِ بمكانٍ أن نرى عند

(1) تُعدُّ هذه الرواية أكثرَ أعمال دوستويفسكي تأثراً بنيقولاي غوغول، وعنوانها الفرعي «قصيدة من بطرسبورغ» مقتبَس من رواية غوغول «النفوس الميتة»، ويرى فلاديمير نابوكوف أنَّ هذه الرواية هي محاكاة لقصة «المعطف» من تأليف غوغول، بينما ذهب بعض النقاد إلى أنَّ دوستويفسكي كتب هذه الرواية في مقابل قصة غوغول الأخرى «الأنف». (المترجم)

(2) تجري أحداث الرواية في مدينة سانت بطرسبورغ، وتحكي عن قصة الشاب «فاسيلي ميخائيلوفيتش أوردينوف»، الذي يصبح متيماً في حب كاترينا، وهي زوجة رجل مكتئب ضعيف يراه أوردينوف عرَّافاً خبيثاً أو متصوِّفاً غامضاً. (المترجم)

الشـابِّ ميـلاً نحـوَ الألـوانِ الرماديـةِ والداكنـة، مـع العلـم أنَّ دوستويفسـكي لم يعـرِف في حياتـه ألوانـاً أخـرى على الإطـلاق. سـوف تتسـاءلون: هـل يُعقَل أنه لم يكـن يجـرؤ عـلى المـضيِّ نحـوَ النـور، نحـو الفـرحِ والسـعادةِ؟ هـل يُعقـل أنـه في شـبابه لم يَشـعر غريزيّـاً بالحاجـة إلى أن يقـدِّم نفسَـه بالكامـل قربانـاً لنُبوغـه؟ لكـن هـذه هـي الحقيقـة؛ فالموهبـةُ عبـارةٌ عـن privilegium odiosum [1]، وهي نادراً ما تمنح صاحبَها السعادةَ الدنيوية.

ظـلَّ دوستويفسـكي حتـى سـن الأربعـين مـن عمـره يحمـل عـلى كاهلـه عـبءَ موهبتـه بمنتهـى الصـبر. كان يُخيَّـل إليـه أنَّ ذلك العـبء سـهل، وأنَّ الأنا أمـرٌ حسـن. وقـد راح يتذكَّـر في روايتـه «مذلُّـون مهانـون» أولى تجاربـه الأدبيـة بفـرح عـارم! لم يكـن يشـعر، حسـب كلامـه، بأعـلى درجـات السـعادة عندمـا كان عملـه الأدبي يصـدرُ مـن المطبعـة، وحتـى ليـس عندمـا كانـت تتناهـى إلى مسـامعه أصـواتُ مديـح وثنـاء عليـه عـلى لسـان كبـار الكتَّـاب والخـبراء في قضايـا الأدب في تلـك الفـترة. كَلا، كان يـرى أن أجمـلَ لحظـات حياتـه وأسـعدَها، تلـك التـي كان يعمـل خلالهـا مـن دونِ أن يـراه أحـدٌ عـلى مخطـوط الروايـة بصمـت وبهـدوء، وهـو يـذرف الدمـوعَ الغزيـرة بسـبب التلفيـق أو الكذبـة التـي نسَـجها لمصـير الموظـف المنهـوك والمسـحوق مـاكار ديفوشـكين. لا أدري إن كان دوستويفسـكي صادقـاً هنـا أو إن كان أحـسَّ بالفعـل بأعـلى درجـة مـن السـعادة حـين كان يـذرف الدمـوعَ بسـبب التلفيـق أم لا. لعلَّـه يوجـد هنـا بعـض المبالغـة. ولكـن، حتـى في حـال حـدوث ذلـك بالفعـل، فـإنَّ دوستويفسـكي وهـو يعلـن عـن اعترافـه هنـا، إنـما يقـدِّم إتـاوةً وحسـب لوجهـة النظـر التـي كانـت مسـيطرة آنـذاك

(1) امتياز بغيض. (لاتيني)

والتي كان هو نفسه يشاطرها الرأي؛ ومن ثَم يجب أن تثيرَ لدينا كلماتُه على غرابتها شعوراً بالقلق والريبة. فما هذا الإنسان؟ وما هؤلاء البشرُ الذين يَرَون أنَّ من واجبهم الإحساسَ بالسعادة الغامرة إلى درجةٍ غير معقولة، من جرَّاء مغامرات مُختلَقة من قِبَلهم هم أنفسهم لذلك الشخص التَّعس ماكار ديفوشكين؟ وكيف يمكن الجمع بين «السعادة» مع الدموع الغزيرة التي يذرفونها، حسب كلامهم، بسبب الفكرةِ الفظيعة التي هي من بنات أفكارهم هم؟ لاحظوا أنَّ «مذلُّون مهانون» كُتِبت بالأسلوب نفسه الذي كُتبت به «المساكين»، وأن الفترةَ الفاصلة بينهما ومدتُها 15 سنة لم «تصحِّح» شيئاً ما عند دوستويفسكي ولو مثقالَ ذرَّة؛ إذ إنه كان يذرف الدموعَ في السابق على ديفوشكين، وها هو ذا الآن يذرف الدموعَ على ناتاشا. أما ما يتعلَّق بالابتهاجات المتعلِّقة بالإبداع، فهذا الإحساسُ، كما هو معروف، لا يبرحُ الكاتبَ على الإطلاق أبداً.

قد يبدو، للوهلة الأولى، أنه ما مِن شيء يمكن أن يكون نافياً للطبيعة وأكثرَ قبحاً وقرفاً - عذراً على المفردة - من ذلك الجمع بين الدموع والمديح والإعجاب. من أين تلك الابتهاجات وما هو مصدرها؟ ثمَّة إنسان بحاجة إلى أن يرويَ كيف ظَلموا وسَحقوا ودمَّروا ماكار ديفوشكين أو ناتاشا، ويبدو أنه لا يوجد ما يستحقُّ الفرحَ. لكنه يقضي في كتابةِ قصصِه وحكاياته أشهراً كاملة وسنوات، ومن ثَم يعلن بمنتهى الوضوح وعلى الملأ، من دون تردُّد أو حياء، بل وأكثر من ذلك متفاخراً، أنَّ هذه كانت أسعدَ لحظات حياته. كما أنه يُطالب الجمهور الذي يقرأ مثلَ هذه الأعمالِ بعواطفَ مشابهة. ويطلبون منه أيضاً أن يذرفَ دموعاً سخيةً هو الآخر، وألا ينسى الجمهورُ أن يفرح في الوقت نفسه أيضاً.

لكـن الحقيقـة هـي أنـه ثمّـة أسـاسٌ لمثـل هـذه المطالـب. يُعتقَـد أنـه بهـذه الطريقـة سـوف تُبعَـث مشـاعرُ طيبـة: «ينقبـض القلـب؛ إذ ينشـأ إدراكٌ بـأنّ الشـخص المتهَـن تمامـاً، ذاك الأخـير، هـو أيضـاً إنسـانٌ ويُدعـى أخـاً لـك»[1]. وهكـذا، لكـي تُنـشَرَ هـذه الفكـرة بـين القـراء، يتطلّـب الأمـرُ وجـودَ طبقـةٍ خاصـةٍ مـن النـاس، الذيـن يقومـون طَـوال حياتهـم، وفي المقـامِ الأول، بابتـكارِ شـتّى أنـواعِ الفظائـعِ والمـآسي والتشـوُّهات التـي تعُـجُّ بهـا حيـاةُ النـاسِ عـلى الأرض وبأشـكالٍ مختلفـة؛ ومـن ثَـم يقومـون بتصويرهـا في كتـبٍ يؤلفونهـا. يجـب أن تكـون المَشَـاهد صارخـةً وقويـة، مثـيرةً للذهـول وصادمـة؛ ويجـب أن تهُـزَّ الأفئـدةَ بقـوة غـيرِ معروفـة، وإلّا فسـوف يتعرَّضـون للإدانـة، وإلّا فـإنّ تلـك اللوحـات لـن تـترك الأثـرَ المطلـوب والمرجـوَّ ...

دعونـا نـترك جانبـاً القـرّاء مـع أفئدتهـم وعواطفهـم الطيبـة. ولكـن، كيـف يجـب أن يكـون حـال الكاتـب الـذي يأخـذ عـلى عاتقـه التزامـاً مثـيراً للحـزن بـأن يحيـي ضمـيرَ إنسـانٍ آخـرَ مـن خـلال تصويـره مختلـفَ أنـواع الفظائـع؟ سـوف يكـون أمـراً حسـناً إذا مـا نجـح في افتتـان وجدانـه الخـاص حتـى ولـو لبعـض الوقـت، بحيـث تنتهـي المَشـاهدُ المـرادُ لهـا أن تمـارِسَ تأثيرَهـا في النـاسِ الآخريـن، مـن دون أن تـتركَ أدنـى أثـرٍ في ضمـيرِ الكاتـبِ نفسِـه.

سـوف يكـون ذلـك، بالتأكيـد، منافيـاً للطبيعـة، ولكنـه كـما رأينـا، أمـرٌ ممكِـن مـن الناحيـة السـيكولوجية. إذا كان دوستويفسـكي يبالـغ عندمـا يخبرنـا عـن أولِ أحاديثِـه مـع ربّـةِ الإلهـام، فـلا بـدَّ أن ينطـويَ حديثُـه عـلى بعـض الحقيقـة بكافـة الأحـوال. لا بـدَّ أنّ مـاكار ديفوشـكين البائـس قـد منحـه عـدداً كبـيراً مـن السـاعات اللطيفـة. هنـاك الفتـوةُ وغيـابُ الخـبرة، إلى

(1) «مذلّون مهانون»، الصفحة 29.

جانبِ قدوةِ الكبار ومَن هم الأفضلُ سلفاً من بين الناس؛ بحيث إنه يمكن أن ينشأ من مثلِ هذه العناصرِ أيُّ شكل من أشكال عدمِ الفهْم أو الحماقة. تذكَّروا كيف أنَّ الناس كانوا مستعدين للقيام بأي أعمالٍ مهما كانت، عندما كانت تلوح وتتلألأ أمامهم في المقدمة، حتى ولو من بعيد، «فكرةٌ» ما وسطَ الهالةِ الباهتةِ عندهم. كانوا يتخلَّون عن كلِّ شيء، ويضحُّون في سبيلها بكلِّ شيء - وليس بماكار ديفوشكين المُختَلق وحدَه الذي يتعيَّن فوق ذلك «التعايشُ معه، كما لو أنه قريبٌ وعزيزٌ وموجودٌ في حقيقةِ الأمر» - وكان يُتَخلَّى عن أناسٍ حقيقيِّين من لحمٍ ودم، وحتى أقرباء وعزيزين، إذا ما دار الحديث عن خدمةِ الفكرة. فهل من الدهشة بمكان، يا تُرى، أنه كان يمكن للمرء أن يشعرَ بالسعادة، وهو يملِك أمام عينيه وجهاً خياليّاً لموظفٍ مُهانٍ وممرَّغ في الوحل؟! إلَّا أنَّ دَور الفنان الذي يرسُم الواقعَ المظلِمَ والمرير، بغضِّ النظر عن أيِّ شيءٍ كان، وبمعزِلٍ عمَّا يمكنه أن يكون متورِّطاً فيه؛ هو أكثر خطورةً، من الركونِ إلى هذا الواقع بالكامل وبمنتهى الصدقِ، وذلك كلما كان الشخص الذي يأخذ على عاتقِه القيامَ بذلك الدورِ أكثرَ موهبةً. أكرِّر أنَّ الموهبة هي امتياز بغيض، وأن دوستويفسكي، شأنه شأن غوغول، كان يتعيَّن عليه أن يشعرَ عاجلاً أو آجلاً بأنَّ حِملَه ثقيلٌ جداً.

# 3

«يتحقَّق الإدراكُ بأن الشخص الأكثر امتهاناً وبؤساً، هو أيضاً إنسانٌ ويُدعى بالأخ».

تلخِّص هذه العبارةُ تلك الفكرةَ التي مضى دوستويفسكي في سبيلها إلى المضمارِ الأدبي. وهذه الفكرةُ، كما تَرون، لم تكن تنطوي على أيِّ شيءٍ جديد. كما أنها لم تتمتَّع بهذه الميزةِ حتى في تلك الفترةِ التي شرعَ فيها دوستويفسكي في الكتابة. وهو لم يكن أولَ مَن أعلنَ عنها، بل كانت سائدةً منذ الخمسينيات (في القرن التاسع عشر - المترجم) وبقيت مهيمنةً لاحقاً فترةً طويلةً على عقولِ أفضل المفكرين الرُّوس. كان بيلينسكي في تلك الفترةِ أحدَ أفضلِ وأشْهرِ الحاملِين لها والمعبِّرين عنها، وكانت قد جاءت إليه من الغرب حاملةً الاسم الجذَّاب في ذلك الحين؛ النزعة الإنسانية. ومع أنَّ بيلينسكي كان ناقداً من حيث مهامِّه الأدبية، فإنه كان ممكناً أن يقال عنه، على الأرجح، من ناحيةِ تكوينه الرُّوحي، إنه واعظٌ عظيم. وبالفعل، كان يرى جميعَ الأعمال الأدبية الكبرى في ضوءِ الفكرة الأخلاقية. إنَّ مقالاته عن بوشكين وغوغول وليرمنتوف - بنسبةِ ثلاثة أرباعها - كانت مجرَّد شعارٍ للإنسانية. كان بيلينسكي يطمحُ في مجال الأدب

في الحد الأدنى - في حالٍ لم يكن متاحاً له أن يفعلَ ذلك في مجالاتٍ أخرى أكثرَ اتساعاً ولكنها ليست في متناوَل تأثيره - إلى أن يُشهِر ذلك الإعلانَ المهيبَ لحقوقِ الإنسانِ الذي سبق أن خلقَ الانقلابَ الهائلَ في فرنسا، ومن حيث انتقلت إلينا كما هو معروفٌ تلك الأفكارُ الجديدة. وقد جاءت إلينا مع إعلانِ حقوقِ الإنسانِ أمامَ المجتمع، بوصفها إضافةً إلى ذلك الإعلانِ ونوعاً من الإيمان الضروري به - كما ظنَّ الجميعُ حينذاك - الفكرةُ المتعلِّقةُ بالتوضيحِ الطبيعي للنظام العالمي.

لقد قام التوضيحُ الطبيعي بدورٍ تحرُّري في الغرب حقّاً. كان الإصلاحيون بحاجةٍ إلى أن يعلنوا، كي يطلقوا أيديَهم، أنَّ النظامَ الاجتماعيَّ السابقَ برُمَّته هو نتيجةُ اللعبة العمياء للقوة. وقد راهنوا عندنا على ذلك أيضاً بالتأكيد. بيدَ أنهم لم يكونوا يجيدون الاعترافَ بالأهمية الوظيفية للحقيقة. فالحقيقة هي قبل كل شيء حقيقة؛ ولذلك ضُمَّ التوضيح الطبيعي إلى الدوغمائية، شأنها شأن النزعة الإنسانية. لم تكن مأساويةُ الدمج بين هاتين الفكرتين تَلفِتُ نظرَ أحدٍ في ذلك الوقت (باستثناء بيلينسكي نفسِه، بصورةٍ جزئية، ولكن الحديث عن ذلك سوف يأتي لاحقاً). لم يشعر أحدٌ بعدُ أنه إلى جانب الإعلانِ عن حقوق الإنسان أمام المجتمع (النزعة الإنسانية)، جُلِب إلينا أيضاً الإعلانُ عن حرمانِ الإنسان من الحق بمواجهة الطبيعة. وقد كان دوستويفسكي أقلَّ مَن خمَّن ذلك؛ لذلك هاجم الأفكارَ الجديدة بقوة وباندفاع الإنسان الشاب والمتحمِّس. كان يعرفُ بيلينسكي من قبلُ، وذلك من خلالِ مقالاته الصحفية. وقد تعمَّق إيمان دوستويفسكي بعد أن تعرَّف إليه شخصياً. ثم كتب فيما بعدُ، بعد مرور سنواتٍ كثيرة، في «يوميات كاتب»: «لم يكن بيلينسكي

يحبُّني، أما أنا فقد تلقيتُ تعاليمَه في ذلك الوقت بشغفٍ شديد»[1].

لكن دوستويفسكي لا يشرح بالتفصيل لماذا لم يكن بيلينسكي يحبُّه، بل يكتفي ببضع كلمات ذات طابع عام، ولكنها أساسية ومهمة: «لقد افترقنا لأسبابٍ مختلفة، وغيرِ ذاتِ أهمية، بالمناسبة، من مختلِف الجوانب». ومن المعروف أنه بالفعل لم يحدُث بينهما أيُّ سوءِ تفاهم. ولكن من ناحيةٍ أخرى، استُشهِد بحقيقةِ أنَّ دوستويفسكي لم يشعر قط بأنه مرتاح في حلقةِ بيلينسكي في أيِّ يوم من الأيام. كان الجميع هناك - ومن ضِمنهم بيلينسكي - يسيئون له. ولا بدَّ من الاعتقاد أنَّ تلك الإهانات كانت تترك أثراً كبيراً في نفس الفتى المفرط في حساسيته إلى درجةٍ مَرَضيةٍ في تلك المرحلة. وقد تركتْ تلك الإهاناتُ نَدْبةً عميقةً في رُوحه، إلى درجةِ أنه استغلَّ أولَ فرصةٍ ممكنة بعد مرور 25 سنة على وفاة بيلينسكي، لكي يسوِّي حسابه معه. سوف يصادف القارئُ في ذلك العددِ نفسِه من مجلة «المواطن» الذي اقتبستُ منه العبارةَ الواردةَ أعلاه، مجموعةً كاملةً من الملاحظات المفرطة في سُميَّتها، والتي نضجتْ وتبلورتْ خلال فترةٍ طويلةٍ في أعماق الرُّوح وكانت موجَّهة إلى بيلينسكي. من الواضح أنَّ الجِراحَ القديمة بدأت توجِعه بقوَّة، وأنَّ الإهاناتِ القديمةَ المكبوتةَ عادت إلى الذاكرة مع ألمٍ شديد - ما دام الأمرُ تطلَّب صبَّ كلِّ ذلك الكمِّ من السُّمِّ على المعلِّم الذي رحل منذ مدة طويلة.

بيدَ أنَّ دوستويفسكي كان على حق. هناك أشياءُ لا يمكن للإنسان أن يغفرَها، وهذا يعني أنَّ ثمة إهاناتٍ لا يمكن نسيانُها. لا يمكنك أن تتصالحَ مع قيامِ المعلِّم - الذي تلقَّيت منه العقيدةَ بكلِّ تلك السعادةِ

(1) الأعمال الكاملة، المجلد التاسع، صفحة 175. (المترجم)

الغامرة، من دون تردُّد وبلا منازع - بدفعِك بعيداً عنه وبالسخرية منك وإهانتك. وهذا ما حدَث بالضبط بين دوستويفسكي وبيلينسكي. عندما جاء التلميذ الفتي والمتحمِّس إلى بيت المعلِّم لكي يسمعَ المزيدَ من المناقشات حول موضوع «الإنسان المسحوق والأخير»، كان المعلِّم يلعب بالورق لعبةَ البريفيرانس، وراح يتحدَّث في أمورٍ أخرى جانبية لا علاقةَ لها بالموضوع. كان من الصعبِ جداً على إنسانٍ حساسٍ ومؤمن، وهذا ما كان عليه دوستويفسكي في تلك الفترة، أن يتحمَّلَ مثلَ ذلك التصرُّف. ولكن بيلينسكي أيضاً كان يشعرُ بالضيق من تلميذه. وهل تعرفون أنه يحدُث أنَّ صِنفاً من الأساتذة يشعرون كثيراً بالتعَب والضِّيق من التلاميذ المفرطين في إيمانهم والمتمسكين بمبادئهم بشكلٍ مُبالَغ به؟ كان بيلينسكي قد بدأ بالاستقالة من نشاطه الأدبي، عندما كان دوستويفسكي قد بدأه للتو. وبما أنه كان شخصاً ذا تجربةٍ كبيرة، فقد كان يشعرُ بقوةٍ بتلك الدرجةِ من الخطورةِ التي تنطوي عليها كلُّ حالةِ شغفٍ شديدٍ ومفرطٍ بفكرةٍ من الأفكار. كان يدرك أنَّ تناقضاً يكمُن في أعماق الفكرة؛ ولذلك كان يسعى إلى أن يبقى مقيماً على السطح منها. كان يدرك أنَّ النظامَ العفويَّ أو الطبيعيَّ للأشياء يسخر من النزعة الإنسانية، التي يمكن، بدورِها، أن تحنيَ رأسَها بخنوعٍ أمام العدوِّ القاهر. لا بدَّ أنكم تتذكَّرون، بالتأكيد، الرسالةَ الشهيرة لبيلينسكي التي يطالب فيها بكشفِ حسابٍ عن مصيرِ «كلِّ أخٍ في رابطةِ الدم». كان هذا معناه أنَّ التناقض بات مفهوماً تماماً بالنسبةِ إليه، وأنَّ الإنسانية لم تَعُد تحظى برضاه. لكن دوستويفسكي لم يكن يفهم ذلك، لم يكن بإمكانِه أن يفهمَ، بل راح بكل شغفٍ وحماسةِ المهتدي حديثاً إلى العقيدة يعودُ باستمرار في أحاديثه وكتاباته إلى فكرةِ

«الإنسان الأخير»[1]. يمكنكم أن تتصوَّروا كمْ كان صعباً على بيلينسكي أن يصغيَ إلى ما يقوله صديقُه الشابُّ - لا سيما أنه هو نفسُه كان ممنوعاً عليه الإفصاحُ علانيةً عن مشاعره وأفكاره!

كانت النتيجةُ أنَّ التلميذَ من دونِ «أسباب مهمَّة» هجر معلِّمه، الذي كان قد ضاق ذرعاً حتى «بالناس الفقراء»، وأعلن أنَّ العملَ التالي لدوستويفسكي عبارةٌ عن «هراء عصبي». وهكذا نرى أنَّ الحكايةَ لم تكن مرِحةً على الإطلاق. بيدَ أنَّ الوحشَ يهجم حتى على الصياد. وهكذا احتفظ كِلا الصديقين بذكرياتٍ ثقيلةٍ عن علاقتهما التي لم تَدُم طويلاً. سرعان ما توفِّي بيلينسكي، في حين أنَّ دوستويفسكي كان مضطرّاً إلى أن يحمِلَ في قلبه ذكرياته عن معلِّمه أكثرَ من ثلاثين عاماً، ذاك المعلِّم الذي سبق أن رفضَه، وأن يحاربَ في الوقتِ نفسِه ذلك التناقضَ الذي انتقل إليه بالوراثةِ مع فكرةِ النزعةِ الإنسانيةِ عن طريقِ فيساريون المحتدِم غيظاً. أنوِّه فقط إلى أنَّ دوستويفسكي استخدم في أعماله الأخيرة كلمةَ «النزعة الإنسانية» من بابِ السخرية وحسب، وكان يضعها على الدوام بين هلالين. هذا يعني أنها كلَّفته غالياً! هل كان بإمكانه أن يصدِّق ذلك حين كان يفرح لأجل ديفوشكين ويعانق كلّاً من بيلينسكي ونيكراسوف وغريغوريفيتش؟

كانت القطيعةُ مع بيلينسكي أولَ اختبار يضطرُّ دوستويفسكي إلى أن يتحمَّله ويصبرَ عليه. وقد اجتازه بجدارةٍ وشرف. فهو لم يخُنْ عقيدتَه قط، بل على العكس، بدا كما لو أنه انهمكَ فيها بشغفٍ أكبر، على الرغم من أنه كان لديه من البداية مقدارٌ كبيرٌ من الشغف، بحيث إن درجةَ المقارنة لا تعودُ صالحةً هنا، على الأغلب. أما الاختبارُ الثاني فكان الاعتقال

(1) مصطلح «نيتشوي».

في قضيـة بتراشيفسـكي. لقـد حُكـم عـلى دوستويفسـكي بالإعـدام، وعُـدِّل الحكـمُ لاحقـاً بالسِّـجن مـع الأشـغالِ الشـاقة. لكنـه هنـا أيضـاً بقـي صامـداً وصُلبـاً ولم يتزعـزع إيمانُـه - ليـس مـن الناحيـةِ الخارجيـة فحسـب، بـل في أعـماقِ روحـه أيضـاً لم يكـن ثمَّـة أيُّ شـكوك، كـما يتضـح مـن مذكِّراتـه الخاصـة. وتعـودُ شـهادتُه إلى عـام 1873؛ أي إلى تلـك الفـترةِ التـي تذكَّـر فيهـا ماضيـه بقـرفٍ وبسـخط، عندمـا كان عـلى اسـتعدادٍ حتـى أن يفـتريَ عليـه ويشـوِّهَ سُـمعتَه. لهـذا السـببِ تُعَـدُّ تلـك الشـهادةُ ذاتَ أهميـةٍ خاصـةٍ ومميَّـزة، ولذلـك نوردُهـا هنـا بالكامـل: «إنَّ قـرارَ الإعـدام رميـاً بالرصـاص، الـذي تُـلي علينـا جميعـاً بشـكلٍ مسبَق، لم يُتـلَ مـن بـابِ المُزاحِ عـلى الإطـلاق. وكان جميـعُ المحكـوم عليهـم بالإعـدام تقريبـاً واثقـين مـن أنَّ الحكـمَ سـوف يُنفَّـذ، وقـد عاشـوا عـلى الأقـل عـشرَ دقائـقَ فظيعـة إلى أقـصى درجـةٍ مـن انتظـارِ المـوت. راح البعـض منَّـا خـلال تلـك الدقائـقِ الأخـيرةِ (وأنـا أعـرفُ ذلـك بشـكلٍ مؤكَّـد) يتعمَّقـون بشـكلٍ غريـزي في دواخلهـم، وهـم يراجعـون حياتَهـم التـي مـا زالـت فتيـةً لحظـةً بلحظـة - وربـما شـعروا بالنـدم عـلى بعـضِ الأعـمالِ الثقيلـة (مـن تلـك التـي تثقـلُ وجـدانَ كلِّ إنسـان طَـوال حياتـه وبشـكلٍ سرِّي). إلَّا أنَّ القضيـةَ التـي حاكمونـا بسـببها، وتلـك الأفـكارَ والمفاهيـمَ التـي كانـت تسـيطرُ عـلى أرواحنـا؛ كان يبـدو لنـا أنهـا لا تتطلَّـب النـدمَ والتوبـة، بـل حتـى إنهـا بـدَت لنـا تطهـيراً واستشـهاداً سـوف يُغفـر لنـا بسـببه الكثـيرُ مـن الأمـور! وهـذا مـا بقـي قائـماً مـدةً طويلـةً جـدّاً، دون أن تحطِّمَنـا سـنواتُ النفـي أو المعانـاة. بـل عـلى العكـس، لم يكـن ثمَّـة مـا يحطِّمنـا، وكانـت معتقداتنـا تشـدُّ مـن عزيمتنـا وحسـب مـن خـلالِ إدراكنـا أننـا إنـما نقـومُ بواجبنـا»[1].

---

(1) المجلد التاسع، صفحة 342.

بهـذه الطريقـةِ يتذكَّـر الرجـلُ ماضيَـه بعـد مـرورِ ربـعِ قـرن. هـذا يعنـي أنـه كان مُعجَبـاً «بالإنسـان الأخـير» إلى درجـةٍ كبـيرة، وأن ارتباطَـه بأفـكار بيلينسـكي كان وثيقـاً، وأنـه غيـرُ صحيح ولا يسـتند إلى أيِّ أسـسٍ ذلـك الرأيُ الـذي انتـشرَ مؤخـراً والقائـلُ بأنـه جـرى احتسـابُ دوستويفسـكي عضـواً في حلْقـةِ بيلينسـكي عـن طريـق الخطـأ، في حـين أنـه كان في حقيقـةِ الأمـرِ ينتمـي منـذ فتوتِـه الباكـرةِ وبكامـلِ «رُوحـه» إلى عـالَمٍ آخـرَ. ومـا الحاجـةُ، يـا تُـرى، إلى مثـلِ هـذا الاختـلاقِ والتخـرُّص؟ هـل كان ذلـك سـيشرِّف دوستويفسـكي، يـا تُـرى؟ وأيـن الـشرفُ في ذلـك؟ وهـل بـات الأمـرُ اليـومَ مـن الـضرورةِ بـأن يكـونَ الإنسـانُ وهـو لم يـزل في قِماطِـه صاحـبَ «قَناعـاتٍ» جاهـزةٍ تمامـاً وبالكامـلِ مـدَى الحيـاة؟ مـن وجهةِ نظـري، لا توجد حاجـةٌ في ذلك. فالإنسـانُ يحيـا ويتعلَّـم مـن الحيـاة. وكلُّ مَـن يعيـش حتـى الشـيخوخةِ، دون أن يـرى أو يـدركَ أيَّ شيءٍ جديـد، قـادرٌ عـلى الأرجـحِ أن يثـيرَ دهشـتَنا نتيجـةَ عـدم إدراكِهِ ومناعتِـه مـن أن يوحـيَ إلينـا بالاحـترامِ والتقديـرِ لشـخصه. وأنـا، بالمناسـبة، أريـدُ أن أمـدحَ دوستويفسـكي هنـا أقـلَّ مـا يمكـن علـى فـرطِ حساسـيته. وعـلى العمـوم، المـكانُ هنـا غيـرُ مناسِـب لتقييـم صفاتِـه الرُّوحيـة. ممَّـا لا شـكَّ فيـه أنَّ الكاتـبَ كان شـخصيةً غـيرَ عاديَّـة، في الحـدِّ الأدنـى، في عـينِ ذاك الـذي يأخـذُ عـلى عاتقِـه إجـراءَ دراسـةٍ لـه، ومـن ثَـم الحديـثُ عنـه بعـد مـضيِّ كلِّ هـذه السـنواتِ عـلى وفاتِـه. ولكـن، لهـذا السـببِ بالتحديـد ثمَّـة حاجـةٌ قليلـة جـدّاً إلى أن تُنسَـب إليـه مزايـا معيَّنـة، وأن تُختلَـق مواصفـاتٌ روحيـة خاصـة بـه. يحتـاج الأمـر هنـا، أكثـرَ مـن أي مـكانٍ آخـرَ، إلى إبقـاء المشـاعرِ الشـخصيةِ مـن حـبٍّ ونفـور تحـت السيطرةِ وعـدم فـرضِ القَناعـات الذاتيـةِ عـلى القـارئ، مهـما كانـت تلـك القناعـاتُ نبيلـةً وسـامية. إنَّ دوستويفسـكي

بالنسبة إلينا هو أُحجيةٌ سيكولوجية، ولا يمكن إيجادُ مفتاحِ لهذا اللغز إلَّا عن طريقٍ واحد فقط؛ من خلال التمسُّك بالحقيقة وبالواقعية بشكلٍ صارم. وما دام أنه نفسه قد أكَّد على واقعةِ «الانقلاب في قَناعاته»، فإنَّ محاولاتِ غضِّ النظر وعدم التفاعل مع هذا الحدثِ المهم جداً في حياته خشيةَ أن يُلزِمَنا ذلك الحدَثُ باستنتاجاتٍ مباغتةٍ وغيرِ متوقَّعة، تستحق تنديداً صارماً. و«الخشية» هنا غيرُ مناسِبة وغير صالحة. أو، بعبارةٍ أخرى، يجبُ العثورُ في الذات على قوى كافيةٍ للتغلُّب عليها. فالحقيقةُ الأولى التي تتكشَّف لأول مرَّة، تكون دائماً دميمةً وشنيعة، كما هي حالُ الطفل الوليد. إلَّا أنه في هذه الحالةِ يجبُ الابتعادُ عن حياة دوستويفسكي بالكامل، وعن مُجملِ نشاطه؛ لأن حياته عبارةٌ عن بحثٍ لا إراديٍّ ودائم عن تلك «البشاعة»، التي يدورُ الحديثُ عنها هنا؛ لأنه لم يكن عبثاً أنْ أمضَى الرجلُ عشراتِ السنين في العالَم السرِّي وفي المنفى وسجنِ الأعمال الشاقة، وليس عبثاً أنَّه لم يكن يرى ومنذ فُتوَّته الباكرةِ نورَ الرب، ولم يعاشر سوى أمثالِ ديفوشكين وغوليادكين، وأمثالِ ناتاشا وراسكولنيكوف وكارامازوف. من الواضحِ أنه لا يوجد طريقٌ آخرُ إلى الحقيقةِ باستثناء طريقِ الأعمال الشاقة والحياةِ السريَّة والعالَم السفلي ... ولكن هل جميعُ الطرق إلى الحقيقة فوق أرضية؟ وهل كلُّ عمق، يا تُرى، هو عالَمٌ تحت أرضي؟ ولكن، عمَّ تُحدِّثنا أعمالُ دوستويفسكي، إذا لم يكن عن ذلك؟

# 4

بمجـرَّد أن خـرجَ دوستويفسـكي مـن السِّـجن بـاشرَ الكتابـةَ عـلى الفـورِ وبحماسةٍ كبـيرة. وأولُ ثمـرةٍ لافتـةٍ في مجـالِ نشـاطه الإبداعـي الجديـد كانـت قصـةً بعُنـوان «قريـة ستيبانتشـيكوفو وسـكَّانها». لـن ينجـح أيُّ باحـثٍ - مهـما كان حريصـاً ودقيقـاً - في أن يعثـرَ في تلـك القصـةِ عـلى أدنـى إشـارةٍ يمكنهـا أن توحـيَ بـأنَّ كاتـبَ العمـل كان محكومـاً عليـه بالأعـمال الشـاقة. بـل عـلى العكـس، سـوف يشـعر القـارئُ بـأنَّ مؤلِّـف القصـة شـخصٌ دَمِـث، رقيـق وظريـف. وهـو سـاذَج إلى درجـةٍ كبـيرةٍ جـدّاً، بحيـث إنـه يسـمح بحـلٍّ في منتهـى السـعادةِ للظـروفِ المتشـابكة. فالجَـدُّ الـذي عانـى الأمرَّيـن بـما فيـه الكفايـةُ وصـبرَ طويـلاً مـن جـرَّاء مـا لحِـق بـه عـلى يـدِ فومـا أوبيسـكين والأمِّ، زوجـةِ الجنـرال؛ يكشـفُ في اللحظـة الحاسـمة عـن طاقـةٍ هائلـةٍ إلى جانـبِ قـوةٍ جسـدية جبـارة. فهـذا هـو فومـا أوبيسـكين يطـيرُ مـن جـرَّاء ضربـةٍ قويـة واحـدة مـن قِبَـل الجَـدِّ عـبْر النافـذة إلى البلكـون، ومـن هنـاك يسـقطُ في فِنـاء البيـت، وإذ بـ«الطاغيـة» الـذي لطالمـا عانـى الجميـعُ مـن ظلمِـه وبطشِـه، يصبح مخلوعـاً عـلى الفـور. ولكـن هـذا يبـدو قليـلاً بالنسـبةِ إلى دوستويفسـكي. فهـو لا يرغـبُ حتـى في أن يُعاقَـب الطاغيـةُ بطريقـةٍ قاسـية؛ إذ إنَّ فومـا سرعـان

مـا يعـودُ إلى ستيبانتشـيكوفو المضيافـةِ، ولكنـه لـن يقـومَ بعـد الآن، بالطبـع، بـأيٍّ عربـدةٍ كـما كان يفعـل مـن قبـلُ، مـع أنهـم يغفـرون لـه إلى حـدٍّ مـا إزعـاجَ المحيطـين بـه؛ وذلـك لكيـلا يشـعرَ بإهانـةٍ كبـيرة لشـخصه. وهكـذا يعيـش الجميـعُ في وئـامٍ ويتـزوَّج الجَـدُّ مـن ناسـتينكا. لم يسـبق أن كشـفَ دوستويفسـكي عـن طيبـةٍ كهـذه عـلى الإطـلاق، ولا في أيِّ عمـلٍ مـن أعمالـه - لا قبـل السِّـجن ولا بعـده. بـل كان أبطالـه يتعرَّضـون لشـتَّى أنـواعِ القِسـمة والمصـير. كانـوا هـم أنفسـهم يعتـدون عـلى النـاس أو كانـوا ضحايـا الاعتـداءِ مـن قِبَـل الآخريـن - حيـث إنهـم كانـوا يفقـدون عقولهـم، أو ينتحـرون شـنقاً، أو يصابـون بالهذيـانِ الرُّعَـاشي أو هذيـان السَّـكارى، أو كانـوا يموتـون مـن جـرَّاء إصابتهـم بـداء السـلِّ، أو يذهبـون إلى الأعـمالِ الشـاقة - ولكـن مـا حـدَث في قريـة ستيبانتشـيكوفو، حيـث يُختَـم أحـدُ الفصـول عـلى النحـو التـالي: «فومـا فوميتـش يخلُـق سـعادةً شـاملة»، فهـذا لم يتكـرَّر في أيِّ روايـةٍ مـن روايـات الكاتـب. وأمـا الخاتمـة، فهـي أنشـودةٌ رعويـة ... بحيـث إنَّ القـارئ يتسـاءل في سرِّه لا شـعوريّاً: هـل يُعقَـل أن السِّـجن انتهـى بالنسـبة إلى هـذا الإنسـانِ مـن دون أن يـتركَ أيَّ أثـرٍ لديـه؟ هـل يُعقَـل أنـه يوجـد مثـلُ هـؤلاء المثاليِّـين الذيـن لا يمكـن إصلاحُهـم، والذيـن يواصلـون الإيـمانَ بقيَمِهـم الخاصـةِ بهـم بغـضِّ النظـر عـن كلِّ مـا تفعلـه بهـم مـن أذى، وبحيـث إنهـم ينجحـون في تحويـلِ كلِّ جحيـمٍ إلى نعيـم؟ لقـد عانـى دوستويفسـكي نفسُـه، وكان شـاهداً عـلى مختلِـف أشـكالِ القهـر في سِجن الأعـمال الشـاقة! ولكنه كان في ذلـك العمـل الأدبي سـاذَجاً إلى درجـةِ أنـه بـدا وكأنـه شـابٌّ عمـره 20 سـنة بالضبـط، وقـد راح يرتِّـب انتصـاراً آخـرَ للخـير عـلى الـشر ... فـإلى متـى يمكـن قهـرُ الإنسـانِ وسـحْقُه؟

لم يكـن لـدى دوستويفسكي عند خروجه من السِّجن، مهما بدا الأمر غريباً، سوى شعورٍ واحد ورغبةٍ واحدة؛ الشعور بالحرية والرغبة في أن ينسى الآلام كافةً التي عاشها هناك. وما علاقةُ أنه يوجد الآن هناك، حيث كان موجوداً، شخصٌ آخرُ؟ لقد رُفِع العبءُ عن كاهلِه وها هو ذا يحتفل ويفرح، ومن ثَم سيندفع من جديدٍ إلى أحضانِ الحياة، التي دفعته بعيداً عنها بقسوةٍ في يوم من الأيام. وهكذا فإنكم تلاحظون أنَّ «الاختلاق» و«الواقع» ليسا أمراً واحداً قط. يمكن له أن يذرِفَ دموعاً غزيرةً فوق ما هو مُختلَق، وأن يجعلَ من ماكار ديفوشكين مادةً للشِّعر؛ لكنه ينبغي له أن يهرُب من السِّجن. يمكن له أن يقضيَ ليالِيَ كاملةً ومتواصلة مع صورِ الخيال الحزينة وهو في حالةِ وَجْدٍ عميقةٍ يمكن أن نطلقَ عليها اسم الإلهام الأدبي. كلما كانت الإهانةُ مصوَّرة هنا بطريقةٍ أعمقَ، وكلما كان الحزن مرسوماً بطريقةٍ يائسة لا أملَ منها، وكلما كان الماضي أكثرَ قتامةً والمستقبل أقلَّ أملاً وتفاؤلاً؛ كان الأمرُ أكثرَ شرفاً للكاتبِ وأكثرَ عملاً. إذ إنَّ أعظمَ مديحٍ للكاتب يكمُن في القول: «لقد التقط اللحظةَ المأساوية ونقَلَها إلينا بطريقةٍ صادقة وحقيقية». بيدَ أنَّ ناقلي اللحظات المأساوية يهابون المأساةَ الحقيقية، المأساة في الحياة المعيشة، بدرجةٍ لا تقلُّ عن جميع الناس الآخرين ...

وأنا لا أقولُ ذلك لكي أتَّهِمَ دوستويفسكي. وسأكون على العموم شاكراً للقارئ في حالِ أنه تذكَّر مرَّة واحدة وإلى الأبد، أنَّ أهدافي تقع خارجَ مجال الاتهامات والتبريرات. كان هذا سيعفيني من زلَّاتِ اللسان الزائدة والمزعِجة. ومع أنَّ الحديث هنا يدور حول دوستويفسكي، فإنه لا يقتصر عليه، أو أنني في الحدِّ الأدنى لا أقصده هو وحدَه وحسب.

إنَّ الأكثـرَ أهميـةً بالنسـبة إليَّ هـو أن أحـدِّد الوضـعَ الأكيـدَ التـالي وحسـب. لم يكـن دوستويفسـكي، شـأنُه شـأنُ أيِّ إنسـانٍ آخـرَ، يتمنَّـى المأسـاةَ لنفسـه، وقـد حـاول تحاشـيها قـدْر المسـتطاع، وفي حـالِ أنـه لم ينجـح في تحاشـيها فـإن هـذا كان يحـدُث رغـماً عنـه وضـد إرادتـه، بفعـلِ ظـروفٍ خارجيـةٍ لا تتعلَّـق بـه. لقـد قـام بـكلِّ مـا أمكنـه لكـي ينسـى السِّـجن، لكـنَّ السِّـجن لم يغـادره. كان يريـد مـن أعـماقِ رُوحـه أن يتصالـح مـع الحيـاة، لكـنَّ الحيـاة لم تشـأ أن تتصالـحَ معـه. وهـذا واضـحٌ لا مـن الروايـة التـي وردَ ذِكرهـا أعـلاه، بـل إنـه يظهـر في كلِّ مـا كتبـه في السـنوات الأولى بعـد خروجِـه مـن السِّـجن. وهـو لم يسـتنتج مـن تجربتـه الجديـدة سـوى إدراكِـه وجـودَ فظائـعَ رهيبـةٍ ومـآسٍ بالغـةِ الـضراوةِ والعمـقِ عـلى الأرض، وأنـه ينبغـي لـكلِّ شـخص - وهـذا ليـس بالـشيء الكثـيرِ بالنسـبة إلى الكاتـب - أن ينجـوَ بنفسـه مـن هـذه الفظائع، إذا مـا كان قـادراً. كـما يحـدُث تمامـاً وبالضبـط عندمـا تغـرَق سـفينةٌ مـا: sauve qui peut.[1]

مـاذا يمنحـه الإلهـامُ؟ ومـاذا يمنحـه الإيـمانُ والنشـاط والقـوة، أثنـاء ممارسـتِه تلـك التأمـلاتِ التـي كان يقـوم بهـا في عُزلتِـه، والتـي كتـب عنهـا بـكل وضـوحٍ في «مذكِّـرات مـن بيـت الموتـى»؟ إنـه الوعـي بأنـه لـن يتـاحَ لـه أن يتشـاطرَ المصـيرَ مـع رفاقـه السـجناء، وأنَّ حيـاةً جديـدة في انتظـاره. إنـه يقبَـل بـما يجـري معـه، وهـو يخضـع لمصـيره لأنـه ينتظـر مـا هـو مختلِـف. هـا هـي ذي كلماتـه الخاصـة بـه: «... كـم امتـلأ قلبـي آنـذاك بالآمـالِ الكبـيرة. رحـتُ أفكِّـر، وقـرَّرت وأقسـمتُ لنفسـي بأنـه لـن يكـونَ في حيـاتي المسـتقبلية مثـلُ تلـك الأخطـاءِ التـي كانـت، ولا ذلـك السـقوط الـذي حـدَث في المـاضي.

---

(1) لِيَنْجُ كلُّ مَن بوسْعِه ذلك (فرنسي).

رسمتُ لنفسي برنامجاً للمستقبل بأكمله وقررتُ التقيدَ به بصرامة. انبعث في داخلي إيمانٌ أعمَى بأنني سوف أنفِّذ كلَّ ذلك وأنني قادر على تنفيذه ... كنتُ أنتظر، ورُحت أطلبُ الحريةَ بأقسى سرعة ممكنة؛ لأنني كنت أريدُ أن أجرِّب نفسي من جديدٍ وفي كفاح جديد. وفي بعض الأحيان كانت تنتابني نوباتٌ من نفادِ الصبر التشنُّجي»[1].

هكذا كان ردُّ فِعل دوستويفسكي على سَجنه. كان يريدُ أن يرى فيه اختباراً مؤقتاً فقط، وكان قادراً على ذلك، وعلى أن يقدِّره بمقدارِ ما كان مرتبطاً بآماله الجديدة والعظيمة. وهو يرى حياةَ السِّجن بأكملها في تلك الإضاءة على أملِه الجديد. ولذلك كان يُضفي على «مذكِّرات من بيت الموتى» تلك الصِّبغةَ اللطيفةَ التي تجعلها تحظى باهتمامٍ خاصٍّ من قِبل النقاد، وبفضلها أيضاً تنالُ الرضا حتى عند أولئك القراءِ الذين لا يرون في أعمالِ دوستويفسكي الأخيرةِ سوى الإفراطِ في التعبيرِ عن القسوة التي لا ضرورةَ لها. قد ضمَّن الكاتبُ في «مذكِّرات من بيت الموتى» قدراً من القسوة يعادلُ ما هو ضروريٌّ بالتمام - ما هو ضروريٌّ للقارئ، بطبيعة الحال. يوجد هناك أيضاً، بالطبع، توصيفاتٌ صادمة وجموحٌ عند المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة، إلى جانبِ غلاظةِ القلب عند المسؤولين عن المعتقل. إلَّا أنه يوجد لدى الجميع «مغزى أخلاقيٌّ». من ناحيةٍ يُذكِّر الناس بأنَّ «السجينَ هو أيضاً إنسانٌ ويُدعى أخاً لك». لهذا الغرض، يوجد بالإضافة إلى القصص المتعلِّقة بوحشيةِ المساجين، لوحاتٌ ومشاهدُ آسِرةٌ تتحدَّث عن المشاعر الطيبة لسكَّان بيت الموتى. هناك مسرحُ الميلاد، وشراءُ حصان كُمَيْت، إلى جانب حيوانات السِّجن - ماعز ونَسر

(1) «مذكِّرات من بيت الموتى»، صفحة 289.

فتـي - كلُّ هـذه اللحظات المتعلِّقـة بالحياة الرعويـة الرغيـدة، التـي صـوَّرَهـا دوستويفسـكي بمهـارةٍ فائقـةٍ وبصـدق، منحَتْـه المجـدَ الـذي يسـتحقُّه بوصفـه فنانـاً كبـيراً وإنسـاناً ذا قلـبٍ عظيـم. ومـا دامـت رُوحـه لم تُصَـب باليَـس في السِّـجن، ومـا دام أنـه اسـتطاع أن يحافـظَ وسـط تلـك الآلامِ والمظـالمِ الجسـدية والأخلاقيـة عـلى المـروءةِ في نفسـه تجـاه كلِّ مـا هـو إنسـاني؛ فهـذا يعنـي أنـه كانـت لديـه طاقـاتٌ كامنـة جبَّـارة! ومـن هـذا المنطلَـقِ أيضـاً نتوصَّـل إلى استنتاجٍ فلسـفيٍّ مُفـاده أنَّ السِّـجن أيّـاً كان لا يسـتطيع الانتصـارَ عـلى الإيمان العميـقِ والحقيقـي ... وخلـفَ كلِّ هـذه الابتهاجـات والاسـتنتاجات أُغفِـل الإنسـانُ الأخـيرُ الـذي راح يعيـش آخـرَ أيامِـه في «بيـت المـوتـى» أو في منفـى آخـرَ، مـع أصفـادٍ، وفي سلاسـلَ تحـت رقابـةٍ دائمـةٍ ويقظـةٍ للجنـود، ذلـك المحكـوم عليـه بالأعـمال الشـاقة إلى الأبـد، الـذي يقارنـه دوستويفسـكي نفسُـه (إنهـا مقارنـةٌ ذكيـة جـدّاً، أليـس ذلـك؟) بالشـخص الـذي يُدفَـن حيّـاً. غـاب عـن بالِهـم، في الوقـت نفسـه، أن يسـتفسروا عـن السـببِ الـذي منـع الصـدأ مـن أن يَلُـفَّ قلـبَ دوستويفسـكي. كـما لـو أنَّ قلبـه كان مصنوعـاً مـن الذهـب الخالـص، أم إنـه كان ثمَّـة سـببٌ آخـرُ هنـا؟ إنـه سـؤالٌ مثـيرٌ للفضـول، بـكل تأكيـد. لا يـضرُّ أبـداً التحقـقُ مـن خرافـةٍ مـا بشـأن القلـوب المصنوعـة مـن الذهـب، عـلى الأقـل لكـي يكـونَ هنـاك دليـلٌ إضـافي عـلى كونهـا حقيقيـة.

ذلـك الاقتبـاسُ الـواردُ أعـلاه كافٍ لأن يبعـثَ الحـيرة عنـد القـارئ؛ إذ إنَّ القلـبَ الذهبـي يتوقَّـع الكثـيرَ جـدّاً لنفسـه! بيـدَ أنَّ انتظـارَ حيـاةٍ جديـدة كان حـاضراً دائـماً في حيـاة دوستويفسـكي أثنـاء فـترة السِّـجن، وكان يشـكِّل نوعـاً مـن العـزاء لـه. وهـو يشـير إلى «الحيـاة الجديـدة» في «مذكِّـرات مـن بيـت الموتـى» في كلِّ مـرَّة يشـعر فيهـا البطـلُ الـذي يجـري السـردُ باسـمه، وتحديـداً

بدرجةٍ قوية، بوضعه. هكذا، على سبيل المثال، يستيقظ غوريانتشيكوف مصادفةً في ليلةٍ ما بعد العرْض الأول في المسرح. يروي: «أرفع رأسي قليلاً وأنا أشعرُ بالخوف، وألقي نظرةً على رفاقي النائمين على الضوءِ المتأرجِح للشمعة السداسية الرؤوس. أنظر إلى وجوههم الشاحبة، إلى أسرَّتهم البائسة، وإلى كلِّ ذلك الضنك والفقر المُدقِع؛ فَتنشأ عندي رغبةٌ كبيرة في أن أتأكدَ من أنَّ كلَّ ذلك ليس استمراراً للكابوس المقيت، وإنما حقيقة واقعة»[1].

وكيف يحلُّ دوستويفسكي تلك الرؤيا الفظيعةَ؟ إنها لحظةٌ مناسِبة تماماً لكي يذرفَ فيها الدموع: لا يمكن لأيِّ كذبةٍ أو تلفيق أن يُقارَن مع ما رآه. إلَّا أنهم لا ينتحبون في السِّجن، وسوف نعرف ذلك لاحقاً عن طريقِ دوستويفسكي نفسِه. أما الآن فها هو ذا جوابُه المباشِر: «أنا لستُ موجوداً هنا إلى الأبد، وإنما لبضع سنوات فقط، أقول لنفسي ذلك ثم أرمي رأسي على الوسادةِ من جديد». هل تسمعون؟ وحدَه هذا الجوابُ يصلُح لأن يكون إجابةً عن السؤالِ المطروح. آمُل أنكم لاحظتم السؤال. لا يوجد هنا أيُّ إشارةٍ مرجعية إلى المسرح أو الماعز، أو الحصان الكُمَيْت. كما تغيب المناقشاتُ ذات الطابع الإنساني التي يمكن أن تُصادَف في أماكنَ أخرى من «المذكِّرات». يمكن الركونُ إلى أمرٍ واحد فقط؛ أن السِّجن ليس إلى الأبد، وإنما لبعض الوقت. لم ينسَ دوستويفسكي ذلك لحظةً واحدة طَوال فترةِ وجوده في السجن. وهو يقول: «كنت أريدُ أن أحيا بعد السِّجن أيضاً».

---

(1) المجلد الثالث، صفحة 168.

# 5

لقد أعاقت المقدِّمة الفهمَ الصحيحَ لرواية «مذكِّرات من بيت الموتى» إلى درجةٍ كبيرة. فما هي الحاجة إليها؟ لماذا كان دوستويفسكي مضطرّاً إلى أن يرويَ حكايةً مختلَقة، كما لو أنَ المذكِّرات تعود إلى النبيل ألكساندر بتروفيتش غوريانتشيكوف، الذي حُكِم عليه بالنفي مع الأعمالِ الشاقة بسببِ قتْلِه زوجته؟ هل كان ذلك ضروريّاً للرقابة؟ ولكن «المذكِّرات» تكشف بوضوحٍ تامٍّ أنَّ غوريانتشيكوف إنما حُكِم عليه بالسَّجن لأسبابٍ سياسية. هكذا، عندما قرَّر أن ينضمَّ إلى احتجاجاتِ المعتقلين، ذكَّره السجناء السياسيون الآخرون أنه بمشاركته يمكنه أن يزيدَ الأمرَ تعقيداً وحسب؛ إذ قالوا له: «تذكَّر لماذا وصلنا إلى هنا». ومن ثَم تصدُر تلميحاتٌ شفافة في مناسباتٍ أخرى إلى أنَّ مؤلِّف المذكِّرات ليس مجرماً جنائيّاً، وإنما مجرمٌ سياسي. باختصار، المقدِّمة ما كانت لتخدعَ الرقابة. وفي حالِ أنها كانت قادرةً على خداعِ أحدٍ ما فإنه القارئ، من خلالِ تقديمها غوريانتشكوف نفسَه الذي يقوم بالسرد في صورةٍ مزيفة. إذا ما حكمنا حسب المقدِّمة، فنحن نتعامل مع شخصٍ هالك تماماً بالنسبة إلى الحياة. فهو لا يتحدَّث مع أحدٍ، حتى إنه لا يقرأ شيئاً

وهـو يمـضي أواخـرَ أيامـه في مـكانٍ نـاءٍ في سـيبيريا، دون أن يغـادرَ وَكْـرَه إلا لكـي يكسِـبَ قليـلاً مـن المـال عـن طريـقِ إعطـاء الـدروس. وهـو يمـوت وحيـداً، وقـد نسـيَه الجميـعُ مثلـما نـسيَ هـو الجميع بـدوره. بالتأكيـد، يحـدُث أن يكـون هنـاك أنـاسٌ موتـى وهـم أحيـاءٌ ويعيشـون أحـراراً، وليـس في السـجون فقـط. لكـن هـؤلاء النـاس لا يكتبـون مذكّراتهـم، وفي حـالِ أنهـم فعلـوا وكتبـوا ذلـك، فـلا بـدَّ أن تكـونَ في نـبرةٍ مختلِفـة تمامـاً عـن «مذكّـرات مـن بيـت الموتـى». كيـف لهـم أن يحصلـوا عـلى أعـينٍ لكـي يـرَوا ويراقبـوا لهْـوَ المسـاجين وتسـاليهم؟ مـن أيـن كانـوا سـيحصلون عـلى شـغفِ الحيـاة لكـي يحنُّـوا إلى مختلِـف أنـواع «الخـير» الـذي اسـتطاع دوستويفسـكي أن يعثـرَ عليـه في السِّـجن؟ كان بإمـكانِ غوريانتشـيكوف أن يصـفَ (في حـالِ أنـه أراد أن يوصِّـف. أكـرِّر أنَّ مثـلَ هـؤلاء النـاس نـادراً مـا يكتبـون) الجحيـمَ الأبـديَّ العديـمَ الفائـدة. لا يوجـد لديـه أمـلٌ، وهـل هـذا لا يعنـي، يـا تُـرى، أنَّ الأمـل بـات مفقـوداً بالنسـبة إلى العالَـم بأكملـه؟ وأنـا لا أريـد اعتـمادَ ذلـك كـما لـو أنـه مبـدأ - لا يمكـن للقـارئ أن يعـترضَ حتـى الآن - وإنـما مـا زلـتُ أقـول ذلـك مـن ناحيـةٍ «سـيكولوجية» فقـط. لقـد كان دوستويفسـكي نفسُـه أثنـاءَ كتابـة المذكّـرات وخـلال فـترةِ وجـودِه في السِّـجن نقيضـاً مبـاشراً لشـخصيةِ غوريانتشـينكوف؛ لأنـه كان في الدرجـة الأولى إنسـاناً مفعـماً بالأمـل، بالأمـل العظيـم؛ ولذلـك فـإنَّ طريقـةَ فهْمِـه للعـالَم وفلسـفتِه كانـت فلسـفةً قائمـة عـلى الأمـل. وهـذا مـا حافـظَ عـلى قلبِـه بعيـداً عـن أيِّ نـوعٍ مـن الصدأ، وهـذا مـا كان سـبباً لكـي يحمـلَ معـه مـن السِّـجن تلـك «النزعـةَ الإنسـانية» التـي كان حملَهـا معـه إلى داخـل السِّـجن، وهـي سـليمةٌ وغـير مشـوَّهة. لـو أنَّ رُوحـه كانـت ملوَّثـة باللعنـةِ الأبديـة، كـما هـي الحـال عنـد غوريانتشـينكوف،

فهل كانت ستساعده الإنسانيةُ، يا تُرى؟ هل كانت «قَناعاته» ستدعَم معنوياته، كما أخبرنا هو نفسه، أم على العكس، كانت «القَناعات» نفسُها بحاجةٍ إلى الدعم، على الرغم من كلِّ السموِّ الذي تتصِف به؟ إنه سؤالٌ ضروري وفي محلِّه تماماً. ما كان غوريانتشيكوف ليكتبَ روايةَ «مذكِّرات من بيت الموتى»، أمَّا دوستويفسكي فقد فعل ذلك. وفي حالِ أنه كان يُسمَع في الروايةِ بين الفينة والأخرى نوعٌ من النَّشاز والتنافر الحاد، وإذا كنتم تصادفون مشاهدةً معزولةً وملاحظاتٍ تخرِقُ بطريقةٍ مباغِتة التناغمَ العامَّ للمِزاج «الإنساني الشفوق»، فمن الضروري ربطُ ذلك بتقلُّب الأمل وعدم ثباته؛ إذ إنَّ الأملَ كائنٌ على درجةٍ عالية من النَّزَق؛ فهو يأتي ويرحلُ كما يحلو له ومتى يشاء. ومن المؤكَّد أنَّ الأمل كثيراً ما يهجُر دوستويفسكي أثناءَ وجودِه في السِّجن، ولفترة طويلة. وفي هذه اللحظاتِ التي كان يشعرُ فيها بأنه بات إلى الأبد ودائماً شبيهاً بالإنسانِ الأخير، كانت تتوالد لديه تلك العناصرُ الرُّوحية الجديدة والفظيعة التي قُيِّض لها فيما بعد أن تتطوَّر بصورةٍ مغايرة تماماً إلى فلسفةٍ أخرى، وأن تتحوَّل إلى فلسفةِ السِّجن الحقيقية، إلى يأسٍ وإلى فلسفةِ الإنسان من العالَم السفلي. سوف يكون لنا حديثٌ بخصوصِ كلِّ ذلك أكثرَ من مرَّة. لكنَّ هذا بقي مستتراً حتى الآن، ما دامت «الإنسانية» باقيةً بشكلٍ راسخٍ لا يتزعزع، وما دام دوستويفسكي يريد شيئاً واحداً فقط؛ العودةَ إلى الحياة السابقة، وأن يفعلَ ما كان يفعله من قبلُ، ولكن بشكلٍ أفضلَ وأنقى، من دون تحيُّز أو انسحاب، ومن دون ضَعفٍ أو تنازُل، وما دام الحديثُ غيرَ واردٍ بخصوص «الانقلابات» في القَناعات. إنَّ النظامَ الطبيعي للأشياء لم يرفع من صوته بعدُ، بينما تنتصر النزعةُ الإنسانية وتسودُ.

وفي هـذا الإطـارِ تُعَـدُّ مقـالاتُ دوستويفسـكي السياسـيةُ والاجتماعيـةُ التي تعـودُ إلى الفـترةِ موضـوعِ الوصـف، في غايـةِ الأهميـة ومثـيرةً جـدّاً للاهتـمام. وهـي غيــرُ كثـيرة. وقـد نُـشرت في مجلـة «الوقـت» لعـام 1861. ومـع أنَّ معظمهـا كان يحمـل طابَعـاً جدليّـاً، فـإنَّ النـبرة الهادئـة والموقـف التوقـيري مـن الخَصـم، إلى جانـب الشـعور بالكرامـة الذاتيـة وبالطاقـة المميِّـزة لـه مـن ناحيـةِ اللغـة والفِكـر؛ فإنها غيــرُ مسـبوقة حقّـاً. وليـس المقصـود أنها غيــرُ مسـبوقة بالنسـبة إلى دوستويفسـكي، الـذي كان جِدالـه في بعـض الأحيـان غـيرَ لائـق أو فاحشـاً بـكلٍّ بسـاطة (مثـل اعتراضِـه عـلى البروفِسـور غرادوفسـكي)، وإنـما غيــرُ مسـبوقة في الأدبِ عمومـاً وبالمطلَـق. درجـتِ العـادةُ أن يُنسـى موضـوعُ الجـدالِ مـن فـوره بمجـرَّد أن يبـدأ الجِـدال؛ حيـث يسـعى الخصـومُ إلى أن يتفـوَّق بعضهـم عـلى بعـض مـن خـلالِ الظرافـة وسرعـة البديهـة، وفي مجـال الديالكتيـك والتبجُّـح بالعلـم وسَـعة الاطـلاع، في حـينِ أنَّ مقـالات دوستويفسـكي خاليـةٌ تمامـاً مـن أمـورٍ كتلـك. وهـو لا يريـدُ السـيفَ، بـل يريد السِّـلْم؛ السِّـلْم مـع دوبروليوبـوف الـذي يقـدِّره بصفتـه كاتبـاً موهوبـاً، وذلـك عـلى الرغـم مـن آرائـه المتطرفـة، والسِّـلْم مـع الأدب الـكاره للسـلافيين. وإنـه لأمـرٌ أسـاسيٌّ في هـذا السـياقِ أنَّ دوستويفسـكي فـوق ذلـك يبحـثُ عـن المصالحـةِ أو المهادنـة، وهـو دوستويفسـكي ذاك نفسـه الـذي لم يُطِـق صـبراً عنـد أولِ اعـتراض بعـد «خطابـه البوشـكيني»، حيـث طالـبَ جميـعَ الأحـزابِ بالاتحـاد بعضهـا ببعـض، وعـلى الفـور نـزع قِنـاعَ «الشـخص الـذي يحمـل أعبـاءَ» البشريـة جمعـاء عـلى كاهلـه؛ ولكـن في الوقـت نفسِـه يجـب ألَّا يغيبَ عن البـال – خصوصـاً أولئـك الذيـن يقـدِّرون فيـه الموهبـةَ النبويـة – اعتراضاتُـه عـلى أنصـارِ النزعـةِ السـلافية بخصـوص جريـدة «اليـوم» التـي كانـت

قـد بـدأت آنـذاك في الصـدور. بـل عـلى العكـس، للأسـف: الأرجـحُ أنـه يتعيَّن عليـه أن ينسـى تماماً ذلـك الجـدالَ مـع جريـدة «اليـوم»؛ لأنـه يحطُّ بطريقـةٍ حاسـمةٍ مـن قـدراتِ دوستويفسـكي النُّبوئيـة. عـن أيِّ نبـيٍّ يمكـن الحديـثُ مـا دام لم يتمكَّـن مـن التنبـؤ بمسـتقبله الشـخصي، وغـير البعيـد جـداً، بالمناسـبة؟ ومـا دام قـد عاتـب عـام 1861 أنصـارَ النزعـةِ السـلافية (السـلافيانوفيل) بجدِّيـة وبصـدقٍ لأنهـم لا يجيـدون تقديـرَ الخدمـات التـي يقدِّمهـا «الغربيـون»، كـما راح يدافـعُ عـن هـؤلاء «الغربيِّـين» بحـرارةٍ عاليـة ليكتشـفَ فيهـم فيـما بعـدُ مجـرَّد ليبراليِّـين مقهقهـين وحسـب؟ يحقُّ للشـخص البـارزِ وحتـى العبقـري أن يخطـئ؛ بيـدَ أنَّ النبـي هـو نبـيٌّ بالضبـط؛ لأنـه يعـرف المسـتقبل مـن دون أن يخطـئ. أمـا المقـال الـذي يـدور الحديـثُ عنـه هنـا فغيـرُ معـروفٍ عـلى نطـاقٍ واسـع. ولهـذا السـببِ سـوف يكـون مفيـداً أن نـوردَ اقتباسَـين أو ثلاثـة منـه. وهـي سـتُقنِع القـارئ بصـورةٍ نهائيـة بـأنَّ دوستويفسـكي لم ينـسَ عقيدتَـه وإيمانَـه أثنـاء وجـودِه في السِّـجن. وهـا هـو ذا الاقتبـاسُ الأول (وأنـا أنتقيهـا مـن دون أيِّ ترتيـب تقريبـاً - لأن المقـال بأكملِـه مكتـوبٌ في هـذه الرُّوحيـة): «سـوف نقـول بصراحـة: مـن المعـروف أنَّ وجهـاء السـلافوفيل هـم أنـاسٌ شرفـاء. ومـا دام الأمـر كذلـك، فكيـف يمكـن القـولُ عـن الأدبِ ككل (أي الأدبِ ذي النزعـة الغربيـة عـلى نحـوٍ خـاص)، أنـه «غيـرُ مبـالٍ تجـاه آلامِ الشـعب»؟ كيـف يمكـن الحديـث: «عـن توبيـخ قوميتنـا لا بسـبب الحـبِّ الحـارِّ والسـاخط (التشـديد مـن قِبَـل دوستويفسـكي)، بـل بفعـلِ عـدمِ النزاهـة الداخليـة المعاديـة غريزيّـاً لأي تقديـس للـشرف والواجـب»؟ مـا هـذا التطـرُّف في العـداوة! مَـن كان قـادراً أن يقـول ذلـك، باسـتثناء ذلـك الشـخص الـذي يوجـد في آخـرِ

درجةٍ من درجات الجنون المفرط والمتطرِّف! ... إنَّ هذا يُعبِّق برائحةِ الحرق والتعذيب»[1].

لقد اقتطف دوستويفسكي تلك الفقرةَ المُشارَ إليها من مقالةٍ في جريدةِ «النهار». وقد أثارت لديه سخطاً شديداً، لدرجةِ أنه لن يستطيعَ أن ينساها فيما بعدُ، بل سوف يستشهد بها من جديد وهو يهتف: «كيف أمكنك أن تسمحَ ليَدِك أن تخُطَّ مثلَ ذلك!» ثم حدَث أن رفع دوستويفسكي يدَه في وقتٍ لاحق وكتبَ عباراتٍ أقسى من ذلك بكثير. مَن كان يظن، ونحن نتحدَّث هنا عن «الغربيِّين» وعن نضالهم ضد الأعراف والأنظمة التي كانت قائمةً قبل العملية الإصلاحية، أنه كانت توجد لديهم دموعٌ غيرُ مرئية خلفَ الضحكِ الصريح والسخرية المكشوفة؟! وهل كان السلافوفيل يفهمون، يا تُرى، تحت عنوان «الفسق الداخلي» شيئاً آخرَ مختلفاً عن ذلك؟ إلَّا أنَّ دوستويفسكي لا يتصوَّر بعدُ إلى أيِّ حدٍّ سوف يجد نفسَه مضطرّاً إلى أن يفصحَ فيما بعد. أما الآن فما زال يقفُ إلى جانب «الغربيِّين»: «كما لو أنه لم يكن يوجد لدى الغربيِّين ذلك الإحساسُ بالرُّوح الروسيةِ وبالقومية الروسية (التشديدُ من قِبَلي-شستوف)، كما هي الحال عند السلافوفيل! أجل، كان مثل ذلك، لكن «الغربيِّين» لم يريدوا أن يُغمِضوا أعينَهم ويصمُّوا آذانهم على طريقةِ الدراويش أمام بعض الظواهر غير المفهومة من قِبَلهم. لم يكونوا يرغبون في أن تُترك من دون حلٍّ، وأن يتعاملوا معها بطريقةٍ عِدائية مهما كلَّف ذلك، كما سبق أن فعل السلافوفيل. لم يغضُّوا بصرَهم عن النورِ وكانوا يريدون أن يبلغوا الحقيقةَ عن طريق العقل والتحليل والفهم ... لقد

---

(1) المجلد التاسع، صفحة 154.

اتجهت الحركـةُ الغربيـة نحـو الواقعيـة، في حـين أنَّ النزعـة السـلافوفيلية مـا زالـت تقـف حتـى الآن عنـد مَثَـلٍ أعـلى غامـضٍ وغـيرِ محـدَّد» ... وأيضـاً «سـارت الحركـة الغربيـة في طريـق التحليـل الـذي لا يرحـمُ، وسـار خلفهـا كلُّ مـا كان بإمكانـه أن يسـيرَ في مجتمعنـا. فالواقعيـون لا يخافـون مـن نتائـجِ تحليلهـم. ليكـن ثمَّـة أكاذيـبُ في تلـك المجموعـةِ مـن النـاس، ولنفـرض أنهـا تنطـوي عـلى أحـطٍّ أنـواعِ الريـاء الـذي تُعيـدون قراءتـه بمتعـةٍ كبـيرة. نحـن لا نخـافُ مثـلَ هـذا الإحصـاءِ الشـامتِ لأمراضنـا. ليكـن هـذا كذِبـاً محضـاً، لكـنَّ الحقيقـةَ هـي التـي تدفعنـا وتقودنـا. ونحـن نؤمـن بذلـك»[1].

... وهكـذا دَوالَيـك؛ المقـالُ بأكملِـه مكتـوبٌ بهـذه الرُّوحيـة. وهـو لا يمثِّـل في مضمونـه شـيئاً ذا أهميـة. وقـد كانـت المجـلاتُ في عَقـد السـتينيات (مـن القـرن الـ19 - المترجِـم) مليئـةً بمثـلِ هـذا النـوع مـن المقـالات. المهـم هنـا هـو أنَّ دوستويفسـكي لم يكـن يخمِّـن في تلـك الفـترة، عـلى مـا يبـدو، إلى أيِّ مـدى سـوف يتعـيَّن عليـه أن يبتعـدَ عـن جميـعِ تلـك الأفـكارِ، وذلـك عـلى الرغـم مـن أنـه كان قـد بلـغَ الأربعـين مـن العمـر، وأنـه عـاش وخـبَرَ الكثـيرَ - بـدءاً بخصومتـه مـع بيلينسـكي، ومـروراً بالسِّـجن، ومـن ثَـم التجنيـد الإجبـاري. وهـو لم يجـرؤ عـلى التفكـيرِ في أن الإيـمانَ سرعـان مـا سـيهجُره، بـل راح يمجِّـد الواقعيـة، والتحليـل والنزعـة الغربيـة بمنتهـى الحماسـةِ والشَّـغف. وفي تلـك الأثنـاء كان عـلى شـفا انقـلابٍ روحـي هائـل وعظيـم. وهـو يحمِّـل هـذا التقديـر للنزعـةِ الإنسـانية ... ثـم سـينقضي بعـضُ الوقـت، وسـوف ينهـار المَثَـل الأعـلى القديـم مصروعـاً بضربـةٍ مـن عـدوٍّ غـير مرئـي ... سـتبدأ حِقبةُ العالَـم السـفلي ...

(1) «مذكِّرات من بيت الموتى»، صفحة 289.

# 6

ومتى ستبدأ هي، إذن؟ ثمَّة حقيقةٌ جديرةٌ بالاهتمام: في تلك اللحظةِ بالتحديد التي بدأت فيها، كما يبدو، تتحقَّق الآمالُ المرجوَّة لجيل الخمسينيات (من القرن 19 - المترجم). كان نظام القَنانة قد سقط. وهناك مجموعةٌ كاملة من المشاريع الإصلاحية منتظَرة وقيد التنفيذ تبشِّر بتحقيق ذلك الحُلم على أرض الواقع؛ الحُلم الذي كرَّس بيلينسكي نفسَه له والذي راحت ناتاشا تبكي عليه («مذلُّون مهانون»)، بينما كان إيفان بتروفيتش يقرأ لها أولَ رواية كتبها. حتى تلك اللحظة لم يكونوا يتحدَّثون عن «الإنسان الأخير» إلا في الكتب، أما الآن فقد أصبحت حقوقه معترفاً بها على نطاق الشعب بأسره. كانت «النزعة الإنسانية» حتى الآن أمراً تجريديّاً فقط، في حين أنها باتت الآن مدعوَّة لأن تدير الحياة وتقودها. كان ينبغي على أكثر أنصار المثاليين تطرُّفاً في بداية الستينيات أن يعترفوا بأنَّ الواقع البطيء والعديم الحركة عادةً إلى درجةٍ شديدة، لا يتخلَّف هذه المرة كثيراً عن أوهامهم وأحلامهم. كان ثمَّة احتفال عظيم في الأدب. وحدَه دوستويفسكي لم يكن يشاطرهم الابتهاجَ العارم. إنه يقف على جنب، كما لو أنه ما مِن شيء غير عاديٍّ قد حدث. وأكثر من ذلك،

راح يختبئ في العالَـم السـفلي: آمـال روسـيا ليسـت آمالـه، وطموحاتها ليسـت طموحاتـه. لا شـأنَ لـه بـكلِّ ذلـك ...

كيـف يمكـن تفسـيرُ هـذه اللامبـالاة مـن قِبـل أعظـمِ كاتـب روسي تجـاه تلـك الأحـداثِ التـي جـرى تقييمُهـا في الأدب عندنـا عـلى أنهـا حجـرُ الأسـاس لبدايـة حِقبـة جديـدة في التاريـخ الروسي؟ التفسـير الشـائع بسـيط: كان دوستويفسـكي كاتبـاً عظيـماً، لكنـه مفكِّـر سـيئ ومتواضـع. قِيمـة التفسـيرات الدارجـة معروفـةٌ. وهـذا التفسـير ليـس أكثـرَ قيمـةً مـن غـيره، ولكنـه جديـرٌ بالاهتـمام مثـل أيِّ شـأن عـام. ولم يكـن عبثـاً أنـه أبـصر النـور. كان ضروريّـاً للنـاس، ولكـن ليـس بهـدف فتْـح الطريـق أمـام الحقيقـة، بـل عـلى العكـس، لكـي تُغلَـق كافـة الطـرق المؤديـة إليهـا، مـن أجـل خنقِهـا ومنعِهـا مـن أي حركـة. ومـا مِـن شيء هنـا يثـير الدهشـة، بالطبـع، إذا مـا تذكَّرنـا عـن أي «حقيقـة» يـدور الحديـث هنـا! وكيـف يمكـن ألا تُخنَـقَ، مـا دام أنهـا كانـت تثـير أقصى درجـات الذُّعـر عند دوستويفسـكي نفسـه؟! سـوف أورد هنـا مقطعـاً صغـيراً فقـط مـن مذكِّـرات إنسـان مـن العالَـم السـفلي. هـذا مـا يقولـه للمـرأة التـي جـاءت إليـه مـن بيـت الدعارة بقصـد «الدعـم الأخلاقـي»: «... هـل تدريـن مـا الـذي أنـا بحاجـةٍ إليـه، في واقـع الأمـر؟ أن تختفـي وتذهبـي إلى الجحيـم، تلـك هـي الحقيقـة. أنـا بحاجـة إلى السـكينة. بـلى، أنـا أتمنـى ألَّا يُقلِـق راحتـي أحـدٌ، وأنـا مسـتعدٌّ الآن لأن أبيـعَ الدنيـا كلَّهـا بفلـس. هـل يجـب أن ينتهـيَ العالَـم، أم ألَّا أشربَ الشـاي؟ وأنـا أقـول، دعِ العالَـم ينتهـي، وأمـا أنـا فسـأبقى أشرب الشاي دائماً»[1].

(1) «مذكِّرات من العالم السفلي»، صفحة 171.

مَـن ذا الـذي يقـول ذلـك؟ مَـن الـذي دار في خَلَـده أن يضـعَ عـلى لسـان بطلـه مثـلَ هـذه الكلـماتِ المفرطـةِ في أنانيتهـا الفظيعـة؟ إنـه دوستويفسـكي الـذي كان يعلـن حتـى وقـتٍ قريـبٍ وبمشـاعرَ حـارَّةٍ وصادقـةٍ تلـك الكلـماتِ التـي سـبق أن استشـهدتُ بهـا أكثـرَ مـن مـرَّة بخصـوصِ الإنسـان الأخـير. هـل أصبحتـم عـلى درايـةٍ الآن بحجـمِ الضربـةِ غـيرِ المسـبوقةِ التـي كانـت لازمـةً لكـي تقـذفَ بـه إلى ذلـك الجانـبِ الآخـرِ المتطـرف؟! هـل أصبحتـم عـلى علـمٍ الآن بـأيِّ حقيقـةٍ كان ينبغـي لهـا أن تتكشَّـف لـه؟! أواه، لقـد كان كتَّـاب المقـالات الاجتماعيـة عندنـا عـلى حـقٍّ ألـف مـرة عندمـا راحـوا يبحثـون عـن مـكانٍ عـامٍّ لمثـل تلـك الحقيقـة!

إنَّ «مذكِّـرات مـن العالَـم السـفلي [«من تحـت الأرض»]» عبارةٌ عـن عويلٍ ناتـجٍ عـن الرعـب، يقطـع نِيـاطَ الـرُّوح، ويطلِقـه الإنسـانُ الـذي تأكَّـد فجـأةً مـن أنـه كان يكـذِب طَـوال حياتـه، متظاهـراً حـين راح يُقنِـع نفسَـه والآخريـن بـأنَّ خدمـةَ الإنسـان الأخـير تمثِّـل أسـمَى هـدفٍ في الوجـود. كان يعتقـد أنَّ القـدَر اختـاره لكـي يقـومَ بعمـلٍ عظيـم، وإذ بـه يشـعر فجـأةً بأنـه ليـس أفضـلَ مـن النـاس الآخريـن عـلى الإطـلاق، وأنـه هـو أيضـاً غيـرُ مُبالٍ بشـتَّى الأفـكار، شـأنه شـأن كلِّ إنسـان فـانٍ. دعِ الأفـكار تنتصر ألـفَ مرة، دعْهـا تحرِّر الفلاحـين، ولْتُنشـئ محاكـمَ عادلـةً ورحيمـة، دعْهـا تقـضي عـلى ظاهـرة التجنيد الإلزامـي؛ هـذا لـن يجعـل رُوحـه تشـعر براحـةٍ أكـبرَ ولا بفـرحٍ أكثـرَ ... إنـه مضطـرٌّ إلى أن يقـولَ في نفسـه، إنـه لـو أصابـت روسـيا محنـةٌ عظيمـةٌ بـدلاً مـن جميـع هـذه الأحـداثِ العظيمـةِ والسـعيدةِ، لمـا كان شـعرَ بالسـوء أكثـر، بـل ربما كان شـعرَ بـما هـو أفضـلُ بالنسـبة إليـه ... مـا العمـل؟ هيـا قولـوا مـاذا يجـب أن يفعـلَ الشـخص الـذي اكتشـف في داخلـه مثـلَ هـذه الفكـرةِ البشـعة والمثيرة

للاشمئزاز؟ وبشكلٍ خاص، ماذا يجب أن يفعل ذلك الكاتبُ الذي اعتاد أن يعتقدَ أنه مُلزَم بأن يتشارك مع القراء كلَّ ما يعتمِل في رُوحه؟ هل يتعيَّن عليه أن يقولَ لهم الحقيقةَ؟ أن يخرج إلى الساحةِ وأن يعترفَ بشكلٍ علنيٍّ وصريحٍ وعلى الملأ، بأن حياته السابقةَ برُمَّتها وجميعَ أقوالِه السابقةِ كانت مجرَّد كذبٍ وتكلُّفٍ ورياء، وأنه في تلك الفترة التي كان ينتحِب فيها على ماكار ديفوشكين، لم يكن في حقيقةِ الأمر يفكِّر مطلقاً في ذلك الإنسانِ التَّعِسِ، وأنه كان يرسُم لوحاتٍ ومشاهدَ يواسي من خلالها نفسَه وجمهورَه فقط؟ هذا في عمرِ الأربعين، حين بات مستحيلاً عليه أن يبدأ حياةً جديدة، وأمَّا القطيعةُ مع الماضي، فتعني أن يدفنَ نفسَه حيّاً ... هنا راح دوستويفسكي يحاول متابعةَ كلامِه على الطريقةِ القديمة؛ ولذلك بدأ، بالتزامن تقريباً مع «مذكِّرات من العالم السفلي»، بكتابة روايةِ «مذلُّون مهانون»، حيث راح يحمِّل نفسَه فيها بقوَّة فكرة التفاني بأكملها، وذلك على الرغم من أنه كان يتهاوى تحت وطأةِ ثِقَلها. ومن أين له أن يستمدَّ القوى اللازمةَ لمثل هذا الخداعِ المنتظِم، ويشمل ذلك خداعَ الذات؟ لم يَعُد بإمكانه أن يتحمَّل تلك النبرةَ في «مذلُّون مهانون» إلا بصعوبة كبيرة. وهناك صفحاتٌ يتسلل من خلالها ضوءٌ كريه ومشؤوم لتلك الرؤيا الجديدة، علماً بأنَّ عددَها ليس بالكبير في واقعِ الأمر. بات الإنسانُ من العالَم السفلي لا يُرى هناك إلا في حديثِ الأمير (في المطعم ليلاً) مع إيفان بتروفيتش، لكنَّ هذا كافٍ لكي تصبحَ واضحةً شدَّةُ العاصفة التي توشِك أن تهُبَّ في رُوح دوستويفسكي. راح الأميرُ يسخرُ طَوال الوقت وبطريقةٍ وقحةٍ جداً من «المُثُل العليا» ومن «شيللر»، في حينِ أنَّ البائسَ إيفان بتروفيتش ظلَّ جالساً كما لو أنه وضِع في

حوضٍ من الماء، دون أن يعرفَ كيف يدافع عن نفسِه، ولا حتى أن يبقى متماسكاً مع الحفاظِ على ماءِ وجهه. أن يسمح المرءُ، حتى ولو كان ذلك في الرواية، لشخصٍ ما أن يسخرَ من قُدسِ أقداسه، فهذا يعني أنه يقوم بالخطوةِ الأولى نحو رفضِه والتنكُّر له. بيدَ أنَّ دوستويفسكي، والحق يقال، لم يسمح للأميرِ بالانتصارِ المظفَّرِ سوى مرةٍ واحدة - وللحظة واحدة فقط. ومن ثَمَّ، راحت الشخصياتُ الفاعلة على مدارِ الصفحات التالية، تتأنَّق وتتباهى الواحدة أمام الأخرى بنُبلها وبنُكرانها للذات. بيدَ أنَّ ملعقةً من العَلْقم تُفسِد برميلاً كاملاً من العسل. لا سيما أنَّه عسلٌ غيرُ حقيقي تحديداً، وإنما مغشوش ومزيَّف. نفِدَت حماسةُ دوستويفسكي. لم يَعُد فِعلُ الخير وخدمةُ الفكرة يلهمانِه أكثرَ بعد ذلك.

إنَّ رواية «مذكِّرات من العالم السفلي» تَنكُّر علني - ولو أنه غيرُ صريح - من قِبل دوستويفسكي لماضيه. «لا أستطيع، لا أستطيع أن أتظاهرَ أكثرَ من ذلك، لا يمكنني أن أعيشَ هذه الحياةَ الكاذبةَ من الأفكار، علماً بأنه لا يوجد لديَّ أيُّ حقيقة أخرى؛ بغضِّ النظر عمَّا سيحدث». هذا ما تقوله لنا تلك المذكِّرات، بغضِّ النظر عن سعي دوستويفسكي إلى إنكارها في الحواشي والملاحظات. لم يحدُث قط، عند أيِّ كاتبٍ روسيٍّ آخرَ، أن كانت «كلمته» تعكس كلَّ هذه الدرجةِ من الإحباط، وكلَّ ذلك اليأس. وهذا بالتحديدِ ما يفسِّر تلك الجسارةَ غيرَ المسبوقةِ (كان الكونت تولستوي سيستخدم هنا كلمةَ «وقاحة»، وقد سبق أن قال مثلَ ذلك بحقِّ نيتشه) التي يسمح دوستويفسكي لنفسِه بها أن يهينَ المشاعرَ الإنسانيةَ الأكثرَ تقديراً وقداسة. لقد سبق أن ذكرتُ أنَّ دوستويفسكي يروي في «مذكِّرات من العالم السفلي» قصةَ حياتِه الخاصة.

إلَّا أنـه لا يجـوز تفسـيرُ هـذه الكلـماتِ وفهْمُهـا بمعنـى أنـه كان هـو ذاتـه مضطـرّاً في حقيقـةِ الأمـر إلى أن يتـصرَّف عـلى ذلـك النحـوِ الفـظِّ مـع صديقتـه العابـرة. كلَّا، وممـا لا شـك فيـه أنَّ حكايـة ليـزا مختلَقـة تمامـاً. بيـدَ أنَّ الفظاعـةَ الكبـيرة التـي تنطـوي عليهـا المذكَّـرات إنـما تكمُـن في أنَّ دوستويفسـكي كان بحاجـة إلى أن يقـومَ بمثـلِ ذلـك التـصرُّفِ الشـنيع حتـى ولـو بصـورةٍ ذهنيـة، في خيالـه وحسـب. وهـو لا يطـردُ هنـا ليـزا بعيـداً عنـه؛ فأنـا عـلى ثقـةٍ تامـة بأنـه كان قـادراً دومـاً عـلى أن يعثُـرَ في رُوحـه عـلى مـا يكفـي مـن الشـعورِ المبـاشرِ بالشـفقة والمواسـاة، لكـي يكـونَ بإمكانـه أن يمتنـعَ عـن التعبـيرِ الحـاد عـن نوبـاتِ الغضـب والانفعـال. كان بحاجـةٍ إلى شـخصية ليـزا فقـط لكـي يهـينَ ويمـرِّغ «الفكـرةَ» في الوحـل، تلـك الفكـرةَ نفسَـها التـي قـام عـلى خدمتِهـا طَـوال حياتـه. لقـد اسـتخدم مطلـعَ القصيـدة المعروفـة لنكراسـوف: «عندمـا، مـن حُلْكـة الضـلال»، لتكـون عبـارةً مقتبَسـةً تتصـدَّر الفصـلَ الـذي يـسرُد فيـه تلـك الحكايـةَ الفظيعـة. وهـا هـو ذا دوستويفسـكي الآن يشـتُم ويقـول كلامـاً بذيئـاً بطريقـةٍ جنونيـة وتجديفيـة بحـقِّ تلـك القصيـدةِ بالتحديد، وبحـقِّ مقدَّسـات أولئـك النـاسِ الذيـن كان يتلقـى التعاليـمَ الجديـدة منهـم ذات يـوم «بشـغف كبـير». بيـدَ أنَّ ذلـك كان المخـرجَ الوحيـدَ أمامـه؛ لأنـه لم يَعُـد قـادراً عـلى التـزامِ الصمـت؛ إذ اسـتيقظ في رُوحـه شيءٌ مـا عفويٌّ وشـنيع، ولكنـه شيءٌ لم يكـن قـادراً عـلى ضبطِـه والسـيطرة عليـه. لقـد فعـل كلَّ مـا بوسـعه، كـما رأينـا، مـن أجـلِ الحفـاظ عـلى عقيدتـه القديمـة؛ فقـد اسـتمرَّ في عبـادةِ إلهـه القديـم حتـى حـين لم يبـقَ في رُوحـه أدنـى أمـلٍ بـأنَّ صلاتَـه سـوف تكـون مسـموعةً ومسـتجابة. كان طَـوال الوقـت يعتقـد بـأن الشـكوكَ سـوف تنتهـي، وأنَّ ذلـك مجـرَّد إغـواء لا أكثـر. وفي اللحظـاتِ الأخـيرةِ راح يهمِـس –

بشفاهه فقط - تعويذته: «سوف يكون ثمَّة إدراكٌ بأنَّ الإنسانَ الأخير هو أيضاً إنسانٌ ويُدعى أخاً لك». لكن كلمات هذه الصلاةِ لم تمنحه العزاءَ قطُّ، كانت بمنزلةِ السمِّ الذي تسمَّم به دوستويفسكي، مع أنهم رأوا فيها وما زالوا يرون فيها كلماتٍ بريئةً وآمنةً، وحتى إنها تعزِّز الرُّوح ... طوبى لمن يستشعرُ في تلك العبارةِ شاعريةَ الأخوةِ وحسب! ولكن كيف يمكن التصالحُ معها حين تتقدَّم التفاهة والعبثية من وجود الإنسان الأخير إلى الواجهة؟ كيف يمكن تحمُّلها ما دُمتَ سوف تدرك من خلالِ تجربتِك الخاصةِ مُجملَ الرعبِ من وجودٍ كهذا، عندما تُخصَّص شاعريةُ الأخوةِ لصالحِ أولئك الناسِ الجددِ الذين يدخلون الحياة، في حينِ أنك ستكون مضطرّاً إلى أن تقومَ بدورِ ماكار ديفوشكين الذي يمثِّل موضوعاً للرقَّة والحنانِ عند الأرواح السامية؟ ماذا يمكنها أن تقدِّم عندئذٍ فكرةُ الإنسانية العظيمة؟ هل ستراهن على الأملِ في المستقبَل، البعيدِ جدّاً بطبيعة الحال، وبحُلم البشريةِ في بناءٍ آخرَ مختلِفٍ وسعيدٍ؟

وأمَّا الدور الخالد والبغيض والمنافق للكاهن في كلِّ ما هو «رائعٌ ورفيعٌ» ... رائعٌ ورفيعٌ بين قوسَين - فهو ليس من بنات أفكاري. بل هذا ما عثرتُ عليه أنا في «مذكِّرات من العالم السفلي». لقد عُرضت جميعُ «المُثُل العليا» هناك على هذا النحو. يوجد هناك شيللر، وهنالك أيضاً نزعةُ نكراسوف الإنسانيةُ وشاعريته، وذلك البناءُ من الكريستال، باختصارٍ هناك كلُّ ما كان يوماً ما يملأ رُوحَ دوستويفسكي بالرقةِ والإعجاب والحماسةِ - ويُنثَر فوق ذلك كلِّه حباتُ البرَد من التهكُّم اللاذعِ والمفرط في سُمِّيته والمُبالغ في خصوصيته. تثير المُثُل العليا والحنانُ بشأنها لديه مشاعرَ القرفِ والفزعِ فقط. من دونِ أيِّ محاولةٍ لكي ينازعَ على

إمكانيـةِ وجـودِ مُثُـل عليـا. فهـو لا يفكِّـر في ذلـك نهائيّـاً، بـل حتـى إنـه لا يريـد أن يفكِّر. وفي حـالِ شـاءتِ الأقـدارُ وتحقَّقـت أحـلامُ صِبـاه السَّـخيَّة، فهـذا أسـوأ بكثـير. وإذا مـا تحقَّـق في يـوم مـن الأيـام المَثَـل الأعـلى للسـعادة البشريـة في الأرض، فـإنَّ دوستويفسـكي سـوف يصـبُّ عليـه لعنتَـه. سـأقول بمنتهـى الصراحـة: لم يجـرؤ أحـدٌ قبـل دوستويفسـكي عـلى الإفصـاحِ عـن مثـلِ هـذه الأفـكار، حتـى ولـو أرفـق ذلـك بالملاحظـات وبالتنويهـات المناسِـبة. لقـد تطلَّـب الأمـر إحساسـاً بيـأسٍ عظيـمٍ لكـي تنشـأ مثـلُ هـذه الأفـكار في العقـل البـشري، كان لا بـدَّ مـن توفُّـر جسـارة [وقاحـة] فـوق بشريـة لكـي يـأتيَ شـخصٌ مـا ويطرحهـا عـلى النـاس.

لهـذا السـببِ نـرى أنَّ دوستويفسـكي لم يعـترف عـلى الإطـلاقِ بـأن تلـك الأفـكارَ تعـود لـه، وكان عـلى الـدوام يحتفـظ بمُثُـلٍ اسـتعراضيةٍ كاحتيـاط، ويقـوم بعرضِهـا بواسـطةِ صراخٍ هسـتيري أكثـرَ قـوةً كلـما كانـت تتنافـر وتفـترق بدرجـةٍ عميقـة عـن جوهـر رغباتـه المنشـودة، بـل مـع رغبـاتِ كينونتـه بالكامـل أيضـاً، إذا شـئتم. إنَّ أعمالَـه الأخـيرة كافـةً وبـلا اسـتثناء تقريبـاً مشـبَّعةٌ بمثـلِ هـذه الازدواجيـة. يطـرح سـؤالٌ نفسَـه: مـا الـذي يجـب علينـا أن نبحـثَ عنـه في أعمالِـه؟ ومـاذا يجـب علينـا أن نقيِّـم؟ هـل يجـبُ علينـا أن نقيِّـم متطلبـاتِ رُوحِـه المندفعـةِ نحـو الخـارج، بالرغـم مـن «الوجـدان والعقـل»، حسـبَ التعبـيرِ الـذي كان يجـبُّ أن يسـتخدمَه تولسـتوي، أم تلـك الوصفـاتِ عـن الحيـاةِ الرفيعـة، التـي كان يُحضِّرهـا وَفـق قالـبٍ واحـد إلى هـذا الحـدِّ أو ذاك؟ في أيِّ جانـبٍ تقـفُ الحقيقـة؟ كان ينظَـر إلى «الوجـدان والعقـل» حتـى الآن باعتبارهمـا خاتمـةَ القضـاة؛ لأن كلَّ مـا يوجـد لدينـا في مجـالِ المُثُـل والآمـال إنـما خُلِـق حصريّـاً بواسـطتها. ولكـن مـا العمـل الآن، بعـد أن اكتُشِـف قـاضٍ أعـلى مـن هذيـن القاضيَـين؟ هـل يتعـيَّن علينـا أن نصغـيَ إلى

ما يقوله أم إنه يجب علينا أن نبقى أوفياءَ للتقاليد؛ ومن ثَم نُرغمه على الصمتِ من جديد؟ وأنا أقول «من جديد» لأن البشرَ سبق أن سمعوا ذلك الصوتَ أكثرَ من مرَّة، ولكنهم كانوا، وقد أصابهم ذعرٌ شديد، يكتمونه بصيحاتٍ احتفاليةٍ مظفَّرةٍ ومهيبةٍ على شرفِ القضاةِ القدماء وتحيةً لهم. كما أنَّ دوستويفسكي نفسَه فعل ذلك، على الرغم من أنَّ رواياتِه تذكِّر من هذه الناحيةِ وبهذا المعنى بخطاباتِ أولئك الواعظين، الذين يرسُمون لوحاتٍ من الإغراء والإغواء بحجَّةِ محاربةِ الانحلال الخُلقي ... لا يمكن أن يكون ثمَّة أيُّ شكوك، وذلك بمعزِل عمَّا يقوله أنصارُ التقاليد. ينبغي الاستماعُ إلى المرء كما هو على أرضِ الواقع وفي الحقيقة. سوف نغفرُ له مسبقاً جميعَ ذنوبه وخطاياه، بشرطِ أن يقول الحقيقةَ، والحقيقةَ فقط. لعلَّه يوجد - ومَن يدري؟ - في تلك الحقيقةِ التي تبدو للوهلةِ الأولى مثيرةً كثيراً للقرفِ والاشمئزاز، بعضُ ما هو أفضلُ بكثير من فتنةِ ذلك الكذب الفاضح والمهيب وروعتِه؟ ربما، ينبغي توجيهُ كاملِ طاقةِ الحزنِ واليأسِ ليس من أجلِ تحضيرِ تعاليمَ ومُثُل عليا صالحةٍ لحياتهم اليومية والعادية، كما اعتاد أن يفعل ذلك حتى الآن رسلُ البشريةِ وأنبياؤها، الذين كانوا يُخفُون بغَيرةٍ شكوكَهم الخاصةَ وتعاساتِهم عن أعينِ الغرباء! وربما، يجب التخلِّي عن الكبرياءِ وعن روعةِ الفَناءِ وجميع تلك الزينةِ الخارجية، ومن ثَم القيامُ من جديدٍ بمحاولةٍ من أجلِ رؤيةِ الحقيقةِ المشوَّهة؟ وهو أن يكون الافتراضُ القديمُ بأن شجرةَ المعرفةِ ليست شجرةَ الحياة؛ مجرَّد كذِب؟ يجدُر التحقُّق من هذا الرأي الباطل، بالإضافةِ إلى نظريةِ التطوُّر الطبيعي التي تشترط نشوءَ مثل تلك الخرافة! لعلَّ الرُّوح التي شعرت بالإهانةِ فيما يخصُّ كلَّ ما هو مقدَّس بالنسبة إليها، تجد في نفسها القوةَ اللازمة لكي تبدأ كفاحاً جديداً ...

# 7

تلك هي اللحظةُ الأولى لولادةِ القناعات: انتهى الأملُ في حياة جديدة ظلَّ يحلُم بها طَوال فترة السَّجن، وانهار في الوقتِ نفسِه الإيمانُ بالتعاليم التي كانت تبدو حتى الآن راسخةً وصحيحةً بالمطلَق وأزلية. لا يمكن أن يكون ثمَّة مكانٌ للشك: لم يكن الأملُ يحيا على التعاليم، بل على العكس؛ التعاليمُ كانت تقوم وتعتمد على الأمل. ومع مثل هذا الإدراكِ تنتهي بالنسبة إلى الإنسانِ مملكةُ «العقل والوجدان» التي تمتد لألف سنة، ويبدأ عصرٌ جديد؛ عصرُ «السيكولوجيا» التي كان دوستويفسكي أولَ مَن اكتشفها في روسيا. مع العلم، أنه ما مِن أحدٍ يجرؤ على الاعترافِ حتى الآن صراحةً بوجودِ تناقضٍ مباشِرٍ بين «العقل والوجدان» من جهةٍ، وبين «علم النفس - السيكولوجيا» من جهةٍ أخرى. الغالبيةُ العظمى ترى أنه من الممكن الاحتفاظُ بالتسلسل الهرمي القديم، حيث تكون السيكولوجيا مضطرةً إلى أن تشغَل موقعاً تابعاً، وحيث تنحصر مهمَّتها في التعبير عمَّا يجري في رُوح الإنسان الفرد، في حين أنَّ الحقوق التشريعية القيادية تبقى، كما في السابق، من اختصاصِ العقل والوجدان اللذين يحقُّ لهما أن يقرِّرا «ما الذي يمكنه أن يكون»، وما الذي لا يجوز له

أن يكون. ويتَّفق مع مثلِ هذه الفرضيةِ حتى أولئك الناسُ الذين أسهموا بأكبرِ قسطٍ ممكن في نجاحِ علم النفس. هذا هو، على سبيل المثال، الكونت تولستوي - الذي كان يسعى في مؤلَّفاته على مدى بضعةِ عقود، شأنه شأن دوستويفسكي وبالدرجةِ نفسها كحدٍّ أدنى، إلى أن ينسِفَ لدينا الثقةَ في شرعيةِ الادعاءات التي تفرِضُها مختلِفُ اليقينيات - ما زال حتى اليوم يواصل التأكيدَ على رفعِ شأنِ «العقل والوجدان». وهو يمتلك أسلوباً مميزاً في نطقِ هذه الكلماتِ بنبرةٍ خاصةٍ تجعل الشكوكَ كافةً في قدسيتها وعِصمتها تبدو وكأنها تجديفٌ مثيرٌ للاستياء. لم يكن بوسعِ دوستويفسكي أن يقارَن مطلقاً من هذه الناحيةِ مع الكونت تولستوي. بيدَ أنَّ كليهما لم ينجحا في الجمعِ بين أمورٍ لا يمكن جمعُها معاً. إنَّ المساعي المضطربةَ لكلٍّ منهما من أجلِ العودة إلى «المفردات القديمة» الجيدة، تؤكد أنَّ مسألةَ الهدم ليست أسهلَ من مسألةِ البناء، بل إنها أكثرُ صعوبةً بكثير. وحدَه الشخص الذي لم يَعُد قادراً على التكيُّف والعيش بطريقةٍ مغايرة، يصبح أكثرَ قدرةً على التدميرِ والتخريب. وإذا كان دوستويفسكي ذهبَ في هذا الاتجاه أبعدَ من الكونت تولستوي، فهو لم يفعل ذلك قط لأنه أكثرُ نزاهةً، وأكثرُ كرامةً، وأكثرُ صدقاً. كلَّا؛ إذ إنَّ مقياسَ الحسم والتصميم بما يخصُّ هذه الأمورَ يتحدَّد طبقاً لقوانينَ مختلفةٍ تماماً. يسعى الإنسانُ بكلِّ ما أُوتي من قوةٍ لكي يحافظَ على العقيدة التي ورِثَها، ولا يتخلَّى عن حقوقه إلَّا في حالةِ الاستحالةِ الكاملةِ للتمسُّك بها والمحافظةِ عليها. كان دوستويفسكي، كما هو واضحٌ من التعليقِ الختامي لرواية «المراهق»، يحلُم بإبداعٍ شبيهٍ بإبداعِ الكونت تولستوي. كتبَ يقول: «كان بوشكين قد حدَّد مسبقاً مواضيعَ رواياته المستقبلية في عمله «بخصوص

أساطير العائلة الروسية»، وكونوا على ثقةٍ بأنه يوجد هناك بالفعل كلُّ ما كان بديعاً عندنا حتى الآن. على الأقل، يوجد هناك كلُّ ما كان مكتملاً إلى حدٍّ ما عندنا». ومن ثَم واصلَ حديثَه مكملاً نقاشَه بشأنِ الروائي الذي كان بإمكانه أن يكتبَ عن الموضوعِ الذي أشار إليه بوشكين، فقال: «كان يمكن لعملٍ أدبيٍّ كهذا، بشرطِ توفُّر الموهبةِ العظيمة، أن ينتميَ إلى التاريخ الروسي بدرجةٍ أكبرَ مما ينتمي إلى الأدب الروسي ... لم يَعُد ممكناً تصويرُ حفيدِ أولئك الأشخاصِ الذين صُوِّروا في العمل الأدبي الذي صوَّر الأسرةَ الروسية من الطبقة الوسطى وذات الثقافة العالية على مدى ثلاثةِ أجيالٍ متلاحقة وبما ينسجم مع التاريخ الروسي؛ لم يَعُد ممكناً تصويرُ ذلك الخلَفِ للأسلافِ أنفسِهم في نمطٍ معاصِر إلا في شكلٍ كارهٍ للبشرِ ومنعزِلٍ ومع درجةٍ من الأسى. حتى إنه يجب أن يبدوَ أبلهَ بطريقةٍ ما» ... وإذا ما تذكَّرنا أنَّ دوستويفسكي في وقتٍ لاحق أطلق على الكونت تولستوي، بمناسبةِ الحديثِ عن رواية «آنّا كارينينا»، لقبَ المؤرِّخ من الدائرة المتوسطة-العليا، يصبح من الواضح تماماً أن الحديث يدور في المقتطَفاتِ المشارِ إليها عن رواية «الحرب والسلم» وعن الشخصياتِ التي جرى رسمُها في تلك الرواية. إنَّ روعةَ الشخصيات وكمالها عند تولستوي يسحران دوستويفسكي؛ ولهذا الغرضِ كان يبحث عن الوضوحِ والدقةِ في الحياة وعن الامتلاء فيها؛ لكنه مضطرٌّ إلى أن يعترفَ بأن مِثلَ هذه «السعادة» قد ابتلعها التاريخُ بشكلٍ نهائي وإلى الأبد، وأنَّه بإمكان الإنسان المعاصر أن يتذكَّر الماضي فقط الذي لن يعودَ أبداً. وإذ سلَّم أمره للقدَر، راح يتَّجه نحو شخوصِه الغريبةِ الأطوارِ المعزولةِ والكارهةِ للبشرِ. بيدَ أنَّ دوستويفسكي لم يكن على حقٍّ في طروحاته ومناقشاته

تلك. وهو خاصةً لا مكانَ له، بطبيعة الحال، بين أبطال رواية «الحرب والسلم». لأن أولئك الأشخاص بالنسبة إليه هم مجرَّد تاريخ، وتاريخ فقط. لكنَّ مبدِعَهم، الكونت تولستوي، كان ينظر إليهم بطريقةٍ مختلفة تماماً، ولم يكن يرغب قط في تحويلهم إلى سرابٍ للماضي. بل على العكس، كان يريد أن يرى فيهم تجسيداً أبديّاً للحاضر ولِما هو راسخٌ وثابت. إنَّ بيير بيزأوخوف وناتاشا وروستوف والأميرة ماريا، هم بالنسبة إليه أشخاصٌ راحلون منذ زمنٍ غيرِ بعيد، وهم مضطرُّون إلى أن يُفسِحوا المكانَ للإنسانِ الجديدِ «المعزولِ والمُبغِض للبشر»؛ أي للإنسانِ من العالَم السفلي - وهو يصرُّ على أنهم جميعَهم أبطالُ يومنا الحاضر. يصرُّ ويؤكد، والحق يقال، بشكلٍ مُبالَغ فيه وفظٍّ، كما لو أنه يفضح نفسَه إلى درجةٍ معينة. إنَّ رواية «الحرب والسلم» عملٌ إبداعيٌّ لشخصٍ بحاجة، لا إلى أن يتذكَّر ويروي فحسب، بل إلى أن ينسى شيئاً ما بعينه، وأن يتجاهل شيئاً ما آخرَ عن قصد. لا وجودَ هنا لتلك المتانةِ الطبيعية، ولذلك الاستقرارِ العفوي، اللذين يشعر بهما القارئ في «ابنة الآمر»[1]. لا يقيِّد الكونت تولستوي نفسَه، على غرار بوشكين، بدَور الراوي والأديب. وهو يتحقَّق على الدوام وباستمرارٍ من مصداقيةِ وسلامةِ كلِّ كلمة تقريباً يتفوَّه بها الأبطال عنده. فهو بحاجةٍ إلى أن يعرف ما إذا كان أبطاله يؤمنون بدقةٍ بكلِّ ما يفعلونه، وما إذا كانوا يعرفون تماماً إلى أين هم ذاهبون. وهو عالِم نفس، شأنه شأن دوستويفسكي؛ أي إنه هو أيضاً يفتِّش عن الجذور. وللعلم، جميعُ الجذور موجودةٌ عميقاً في باطن الأرض، وهذا يعني أنَّ الكونت تولستوي على درايةٍ بالعمل المُصمَت، تحت الأرضي

(1) روايةٌ نثرية لشاعر روسيا ألكساندر بوشكين. (المترجم)

والسرِّي. وهو لا يبلُغ تلك السذاجةَ الهوميريَّة والبطريركية التي تُنسَب إليه، بالرغم من أنه يسعى نحوها بكلِّ ما أُوتي من قوة. فـ«الإرادة الحرَّة» تخون الإنسانَ في تلك الأعمالِ وتخيِّب آمالَه. إنه يبغي الإيمان، لكنه يعمل على التأكيد والتحقُّق الذي يقتل كلَّ إيمان. والكونت تولستوي مَدين لموهبته ولعبقريته الأدبية الهائلة فقط، بحيث إنَّ جمهورَ القراء لم يدرك حجمَ المهارة، وأنا على استعدادٍ للقول بأنه لم يدرك حجمَ التصنُّع الذي كان يحتاجه الكاتبُ الروسي العظيم لكي يخلُقَ أعمالَه الإبداعية الرائعة. لم يكن الإبداعُ وحسب، بل مجملُ حياةِ الكونت تولستوي ينطوي في ذاته على آثارٍ للصراع الأزلي مع «علم النفس - السيكولوجيا»، ومع العالَم السفلي. إلا أنَّ الحكمَ على حياته ما زال سابقاً لأوانه. في حين أنَّ نشاطه في ميدان الكتابة سعيٌ واحدٌ متواصل بهذه الطريقةِ أو تلك من أجلِ تحقيقِ النصرِ - عن طريقِ القوةِ أو المكرِ أو الخداعِ - على الخَصم العنيد الذي ينسفُ إمكانيةَ الكينونة السعيدة والمضيئة من أساسها. وهذا ما ينجح في تحقيقه إلى درجةٍ كبيرة. وهو يدفع للعالَم السفلي ما يترتَّب عليه من إتاوةٍ - إتاوةٍ صحيحةٍ ودائمة، ولكنها دائماً تبدو وكأنها ليست إتاوةً وإنما قرابين طوعية يسمح بها «العقل والوجدان». في حين أنَّ الإنسانَ من العالَم السفلي عند دوستويفسكي، وإذ يكتشِف بُطلانَ حياته الخاصة، ينتابه نوعٌ من الرعبِ ويقطع ما يمُتُّ له بصلةٍ مع ماضيه. أما أبطال الكونت تولستوي فلا يتوقَّفون أبداً عن الإيمان بكلِّ ما هو «جميل ورفيع»، حتى ولو في تلك اللحظاتِ التي يتكشَّف فيها عدمُ التوافق بين الواقع والمُثل العليا بأكمل درجاته؛ فهم يسمحون للواقع بالدخول إلى حقوقهم، دون أن يكفُّوا عن تبجيلِ المُثل العليا للحظة واحدة. هكذا نجد

أنَّ هزيمةَ القوات الروسية وتسليمَ موسكو إلى غير ذلك، لا يترك انطباعاً محزناً على أيٍّ من أبطال «الحرب والسلم» ممن لم يسهم بصورةٍ مباشرة في الأعمال القتالية. وقد أشار الكونت تولستوي أكثرَ من مرة إلى هذه الناحية، بحيث إنه كان يجب، في الحقيقة، أن ينشأ مثلُ ذلك الانطباعِ من الكلمات التي قالها الإنسانُ من العالَم السفلي مخاطباً ليزا: «ليذهب العالَم إلى الجحيم، بشرط أن أشربَ الشاي دائماً»، إلَّا أنه لا يتشكَّل مثلُ هذا الانطباع. على سبيل المثال، ها هو ذا نيكولاي روستوف يتحدَّث مع الأميرة ماريا، وبالطبع لا يخلو حديثهما من التطرُّق إلى المسألةِ موضوعِ الساعة. ولكن، كيف يتعاملان مع المأساةِ العظيمة التي تدور أمام أعينهما؟ «كان حديثهما عاديّاً جدّاً وغيرَ ذي أهمية (!). لقد تطرَّقا إلى الحرب، وبالَغا في التعبيرِ عن حزنهما بخصوصِ هذا الحدَث من دون قصد، كما يفعل الجميع». ثم يوضِّح لاحقاً من جديد فيقول: «كان واضحاً أن بإمكانها (الأميرة ماريا) أن تتحدَّث عن مآسي روسيا بطريقةٍ متكلفة، لكنَّ شقيقها كان موضوعاً قريباً من قلبِها إلى درجةٍ كبيرة؛ ولذلك لم تشأ ولم تستطِع أن تتحدَّث عنه إلَّا قليلاً». هذه الملاحظات مميزةٌ جدّاً بالنسبة إلى رواية «الحرب والسلم». والكونت تولستوي يذكِّرنا على الدوام وفي كل موقف تسنَح فيه الفرصةُ، بأنَّ مآسي روسيا كانت تعني بالنسبة إلى أفضلِ الناس عام 12 (المقصود 1812 - المترجم) أقلَّ بكثيرٍ مما تعنيهم معاناتهم الخاصة ومآسيهم الشخصية. بيدَ أنه ينجح مع هذا التذكيرِ في الحفاظِ على صفاءِ استثنائي وغير عاديٍّ للرُّوح، كما لو أنه لم يحدُث أيُّ شيء جدير بالاهتمام على الإطلاق، وكما لو أنَّ العقل والوجدان يستطيعان في حقيقةِ الأمر وبالفعل أن ينظرا بمنتهى الهدوءِ إلى إظهارِ مثل

تلك الأنانيةِ الفظيعة. من الواضح أنهما كانا بحاجةٍ إلى التقديرِ الخارجي أو الشكلي فقط، وأن يُتحدَّث معهما بنبرةٍ معينةٍ كما لو أنه يتحدَّث مع طاغوتَين متقلِّبَي الأطوار، وإذ بهما يصبحان طيِّعَين وسهلَي الانقياد. كم كان سيكون الصخبُ شديداً لو أنه عُبِّر عن الحزنِ «بطريقةٍ مصطنَعة» بسبب المِحَن التي تصيبُ روسيا، وأن تعلنَ الأميرة ماريا، على سبيل المثال، صراحةً وعلى طريقةِ الإنسان من العالَم السفلي: «بين أن تهلَك روسيا، أو أن أشرب الشاي؟ سوف أجيب: دعْ روسيا تهلَك، المهمُّ أن يُقدَّم الشاي لي على الدوام». في جوهر الأمر، هذا ما يقوله بالتحديد كلٌّ من ماريا ونيكولاي روستوف عند تولستوي. وجميعُ الشخصيات الفاعلة في تلك الروايةِ (الأفضل من بينهم بالتأكيد، وتحديداً الأفضل، أما الأسوأ فلا يسمحون لأنفسهم بصراحةٍ كهذه) لا يتفوَّقون عليهما من حيث شعورهم الوطني إلا بدرجةٍ قليلة. في نهاية المطاف، يقوم الكونت تولستوي باختصارِ كلِّ شيء وبأسلوب التفافي يبرز الأنانية البشرية. ومع ذلك، لا يقع كلُّ ما هو جميل ورفيع بين قوسين، وإنما يحافظ على وضعِه السابقِ الجديرِ بالتقديرِ. يجد الكونت تولستوي أنه من الممكن قبولُ الحياةِ خاليةً من القسوة والشَّظف كما هي على أرض الواقع؛ فهو ينتزِع بطريقةٍ حذِرةٍ وخفيةٍ عن القارئ، الحقوقَ المستقلةَ والسيادية من العقل والوجدان، ويجعل من نفسِه هو خاصةً - أيْ بتعبيرٍ أبسطَ، من كلِّ إنسانٍ - مقياساً للأشياء. لكنه يطمحُ إلى تحقيقِ انتصارٍ نظري كامل («عقوبات الحقيقة»، كما يدعوها دوستويفسكي) ولهذا السببِ لا يلغي جميعَ السلطاتِ السابقةِ بشكلٍ صريحٍ ومكشوفٍ، وإنما يمنعها من ممارسةِ أيِّ تأثيرٍ في الحياة بشكلٍ فعلي وخلسةً (والكونت تولستوي يتصرَّف خلسةً

على الـدوام). وهـو يـدرك تماماً مـا الـذي يفعلـه. كـما أنـه بحاجـةٍ أيضـاً إلى أن يحافـظ في حـالاتٍ محـدَّدة عـلى المكانـةِ وعـلى سـحرِ الهيبـة القديمـة. وهـو لـن يقـومَ بخدمتهـا بعـد الآن بـكلٍّ تأكيـد، أمـا هـي فـما زالـت تخدُمـه. ولكنـه سـيلجأ في جميـعِ الحـالات التـي لا يكـون قـادراً فيهـا عـلى المقاومـةِ بالاعتـمادِ عـلى قـواه الخاصـة؛ سـيلجأ إلى دعمِهـا السـاحرِ والمؤثِّـر، وسـتدعمه هـي عندئذٍ في اللحظاتِ العصيبةِ من خلال صوته الآمرِ والمتسلِّط.

# 8

أشـار دوستويفسكي عرَضاً وهو يناقش رواية «آنّا كارينينا»: «إنَّ رواية آنّا كارينينا ليست بالأمر البريء بتاتاً». يتعيَّن على المرء نفسِه أن يكون إنساناً بريئاً لكي يرى في إبداعِ الكونت تولستوي الجانبَ الشعري فقط. لكنَّ المثيرَ للفضول هو أنَّ دوستويفسكي نفسَه كان قد قال في وقتٍ ما، قبل ظهورِ الجزءِ الأخير من رواية «آنّا كارينينا» (وقد صدر في طبعةٍ منفصِلة)، عن ليفين بأنه إنسانٌ «نظيف القلب». هذا يعني أنه يجب علينا في بعضِ الأحيان أن نتعامل بحذرٍ شديدٍ مع الكلماتِ المتعارَفِ عليها، أليس كذلك؟! لأنَّ الإنسانَ صاحبَ القلبِ الطاهر النظيف معناه «البريء»، علماً بأنَّ ليفين، بطل رواية «آنّا كارينينا»، يجسِّد كاملَ المغزى من الرواية. إلَّا أنَّ دوستويفسكي قام بدورِ ناقدٍ أدبي، واعتبر نفسَه مُلزماً على أي حال بأن يدعَم مختلِف أنواع المُثُل العليا؛ ولهذا السببِ يستخدِم في حقِّ ليفين مثلَ ذلك النعتِ الرقيق الذي يليق بالطفولة. أما الحقيقةُ فهي أنَّ دوستويفسكي كان يدرك جيِّداً قيمةَ ليفين الفعلية، وإذا كان في بداية الأمر ينوي أن يحتفظَ بمعرفته في داخل نفسه، فقد كان لديه سببٌ وجيه ومهم لذلك. لقد كان لظهور

الجزء الأخير من رواية «آنّا كارينينا» الذي سَمح فيه الكونت تولستوي لنفسِه بأن يسخرَ من الشغفِ بالحركة التطوعية، دورُ الصاعق الذي فجَّر دوستويفسكي وأرغمه على أن يقول أكثرَ مما كان يسمح به وضعُه وموقعه الأدبي وواجبات الداعية والواعظ المؤمن. كما أنَّ الكونت تولستوي قدَّم في رواية «آنّا كارينينا» مساحةً واسعة جدّاً للإنسان من «العالم السفلي».

فهذا هو ليفين، على سبيل المثال، يعلن بكل صراحة أنه «لا يوجد أيُّ إحساسٍ واضح وصريح بخصوص اضطهاد السلافيين، ولا يمكن أن يوجد شعورٌ مثل هذا»، ويجد في الأمير العجوز (الشخصية اللطيفة جدّاً والمحبوبة من قِبل المؤلِّف، كما هو واضح من مسار الرواية) دعماً قويّاً. «وها أنا ذا أيضاً - يقول الأمير - لا أستطيع أن أفهمَ لماذا راح جميعُ الروس فجأةً يحبُّون إخوتهم السلافيين، في حينِ أنني لا أشعر بأيِّ محبَّة تجاههم ... ولكني هدأتُ بعد مجيئي إلى هنا. وأنا أرى أنه ثمَّة أناسٌ آخرون غيري يكترِثون بروسيا وحدَها فقط، وليس بالأشقاء السلافيين. وها هو ذا قسطنطين». يرى دوستويفسكي أنه من غيرِ الصحيح وضعُ مثل هذا الكلام والمناقشاتِ على لسانِ البطل الإيجابي في الرواية. يمكن التعبيرُ عن كل ذلك ولكن مع الملاحظاتِ والتعليقات المناسبة، وليكن على الأقل في صيغةٍ كتلك التي استُخدمت في رواية «الحرب والسلم». أما هنا فإن ليفين يعلن بكل وضوح وبصراحة تامة أنه لا يريد أن يعرف شيئاً عن معاناة السلافيين واضطهادهم. لم يبقَ سوى إضافة واحدة: بشرط أن يكون كل شيء عندي على ما يرام. لكن الكونت تولستوي لم يذهب إلى مثلِ هذه الجسارة، وهو ما جعل دوستويفسكي يضيف من عنده ويرغِم ليفين على نطقِ بضع كلمات بهذا المعنى[1].

(1) المجلد الثاني، صفحة 264.

إن الصـدام الـذي نشـأ بـين أعظـمِ كاتبَـين في روسـياَ بشـأن التعاطُـف مـع معانـاة الشـعوب السـلافية أمـرٌ مهـمٌّ للغايـة. كيـف حـدثَ أن أوحـى «العقـلُ والوجـدانُ»، القاضيـان المنزَّهـان عـن الخطـأ والممجَّـدان مـن قِبَـل الكونـت تولسـتوي حتـى الآن، بمِثـل هـذه القـراراتِ المختلفـةِ لشـخصيتَين بارزتَـين بدرجـةٍ متسـاوية؟ لقـد عـاش دوستويفسـكي بطريقـةٍ مؤلمـةٍ، وأحسَّ بـكلِّ الإهانـة الكامنـة في احتـمال حـدوث مثـل هـذا الصِّدام؛ ولذلـك ختـمَ مقالتَـه بمـرارة: «إنَّ هـؤلاء النـاس، مـن أمثـال مؤلِّـف روايـة «آنَّـا كارينينـا»، هـم معلِّمـون في المجتمـع، إنهـم معلِّمـون لنـا، ونحـن مجـرَّد تلاميـذ عندهـم. فـما الـذي يعلِّمونـنا إيـاه، إذن؟»

ومـع ذلـك، كان الصـدام بـين كِلا النبيَّـين مصادفـةً بحتـة! لـو لم تكـن هناك قضايـا تتعلَّـق بالسـلافيين، لوجـد دوستويفسـكي في روايـة «آنَّـا كارينينـا» جميعَ تلـك العنـاصرِ التـي سـحرَته في روايـة «الحـرب والسـلم»، ولَـما عـرفَ القـرَّاء أنَّ «العقـل والوجـدان» لا يتكلـمان عـلى الـدوام بلغـةٍ واحـدة أبـداً. يبـدو أنَّ دوستويفسـكي احتـدم وتهيَّـج بعـضَ الـشيء عبثـاً. ليكـن أنَّ ليفـين أعلـن عـن لا مبالاتـه تجـاه مصـيرِ السـلافيين بنـبرةٍ حـادَّةٍ أكثـرَ مـن الـلازم، وليكـن أنـه ثرثـرَ وكشـفَ عـن «سرِّ المنشـد»، لكنـه بالمقابـل كان في حـالِ الـضرورة، وربـما مـن غـيرِ حاجـة أيضـاً، يشـعل البخـورَ للمُثُـل العليـا الأخـرى والرفيعـة جـدّاً وغـير الغريبـة عـن دوستويفسـكي. ذلـك أنَّ التنكُّـر للسـلافيين لا يعنـي بـأي شـكل استعداداً عنـده للتطـاول عـلى سيادةِ «العقـل والوجـدان». عـلى العكـس، إن الكونـت تولسـتوي، وكعادتـه، في حـالِ حسـمَ أمـرَه وقـرَّر القيـامَ بأمـرٍ مـا غـيرِ عـادي، فإنـه يفعـل ذلـك بعـد أن يحصُـل عـلى السـماح مـن صاحبَـي الجلالـة. تذكَّـروا، عـلى سـبيلِ المثـال، حديـثَ ليفـين مـع زوجتـه

في الفصـل الثالـث مـن الجـزء السـادس للروايـة. كان ليفـين غـيرَ راضٍ «عـن نفسـه»، كـما كان يشـعرُ بأنـه «مذنِـب» وأنـه «شـخص سـيئ بالمقارنـةِ مـع الآخريـن» - حتـى بالمقارنـةِ مـع سـيرغي إيفانوفيتـش كوزنيشـيف (الـذي كان يمقتـه في أعـماقِ رُوحه ويسـعى بشـتَّى السُّـبل مـن أجـل ازدرائه) - باختصـار، كان يجب عـلى مشـاعره المخلِصـة للحاكـم أن تسـتجيبَ للوجـدان المتطلِّـب جـدّاً وللعقـل الصـارم إلى أقـصى درجـة. كانـت رقـةُ الحاشـية المفرِطـة ولـينُ الـروح عنـده يـكادان يقتربـان في تلـك اللوحـةِ مـن حقـل مـا هـو هـزلي. وكانـت مغازلتـه وتزلُّفـه لـ«الخير» يشـبهان الغـزَل الـذي كان يقـوم به الشـمَّاس مـع صولوخـا عنـد غوغـول. لكـن الكونـت تولسـتوي لا يسـخرُ مـن بطلِـه ولا يهـزأ بـه. كلا، فهـو جـادٌّ مـع أنـه يبـدو وكأنـه يشـعر في أعـماقِ قلبـه بحجـمِ الجسـارة الـذي ينطـوي عليـه ذلـك الموقـفُ مـن المُثُـل العليـا. كلـما راح ليفـين عنـد تولسـتوي ينغلِـق ضِمـن المجـال الضيِّـق للمصالـح الشـخصية، أصبـح «أكثـرَ وقاحـةً» (وهـذه الكلمـة قيلـت بحـقِّ كلٍّ مـن نيتشـه ودوستويفسـكي، والعـدل يتطلَّـب أن نسـتخدمَها بحـقِّ ليفـين أيضـاً) في مديـح الخـير ...

أواه! إنَّ روايـة «آنَّـا كارينينـا» ليسـت بالـشيء الـبريء عـلى الإطـلاق! هـا هـو ليفـين يـرى نفسـه في الطريـق نحـو العالَـم السـفلي الأزلي، ونحـو السَّـجن في الحريـة، نحـو الهـلاك؛ ولذلـك راح يسـعى إلى النجـاةِ دون أن يدقِّـق في أسـاليبِ النجـاة. «الإنسـان صاحـب الـروح النقيـة!» لم يكـن عبثـاً أنَّ دوستويفسـكي مدحَـه: «لقـد أحـسَّ الغـرابُ برائحـة التفسُّـخ والانحـلال؛ ولذلـك لا يمكنـه كتْـمُ سـعادته وإخفاؤهـا! دقِّقـوا بشـكلٍ جيـد فقـط في حيـاةِ ليفـين وسـوف تتوصَّلـون إلى قناعـةٍ بأنـه لم يكـذِب وحسـب عـلى الخـيرِ حـين راح يعـبِّرُ لـه عـن امتنانـه العميـق، بـل خـدعَ «السـعادة» أيضـاً عندمـا راح يقنع

نفسه ومعه كيتي [يكاترينا] بأنه سعيد. كل شيء محضُ كذِب، من أول كلمة وحتى آخرِ كلمة؛ لأن ليفين لم يكن سعيداً في أيِّ يوم من الأيام - لا حين كان خطيبَ كيتي، ولا عندما أصبح زوجاً لها. كان يتظاهر بالسعادة فقط. وبالفعل، هل تصلُح «بقرة ربانية» (يمكن لَمن يُريد أن يغضَّ النظر عن هذا النعت) مثل كيتي، لأن تكونَ صديقةَ الحياة بالنسبة إلى ليفين؟ وهل كان بإمكانه أن يُغرَم بها؟ وعلى العموم، هل الحياةُ العائلية تمثِّل أجواءً مناسبة لليفين؟ إنَّ تلك المشاهد التي صُوِّر فيها هذا الثنائي - مع أنها حُرِّرت ورُسِمت بدأبٍ استثنائي وبموهبةٍ غير عادية - تصوِّر أناساً سعداءَ يحبُّ بعضهم بعضاً. عشيةَ العُرس - لم يَغمُض جَفن ليفين طَوال الليل، ويبلغ في بلادته، كما ينبغي على العريس، إلى أقصى درجة، فيبدأ بمعانقةِ جميعِ الناس وهكذا دَوالَيك. كيتي حامل؛ فيحرس ليفين كلَّ خُطوة من خطواتها وهو حائر ومضطرِب حتى إنه يرتجِف. وأخيراً يأتي لزيارتهم فاسينكا فيسلوفسكي، فيقوم الزوجُ السعيد كما لو كان ينتظر مرغماً وعلى مضضٍ لحظةً مناسِبةً، بتدبير مشهدٍ سخيفٍ جدّاً من الغَيرة مع عينين برَّاقتَين وقبضتَين مشدودتَين، ومع كلٍّ ما يمكن له أن يحدُث في مثل هذه الحالات. والمشهد الختامي التبجيلي لكل ذلك هو طردُ فاسينكا؛ حيث يطرُد ليفين اللطيفُ على الطريقة المسيحية، الذي لا يريد إهانةَ الأتراك، الضيفَ شرَّ طردة بلا أدنى تردُّد أو تفكير. وهو يفعل ذلك ليس من دونِ أدنى شعورٍ بالندم وحسب، بل مع فرحٍ كبير أيضاً؛ لا لشجاعته الخاصة التي لا تخطُر على باله نهائيّاً. بل إنه يفرح لأنه يستطيع، مثل جميع البشر، أن يشعرَ بالغَيرة وأن يتجاوز في غَيرته الحدودَ الممكنة كافةً. وقد كتب الكونت تولستوي في إحدى

رسائله يقول إنه عمِل بقرفٍ على رواية «آنَّا كارينينا». وأنا أعتقد أنه يمكن تصديقُ ذلك، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تلك المهمةَ التي كلَّفه بها ليفين. ما هو الأمرُ الذي يمكنه أن يكون كريهاً ومنفِّراً أكثرَ من ضرورةِ تصويرِ شخصٍ سعيدٍ و«خيِّر» مهما كلَّف الأمر، ذاك الذي كان غريباً تماماً عن الخير، وبالدرجةِ نفسها التي كان فيها بعيداً عن السعادة! وللعلم، كانت تلك على وجه التحديد مُجملَ القضية بالنسبة إلى الكونت تولستوي. كان بحاجة إلى أن يرتِّب وضْعَ ليفين في الحياة العادية بأي ثمن كان؛ أي أن يمنحه عملاً وأسرة وغيرَ ذلك. يتبادل ليفين مع أحدِ معارفه من الإقطاعيِّين أثناء الانتخابات في القضاء، حديثاً يبدو وكأنه غيرُ ذي شأن ولا يستحقُّ أدنى اهتمام:

سأله الإقطاعي: قيل لي إنك متزوِّج؟

أجاب ليفين بسرورٍ متغطرِس: نعم.

مع رضاً متعجرف! بِمَ يمكنه هنا أن يفاخر؟ أن يكون المرءُ متزوجاً ليس بالمأثرةِ العظيمة. لكن الزواج بالنسبة إلى ليفين لم يكن مجرَّد زواجٍ بسيطٍ وحسب، كما هي الحال عند جميع الناس، بل كان الزواج بالنسبة إليه برهاناً وتأكيداً على أنه ليس أسوأ من الآخرين. ولهذا السببِ بالتحديد، وعلى الضدِّ من عادته، لا يتحقَّق من حبِّه لكيتي بقدْرِ ما يبحث عن تعابيرَ خارجيةٍ ملائمةٍ لهذا الحُب. ولهذا السببِ بالتحديدِ يغفر لكيتي ماضيَها ويوافق على تخطِّي العتبةَ[1] «sur les brisées»، كما يعبِّر الأميرُ أندريه بولكونسكي في رواية «الحرب والسلم». أن يتخلَّى

(1) المحطَّمة (فرنسي).

عـن أُسـرتِه كـان يعنـي بالنسـبة إلـى ليفـين أن يحكـمَ عـلى نفسـه بـالـ[1] capitis diminutio maxima؛ كان ذلـك يعنـي أنـه سـيفقد إحـدى أهـمِّ ركائـزِ الاسـتقرارِ الحيـاتي المتعـارفِ عليهـا مـن قِبـل الجميـع، وهـذا مـا كان أفظـعَ شيء بالنسـبة إليـه. وقـد تـزوَّج مـن كيتـي كـما كان سـيتزوج مـن دولِّي أو أيِّ امـرأة أخـرى غـير لطيفـة جـدّاً مـن بـين نسـاء المقاطعـة، ولكنهـا جميلـةٌ بدرجـة تكفـي لأن تمنـح حياتَـه طابَعـاً شـكلياً لائقـاً. أمـا غرامُـه واهتمامـه وغَيرتـه، فمجـرَّد لعبـةِ أعصـاب تقـوم بمسـرحيـةٍ هزليـة أمـام أعـين الآخريـن وفي عينيـه هـو خاصـةً.

مـن البديهـي أنَّ قرانـاً كهـذا يثـير لـدى الشـخص شـعوراً بالفخَـار. يقـول في نفسـه: أنـا أيضـاً أقـفُ عـلى أرضٍ ثابتـة تحـت أقدامـي. ومـع ذلـك، ثمَّـة هـدفٌ واحـد وحيـد لـكلِّ شيء يفعلـه ليفـين، لـكلِّ شيء يفعلـه بـلا اسـتثناء وبالمطلَـق: أن يقنـع نفسَـه والآخريـن بأنـه انغـرس في التربـةِ عميقـاً وبقـوة مـع جـذوره، وأنـه لهـذا السـببِ لـن تتمكَّـن أيُّ عاصفـة مـن إسـقاطه واقتلاعـه مهـما كانـت شـديدة. إنَّ مهمـةَ ليفـين هـي في الوقـت نفسِـه مهمـةُ الكونـت تولسـتوي أيضـاً. وفي هـذه الحالـة، يـدرك الكاتـبُ العظيـم أنـه يوجـد أنـاسٌ سـاقطون، وأنَّ أولئـك الذيـن سـقطوا منهـم لـن ينهضـوا بعـد ذلـك أبـداً. وهـو كثـيراً مـا يتحـدَّث عنهـم ويختلـق النظريـات التـي تُصالِحنـا مـع السـقوط. أمـا أن يصبـح هـو نفسـه مـن فئـة السـاقطين، أن يتلقَّـى عـلى نفسـه فقدانـاً كامـلاً للحقـوق الأهليـة، وأن يفقـد الحـقَّ في رعايـة قوانينـه البشريـة والإلهيـة؛ فهـو لـن يوافـقَ عـلى ذلـك طواعيـةً بـأي شـكلٍ مـن الأشـكال. كلُّ شيء أفضـلُ مـن هـذا الخَيـار. مـن الأفضـل لـه أن يتـزوج مـن كيتـي،

(1) فقدان كامل للحقوق الأهلية. (لاتيني)

والأفضل أن يكون شأنه شأن الجميعِ، بشرط ألّا ينقطع عن الناس، وبشرط ألا يجد نفسَه «مدفوناً وهو حي». تماماً كما هو الأمر عند دوستويفسكي. الفرق يكمُن في أنه كانت توجد لدى الكونت تولستوي فرصةٌ شكلية أو ظاهرية للعودة إلى الناس، في حين أنَّ دوستويفسكي لم يكن يملِك مثلَ هذه الإمكانية. كان الأمر «سواء بسواء» بالنسبة إلى دوستويفسكي («حُلم إنسان مضحك»)؛ إذ كان يعرف أنه لا مفرَّ أمامه من مصيره. كان الكونت تولستوي ما زال يملِك أملاً، وظلَّ يكافح حتى نهاية حياته ضد شبحِ اليأس الرهيب الذي لم يمنحه الراحةَ قطُّ فترةً طويلة.

# 9

يؤطِّر ذلك الكفاحُ مجملَ إبداع الكونت تولستوي، الذي يمثِّل بالنسبة إلينا المثالَ الوحيدَ للإنسان العبقري، الذي يسعى بكافة السبل ومهما كلَّف الأمر إلى أن يُقارَن مع المحدودية، بل أن يصبح أيضاً هو نفسه ضيِّق الأفق. لكن ذلك لا يتاح له، بطبيعةِ الحال. ومهما عمِل على حماية نفسِه من متطلَّبات طبيعته وفطرته الخاصة، فإنها لا تلبَث أن تظهر عنده في كلِّ مرة على شكل نوبات غضب عاصفة ومستعجلة. بدا الأمرُ كما لو أنه وضع في «الحرب والسلم» خلاصةً نهائيةً لاستنتاجاتِ حياته وملاحظاتِها. لقد ثبَّت كلَّ ما شاهده في مكانه بشكلٍ محُدَّد وراسخ، والأهمُّ أنَّ كل شيء وُزِّع بحيث تتشكَّل على العموم لوحةٌ منعِشةٌ تسُرُّ الأنظار، وذلك على الرغم من أنه لم يُغفِل فيها أيَّ شيء من تلك الفظائعِ الحياتيةِ التي تنسِف ثقةَ الناس بمن حولهم وبالخالق. فالأميرُ أندريه توفِّي بطريقةٍ مؤلمة بعد أن عاش حياةً مليئة بالألم، أما بيتيا روستوف فقد حطَّم الفرنسيون رأسه، في حينِ أنَّ الكونتيسة العجوز تتحوَّل أمام أعيننا إلى امرأةٍ شبهِ بلهاء، والكونت إيليا أندرييفيتش يتضاءل ويتلاشى بعد أن دمَّر أولادَه، بينما تصبح سونيا عالةً على غيرها، وهكذا دَوالَيك.

بيدَ أنَّ كلَّ ذلك موزَّع في اللوحةِ بطريقةٍ لا تجعل الانطباعَ المنعِش باهتاً أبداً، بل على العكس تزيد من شدَّته ومن حدَّته. لم يتمكَّن دوستويفسكي على الإطلاق من إدراكِ السرِّ في هذا الجانب من إبداع تولستوي. كان يخيَّل إليه أنَّ الـهُتافَ الدَّاهمَ والنبرةَ الآمرةَ المتسلِّطة، فضلاً عن الحسْم في التأكيد، وبضعَ كلماتٍ عفيفةٍ وطاهرة؛ قادرةٌ دوماً على أن تتغلَّب على القلق الذي يعشِّش في قلبه هو خاصةً وفي كلِّ قلبٍ بشري بصورةٍ عامة.

هكذا، على سبيل المثال، يوجد في روايةِ «الأبله» التي يقوم فيها الأمير ميشكين بدَور الرُّوح الباعثة للسِّلم، الحوارُ اللافت التالي. يلتقي المحكوم عليه بالموت إيبوليت بعد قراءته الليليةِ في الحديقة بالأمير ميشكين ويطرح عليه «سؤالاً»: «قُل لي من فضلك بكل وضوح - يسأله - ما أفضلُ طريقةٍ بالنسبة إليَّ لكي أموت؟ أقصد، بحيث تكون هي الأكثرَ ورعاً؟ هيَّا، قُل لي؟» هل يروقُ لكم مثلُ هذا «السؤال»؟! يُفترَض بالأمير ميشكين، حسب غاية الرواية، أن يكون مميزاً بصورةٍ دائمة؛ يتعيَّن عليه أن يجيد فهْمَ كلِّ شيء وأن يخرج منتصراً من أكثرِ المآزق صعوبةً. ولكن، في هذه الحالة يجب الاعتقادُ أن دوستويفسكي وهو يرتِّب لقاءً له مع إيبوليت، يكون قد قرَّر ببساطةٍ أن يَسخر من بطله؛ إذ هل يمكن أن تكون ثمَّة غاياتٌ أخرى أمام طرْح أسئلةٍ من هذا النوع لن يعثر أبداً، مهما حاولَ وبذلَ من جهدٍ، على أجوبةٍ معقولةٍ لها، بل ولا حتى على مجرَّد أجوبةٍ مقبولة في الحد الأدنى؟ هذا بالإضافة إلى شكلِ السؤال: «أي، لكي تكون طريقةُ الموت أكثرَ ورعاً من أيِّ أسلوبٍ آخرَ»! يُخيَّل إليَّ كما لو أنَّ دوستويفسكي، بحُكم العادة القديمة عنده بصفته إنساناً من العالَم السفلي، أراد فجأةً وبطريقةٍ جامحة أن يَسخرَ من حكمته الخاصةِ

هـو تحديـداً. وبالفعـل، بينـما كان سـؤال إيبوليـت وقحـاً وجريئـاً، كان جـوابُ الأمـير ميشـكين مثـيراً للسـخط والاستياء. هـذا هـو: «مُـرَّ بجانبنـا واغفـرْ لنـا سـعادتنا - قـال الأمـير بصـوتٍ خافـت (!)» فـما كان مـن إيبوليـت إلَّا أن انفجـر مقهقهـاً في وجـهِ الأمـير. كان يَنقـصُ دوستويفسـكي الحسـمُ والتصميـمُ لأن يرغـمَ الصبـيَّ الفقـيرَ البائـسَ عـلى الانحنـاء أمـام القداسـةِ القليلـة الحيـاء للأمـير. كـما أنَّ الصـوت الخافـت، الـذي يكـون لـه مفعـولٌ قـويٌّ دومـاً في مثـلِ هـذه الحـالات، لم يـترك أيَّ أثـر، شـأنه شـأن تلـك الكلمـةِ السـحرية «اغفـر لنـا» ... أواه! كلَّا، لم يكـن دوستويفسـكي يعـرف، لم يكـن يعـرف نهائيّـاً، كيـف لـه أن يسـتخدم الألـوانَ الداكنـة. بـل كان يتخيَّـل أنـه يكفـي ابتـداعُ تسـميةٍ تقيـةٍ للوحـة، وسـوف يكـون موضوعهـا عندئـذٍ مـبرَّراً. أو مـن الأفضـل القـول إنـه كان يريـد الحصـولَ عـلى إجابـة حقيقيـة عـن سـؤال إيبوليـت، وليـس أن يقـدِّم للجمهـور عمـلاً أدبيّـاً وحسـب.

أمـا الكونـت تولسـتوي فمسـألةٌ أخـرى تمامـاً؛ لقـد كان عـلى قناعـةٍ عميقـة بأنـه مـا مِـن جـواب هنـا، وهـذا يعنـي أنـه يتعيَّن عليـه لا فصـل القـرَّاء عـن الواقـع وحسـب، بـل فصـل نفسـه هـو خاصـةً وتمييزهـا، وذلـك مـن خـلال الأسـلوب الأدبي. إنَّ روايـة «الحـرب والسـلم» تشـكِّل في هـذا الإطـار تحفـةً أدبيـة؛ حيـث كل شيء هنـاك مـدروسٌ بدقـة: لـكل شيء هنـاك مكانُـه، سـواء كان قليـلَ الشـأن أو كبـيره. كـما أن المسـائلَ الجريئـة غـيرُ منسـية، لكنهـا لا تثـير أدنـى ارتبـاكٍ عنـد القـارئ، بـل تبـدو أيضـاً أثنـاء القـراءة محلولـة. مـا مِـن أحـدٍ يـأتي إلى الأمـيرِ أندريـه وهـو عـلى فـراشِ المـوت لكـي يعلِمَـه وبصـوتٍ خافـت أنـه عـلى اطِّـلاع بألغـازِ العالَـم وأسرارِه الخفيـة. عـلى العكـس، يبقـى الموجـودون في جـواره صامتـين، وهـم لا يصمتـون وحسـب،

بـل يُصيبهـم أيضـاً رعـبٌ ويـأس بسـبب غمـوض الحـدَث ورهبتـه. تُقـام للأمـير أندريـه كلُّ التشريفـات التـي يمكـن أن يحلُـم بهـا أيُّ شـخصٍ راحـلٍ إلى عـالَمِ الآخـرة، دون أن يتجـرأ أحـدٌ أن يزعجـه بصرامتـه. مـع العلـم أنَّ هـذه الطريقـة هـي الوحيـدةُ الحقيقيـة والصحيحـة لكـي يُدفَـن الشـخصُ المتـوفَّى قبـل الأوان دفنـاً لائقـاً إلى الأبـد. لقـد اسـتعار الكونـت تولسـتوي هـذه الطريقـةَ مـن تقاليـدِ الممارسـة الحياتيـة العاديـة. يجـب أن يكـون ثمَّـة حجـمٌ أكـبر مـن الحـزن، ومـن الطاعـة ومـن الدمـوع؛ لأن هـذا كلَّـه يفتـح الطريـقَ نحـو حيـاةٍ جديـدة، وكل هـذا في نهايـة المطـاف يضمـن المصالحـةَ مـع أيِّ فقـدانٍ أيّـاً كان. لكـنَّ هـذا قليـلٌ بالنسـبة إلى الكونـت تولسـتوي؛ فهـو يـودِّع أمواتَـه إلى عـالَمِ الآخـرة بطريقـةٍ تجعلهـم فاقديـن لأي أهميـة أو معنـى بالنسـبةِ إلى مَـن بقـي مـن الأحيـاء. ولهـذه الغايـة نـراه لا يتأفَّـف حتـى مـن اسـتخدامِ فلسـفة شـوبنهاور، ولكـن مـع إجـراءِ تعديـلٍ طفيـف عليهـا بـما يتناسـب مـع متطلَّبـات الإبـداع الأدبي. هـا هـو ذا الأمـيرُ أندريـه وهـو يفـارق الحيـاةَ لا يتحـوَّل إلى «لا شيء». كلَّا، بـل إنـه يعـود فقـط إلى ذلـك الكَنَـف الـذي خـرج منـه. تضيـع الهويـة فقـط، ولكنهـا تضيـع إلى درجـةٍ أنَّ كلَّ مـا هـو حـي حتـى قبيـل المـوت بلحظـات، ويشـمل ذلـك ابنَـه، يصبـح غريبـاً وبـلا معنـى بالنسـبة إليـه. هـذه الفكـرة الخالصـة لشـوبنهاور بشـأنِ «خلـود الـروح» مـن منظـورِ الكونـت تولسـتوي وبريشـتِهِ تُمـارِس تأثـيراً مهدِّئـاً كبـيراً ومنعشـاً جـدّاً عـلى مَـن بقـي مـن الأحيـاء. المـوت عبـارةٌ عـن انبعـاث مـن الحيـاة ... «وفيـما يخـصُّ طـول مـدَّة الحيـاة، لم يُخيَّـل إليـه (أي الأمـير أندريـه) أنهـا تسـير ببـطءٍ أكـبرَ مـن الاسـتيقاظ مـن الحُلـم مقارَنـةً بطـول مـدة الحُلـم».

تلك الأسطرُ اقتبسها الكونت تولستوي حرفياً من «العالَم باعتباره إرادةً وتمثيلاً»، كما هي الحال مع نظريةِ الموت كلِّها. هذا أمرٌ غريب؛ لأن الكونت تولستوي، على العموم، لا يحب الاقتباسات والاستعارات، لكنه يقوم بعملٍ استثنائي هذه المرة. ذلك أنَّ وجهةَ نظرِ شوبنهاور كانت مناسِبة جداً وتلبّي متطلَّبات اللحظة. مع العلم أنَّ شوبنهاور لا يَعِد بالخلود الأبدي، بالتأكيد؛ أي بالخلود لمن بقي من الأحياء وليس لمن يموت؛ أي إنه ما مِن أحدٍ سوف يشغَل فِكرَه بالموتى! دعْهم يُقيمون بسلام في قبورهم، في حين أنَّ الأحياء سوف يعيشون الحياة. ولهذا السببِ لا يجوز التعاملُ مع الموت من زاوية نظر أولئك الذين بَقوا أحياءً على الأرض، بل من وجهةِ نظر الموتى. وبهذا المعنى يصبح تصوير الكونت تولستوي للمسألة قمَّة الكمال. يُخيَّل إلينا كما لو أنه وصل إلى أقصى درجات الوعي البشري، ويبدو أنه لم يبقَ سوى خطوة واحدة وسوف ينكشف اللغزُ العظيم للحياة أمامك. بيدَ أنَّ ذلك مجرَّد خداع بصري، في حين أن الحقيقة هي على العكس تماماً: فُعِل كلُّ شيء هنا لكي يبقى اللغز غيرَ مكشوف إلى الأبد. لقد جرى تصوير الموت بوصفه شيئاً آخرَ مختلفاً تماماً عن الحياة؛ ولذلك فهو بعيدٌ تماماً عن إدراك الأحياء له. يفقد الأمير أندريه وهو ينازع الحياة، هويتَه أو فرادتَه البشريةَ التي تذوي وتتلاشى بالتدريج لتغرَق في شيءٍ ما مختلِف تماماً عن كلِّ ما يمكننا أن نتخيَّله. وهذا الشيء الآخر هو الـ Ding an sich[1] أو «الإرادة»، على أية حال، شيءٌ ما من أصل كانطي-شوبنهاوري، هو ما يمثِّل ذلك «الخلود» الذي ينتظر الإنسان. إنَّ مثل هذا الأفقِ الشاسع والضخم يمثِّل مشهداً

(1) الشيء في ذاته (ألماني).

هائلاً بالنسبة إلى الناس الأحياء، في حين أنَّ الإنسان الذي ينازع الحياةَ أو على فراش الموت لن يدفع شيئاً مقابلَ هذا الخلود. ونشيرُ في هذه المناسبةِ إلى أنَّ آخرَ الأناشيد عند الشاعر هاينه، الشاعرِ المحبوبِ عند تولستوي، يمكنه أن يوضِّح الكثيرَ في هذا السياق للشخص الفضولي: كان الشاعر الغنائي الألماني العظيم ماهراً في أن يكون صادقاً ووفيّاً، لكن الكونت تولستوي لا يريد أن يخلِط نفسَه مع أناسٍ بلا آمالٍ وطموحات دنيوية، وقضيةُ الأمير أندريه ليست قضيته. لا يحتاج الأمر سوى أن يُودَّع الأمير أندريه بطريقةٍ لائقة من الحياة. يجب دفنُه عميقاً في التراب، ومن ثم وضْعُ بلاطة كبيرة من الحجر على قبره لكيلا يكون بإمكان المتوفَّى أن ينهضَ وأن يثير الاضطرابَ في حُلم الأحياء الليلي، والأفضل أن يُحوَّل إلى Dinganshich تلك هي مهمةُ الفن الأدبي عند تولستوي، وهذا هو المغزى من فلسفةِ كانط المثاليةِ: ينبغي نقْلُ كافة المسائلِ المثيرةِ للقلق بهذا الشكل أو ذاك إلى حقلِ ما هو غير مُدرَك ومُبهَم. وعندئذٍ فقط سوف تسود في الأرض تلك السكينةُ التي يقدِّرها البشرُ أكثرَ من أي شيء في الدنيا، بعد أن كان الشبح قد بعث لديهم الخوف. وهذا الأمر ليس على تلك الدرجةِ من الوضوحِ الكبير عند كانط؛ إذ إنَّ القلق عنده كان ذا طابع نظري بحت ومجرَّد. كان الشبح عنده هو ارتيابية هيوم فقط، التي هدَّدت بنسف الإيمان في apodixis[1] العلم. بيدَ أنَّ الكونت تولستوي اصطدم بنوعٍ مختلِف من مذهب الشك؛ إذ كشفت عن نفسِها أمامه هاويةٌ عميقة كادت تبتلعه، وقد كان شاهداً على انتصار الموت على

(1) صفة من المنطق الأرسطي تشير إلى العبارات التي تكون صحيحة بشكلٍ واضح، أو بالضرورة، أو بديهيّاً. apodixis هو الاسم المجرَّد المقابل الذي يشير إلى اليقين المنطقي. (المترجم)

الأرض، كما أنه رأى نفسه هو خاصةً جثّة حيّة. وإذ انتابه ذعرٌ شديد، صبَّ لعناتِه على جميع المتطلّبات العليا للرُّوح عنده، فراح يتعلَّم ضيقَ الأفق والمحدودية على يدِ ما هو محدودٌ ودنيء، وكان يشعر بكلِّ ثقة بأنَّ هذه العناصرَ وحدَها فقط تصلُح لبناء ذلك الجِدار الذي سوف يحجُب «الحقيقة» الفظيعة عن النظرِ ربما إلى الأبد أو لفترة مؤقَّتة على الأقل. وقد عُثر على Dinganshich الخاصةِ به وأحكامه المركَّبة apriori[1]؛ أي إنه عرف كيف يُتَخلَّص من كلِّ ما هو إشكاليٌّ، وكيف تُخلَق المبادئ والأسس الراسخةُ التي يمكن للإنسان أن يعيشَ وفقها. وأنا أفترض أنَّه ما مِن أحدٍ سوف ينكر أو يشكِّك في شرعيةِ تلك الـ «أي إنه»؛ لأن ما هو جوهريٌّ في المحاكمات المسبقة وغير المبنية على التجربة ليس منشَأها، وإنما ذلك اليقين المنطقي فيها؛ أي شموليتها وضرورتها. وسوف نتحدَّث من جديد عن Dinganshich لاحقاً.

(1) القَبْليّة (باللاتينيّة a priori): مفهوم فلسفي يَعُدُّ المعرفةَ مُتَضمَّنةً في الوعي قبل التجربة، على عكس مفهوم البعديّة (a post eriori) الذي يَعُدُّ المعرفةَ حاصلاً للتجربة والإدراكات الحسيّة. (المترجم)

# 10

يخاطب زرادشت النيتشوي تلامذتَه: «لقد اخترعت لنفسي صمتاً طويلاً ومشرقاً، وذلك لكيلا يكون بإمكان أيٍّ منكم أن ينظرَ إلى أعماقي ومن ثم يعرف آخرَ إرادة عندي. لقد قابلتُ عدداً كبيراً من الناس الأذكياء، كانوا يحجبون وجوهَهم ويتعمَّدون إثارةَ البلبلة والإرباك لكيلا تتمكَّن أيُّ عينٍ من رؤية دواخلهم. إلَّا أنه كان يأتي إليهم أناسٌ كشَّافون أكثرَ فطنةً وشكَّاكون ويصطادون السمك الذي أُخفي بمهارة ... كان هؤلاء الناس الطاهرون والشجعان والشفافون هم الصامتين الأكثر ذكاء؛ لأنَّ القاع عندهم عميق جداً لدرجةِ أنَّه حتى الماء الشفاف غيرُ قادر على فضحهم». علماً بأنَّ نيتشه لم يكن صامتاً كبيراً ومنطوياً على نفسه؛ إذ كان يقوم بتعكير مياهه. يمكن استخدامُ هذه الكلماتِ بحقِّ الكونت تولستوي تماماً؛ فهو متنورٌ وشفَّاف وجزيء، فمن ذا الذي يمكنه أن يعتقدَ أنه يجب الغوصُ إلى قاع رُوحه، وأنَّ ثمَّة وحوشاً تعيش في ذلك القاع؟ كما أنه كان هو نفسه يحب أن يَعُدَّ حياته «سعيدةً إلى أقصى درجةٍ بالمعنى الدنيوي». وعندما تقرأ أعماله وأنت في سنِّ الشباب، سوف تنظر بفرحٍ في ذلك العمق النير والشفاف والواضح! يُخيَّل إليَّ أنَّ الكونت

تولستوي يعرف ويفهم كلَّ شيء، ويبدو أنَّ ذلك الغموض والتناقض اللذين يثيران الحيرةَ والارتباك عند الناس مجرَّدُ طُعم مغرٍ للإنسان، وأنَّ هشاشة كلِّ ما هو قائم وعدمَ ثباتِه مجرَّدُ رؤية مخاتلة وسراب. لا يوجد في قاموس الكونت تولستوي كلمةُ هشاشة أو عدم ثبات. تذكَّروا، على سبيل المثال، الخاتمةَ في رواية «الحرب والسلم». هل توجد شكوكٌ، يا تُرى، لم تُحلَّ في غرفةِ الطعام الهادئة والمريحة في بيت نيكولاي روستوف، خلْفَ مائدةِ الشاي، من قِبل أفرادِ الأسرة الكبيرة السعداء والراضين؟ كلا، لقد حمل بيير معه من بطرسبورغ حَفنة من الأفكار التي كانت تنطوي كما يبدو على خطرٍ يهدِّد الرفاهةَ الآمِنة لسكان الجبل الأقرع[1]. بيدَ أنَّ الكونت تولستوي رفضَ كتابةَ رواية عن «الديسمبريين»، لكنه كتب «الحرب والسلم». لقد أُبعِد الديسمبريُّون، على غرارِ أندريه بولكونسكي، إلى حقل Dinganshich، حيث يجب نقلُ جميع أشكال التضاد (الأنتينومي Antinomy) للوعي البشري، حسب نظرية كانط. ولكن، لأجلِ الحياة أُبقي على الأحكامِ المسبَقة التي يجري فيها اختيارُ الشخصِ الأكثر ملاءمةً لمسائلَ كهذه كي يكون لسانُ حالها نيكولاي روستوف. هل ترغبون في سماعِ لغةِ ما هو غيرُ مبني على تجربة؟ ها هو ذا بيير بيزأوخوف بدأ يروي وهو يغمغم ويلثغ، شيئاً ما عن علاقاته في بطرسبورغ. «ثمَّة فسادٌ واختلاس في المحاكم، وفي الجيش تعمل الهراوة فقط: تدريبات على السير في استعراضٍ عسكري، وفي القرية يضطهدون الناسَ، ويحاربون التنويرَ ويعملون من أجل القضاءِ عليه. يحاربون ويخنقون كلَّ ما هو فتيٌّ وشريف! والجميع يدرك أنه

(1) مستوطنة حضرية في مقاطعة ساراتوف في روسيا المركزية تأسَّست عام 1740م. (المترجم)

لا يمكن البقاء طويلاً والذهاب بعيداً مع ذلك». يقول بيير: كلُّ شيء متوتر إلى أقصى درجة، وسوف ينفجر قريباً (منذ أن وُجدت الحكومات، التي تقوم بمراجعةِ أفعالِ حكومةٍ ما لا على التعيين، يتحدَّث الناس على الدوام). تلك هي، كما تعرفون، أقوالُ المذهب التشكيكي عند السيد هيوم. امنحوها المزيدَ من المساحة، وسوف تذهب كافةُ الجهود التي بُذلت من أجل «الحرب والسلم» أدراجَ الرياح. هذا يعني أنه من الضروري تغييرُ وجهةِ الحديث. وها هو الكلام يُمنَح لنيكولاي روستوف. ما دام شخصاً يؤمن بما هو غيرُ قائم على التجربة، فإنه لا يحب البراهين والأدلَّة، وإنما يحترم الكلِّية والضرورة. ولذلك نراه يقول لبيير بكل صراحة: «لا يمكنني أن أثبت لك ذلك. أنت تقول إنَّ كلَّ شيء عندنا رديء، أما أنا فلا أرى ذلك ... ولو أنَّ أركاتشوف أعطى الأوامرَ لي لكي أهجمَ عليك (أي ضد بيير مع أصدقائه من بطرسبورغ) على رأس سَريَّة من الخيَّالة وأن أقضيَ عليكم، لهجمتُ دون أن أتردَّد لحظةً واحدة»... يا له من كلام رائع، أليس كذلك؟! وهل يمكن برهان أي شيء لبيير، في حقيقة الأمر؟ ثُم، ألم يكن كانط على حق، وهل يمكننا أن نحيا من دون أحكامٍ مسبقة، أي من دون تلك الأحكامِ التي تُؤكِّد لا عن طريق التصوُّرات العلمية المتناقضة دائماً وغير الثابتة، وإنما من خلالِ القوة التي لم تخُن نفسَها قط - بكلمةٍ أخرى، عن طريق الضرورة؟ كان الكونت تولستوي، وقبل أن يبدأ في كتاب «الحرب والسلم» قد قام بسلسلة من التجارب على «الضمير»، وليس على الضمير الكانطوي-الروستوفي الذي يمتلِك مبادئَ وقواعدَ، وإنما على ضميره هو خاصةً بصفته إنساناً عبقريّاً. وأنتم تعلمون أي نتيجة كانت؛ لذلك لم يبقَ أيُّ نوع

مـن الأحـكام تقريبـاً، وليـس تلـك المسبقة فقـط. وكيـف للإنسـان أن يحيـا مـن دونِ أحـكامٍ ومـن دونِ قناعـات؟ وأخـيراً اكتشـف الكاتـبُ العظيـم في الأرضِ الروسـيةِ كيـف تُخلَّـق القناعـاتُ، وأدرك تلـك الأفضليـةَ العظمـى التـي يملِكهـا أمثـالُ روسـتوف عـلى أمثـالِ بولكونسـكي، بحيـث إنـه لا يجـوز التفكـيرُ حتـى في أن يُـترَكَ بولكونسـكي حيّـاً. ولكـن، مـاذا بإمكانـك أن تفعـلَ بـه؟ أمـا روسـتوف حتـى لـو منحتـه مائـةَ عـام مـن الحيـاة، فلـن يقـودَ إلى طريـقٍ مجهـول وزائـف («مجهـول» و«زائـف» في هـذه الحالـة المحـدَّدة، كـما هـو معـروف، مترادفـان). لاحظـوا درجـةَ التقديـر والاحـترام التـي يكنُّهـا الكونـت تولسـتوي تجـاه روسـتوف. يخبرنـا: بقيـت محفوظـةً في ذاكـرة الشـعب ذِكـرى طيبـة وورعـة عـن عهـدِه بعـد وفاتـه (وفـاة نيكـولاي) مـدةً طويلـة جـدّاً. ذكـرى ورعـة! بقيـت محفوظـةً مـدةً طويلـة! راجِعـوا ودقِّقـوا كلَّ مـا كتبـه الكونـت تولسـتوي: لم يقُـل شـيئاً مماثـلاً عـن أي بطـلٍ مـن أبطالـه مـع عرفـانٍ بالجميـل مثـلِ هـذا، ومـع مثـلِ هـذا الحنـان. سـوف تتسـاءلون: ولكـن، لقـاء مـاذا؟ عـلامَ اسـتحقَّ هـذا الإنسـانُ العـاديُّ مثـلَ هـذا التقديـر؟ لقـاء كونـه إنسـاناً عاديّـاً بالضبـط: كان روسـتوف يعـرف كيـف يحيـا، ولهـذا السـببِ كان صُلبـاً بشـكلٍ دائـم. لم يسـبق للكونـت تولسـتوي أن قـدَّر عاليـاً خـلالَ نشـاطِه الأدبي بأكملـه شـيئاً مـا مثـلَ تقديـره المعرفـةَ الدقيقـةَ المحـدَّدة والصلابـةَ؛ لأنـه لم يكـن يتمتَّـع هـو نفسـه لا بهـذه ولا بتلـك. كان بإمكانـه أن يقلِّـد روسـتوف وحسـب، وكان بطبيعـة الحـال مضطـرّاً إلى أن يبـدِّد المديـحَ للمَثَـل الأعـلى عنـده. تلـك «الذكـرى الورعـة»، ومجمـلُ الخاتمـة لروايـة «الحـرب والسـلم»، هـي تحـدٍّ، وتحـدٌّ جسـورٌ عـن وعـي ودرايـة، رمـاه الكونـت تولسـتوي في وجـهِ جميـعِ الأشـخاص المتعلمين،

بـل إلى ضمـير عصرنـا ككل، إذا شـئتم. وهـو تحـدٍّ واعٍ عـلى وجـهِ الخصوص: كان الكونـت تولسـتوي يـدرك بصـورةٍ رائعـةٍ مـا الـذي يفعلـه. «إني أنحنـي أمـام روسـتوف وليـس أمـام بوشـكين أو شكسـبير، وأعلـن عـن ذلـك للجميـع بـكل صراحـة»؛ هـذا هـو المغـزى مـن خاتمـةِ روايـة «الحـرب والسـلم». لاحظـوا أنـه في عـصرِ المجـلات التـي كان يصدِرهـا في ياسـنايا بوليانـا وفي مرحلـةِ التجـارب الأدبيـة والنثريـة الأولى، عندمـا جـرى التنكُّـر لـكلٍّ مـن شكسـبير وبوشـكين، لم يكـن الإقطاعـي المثقَّـف هـو الـذي يقـف بمواجهتهـا، في الحـد الأدنـى، وإنـما الشـعبُ الـروسيُّ بأكملـه. حينئـذٍ لم يكـن ذلـك مسـتهجناً بعـدُ؛ فالشـعبُ الـروسي مـع ذلـك عبـارة عـن «فكـرة» كبـيرة، عبـارة عـن بِسـاط الريـح[1] الـذي قـام فيـه الكثـيرُ مـن القـرَّاء والعديـد مـن الكتَّـاب برحلـةٍ إلى مـا وراء السُّـحب. إلَّا أنـه مـا مِـن شيء في روسـتوف يشـبه الفكـرةَ عـلى الإطـلاق. إنـه مـادةٌ صِرف، خمـولٌ وضيـقُ عقـل، غيـابُ الحركـة. فقـرَّر أن يسـتخدم في حقِّـه نعـتَ «ذاكـرة ورعـة»! ولكـن، كيـف أمكنهـم بعـد ذلـك أن يصدِّقـوا أنَّ الكونـت تولسـتوي سـاذَجٌ وبـريء، وأنَّ أعماقـه شـفَّافةٌ ومـن ثَـم فـإنَّ القـاع عنـده مكشـوفٌ ومرئـي؟ مـن الواضـح أنَّ الحَـدْس عنـد دوستويفسـكي كان أفضـلَ ممـا عنـد القـراء الآخريـن لأعـمال الكونـت تولسـتوي: «آنَّـا كارينينـا» ليسـت بالـشيء الـبريء على الإطلاق...

(1) بِساط الريح هو سجادةٌ سحرية ورد ذكرُها في حكاية ألف ليلة وليلة، وهو عبارة عن بِسـاط مسـحور يصبح وسـيلةَ نقل جوي للأفراد، لقدرته على الطيران. السجاد هو الأسطورةُ التي تنقـل الناس فوقها فوراً وبسرعة إلى وجهتهم. وقد ظهرت تلك السجادةُ أيضاً في حكايات عـلاء الدين عندما كان يتنقل عليها بين المدن، وحكايات علاء الدين تُعَدُّ حكاياتٍ ذات أصل عربي. (المترجم)

ثـم يدخلنـا الكونـت تولسـتوي بعـد جـدالٍ بيـير مـع نيكـولاي إلى غـرف نـوم الأزواج السـعداء عنـده. تـدور الأحاديـثُ عنـد الكونـت تولسـتوي في غـرف النـوم بأسـلوبٍ مغايـر وخـاص؛ ذلـك أنَ الأزواج أَلِفـوا عيشـتهم جـدّاً، وهـم قريبـون بعضهـم مـن بعـض ومرتبطـون بشـكلٍ وثيـق إلى درجـة أنَّ أحدهـم يفهـم الآخـرَ مـن أول كلمـةٍ وبالإشـارة كـما يقـال. وهنـاك يمكـن التقـاطُ اللحـنِ الرئيـس للسـعادة الزوجيـة فقـط:

«Wir treiben jezt Familienglück, was höher lockt, das ist vom Übel».[1]

لكـن الكونـت تولسـتوي يعـود ويرسُـم مجمـلَ تلـك الحيـاةِ الرغيـدة مـن جديـد بطريقـةٍ تـكاد تكـون ورعـة. «دعْ أمثـالَ شكسـبير يصـوِّرون لأنفسـهم مختلـفَ أشـكال المأسـاة، أمـا أنـا فـلا أريـد أن أعـرفَ شـيئاً مـن هـذا القبيـل». لعـل مثـلَ هـذه الفكـرة كانـت تـدور في رأسـه عندمـا كان يرافـق الأزواجَ إلى غـرفِ نومهـم. بيـدَ أنـه لم يعلـن عـن ذلـك بطريقـةٍ صريحـة. ولكـن تُنظِّـم عمليـةُ تبجيـل احتفـالي لهـذه السـعادة الزوجيـة التـي تعـترف بـأنَّ كلَّ مـا «هـو أكثـرُ سـموّاً ورفعـةً» إنـما مصـدره الشـيطان. علـماً بـأن ثَمَّـة قطـرةً واحـدة مـن السـخرية في ذلـك التبجيـل؛ لأن الكونـت تولسـتوي لم يسـتطِع أن يضبـط نفسـه عـن ذلـك! ولكـن تلـك السـخرية، للأسـف، لا تمُـتُّ بصلـةٍ إلى روسـتوف وإنـما تخـصُّ بيـير، وهـي لا تتعلـق بأحوالـه العائليـة والبيتيـة، وإنـما تـدور حـول النوايـا في بطرسـبورغ. فضـلاً عـن أنَّ تلـك السـخرية لا تـكاد تُلاحـظ إلا بصعوبـةٍ كبـيرة، وُجِّهـت كلمـةُ «الغـرور بالنفـس» إلى بيـير مرتـين فقـط، وكانتـا عرَضـاً.

(1) «نحن الآن نطارد سعادةَ الأسرة، وما يلوح في الأفق، فهو من الشر». (ألماني)

أما في غرفة نوم آل روستوف، فكلُّ شيء على أفضل ما يُرام؛ فالكونتيسة ماريا تعطي زوجَها ما تؤلِّفه من كتاباتٍ بارَّة وورعة، والزوج بدوره يدرك وضاعتَه أمام طهارتِها الروحيةِ بعد أن يقرأ يومياتها. وفوق ذلك، تقترح الكونتيسة ماريا على هامشِ الجدال بين بيير ونيكولاي، حجةً جديدةً للدفاع عمَّا هو قبْلي وغير مبني على التجربة، فيتلقَّفها نيكولاي بسرور، وذلك على الرغم من أنه لا يحتاج، والحق يُقال، إلى أيِّ حجج، وأنَّ هذه الصفة السامية والرفيعة هي ما تميِّزه على وجه التحديد ... تقول الكونتيسة ماريا: «أنا أرى أنك على حقٍّ تماماً. وهذا ما قلته لناتاشا. بيير يقول إنَّ الجميع يعانون ويتعذبون ويصبحون عرضةً للإفساد، وإنَّ من واجبنا مساعدةَ الفقراء. راحت الأميرةُ ماريا تقول: مِن البدَهي (يا لها من كلمة رائعة هذه «من البدَهي»!) أنه على حق، لكنه ينسى أنَّ لدينا واجباتٍ أخرى أقرب، تلك الواجبات التي أشار لنا الربُّ إليها، وأنه بإمكاننا أن نغامرَ بأنفسنا ولكن ليس بالأطفال». لاحظ كيف يُكتَب التاريخ! لكن هذا ليس كلَّ شيء بعد؛ فالإنسان ذو الرأي المسبَق وقد تمسَّك بحجَّة الكونتيسة ماريا، ينتقل على الفور من الأطفال إلى الحديث عن الأعمال، عن الممتلكات وأعمال الشراء، عن المدفوعات وعن ثروته الخاصة. شعرت الكونتيسة ماريا بأنَّ هذا الانتقال كان حاداً ومباغتاً بشكلٍ غير طبيعي: «كانت ترغب بقوة أن تقول له (لزوجها) إنَّه ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان، وإنه يبالغ في إعطاء الاهتمام بمثل هذه الأعمالِ (وقد شدَّد الكونت تولستوي على الجملة هنا)، لكنها كانت تعرف أن الحديثَ عن ذلك لا معنًى له وبلا فائدة؛ فاكتفَت بتناوُل يدِه وتقبيلها. وقد فسَّر حركتَها تلك بأنها

استحسـانٌ لكلامـه وتأكيـدٌ عـلى مـا يقولـه». ألم تكـن تلـك شـجاعةً رائعـة، في حقيقـةِ الأمـر؟! اذكـروا لنـا مَـن مِـن الكتّـاب، باسـتثناءِ الكونـت تولسـتوي، تجـرّأ عـلى القيـامِ بلعبـةٍ خطـيرة كتلـك! فالكونتيسـة ماريـا التـي كانـت «عـلى الـدوام تطمـحُ إلى مـا هـو كامـلٌ وخالـدٌ وسرمـديٌّ»، توافـقُ عـلى أكثرِ أشـكال الريـاء وضوحـاً وقـوّة، كـما لـو أنـه لم يحـدُث أيُّ شيء، بمجـرّد أن كشـفت لهـا الغريـزة عـن الخطـر المحـدِق الـذي يتهـدّد اتحادهـا «الروحـي» مـع زوجهـا؛ إذ كانـت تكفـي خطـوةٌ إضافيـة واحـدة ليتحـوّل النفـاق إلى قانـون، إلى قانـونٍ - رهيـب القـول - للضمـير. وإذا شـئتم، لم يكـن الأمـرُ يحتـاج إلى أي خطـوة؛ لأن تلـك الخطـوة قـد تمّـت مـن خـلال كلـمات الكونتيسـة ماريـا. ولكـن الأكثـر إثـارةً للفضـول هـو أنَّ الكونـت تولسـتوي لا يقـوم بأدنـى إشـارةٍ تدفـع إلى الاعتقـادِ بأنـه يـدرك مـن فـوق أيِّ هاويـة عميقـة قفـز لتـوِّه؛ فقـد ظـلَّ كعادتـه مشرقـاً وشـفافاً وواضحـاً.

أي «سـيكولوجيا» كان يمكـن أن يصنعَهـا دوستويفسـكي مـن كلِّ ذلـك! لكـن الكونـت تولسـتوي كان قـد بـات محنّـكاً؛ فهـو يعـرف أنـه في كلِّ مـرّة يقـتربُ التضـاد (الأنتينومـي)، يصبـح لزامـاً عليـه أن يجعـلَ وجهَـه جليـلاً، وبريئـاً، وبشوشـاً كـما عنـد الأطفـال، وإلا فسـتكون النهايـة في الحالـةِ المعاكِسـة لمختلِـف أنـواعِ المسـبَّقات، والكلّيـات، وللـضرورة والأرضيـة، والركائـز! ولا يوجـد نظـيرٌ لـه في مثـلِ هـذا الفـنِّ الدبلومـاسي. لعلَّهـا تلعـب دوراً هنـا «السـلالة» والمنشـأ - عـشرة أجيـال مـن الأسـلاف «الخَـدَم»[1] الذيـن كانـوا عـلى الـدوام بحاجـةٍ إلى شـخصيةٍ وجاهيـة أو رسـمية ... والكونـت تولسـتوي

(1) التسـمية العامة للأشخاص الملزمين بأداء الخدمة العسـكرية أو المدنية لصالح الدولة في روسيا بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر. (المترجم)

يحقّق بهذه الطريقةِ هدفاً مزدوجاً: لقد قال «الحقيقة» - والحقيقة لم تَنسِف الحياة. لم تَعرفِ المثالية قبل الكونت تولستوي أساليبَ دقيقةً كهذه، بل كانت المثاليةُ على الدوام - وبالتحديد من أجل تأثيراتها الخاصة - بحاجةٍ إلى الكذبِ الفظِّ والمشاعر «الحارة»، بالإضافة إلى البلاغة، والبهرجة، وحتى إلى ألوانٍ شعبية رخيصة.

لو أنَّ دوستويفسكي تذكَّر الخاتمةَ في رواية «الحرب والسلم»، لكان أدرك أن الحَنَق والغضب على ليفين بسببِ عدمِ اكتراثه بآلام وبمعاناة السلافيين هو من مخلَّفات الماضي وما فات أوانه. كان من المفترض أن يحدث الغضب قبل ذلك، بسبب «الحرب والسلم». ولكن، بما أنه قُبِلت «الحرب والسلم»، فمن الضروري قبول «آنّا كارينينا» أيضاً، بمجملِها، من دون أيِّ قيودٍ أو شروط، ومع الجزء الأخير منها؛ إذ إنَّ القضايا السلافية في جوهرها هي أيضاً تشوُّش عارم. وهي تنطوي على نوعٍ من التضاد - أن أقتل أو لا أقتل. فلماذا لا يجوز وضْعُها في عِداد الـ Dingansich؟ ولِـمَ لا يمكن وضْعُها، كما يقترح ليفين، تحت إدارةٍ حصريةٍ للحكومة مع التذكيرِ بمثالِ الأسلاف الذين استدعوا الأمراء من خلفِ البِحار خصيصَى لكي يتسلَّموا جوانبَ الإدارة والحكم كافة؟

إنَّ نشاط الكونت تولستوي بأكمله، ويشمل ذلك تلك المقالات الفلسفية-الاجتماعية الأخيرة ومعها أيضاً رواية «البعث» (أحد الأعمال القليلة، وتكاد تكون الروايةَ الوحيدة غير الموفَّقة نسبيّاً من بين أعماله الأدبية، التي جمع فيها الكونت تولستوي حرفيّاً بقايا مائدته الخاصة التي كانت عامرةً وكريمة جداً ذات يوم)، لا يخرج خارجَ إطارِ المهمة التي حدَّدتْها. فهو يريد بأي طريقةٍ ومهما كان الثمن، أن يلقِّن درساً تلك

الوحوشَ الضارية التي تُدعى بكلمات أجنبية «التشكيكية» و«التشاؤمية». وهو لا يخفيها عن أعيننا، لكنه يبقى محتفظاً بها في أقفاصٍ متينة وآمنة، بحيث إنَّ أكثرَ الناس ريبةً يبدأ بالظن أنها غير مؤذية وغير خطيرة، وأنها مُروَّضة إلى الأبد. إنَّ الصيغةَ الأخيرة للكونت تولستوي، التي تختصر مسيرتَه الكفاحية الدؤوبة والتي أعلن عنها بطريقةٍ جليلة وبشكلٍ مميَّز في كتابه «ما هو الفن» تقول: «الخير وحب الأخوة هما الرب». لن أتحدَّث عنها هنا لأنه سبق لي أن شرحت مضمونها ومعناها بشكلٍ مفصَّل في مكانٍ آخر[1]. ما أريده هو أن أشيرَ فقط إلى أنَّ هذه «القناعة» أيضاً التي تمتلك، حسب التأكيدات الحاسمة للكونت تولستوي، أبوين روحيَّين هما العقل والوجدان الحي، ليس لها ذلك المنبت الطيب كما قد يبدو للوهلة الأولى، بل خلقَها ذلك الخوفُ نفسُه من Dingansich، وذلك التوق العفوي نفسه تقريباً «نحو الوراء إلى كانط» (كما كان ممثلو الفلسفة الألمانية الحديثة جداً يصرخون قبل بعض الوقت بأعلى صوتهم ودفعةً واحدة)، الذي بتأثيرٍ منه طُرِد الأمير أندريه، وبُجِّل روستوف، كذا أُضْفيَت الشاعرية على الأميرة ماريا، وهكذا دَوالَيك. ولهذا السببِ بالتحديد سوف نرى أدناه، تلك الحالةَ التي قدَّمها لنا الكونت تولستوي على أنها الحقيقةُ الأكثرُ عظمةً والأكثر سموّاً، والتي أمكن لها أن تبدوَ بالنسبة إلى دوستويفسكي كذباً تجديفيّاً وبشعاً ومثيراً للاشمئزاز.

---

(1) «الخير في تعاليم الكونت تولستوي، وف. نيتشه». (المترجم)

# 11

وهكـذا، يُعَـد بنـاء أحـكام مسـبقة وDingansich إحـدى طـرقِ محاربـةِ التشـاؤمية والارتيابيـة؛ باختصـار، إنـه مذهـبُ المثاليـة التـي كان الكونـت تولسـتوي يصوغهـا في عبـارةِ «الخـير هـو الـرب». ولكـن في الوقـت نفسـه، يمكـن الاسـتنتاج ممـا قيـل سـابقاً أنَّ المثاليـة بحاجـةٍ إلى دعامـة خارجيـة. كان ليفـين بحاجـةٍ إلى أن يتـزوَّج مـن كيتـي وأن يعمـل في الزراعـة، ويخـرج إلى الصيـد وغـير ذلـك وهكـذا دَوالَيـك. تبـيَّن أنَّ «العقـل» وحـدَه غيـرُ كافٍ مـن أجـل تشـييد مثـل هـذه العمارة القائمـة عـلى الأحـلام وحسـب. كان لا بـد مـن أسـاسٍ «مـادي»، مـادي جـدّاً. بيـدَ أنَّ الأسـاس يقـوم عميقـاً تحـت الأرض؛ وليـس بإمـكانِ أحـدٍ أن يـراه. ولطالمـا سـاعد ذلـك كثـيراً في انتصـارِ مـا هـو «رفيـع وسـامٍ» فـوق الأرض. حاوِلـوا أن تتذكَّـروا عـلى الأقـلِّ مؤسِّـسي المثاليـةِ الأوروبيـة؛ سـقراط وأفلاطـون وتعاليمَهـا عـن الخـير. تبـيَّن أن تعاليمَهـا منسـوجةٌ مـن أفـكارٍ بالغـةِ النقـاء والطهـارة، تتحاشـى بتقـزُّز أيَّ احتـكاك مـع كلِّ مـا لـه علاقـة بالعقـل مـن حيـث المنشـأ. إلَّا أن التهريـب مـع ذلـك كان قائـماً عـلى مجـالِ الأفـكار النظيـف؛ وأي تهريـب! تبـيَّن أنَّ التعاليـم بخصـوص أفضليـة الخـير عـلى الـشر لا يمكنهـا – وأنـا عـلى استعدادٍ لأن أقولَ

لا تريـد - أن تبقـى قائمـة عـلى الديالكتيـك فقـط مهـما كان هـذا الديالكتيـك «ربانيّـاً أو مقدَّسـاً». فهـي تحتـاج مـن أجـل تعزيزهـا وترسـيخها إلى نـوعٍ مـن الإيـمان الفـظ، الإيـمان المـادي مثـل الإيـمان بالثـواب. والحـق يقـال، مـا هـو المطلـوب أكثـر بعـد أن بُرهِـن عـلى أنَّ اختبـار الظلـم والأذى، أفضـلُ مـن القيـام بـه؟ لكـن الحقيقـة هـي أنَّ ذلـك قليـل؛ ففـي حـوارات أفلاطـون (غورغيـاس، والدولـة، وفيـدون) يجـري اسـتدعاءُ أبسـطِ وسـيلةٍ بشريـة مـن أجـل تقديـم الدعـم للخـير. يُوضَّـح هنـاك أنَّ الأشرار سـوف يُعاقَبـون في حينـه (في الحيـاة القادمـة)، في حـين أنَّ الأخيـار سـوف يكافـؤون ...: ومـا دام الخـير يتمتَّـع بمثـلِ هـذه الأفضليـة المظفـرة الأكيـدة، فمـن الممكـن، إذن، أن يُـترَك الديالكتيـك أيّـاً كان عـلى حالـه دون أن يُمَـس. حتـى العقـل الأقـل تطـوراً قـادرٌ عـلى إدراك ميـزة الخـير الـذي يمتـاز بأنـه يملـك مُدافعـاً عنـه ليكـن بعيـدَ المنـال، ولكنـه مبنـيٌّ بطريقـةٍ دنيويـة تمامـاً، وهـو في الوقـت نفسِـه كلِّي القـدرة. بيـدَ أنَّ ثَمَّـة أمـراً غريبـاً! إذ إنكـم سـتعثرون عـلى الثـواب السـقراطي-الأفلاطوني في كافـة النظـم المثاليـة تقريبـاً التـي تتحـدَّث عـن الأخـلاق. لطالمـا اعتقـد جميـعُ المثاليـين أنَّـه مـن الـضروري تحويـلُ الـرب خاصـةً إلى حـامٍ للخـير أو حتـى، كـما هـي الحـال عنـد الكونـت تولسـتوي، المطابقـةُ بـين الخـير والـرب (وهـذا في العـصر الحديـث جـدّاً؛ عـصر الفلسـفة الوضعيـة، وعـصر التطـور ... إلـخ). مـن الواضـح أنَّ الخـير عنـد أنصـار المثاليـة صُـوِّر عـلى أنـه خـيرٌ في حـدِّ ذاتـه، an sich، غـير مثـيرٍ للاهتـمام كثـيراً، وأنَّ البـشَر قبِلـوا بـه بسـبب خوفِهـم مـن إثـارة الحَنَـق والغضـب عليهـم عنـد الكائـن الـكلِّي القـدرة. المثاليـة أبعـدُ مـا تكـون عـن كونهـا مثاليـة كـما هـو متوقَّـع في ضـوء المهابـة التـي تحـدَّث بهـا دعاتُهـا؛

فهـي تحيـا في نهايـة المطـاف عـلى آمـالٍ دنيويـة تمامـاً، عـلى a priori وعـلى Ding an sich الخاصـةِ بـه - وهـذه مجـرد جـدران عاليـة تحيـط نفسَـها بهـا لكـي تنعـزل عـن المطالـبِ الأكثـرِ صعوبـةً في الحيـاة الواقعيـة. ومذهـب المثاليـة بهـذا المعنـى يصبـح أقـربَ إلى الاسـتبداد الشرقـي: كلُّ شيء مـن الخـارج متلألـئ وجميـل وأزلي؛ أمـا في الداخـل ففظائـع وحسـب. وهـذا هـو السـببُ في تلـك الظاهـرة غـير المفهومـةِ التـي تكمُـن في أنَّ التعاليـمَ البريئـة للوهلـة الأولى تصبح في كثـيرٍ مـن الأحيـان مـادةً لأكثـرِ أشـكالِ الكراهيـة قسـوةً مـن قِبـل النـاس، الذيـن لا يسـتحقُّون أدنـى درجـةٍ مـن درجـات الشـك في ميلهـم «الفطـري» نحـو الـشر. إلَّا أنـه يمكـن القـول وبـكل ثقـة أنَّ كلَّ عـدوٍّ لـدودٍ للمثاليـة كان في يـوم مـن الأيـام، عـلى غِـرار دوستويفسـكي أو نيتشـه، مثاليّـاً متطرفـاً، وأنَّ تلـك «السـيكولوجيا» التـي ازدهـرت بقـوة وبشـكل بـاذخ في العـصر الحديـث، هـي مـن فِعـل أولئـك المرتدِّيـن عـن المثاليـة. وبالفعـل، مـا الـذي يجعـل المـرءَ يغـوصُ في أعـماق روحـه، ولمـاذا سـيقوم بالتحقُّـق مـن معتقداتـه الرائعـة والمثـيرة للفضـول بـلا أدنـى جـدال؟ لا يوجـد هنـا أي دور للمفهـوم الديـكارتي de omnibus dubitandum[1] عـلى الإطـلاق: لم يقبـل الإنسـان، بسـبب القاعـدة المنهجيـة، أن يخسر بـأيِّ شـكلٍ مـن الأشـكال الأرضيـةَ مـن تحـت قدميـه ... والأرجـح أنـه عـلى العكـس؛ الأرضيـةُ المفقـودة تضـع البدايـةَ لمختلِـف أنـواع الشـك. وهكـذا، عندمـا يتبـيَّن أن المثاليـةَ لا تسـتطيع مقاومـةَ الضغـطِ الـذي يمارسـه عليهـا الواقـع، بعـد أن يكتشـف الإنسـان - وقـد قادتـه الأقـدار إلى أن يصطـدمَ وجهـاً لوجـه بالحيـاة الحقيقيـة كـما هـي، فجـأةً - أنَّ جميـعَ المواقـف المسـبَقة الجميلـة والرائعـة كانـت، ولخيبتـه الشـديدة، مجـرَّدَ

(1) أُخضِع كلُّ شيء للشك. (لاتيني)

كـذبٍ خالـص. حينئـذٍ فقـط تسـيطر عليـه ولأول مـرة عاصفـةٌ مـن الشـكوك، بحيـث إنـه ينسِـف خـلال لحظـة واحـدة جـدرانَ الحصـون الهوائيـة، التـي كانـت تبـدو في السـابقِ راسـخةً ومتينـة. عندئـذٍ تختفـي كلُّ تلـك المجموعـةِ الكبـيرة مـن الملائكـة والقديسـين السـابقين - سـقراط وأفلاطـون، الخـير والنزعـة الإنسـانية والأفـكار - الذيـن كانـوا يحرُسـون الـروحَ البشريـة البريئـة مـن هجـمات الشـياطين الشريـرة لمذهبَـي التشـكيكية والتشـاؤمية، وتتلاشـى في الفضـاء؛ وعندئـذٍ يجـدُ الإنسـان نفسـه ولأولِ مـرة في حياتـه وجهـاً لوجـه أمـامَ ألـدِّ أعدائـه؛ حيـث يختـبر تلـك الوحـدةَ الفظيعـة والرهيبـة التـي لـن يكـون بإمـكانِ أيِّ قلـبٍ مخلِـص ومحـبٌّ أن يخرِجـه منهـا. هنـا بالتحديـد تبـدأ فلسـفةُ المأسـاة. مـات الأمـلُ إلى الأبـد، وأمـا الحيـاة فـما زالـت قائمـة، بـل هنالـك أيضـاً الكثـيرُ مـن الحيـاة. لا يجـوز للإنسـان أن يمـوت، عـلى الرغـم مـن أنـه كان يتمنَّـى ذلـك. اسـألوا دوستويفسـكي. وهـو سـيجيبكم بلسـانِ دميـتري كارامـازوف بـشيءٍ آخـرَ مختلِـف: «لقـد عرفـتُ أمـوراً كثـيرة خـلال هـذي الليلـة. عرفـت أنـه يسـتحيل عـليَّ لا أن أعيـش نـذلاً وحسـب، بـل مـن المسـتحيل أن أمـوتَ نـذلاً أيضـاً». هـل تفهمـون ذلـك؟ ماتـت جميـعُ المعـارف السـابقة، كـما انتهـت فلسـفةُ كانـط والكونـت تولسـتوي، وبـدأت مرحلـة الـ Ding an sich ... هـل يناسِـبكم أن تذهبـوا إلى هنـاك وتقتفـوا آثـارَ كلٍّ مـن دوستويفسـكي ونيتشـه؟ مـا مِـن شيء إلزامـي هنـا عـلى الإطـلاق: مَـن يُـرِد أن ينسـحبَ «إلى الـوراء باتجـاه كانـط»، يحـق لـه ذلـك. لعلكـم غـيرُ مقتنعـين بأنكـم سـوف تعثـرون هنـاك عـلى مـا أنتـم بحاجـة إليـه؛ عـلى أي نـوع مـن «الجـمال». وربـما، لا يوجـد هنـاك أيُّ شيء باسـتثناءِ مـا هـو بشِـعٌ وكريـه. لكـنَّ أمـراً واحـداً لا ريـبَ فيـه: يوجـد هنـاك الواقـع، واقـعٌ جديـد وغـير مسـبوق،

لا يُصدَّق أو الأفضل أن يقال واقعٌ لم يُعرَض حتى الآن، وأنَّ أولئك الناسَ المضطرين إلى أن يعلنوا أنه واقعُهم هم خاصةً، لن يُمنحوا فرصةَ العودةِ إلى الحياة البسيطة؛ حيث توجد الهمومُ المتعلِّقة بصحةِ كيتي، والجدالات مع كوزنيشيف، وما يتعلَّق بتدبيرِ الأملاك ومؤلَّفات الكتب وهكذا دَوالَيك، وهذه ستقود آلَ ليفين الذين خبروا كلَّ مآسي الحياة، إلى المجرى العادي للكينونة البشرية، وسوف ينظر أولئك الناسُ إلى كل شيء بأعينٍ مختلِفة عمَّا ننظر بها نحن. يمكننا أن نتخلَّص ونتنكَّر لمثلِ هؤلاء الناس: ما لنا ولَهم! وهذا ما قمنا به ونقوم به حتى الآن.

لقد أطلق ي. ك. ميخائيلوفسكي في مقالته المعروفةِ والمهمَّة من جوانبَ عديدة، على دوستويفسكي لقب «العبقرية القاسية». إنه تعريفٌ صائب تماماً ودقيق، وأنا أعتقد أنه سوف يلتصِق بدوستويفسكي إلى الأبد. لم يكن الناقدُ يريد، للأسف، أن يقدِّم توصيفاً للكاتب وحسب، بل أن يصدِر حكماً بحقِّ نشاطه بالكامل. وكلمةُ القاسية هنا تعني أنه مُفسَد ومشوَّه؛ ولذلك فهو غير صالح. لا يبقى لـ«ي. ك. ميخائيلوفسكي» سوى أن يجزَعَ مما قد حدث؛ أنَّ دوستويفسكي الذي يتمتَّع بموهبةٍ عظيمة، لم يكن في الوقت نفسِه كاهناً للنزعةِ الإنسانية. يعتمد هذا الحكمُ الذي أصدره الناقد على افتراضٍ أنَّ النزعة الإنسانية أرفعُ وأفضل بلا ريب من القسوة ... بلا ريب؟ ولكن ولكن أين هي، إذن، القاعدة الديكارتية «أشكُّ في كلِّ شيء de omnibus dubitandum»، التي كان الحديث يدور حولَها حتى الآن؟كان ي. ك. ميخائيلوفسكي على درايةٍ بها، بالطبع. لكنها بقيت، كعادتها، عاطلةً عن الفعل بالرغم من أنها كانت تدرِك أنها

كانت بحاجة إلى أن تأتيَ في المقامِ الأخير دوماً، في حالِ أنها كانت تريد أن تكون bienvenu[1].

كما أنَّ ي. ك. ميخائيلوفسكي نفسَه، في مقالةٍ أخرى له عن برودون، يورِد مجموعةً كاملة من الحقائقِ التي تبرهِن على أنَّ الفرنسي الشهير الذي ارتبط باسمه في روسيا تصور كما لو أنه أفضلُ مناضل في سبيل الأفكار الرفيعة والسامية، كان في حياته شخصاً «خبيثاً وشريراً». وقد ختم حكايتَه عنه بالكلماتِ التالية: «لم يكن بالأمرِ السعيد انتقاءُ هذه الملامح الباهتة؛ لأنَّ جمْعها كان يتطلَّب اقتطاعَ شيءٍ ما من القلب». ومن ثَمَّ، بعد ذلك مباشرةً، يضيف وَفق تداعٍ غريبٍ للأفكار: «هذه ليست فقرةً». لا أعرف ماذا فهِمَ القراءُ الآخرون، أما أنا فقد ظننتُ على وجهِ التحديد أنَّ الكلمات التي أوردَها تشكِّل فقرة. لم يضطرَّ ي. ك. ميخائيلوفسكي إلى أن يقتطعَ أيَّ شيء من قلبِه. لكن هذا لا يعني أنه كان غيرَ مُبالٍ تجاه أفكارِ برودون. كما أودُّ بدرجةٍ أقلَّ أن أقول إنَّ ي. ك. ميخائيلوفسكي كان يميل إلى الكلامِ من أجلِ الكلام فقط؛ بل على العكس، تصادفُ «الفقرة» في أعماله بنسبةٍ قليلة جداً، كما هي الحالُ مع الفكرةِ الجادةِ عند غالبيةِ الكتَّاب. بيدَ أنَّ الرياء هذه المرةَ كان أكيداً، وهذا ما استدعى التنويه. من الواضح أنَّ مثلَ هذا الاكتشافِ غيرِ المتوقَّع - وهو أنَّ مبدِعَ الأفكارِ السامِيةِ أيضاً لم يكن شخصاً أميناً وصادقاً في حياته - لم يُثِر الذهولَ عند ي. ك. ميخائيلوفسكي. وقد كان هو نفسُه محرَجاً بسبب هدوئه، ولأنه لم يعرف كيف يفسِّر تلك الظاهرةَ الغريبةَ، أو لأنه لم يكن لديه الوقتُ ليفكِّر فيها، نراه يسرِع إلى التمويهِ عليها بعبارةٍ نمطيةٍ قديمةٍ من مخلَّفات

(1) مرغوب. (فرنسي)

الذاكرة. وقد عبَّرت هذه الواقعةُ السيكولوجية التي بدَت غيرَ ذاتِ أهمية للوهلة الأولى، عن مغزى كبيرٍ جداً. لم يكن برودون في حدِّ ذاته، كما يبدو، يعني أيَّ شيء بالنسبة إلى «ي. ك. ميخائيلوفسكي» (على الرغم من أنه يؤكِّد ما هو عكسُ ذلك في مقالته). إنَّ برودون مجرَّد تجسيدٍ للفكرة الإنسانية العظيمة (سوف أسمح لنفسي باستخدام هذه الكلمة بمعناها الواسع)، وهل كان بإمكانِ جيشٍ كاملٍ من أمثالِ برودون المحتالين، وأنصارِ برودون الأشقياء والقتلة؛ أن يُلقُوا حتى ولو ظلّاً من الشك في عظَمةِ تلك الفكرة! فالإنسانية لا تتأسَّس ولا تقوم على مكانة الكتاب الفرنسيين، بل إنها مجرَّد جزءٍ من روح ي. ك. ميخائيلوفسكي ذاتِه، والجزء الأكثر رسوخاً منها. وهذا ما يتحدَّث عنه هو نفسُه وبشكلٍ جيدٍ في مقدمته للطبعة الجديدة من مؤلَّفاته، تلك المقدمة التي تلخِّص المحصِّلةَ لمجملِ نشاطه الأدبي خلال سنواتٍ طويلة: «في كلِّ مرَّة تخطُر ببالي كلمة «الحقيقة»، لا يكون بمقدوري إلا أن أشعرَ بالدهشة والإعجاب بجمالِها الداخلي الساحر. يخيَّل إليَّ أنه لا توجد كلمةٌ مماثلةٌ في أيِّ لغةٍ أوروبية أخرى. يبدو لي كما لو أنَّه يمكن التعبيرُ عن الحقيقةِ والعدالة بكلمةٍ واحدة وحيدة في اللغةِ الروسية فقط، بحيث يبدو وكأنهما يندمجان معاً في كلٍّ واحد. حقّاً، لطالما كان الهدفُ من أبحاثي كامناً بصورةٍ دائمة في هذا المعنى الواسعِ للكلمة ... لم يكن بإمكاني قط أن أصدِّق، ولا أصدِّقُ اليوم، أنه لا يمكنُ العثورُ على وجهةِ نظرٍ مشترَكة، بحيث تتجلَّى معاً كلٌّ من الحقيقةِ بمعنى الصدقِ، والحقيقةِ بمعنى العدلِ، ويداً بيدٍ، ولكي تكمِّل إحداهما الأخرى». يوجد في هذه الكلماتِ تفسيرٌ لتلك السكينةِ التي بقي ي. ك. ميخائيلوفسكي عليها بعد أن قام باكتشافه ذاك عن برودون،

وذلـك عـلى الرغـم مـن إدراكِـه بأنـه يُفـتَرَض بـه أن يشـعرَ بالغـمِّ وبالمـرارة في مثـلِ هـذه الحـالات. ومـا قيمـةُ بـرودون عندمـا تكـون ثمَّـة فكـرةٌ راسـخة كالطـود وصلبـة كالغرانيـت في روح الإنسـان، aere perennius[1]، وليسـت مـن صنْـعِ البـشر! وهـذا الإيـمانُ الراسـخُ الـذي لا يتزعـزع بالفكـرة، في الإنسـانية وفي الحقيقـة، والـذي تلقـى ذلـك الاكتشـافَ بخصـوص بـرودون عـلى أنـه ثانـوي مـن حيـث الأهميـة (مـن المحتمـل أن يكـون ي. ك. ميخائيلوفسـكي قـد قـام خـلال حياتـه بأكثـرَ مـن اكتشـافٍ واحـد، وأنـه شَـعر أكثـرَ مـن مـرةٍ بالدهشـة لليبـاس في روحـه، حتـى إنـه، ربـما، جلَـد نفسَـه عـلى ذلـك)، هـو الـذي منَـع الناقـدَ مـن التوقُّـف بسـببِ الحادثـةِ غـيرِ المسبوقةِ والاسـتثنائيةِ «للموهبـة القاسـية». لم تكـن البـلادةُ القاسـية، وإنـما الموهبـةُ القاسـية، هـي تلـك الصفـةَ الخاصـة بالشـخص التـي لم يشـعر أكثـرُ أنصـارِ الفلسـفة الوضعيـة تطرفـاً بالحـرَجِ مـن أن يذكـروا اسـمَ الـربِّ بسـببها. وإذ بالموهبـةِ تصبـح فجـأةً في خدمـةِ القسـوة! لكـنَّ ي. م. ميخائيلوفسـكي أحـدُ أولئـك الأخيـارِ المحظوظـين الذيـن قُيِّـض لهـم أن يخدمـوا الأفـكارَ طَـوال حياتهـم. والأفـكارُ بدورهـا تخـدُم مثـل هـؤلاء الأشـخاص، وتقـدِّم إليهـم الحمايـةَ مـن الآلامِ الرهيبـةِ والمعانـاة الفظيعـة. وهـذا مـا لم يحـدُث مـع دوستويفسـكي؛ إذ إنـه أخفـقَ في البقـاء كاهنـاً لإيمانـه الفتـي حتـى نهايـةِ حياتـه. بـل كان مقـدَّراً لـه أن يصبـح مرتـدّاً وخائنـاً. ومثـلُ هـؤلاء الأشـخاصِ تنتقِـم منهـم الأفـكار، وهـي تنتقِـم بـلا شـفقةٍ وبـلا هـوادة. مـا مِـن عـارٍ غـيرِ مرئـي، داخـلي، ومـا مِـن ذلٍّ إلَّا وكان مـن نصيبهـم. لم تمتـدَّ فـترةُ السِّـجن عنـد دوستويفسـكي أربـعَ سـنوات فقـط، بـل اسـتمرَّت طَـوال حياتـه ... كان ي. ك. ميخائيلوفسـكي،

(1) أكثر متانة من النُّحاس. (لاتيني)

بالتأكيد، على حقٍّ عندما راح يربط عقيدةَ دوستويفسكي بالمعاناةِ التي عاشها. لكنَّ السؤالَ يكمُن فيما إذا كانت تلك المعاناة تعيق الناسَ عن رؤيةِ «الحقيقة» وإدراكِها بالفعل، أليس العكس هو الصحيح؟ إذ يمكن للحياةِ الاعتيادية وسط الناس العاديين أن تقدِّم فلسفةَ ما هو مبتذَل أيضاً! ومَن ذا الذي يمكنه أن يضمنَ أنَّ مثل هذه الفلسفةِ بالتحديد هي الضروريةُ للبشَر؟ ربما كان اكتسابُ الحقيقةِ يتطلب التحرُّر، قبل كل شيء، من شتَّى أشكال الابتذال؟ ولذلك، فإنَّ السجنَ لا يدفعُ إلى التخلي عن «القناعات» فقط، بل يبرِّرها أيضاً. ومن ثَمَّ، فإنَّ الفلسفةَ الحقيقية هي فلسفةُ السجن ... وفي حالِ كان الأمرُ على هذا النحو، فإنَّ هذا يعني أنَّ النزعةَ الإنسانية التي تُولَد بين الناسِ الأحرار لا يحقُّ لها أن تجرَّ القسوةَ إلى عمودِ العارِ، وأن تعيبَ عليها أنها من أصل السِّجن المظلم، بل يجب عليها أن تتنازل لخَصمها المهانِ عن كافة الحقوق والامتيازات التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، والتي ما زالت تُستخدَم في أنحاءِ العالَم حتى الآن، وبالدرجةِ الأولى من قِبل تلك الحاشيةِ الرائعةِ من الشعراء والفنانين، من الفلاسفةِ والواعظين الذين هدَروا المديحَ العالي وبدَّدوا الثَّناءَ الرفيعَ لها على مدى آلاف السنين ...

على أيِّ حال، تطالبنا العدالةُ كحدٍّ أدنى بأن نصغي دون تحيُّز وبانتباهٍ إلى ذلك الإنسانِ القاسي من العالَم السفلي، دون أن نشعرَ بالحرجِ من مخاوفِ الكونت تولستوي، ولا من الإيمانِ الذي لا يتزعزع بالحقيقة عند ي. ك. ميخائيلوفسكي.

# 12

يثير كلٌّ من التشكيكية والتشاؤمية لدى الإنسانِ من العالَم السفلي ذلك الرعبَ نفسَه الغامضَ والعصيَّ على الإدراكِ، الذي تثيرانه عند الكونت تولستوي، إلَّا أنه غيرُ قادر على العودة إلى الحياةِ الاعتيادية ولا حتى أن يتظاهرَ بشكلٍ لائق أمام نفسه وأمام أولئك الذين سبق أن عادوا إلى حياتهم الاعتيادية (لعله كان سيُقدِم على ذلك). إنه يدرك أنَّ الماضي لن يعودَ، وأنَّ الغرانيت aere perennius[1]، وما هو فطري وإلهي - باختصار، كل ما أسَّس الناسُ «ثباتهم» عليه حتى الآن، جميع «ما هو قبْلي» عندهم - قد مات بالنسبة إليه بشكلٍ نهائي. ولذلك يقرِّر على الفور وبجسارةِ شخصٍ فاقدٍ لأي أملٍ أن يتجاوزَ الحدَّ القاتل، وأن يقوم بتلك الخطوةِ الرهيبةِ التي لطالما حذَّرتْه منها آمالُ الماضي والتجربةُ الخاصة خلال الأربعين سنة التي عاشها. يستحيل التغلُّب على المآسي والشكوك الخاصة بواسطة المثالية. ولم تؤدِّ جميعُ المحاولات للكفاح في هذا الاتجاهِ إلى أيِّ نتيجة: «لقد ضغط ذلك «الرائع والسامي» بقوةٍ على قفا رأسي خلال أربعين سنة من عمري» هكذا يقول الإنسانُ من العالَم السفلي

(1) أكثر ديمومة من البرونز (لاتيني).

عنـد دوستويفسـكي. يبقـى شيءٌ واحـد: التخـلي عـن الكفـاحِ العقيـم والذهـاب وراء التشـكيكية والتشـاؤمية ومعرفـة إلى أيـن سـتقودان الإنسـانَ. هـذا معنـاه أن تقـولَ لنفسـك: «كلُّ مـا كان يُقـدَّر عاليـاً، كلُّ مـا كان يُعتقَـد أنـه رائـع ورفيـع؛ يمثِّـل بالنسـبة إليَّ ثمـرةً محرَّمـة في هـذه الحيـاة. ولكنـي مـا زلـت أحيـا وسـوف أعيـشُ فـترةً طويلـة في ظـروفٍ جديـدة ورهيبـة». بعبـارة أخـرى، تبـدأ عمليـةُ «إعـادة تقييـم لكافـة القيـم». وهكـذا تتحـوَّل المثاليـة، وبشـكلٍ مفاجـئ تمامـاً بالنسـبة إليهـا، مـن قـاضٍ نزيـهٍ ومعصـوم إلى محكـومٍ عليـه. يتذكَّـر دوستويفسـكي خَجِـلاً أنـه هـو نفسـه كان مثاليّـاً في يـومٍ مـن الأيـام. كان يتمنَّـى أن يتنكَّـرَ لماضيـه ويبتكـرَ ظروفـاً تخفِّـف مـن ذنبـه. «لم يسبق قـط أن كان لدينـا، نحـن الـرُّوسَ، عـلى العمـوم رومانسـيون فرنسـيون وألمـانٌ بصـورة خاصـة، حمقـى ويسـبحون فـوق النجـوم، دون أن يكـون ثمَّـة تأثـيرٌ لأحدٍ عليهـم، حتـى ولـو انشـقَّت الأرضُ مـن تحتهـم، حتـى ولـو دُمِّـرت فرنسـا بأكملهـا وقُتـل كلُّ الفرنسـيين خلـف المتاريـس؛ سـوف يظلـون هـم أنفسـهم دون أن يتغـيروا حتـى مـن بـابِ اللباقـةِ، وسـوف يواصلـون إنشـادَ أناشـيدهم فـوق النجـوم، كـما يقـال، حتـى نهايـةِ العمـرِ عندهـم لأنهـم حمقـى. في حـينِ أنـه لا يوجـد معتوهـون لدينـا، عـلى الأرض الروسـية»[1]... كـما لـو أنـه لا يوجـد حمقـى لدينـا! ولكـن، مَـن ذا الـذي راح يمجِّـد مـاكار ديفوشـكين في الليـالي؟ مَـن الـذي ذرفَ دموعـاً غزيـرة عـلى ناتاشـا حتـى في ذلـك الوقـت الـذي راحـت الأرض تتصـدَّع فيـه تحـت الأقـدام؟ لا يمكـن، للأسـف، اسـتئصال هـذه الصفحـاتِ مـن الذاكـرةِ مهـما حاولـتَ أن تمكـرَ. لقـد كان دوستويفسـكي أكثـرَ الرومانسـيين الحالمـين عندنـا، وأكثرَهـم تحليقـاً فـوق النجـوم وأكثرهـم صدقـاً ووفـاءً.

(1) «مذكِّرات من العالَـم السفلي»، صفحة 107.

وها هو ذا الآن، بعد أن حان وقتُ الحسابِ العظيم، وبعد أن رأى أنَّ النظامَ في تلك المحاكمةِ مختلفٌ عمَّا وعدَ به كلٌّ من سقراط وأفلاطون، وأنه بالرغم من كلِّ عفَّته وطهارته، قاموا بدفعِه هو ومجموعة من أمثالِه إلى اليسار، يريد أن يبرِّر لنفسِه بعضَ الشيء. لعله تذكَّر - فمن المعروفِ أنَّ الذاكرةَ في مثلِ هذه الحالاتِ تكون دائماً مداهنةً بإلحاحٍ مزعِج - أنه سبق له أن نُبِّه وحُذِّر. لقد قالوا له إنهم في يوم الحساب لن يبتهجوا لمائةٍ كاملة من الواعظين بقدْرِ ما سيفرحون لمجيء شخصٍ واحدٍ آثم تابَ عن أخطائه. كان يتعيَّن عليه أن يفهمَ أن أعدادَ الواعظين، أولئك «الرومانسيين الذين يحلِّقون فوق النجوم»، يبلغ دزيناتٍ كاملة، وأنه لا يحقُّ لهم في يومِ الحساب الأخير أن يتوقَّعوا الغفران، باعتبارهم أناساً عاديِّين. لكنه في السابق لم يكن يسمعُ أو لم يفهم الصوتَ الذي يحذِّره، وأما الآن فقد كاد الوقتُ يصبح متأخراً، والتوبة وجَلْد الذات لا معنًى لهما. فهو مُدان، وإلى الأبدِ بطبيعة الحال. لا يوجد في يومِ الحساب الرهيب أحكامٌ أخرى. الأمر مختلفٌ عمَّا عند الكونت تولستوي في علاقته مع الوجدانِ الذي يفرِض أحكاماً مشروطة، بشريةَ الطابَع تتضمَّن الحقيقةَ والرحمة، والأهم أنها تحتوي على وعدٍ بالغفران. أما هنا فلا وجودَ للغفران. والأسوأ من ذلك أنه لن تساعد هنا حتى تلك الاستقالةُ (Resignation) التي يراهن عليها بصورةٍ دائمة الواعظون والمتمسِّكون بمبدأ الفضيلة. ها هي ذي شهادةُ الإنسان من العالَم السفلي الخبير في مثلِ هذه القضايا: «... هناك أناسٌ ضيقو الأفق ومحدودون أمامَ الجدار ... وقد راحوا يستسلمون بصدق. لا يمثِّل الجدارُ بالنسبة إليهم اعتراضاً، كما هي الحال بالنسبة إلينا على سبيل المثال ... ليس حجَّة

للرجـوع مـن الطريـق. كلا، إنهـم يستسـلمون بمنتهـى الصـدق. فالجـدارُ يمثِّـل بالنسـبة إليهـم شـيئاً مـا مهدِّئـاً وحـلًّا أخلاقيـاً ونهائيـاً، وعـلى الأغلـب صوفيّـاً». اللغـةُ جديـدة بالتأكيـد، ولكـن مَـن ذا الـذي لم يعـرف في ذلـك الجِـدار تلـك المسـبَّقات الكانطيـة التـي وُضِعـت بمواجهـة Ding an sich؟ كانـت تلـك المسـبَّقات مناسـبةً تمامـاً للفلاسـفة، لكـن دوستويفسـكي الـذي كان بحاجـةٍ أكثـرَ مـن أيِّ شيء في هـذه الدنيـا إلى ذلـك الـشيء «المهـدِّئ والحـالِّ والنهائـي أخلاقيـاً»، يفضِّـل عـن سـابقٍ وعـيٍ أن يحطِّـم رأسَـه عـلى الجـدارِ من أن يتصالـحَ مـع عـدمِ قابليـةِ الجـدارِ للاخـتراق. «إنـه لأمـرٌ رهيـب أن تقـع في أيـدي إلـهٍ حـي!» كـما تـرون، كانـت الحقائـقُ «الخالـدة» مـن اخـتراعِ الحكـماء ليس مـن أجـل مواساةِ المحتاجين في العـزاء، بقـدْرِ مـا كانـت لأجـلِ المعزِّيـن أنفسِـهم؛ أي لخدمتهـم هـم خاصـةً. يشـعر دوستويفسـكي بالذعـرِ مـن جـرَّاء هـذه الفكـرة؛ إذ إنـه لطالمـا جسَّـد فكـرةَ المواسـاة خـلال كلِّ حياتـه وعـبْر كلِّ ماضيـه. لقـد كان رومانسـيّاً يدعـو النـاسَ إلى الإيـمان بـأن المصـيرَ الرهيـب للمذلِّـين والمهانـين سـوف يُفتـدى ويكفَّـر عنـه بـذرفِ الدمـوعِ وبالمشـاعرِ الطيبـة للقـرَّاء والكتَّـاب. كانـت سـعادتُه وإلهامـه يتغذيـان عـلى «الإنسـان الأخـير»، عـلى «الأخ»... فقـط عندمـا يـرى الإنسـانُ بـأمِّ عينيـه أنـه كان قـادراً عـلى ملاطفـةِ مثـل هـذا الكـذبِ الشـنيع في أعـماقِ روحِـه وعـلى مـدى سـنواتٍ طويلـة، وأن يجِلَّـه باعتبـاره حقيقـةً عظيمـة ومقدَّسـة؛ عندئـذٍ فقـط يبـدأ بالفَهْم أنـه لا يجـوز عـلى الإطـلاق تصديـقُ «الأفـكار»، ومـا هـي الأشـكالُ الرائعـة والمغريـة التـي يمكـن أن تكتسـيَ بهـا أكثـرُ الدوافـع دنـاءةً وخسَّـة عندنـا، إذا مـا كانـت بحاجـةٍ إلى أن تمسـك زمـامَ السـيطرة عـلى أرواحنـا. وبالفعـل، مـا هـو الأكثـر سـوءاً وفظاعـة مـن شـاعرِ «النـاس الفقـراء» وقـد راح يسـقي روضتَـه الشـعريةَ بدمـوعِ مـاكار ديفوشـكين وناتاشـا؟!

بـات الآن واضحـاً لمـاذا لا يسـتطيع دوستويفسـكي العـودةَ إلى الهـدوء السابق، إلى ذلـك الجدارِ الـذي ينطـوي في ذاتِـه عـلى كل ذلـك القـدْرِ ممـا هـو حـالٌّ ونهائـي أخلاقيـاً بالنسبة إلى النـاس المحدوديـن. إنَّ أيَّ حقيقـةٍ كانـت هي أفضـل مـن مثـلِ هـذا الكـذِب، هكـذا يقـول لنفسـه؛ ومَـن هنـا لديه الشـجاعةُ التـي ينظـر بهـا في وجـهِ الواقـع. تذكَّـروا ذلـك التعبيرَ الـذي يـكاد يخلـو مـن أيِّ مغـزى ولكنـه عبقـريٌّ للملـك لـير عنـد شكسـبير: «سـوف تهـرُب وتنجـو مـن الـدُّب، ولكنـك عندمـا تصـادف في طريقـك بحـراً متلاطـمَ الأمـواج، هـل ستعود أدراجَـك إلى الـوراء إلى شِـدْقَي الحيـوان»؟ لقـد فرَّ دوستويفسـكي هاربـاً مـن الواقـع، ولكنـه عندمـا صـادف المثاليـةَ في طريقـه، عـاد إلى الـوراء: جميـعُ مصاعـبِ الحيـاة وآلامهـا ليسـت عـلى تلـك الدرجـةِ مـن الفظاعـة، كتلـك الأفـكارِ التـي يختلِقهـا الوجـدانُ والعقـل. يـرى أنـه مـن الأفضـل الإعـلانُ عـن الحقيقـةِ بـدلاً مـن ذرفِ الدمـوع عـلى ديفوشـكين: دعِ الكـونَ ينهـارُ بـشرطِ أن يُقـدَّم الشـاي لي. لم يكـن مـن السـهلِ عـلى دوستويفسـكي قبـولُ مثـلِ هـذه «الحقيقـة»، ثـمَّ مـاذا سـيفعل بهـا الإنسـانُ الـذي كان لديـه في المـاضي مـاكار ديفوشـكين والأعـمال الشـاقة، وفي الوقـت الحـاضر لديـه مـرضُ الـصرع وجميـعُ مباهـج الدنيـا عنـد كاتـبٍ مبتـدئ تقريبـاً مـن بطرسـبورغ، لم يَعُـد فتيّـاً ويتعـرَّض لنُـوَبِ التشـنُّج يومـاً بعـد يـوم؟ كانـوا يعتقـدون في يـومٍ مـن الأيـام أنَّ «الحقيقـة» تـواسي وتشـدُّ مـن عضُـدِ المـرء وتدعَـم يقظـةَ الـروحِ لديـه. لكـنَّ حقيقـةَ العالَـم السـفلي مبنيـةٌ بطريقـةٍ مختلِفـةٍ تمامـاً عـن سـابقاتها السـمحاء؛ فهـي لا تكـترثُ عـلى الإطـلاقِ بالإنسـان، وفي حـالِ كان بالإمـكان - والتعبـيرُ مجـازيٌّ - نَسَـبُ نوايـا معينـةٍ لهـا، فإنهـا ليسـت نوايـا حسـنةً بتاتـاً. ليـس مـن شـأنها أن تقـومَ بالمواسـاة وبالتهدئـة. أمـا أن تسـخرَ وأن تهـين، فهـي

قـادرة عـلى فِعـل ذلـك ... يعلـن الإنسـانُ مـن العالَـم السـفلي قائـلاً: «لطالما قامـت قوانـينُ الطبيعـة بإهانتـي وعـلى الأغلـبِ طَـوال حيـاتي». فهـل مـن المثـيرِ للدهشـةِ أنـه لا يمكـن أن تكـون لديـه أيُّ رِقَّـة أو ليونـة تجـاه الحقائـقِ ولا تجـاه المُثُـل، مـا دامـت هـذه وتلـك لم تكـن تُحسِـن - تارةً عـلى شـكلِ قوانين الطبيعـة، وتـارةً عـلى شـكلِ تعاليـمَ ساميةٍ عـن الأخـلاق - سـوى إهانـةِ كائنٍ غـيرِ مذنـبٍ وبـريء وإذلالـه بطريقـةٍ طفوليـة؟ بِـمَ يمكن الـرَّد على مثـلِ هؤلاء السـلاطين أصحـابِ الأمـر والنهـي؟ أيُّ شـعورٍ يمكـن أن يقـومَ تجـاه النظـامِ الطبيعـي وتجـاه النزعـةِ الإنسـانية، باسـتثناءِ شـعورِ الكراهيـة الأزليـة التـي لا تهـادِن؟ كان سـبنسر يبـشِّر ويدعـو إلى التكيُّـف، أمـا الأخلاقيـون فكانـوا يبـشِّرون بالخنـوع والتسـليم بالقـدَر. لكـنَّ هـذا كلَّـه حسـنٌ في حـالِ افترضنـا أن التأقلـمَ مـا زال ممكنـاً، وأنَّ الخنـوعَ سـوف يجلِـب راحـةَ البـال والسـكينة. «في حـال افترضنـا!». لكـنَّ علـم النفـس (السـيكولوجيا) برهـن لنـا أنَّ الفرضيـاتِ كافـةً إنـما هـي مبتكَـرة لأجـلِ أولئـك الذيـن يفترضـون فقـط، وأنـه حتـى الكونـت تولسـتوي شـارك في المؤامـرةِ ضـد المذلِّـين والمهانـين.

هنـا يكمُـن السـببُ الذي يجعـل دوستويفسـكي - ويـا لَدهشـة معاصِريه! - يرفـضُ بعنـادٍ غريـبٍ أن يجلَّ الأفـكارَ الإنسـانيةَ التـي كانت سـائدةً ومسـيطرةً بـلا منـازع في عَقـدي السـتينيات والسـبعينيات [مـن القـرن التاسـع عـشر - المترجِـم] في الأدب الـروسي. لقـد رأى ن. ك. ميخائيلوفسـكي عـن حـقٍّ فيـه إنسـاناً «سـيئ النيَّـة» (وكيـف وصـل مثـلُ هـذا النعـتِ إلى صفحـاتِ أعـمال ن. ك. ميخائيلوفسـكي؟ - لقـد اعتدنـا أن نصادفَـه في أعـمالِ أخـرى). لاحظـوا كيـف يناقـش، عـلى سـبيل المثـال، الإنسـانَ مـن العالَـم السـفلي بخصـوص «سـعادة البشريـة في المسـتقبل»، أي بخصـوصِ حجـرِ الأسـاسِ الـذي قامـت

عليه حتى الآن «العقائدُ» كافةً عند الأشخاصِ ذوي النزعةِ الإنسانية! يقول: «سوف تنشأ حينئذٍ علاقاتٌ اقتصاديةٌ جديدةٌ جاهزةٌ تماماً ... بحيث إنَّ مختلف المسائلِ سوف تنتهي على الفورِ وبالتحديد؛ لأنه يُعثَر على الأجوبة الضرورية عنها. وعندئذٍ سوف يُشيَّد قصرٌ من الكريستال. أي، باختصار، سوف يأتي طائرُ السعادةِ كاغان». من الواضحِ أنَّ الإنسان الذي يتكلَّم هو شخصٌ حقود يعتدي على طمأنينة القريبين إليه وهنائهم. ولكن هذا أمرٌ قليلُ الشأن بعدُ؛ مجرَّد سخرية وحسب. لاحقاً يأتي دورٌ ما يشبه «الدعوة إلى العمل» تقريباً. واصَلَ كلامَه: «أنا، على سبيل المثال، لن أشعرَ بأدنى دهشةٍ إذا ما ظهر فجأةً، من العدمِ، في خِضم الحكمة المستقبلية المشتركة، سيدٌ [جنتلمان] معيَّن مع سحنةٍ غيرِ نبيلة - أو الأفضل أن يقال: مع سَحْنةٍ رجعيةٍ مناهضةٍ للتقدُّم ومثيرة للسخرية - فيضع يديه على خاصرتيه ويقول لنا جميعاً: ... ألا يجب علينا، أيها السادة، أن نركُلَ مجملَ هذا التفكيرِ العقلاني دفعةً واحدة، برِجلنا، برفاتنا، لغايةٍ واحدة فقط؛ ألا وهي أن نرسلَ جميعَ هذه اللوغاريتمات إلى الشيطانِ، ولكي يصبحَ بإمكاننا العيشُ كما يحلو لنا من جديد؟»[1].

من الواضحِ أنَّنا هنا لا نواجه الديالكتيك؛ لأنَّ دوستويفسكي لم يكن بصددِ المجادلةِ ولا يميلُ إلى الجدالِ على الإطلاق؛ إذ إنه لا يقضي على آمالِ أناسٍ آخرين، وإنما على آماله هو خاصةً. راح يعترف لاحقاً: «لم أَقُل ذلك قط لأنني أحبُّ المناكفةَ ومدَّ لساني إلى هذه الدرجةِ، فأنا ربما لم أغضَب إلا لأنه لا يوجد حتى الآن من بين جميعِ الأبنيةِ عندكم، ذلك البناءُ الذي كان يستحقُّ أن يمدَّ المرءُ له لسانه». أي إنَّه لا علاقةَ هنا للإنسانِ صاحبِ السَّحْنةِ الرجعيةِ والمثيرةِ للسخرية. فالسؤال يدور حولَ

(1) «مذكّرات من العالَم السفلي»، صفحة 90.

مـا إذا كان بإمكانـه أن يصالـحَ بـين قـصرِ الكريسـتال عنـد دوستويفسـكي وبـين سـجنه في المـاضي والحـاضر، وإلى الأبـد. ويُجـاب عنـه إجابـة سـلبية قاطعـة وحـادة: كلَّا، لا يمكنـه. في حـالِ أن مهمـة الإنسـان هـي أن يكتسِـب السـعادةَ عـلى الأرض؛ فهـذا يعنـي أنَّ كلَّ شيء قـد انتهـى. لأن تلـك المهمـةَ غيـرُ قابلـة للتحقيـق، وهـل بوسـعِ السـعادةِ المسـتقبلية، يـا تُـرى، أن تكفِّـر عن التعاسـةِ في المـاضي والحـاضر؟ وهـل سـيكون مصيـرُ مـاكار ديفوشـكين الـذي يزدرونـه في القـرن التاسـع عـشر، أفضـلَ لأنـه لـن يُسـمَح لأحـدٍ في القـرن الـ22 أن يهـين أخـاه؟ لا، لـن يكـون أفضـلَ، بـل سـيكون أسـوأ. لا، فـما دام الأمـرُ وصـل إلى ذلـك الحـد، فَلْيكُـنْ الشـقاءُ، إذن، قائـماً بـين النـاسِ إلى أبـدِ الآبديـن، ولْيسـتمرَّ ازدراءُ أمثـالِ مـاكار في المسـتقبل. ودوستويفسـكي هنـا لا يرفـض فقـط أن يجهِّـز الأسـاسَ لتلـك الأبهـةِ والفخامـةِ المستقبليةِ لقـصرِ الكريسـتال، بـل إنـه يحتفـي مسـبقاً مـع لـؤم وضغينـة، ومـع فـرحٍ في الوقـت نفسـه، عنـد شـعورِه بأنـه سـوف يكـون هنـاك دائـماً ذلـك الجنتلـمان الـذي لـن يسـمح أبـداً لرايـةِ الرفاهيـةِ والرخـاء أن ترفـرفَ وتسـتقرَّ في الأرض. وهـذا الجنتلـمان وجـهٌ خيـالي جـدّاً بالطبـع، وهـو ليـس حجَّـة، بالطبـع، بالنسـبة إلى الإنسـان المؤمـن. لكـن المسـألةَ لا تكمُـن في الحجـج، بـل إنَّ لـبَّ القضيـةِ هـو أنَّ دوستويفسـكي لا يريـد السـعادةَ الشـاملةَ في المسـتقبل، لا يريـد أن يـبرِّر المسـتقبلَ هـذا الحاضر. إنـه يطالـب بتبريـرٍ آخـرَ مختلِـف، ويـرى أنـه مـن الأفضـل أن يـضرب رأسَـه في الجـدار حتـى الإعيـاء، بـدلاً مـن أن يهـدأ ويطمئـن للمَثـل الإنسـاني الأعـلى. لقـد اختـار البشَر لأنفسـهم قسـمةً سـعيدة مستسـلمين أمـامَ الجِـدار. لكـنَّ مثلَ هـذه القسـمةِ غيـرُ معـدَّة للجميـع. ذلـك لأنَّ a priori موجـودةٌ للأشـخاصِ المحدوديـن والضيقـي الأفـقِ فقـط. فـماذا يبقـى أمـام دوستويفسـكي؟

# 13

يتخـلّى دوستويفسـكي في روايتِـه «مذكّـرات مـن العالَـم السـفلي» عـن تلـك المُثـل العليـا، التـي حمَلهـا معـه، كـما خُيِّـل إليـه، كـما هـي «مـن دون أي تغيـير» عنـد خروجـه مـن السِّـجن. وأقـول «خُيِّـل إليـه»؛ لأن مـا تلقّـاه عـلى أنـه مُثُـل عليـا أثنـاء وجـوده في السِّـجن وفي السـنوات الأولى بعـد خروجـه مـن هنـاك، لم يكـن في حقيقـةِ الأمـر - وهـذا مـا بـات واضحـاً اليـوم تمامـاً - سـوى عقيـدةٍ مخادعـةٍ بأنـه سـوف يعـود ذلـك الإنسـانَ الحـرَّ السـابقَ بعـد انتهـاء مـدة الحكـم. لقـد ظـنَّ، شـأنه شـأن جميـع النـاس، أنَّ أملَـه الخـاصَّ هـو المَثَـل الأعـلى؛ ولذلـك سـارع إلى تحريـرِ نفسِـه مـن كافـة الذكريـات المتعلِّقـة بالسِّـجن أو، بالحـد الأدنـى، إلى تكييفهـا مـع ظـروفِ الحيـاة الجديـدة. لكـنَّ مسـاعيه لم تـؤدِّ إلى أيِّ نتيجـة، أو بـالأدق لم تـؤدِّ إلى أي شيء تقريبـاً. فقـد حافظـت الحقائـقُ المتعلقـة بسِـجن الأعـمال الشـاقة عـلى الآثـار الواضحـة لأصلهـا بالرغـم مـن كلِّ مـا بذلـه مـن أجـل تشـذيبها وترتيبهـا؛ إذ راحـت تحـدِّق إلى القـرَّاء مـن تحـت القبَّعـات الباذخـة وجـوهٌ متجهِّمـة ومدموغـة، ولاحـت رؤوس حليقـة. كان مسـموعاً صـوتُ القيـود وسـط الجلَبـة التـي تثيرهـا الكلـماتُ الصادحـة والرنَّانـة. وحدَهـا «مذكّـرات مـن بيـت الموتـى»

تلقَّاهـا الجمهـورُ والنُّقـاد كـما لـو أنها شيء شـخصي، اعتيـادي ومسـتقل. وبالفعـل، لقـد أظهـر دوستويفسـكي في ذلـك العمـل - مـرة واحـدة في حياتـه - مـا هـو قريـبٌ مـن فـن تولسـتوي في مصالحـة الواقـع مـع المُثـل العليـا الشـائعة. كان القـارئ يصبـح بعـد انتهائـه مـن قـراءةِ «مذكِّـرات مـن بيـت الموتـى» مشرقاً وشـامخاً ومثـيراً للمشـاعر، مسـتعِداً لمقارعـة الـشر، وهكـذا دَوالَيـك - كـما كان يطلبـه علـم الجـمال المعـاصر تمامـاً. وكان، بالمناسبة، يرى وهـو في مزاجِـه الراقي والمرتفـع وفي اسـتعداده، أنَّ دوستويفسـكي هـو أيضـاً إنسـانٌ جيـدٌ وصالـح كـما يـرى نفسَـه تمامـاً. وفي الوقـت نفسـه، يَكفـي بعـض التـأنِّي وحماسـة أقـل لكـي تتكشَّـف «مذكِّـرات مـن بيـت الموتـى» عـن مثـلِ تلـك اللآلـئ التـي لا يمكـن العثـورُ عليهـا في «مذكِّـرات مـن العـالم السـفلي». مثـل الكلـماتِ الختاميـة في الروايـة عـلى الأقـل، عـلى سـبيل المثـالِ لا الحـصر: «كـم مـن فتـوَّة دُفِنـت سُـدى في هـذه البلـدان، وكـم مـن طاقـاتٍ عظيمـة وخلَّاقـة هُـدِرت هنـا سُـدى! إذ يتعـيَّن أن نقـول كلَّ شيء. ذلـك أنَّ هـذا الشـعبَ كان شـعباً اسـتثنائياً وغـيرَ عـاديٍّ، ولعلـه أكثـرُ الشـعوب موهبـةً وأقـوى شـعب مـن بـين شـعوبنا، إلا أن قـوى جبـارةً أُهـدرَت بطريقـةٍ غـير طبيعيـة وغـير مشروعـة إلى غـير رجعـة ...» مَـن لا يعـرف مـن المواطنـين الـروس هـذه الأسـطرَ عـن ظهـرِ قلـب؟! ثـمَّ، ألا يعـود الفضـلُ إليهـم بنسـبة النصـف في أنَّ هـذه الروايـةَ نالـت الشـهرة؟ هـذا يعنـي أنَّ دوستويفسـكي نجـح في تزيـين تلـك الفكـرةِ البشـعةِ والمثـيرة للقـرف. كيـف؟ هـل يعيـش أفضـلُ النـاس الـروس في السِّـجن؟! الشـعبُ الأكثـرُ موهبـةً، والأكثـرُ بأسـاً والشـعبُ غـير العـادي، هـل هـم القتلـة واللصـوص، مثـيرو الشَّـغب والأشـقياء؟ ومَـن ذا الـذي يقـول ذلـك؟ الشـخص الـذي عـاصر بيلينسـكي ونِكراسـوف وتورغينيـف وغريغوريـفيتـش وعـاش مـع

جميعِ أولئك الأشخاص الذين ما زالوا يُعَدُّون زينةَ روسيا وفخرَها حتى اليومَ! وهل يجوز تفضيلُ سكّان بيتِ الموتى المدموغين عليهم؟ ولكن هذا جنونٌ كاملُ الأوصاف. علماً بأنّ أبناء جيلين من القرّاء كانوا يرون في هذا الحكم تعبيراً عن النزعةِ الإنسانية العالية عند دوستويفسكي. كانوا يعتقدون أنه يمجِّد الإنسانَ الأخيرَ بطريقتِه الخاصة وهو في حالةِ استكانةٍ، تعبيراً عن محبَّته للقريب. حتى إنهم لم ينتبهوا ولو من باب اللباقة إلى أنّ الشاعر ذهب هذه المرةَ بعيداً جداً في مسعاه. وفي اللحظةِ الأخيرة فقط، في نهاية المطاف، انتبهوا (وعن طريق المصادفة، بالمناسبة) إلى سخافةِ مثل هذه الاستكانة. ولكنهم مع ذلك لم يجدوا الشجاعةَ الكافيةَ عندهم لكي يلوموا دوستويفسكي بشكلٍ صريح؛ لأنه كانت قد ترسَّخت بقوةٍ سُمعة القُدسية على ذلك المقطعِ المذكور. حاولوا فقط التقليلَ من أهميته من خلالِ التفسيرِ الملائم فقط. راحوا يشيرون إلى ذلك الظرفِ؛ وهو أنّ المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة على وجهِ التحديد لم يكونوا في زمن دوستويفسكي مجرمين حقيقيِّين، وإنما كانوا مجرَّد محتجِّين – أي إنهم كانوا في معظمهم أناساً منتفضين ضد بشاعةِ نظام القَنانة.

إنه تفسيرٌ ضروريٌّ حتى ولو جاء متأخراً. وقد كان محروماً بالكامل من أي أساس، للأسف. لم يكن دوستويفسكي يحب المعارضين والمحتجِّين في السِّجن كثيراً، ولكنه كان يصبرُ عليهم. تذكَّروا ماذا كان يقول عن المجرمين السياسيِّين. كانت دهشته وإعجابه يتعلَّقان بالمجرمين الحقيقيِّين، أولئك الذين كانوا رفاقه في المعتقل، الذين يقول عنهم البولوني م. تسكي – وعنهم فقط – بصورةٍ دائمة: Je haïs ces brigands[1]. ولديهم بالتحديدِ عُثر على القوةِ والموهبة والاستثناء، وهم الذين وضَعهم في مرتبةٍ أعلى

(1) أنا أكره قُطّاع الطرق هؤلاء (فرنسي).

مـن بيلينسـكي وتورغينيـف ونكراسـوف. يتعيَّن علينـا أن نعلـن عن سـخطنا وتذمُّرنـا مـن حكـمٍ كهـذا، وأن نسـخرَ منـه وأن نلعنَـه - كل مـا يحلـو لنـا. بيْـد أنَّ هـذا بالضبـط مـا كان يريـد أن يقولـه دوستويفسـكي وبالتحديـد.

كان دوستويفسـكي، بخـلاف البولـوني م. تسـكي، يـرى في أولئـك الـ[1]brigands، في حـال «كان يجـب الإفصـاحُ عـن كل شيء» - وأنـا أعتقـد، بالمناسـبة، أنـه آنَ الأوانُ لذلـك - «مثالَـه» الأعـلى، وقـد أخـذ عنهـم، كـما فعـل مـن قبـلُ عندمـا أخـذ عـن بيلينسـكي، كامـلَ تعاليمهـم، عـلى الرغـم مـن أنهـا لم تُذكـر في أي كتـاب مـن الكتـب، ولكنهـا محـدَّدة وواضحـة جـداً بـكل تأكيـد. لكنـه والحـقُّ يُقـال، لم يأخذهـا بـسرورٍ ومـع جاهزيـة، وإنـما لأنـه لم يكـن قـادراً عـلى مـا هـو غيـرُ ذلـك، ومـن دونِ إدراكٍ لِمـا سـوف ينالـه: لا يصـحُّ افـتراضُ beneficium inventarii[2] في مثـلِ هـذه الحـالات ... وهـو نفسـه لا يريـد أن يعـترفَ حتـى لنفسـه أنـه تعلَّـم على أيـدي المحكـومِ عليهـم بالأشـغالِ الشّـاقة، بـل راح يدافـع عـن آرائـه مسـتنِداً في ذلـك عـلى الشـعبِ بصـورةٍ دائمـة. «... ثمَّـة أمـرٌ آخـرُ أسـهمَ في تغيـيرِ نظراتنـا وقناعاتنـا وأفئدتنـا. وهـذا الأمـرُ الآخـرُ هـو التّـماسُ المبـاشرُ مـع الشـعب، والاتصـال الأخـوي معـه في شـقائه العـام، الإدراك بأنـه هـو نفسُـه أصبـح مِثْلـه، ومشـابهاً لـه وحتـى متسـاوياً معـه في أحـطِّ درجاتـه ومسـتوياته»[3].

ولكـن، عـن أيِّ شـعبٍ يـدور الحديـث؟ هـل عـن أولئـك النـاس أنفسـهم الذيـن عـاش دوستويفسـكي معهـم؟ إنهـم المحكـومُ عليهـم بالأعـمالِ الشـاقة،

---

(1) لصوص أو قُطّاع طرق (إيطالي).

(2) لاتيني. تَعني حرفياً: الاسـتفادة من المخزون. وهي قاعدةٌ قانونية في التشريع الروماني القديم. (المترجم)

(3) «المواطن»، 1873، العدد 50.

وتلك العناصر التي يلفظها الشعبُ ويخلِّص نفسَه منها. أن تعيشَ معهم هذا يعني عدمَ الانسجام وعدمَ التَّماس مع الشعب، وإنما الابتعادُ عنه لمسافةٍ بعيدةٍ جداً، كما لم يذهب بعيداً أيُّ شخصٍ من أولئك المتقاعسين (absenteeists) الذين يقيمون في بلدانٍ أخرى بصورةٍ دائمة. هذا ما لا يجوز نسيانُه ولو لحظةً بأيِّ شكل من الأشكال. وفي حالِ كان الأمرُ على هذا النحو، فإنَّ وَقار دوستويفسكي بمجملِه أمامَ الشعبِ الذي منحه كلَّ ذلك العددِ من الأنصارِ المخلصين والمتحمِّسين، يصبح مرتبطاً بآلهةٍ مختلفة تماماً، ومن ثَمَّ يكون القراءُ «المؤمنون» الروس قد خُدِعوا بطريقةٍ قاسية وغير مسبوقة من قِبل معلِّمهم. علماً بأنَّ دوستويفسكي، والحقُّ يُقال، لم يكن المعلِّم الأول الذي خدعَ تلامذتَه. بيدَ أنَّه لم تكن لتكفي الشجاعةُ عند كثيرين لكي يقوموا بمثلِ تلك الاستحالةِ بسوءِ نية. أفترض أنَّ دوستويفسكي نفسَه، وعلى الرغم من فِطنته وحِدَّة الذكاء الاستثنائية عنده إلى جانب حاسَّته المفرطة تُجاه كلِّ ما يتعلَّق بالمُثُل وبالإيمان (فهو مؤلِّف «المحقِّق العظيم»)، لم يكن على درايةٍ تامةٍ بما يفعله في هذه الحالةِ المحدَّدة. لم يكن يريد أن يؤمنَ بالمحكومِ عليهم بالأشغال الشاقة، وفي حالِ كان يرفعُهم في المقتطَف المُشار إليه من «مذكِّرات من بيت الموتى» إلى منصةٍ عاليةٍ جداً لا يمكن الوصولُ إليها، فإنَّه يفعل ذلك انطلاقاً من أملٍ مبْهَم كما لو أنَّ إخضاعَ السُّجناء للفكرةِ السامية يبقى أكثرَ سهولة. وقد استسلم وانحنى دوستويفسكي أمامَ رفاقِه في السِّجن على الأقلِّ مرةً واحدةً في مؤلَّفاته. وقد حدَثَ ذلك، على الأغلب؛ لأن «مذكِّرات من بيت الموتى» تلغي من خلال الصِّبغة العامةِ أيَّ احتمالٍ للشك عند المعلِّم. لقد كفَّ القارئُ ومنذ زمنٍ بعيدٍ عن الاهتمامِ ببعضِ الأفكارِ المعزولة: قُل ما تشاء، فكلُّ شيء سوف يصلُح لأن يكونَ فكرةً علوية.

مـع العلـم بـأن جميـع المِحـن والاختبـارات التـي عاشـها دوستويفسـكي في سـيبيريا كانـت تافهـةً مـن حيـث أهميتهـا بالمقارنـةِ مـع تلـك الـضرورةِ الرهيبـةِ للخضـوعِ والاستسـلام أمـامَ المحكـومِ عليهـم بالأعـمالِ الشـاقة. «هـل تعـرف، يـا صديقـي، كلمـةَ «ازدراء»؟ وآلام عدالتـك أن تكـون عـادلاً بحـقِّ أولئـك الذيـن يحتقرونـك؟» هكـذا يسـأل نيتشـه. وبالفعـل لا يوجـد في الحيـاةِ آلامٌ وعـذابٌ أكـبرُ مـن ذلـك. وقـد كان دوستويفسـكي مضطـرّاً إلى أنْ يختبرهـا. كان السـجناءُ يحتقرونـه، وهـذا مـا تشـهد عليـه كـلُّ صفحـةٍ تقريبـاً مـن روايـة «يوميـات مـن بيـت الموتـى»، في حـين أنَّ الوعـي والضمـير والإحسـاس بالعـدلِ لم تسـمح لـه بـأن ينتقِـم منهـم بالطريقـةِ نفسِـها، وأن يـردَّ عـلى الاحتقـارِ باحتقـار. كـما أنـه كان مرغـماً، عـلى غـرارِ نيتشـه، عـلى أنْ يقـفَ إلى جانـبِ أعدائـه اللدوديـن وأن يعـترفَ بهـم؛ وأكـرِّر، ليـس بسـببِ الخـوفِ وليـس بسـببِ رُوحِـه المتسـامحةِ مـع الإنسـانِ الأخـير، وإنـما بسـبب الوجـدان؛ وجـدان معلِّميـه، النـاسِ الرفيعـين والأكثـرِ موهبـةً الذيـن يـبرِّرون بوجودهـم كلَّ مـا هـو بشِـعٌ وتافـه وغـير ضروري في هـذه الحيـاة، أي أمثـال دوستويفسـكي وتورغينيـف وبيلينسـكي وهكـذا دَوالَيـك.

لقـد حَمَـل دوستويفسـكي معـه مـن السِّـجن مثـلَ هـذا العـبءِ الفظيـع. ولم يَخِـفَّ الثِّقَـلُ بمـرور السـنوات قـط، بـل عـلى العكـس راح يضغـطُ عليـه أكثـرَ وأكثـر. دون أن ينجـحَ في التخلُّـص منـه حتـى أواخـرِ أيـام حياتـه. كان ملزمـاً بـأن يحمِلـه، كـما كان مضطـرّاً إلى أنْ يخفيَـه عـن جميـعِ الأعـين، وفـوق ذلـك أن «يعلِّـم» النـاسَ في الوقـت نفسِـه. كيـف السـبيلُ إلى النهـوضِ بمِثـل هذه المهمة؟

# 14

كان النشـاطُ الأدبي اللاحـق لدوستويفسـكي بأكملِـه الجـوابَ عـن ذلـك السـؤال. لم يشـغَل بالَـه تقريبـاً بالمذلِّـين والمُهانـين بعـد ذلـك، باسـتثناء مـراتٍ نـادرة، عرَضـاً وفي أوقـات الفـراغ، بحكـمِ عـادةٍ قديمة عنـده. أصبـح موضوعُ الجريمـةِ والعِقـاب هـو الموضـوعَ المحبَّـب بالنسـبة إليـه. كان ماثـلاً أمامـه بصـورةٍ دائمـةٍ سـؤالٌ واحـد فقـط: «مَـن هـم هـؤلاء النـاس؛ نـزلاء السِّـجن؟ لمـاذا حـدَث أنهـم بـدَوا لي، ومـا زالـوا يَبـدون، عـلى حقٍّ في احتقارهـم إيـاي؟ ومـا السـببُ الـذي يجعلنـي أشـعرُ بطريقـةٍ لا إراديـة بأننـي مسـحوقٌ في أعينهـم وضعيـف، وأننـي - يـا لفظاعـة القـول - عـاديٌّ جـدّاً أمامهـم. وهـل هـذه هـي الحقيقـة، بالفعـل؟ وهـل هـذا مـا ينبغـي أن نعلِّـم النـاسَ إيـاه؟» يستحيل الشـكُّ في أنَّ هـذا السـؤالَ كان مطروحـاً عنـد دوستويفسـكي. وهـذا مـا تفصِـح عنـه مقالـةُ راسـكولنيكوف. والنـاس فيهـا لا ينقسـمون إلى أخيـارٍ وأشرارٍ، وإنـما إلى عاديِّـين وغـير عاديِّـين، مـع الإشـارةِ إلى أنَّ فئـةَ العاديِّين تضـمُّ جميـعَ «الأخيـار» الذيـن انصاعـوا للقوانـين الأخلاقيـةِ نظـراً لِمـا هـم عليـه مـن محدوديـةٍ روحيـة، في حـين أنَّ غـيرَ العاديِّـين أو الاسـتثنائيِّين يضعـون القوانـينَ بأنفسـهم، وكلُّ شيء «مسـموحٌ لهـم وجائـز». هـا هـو ذا رازوميخـين يلخِّـص

تلخيصاً صحيحاً مضمونَ المقالةِ عندما يقول لراسكولنيكوف: «ما هو فريد بالفعل في كلِّ هذا (أي في المقالةِ وفي استدلالاتِ راسكولنيكوف العقلية) وما ينتمي إليك وحدَك حقّاً، لعظيمِ دهشتي، هو أن وجدانك يبيح سفْكَ الدِّماء مع ذلك، ومع تعصُّبٍ كهذا، أرجو المعذِرة ... هذا يعني أنَّ الفحوى الحقيقية من مقالتك تكمُن في ذلك بالضبط؛ لأن تحليلَ سفْكِ الدمِ عن طريق الوجدان هو ... من وجهةِ نظري، أفظعُ من التحليل الرسمي، القانوني، لسفْكِ الدماء»[1]. (وقد شدَّد دوستويفسكي ذاته على الكلمتين «فريد» و«وجدانك»). هذا يعني أن «الوجدان» يرغِم راسكولنيكوف على الوقوفِ إلى جانب المجرم. لم يَعُد قائماً التوافق بين الوجدان والخير ومباركته له وتعاطُفه معه، وإنما مع الشر. كما أن كلمتَي «خير» و«شر» لم تعودا موجودتين. حلَّ محلَّهما التعبيران «اعتيادي» و«غير اعتيادي»، مع الإشارة إلى أنَّ التعبير الأول يرتبط بتصوُّرٍ عن الدناءة وفقدان الصلاحية وعدم الفائدة؛ في حين أنَّ التعبير الثاني يعادِل العظمةَ. بعبارة أخرى، يقف راسكولنيكوف في الجانبِ الآخر من «الخير والشر»، وهذا كان قبل 35 سنة عندما كان نيتشه ما زال تلميذاً وكان يحلُم بالمُثُل العليا. لقد قال رازوميخين الحقيقةَ؛ الفكرة فريدة تماماً وتعود كليّاً إلى دوستويفسكي. لم يكن أحدٌ في سنوات الستينيات [من القرن 19 - المترجِم] لا في روسيا ولا في أوروبا، يحلُم بمِثل ذلك حتى في منامِه. حتى إنَّ «ماكبث» الشكسبيري كان يُنظر إليه في ذلك الوقتِ على أنه لوحةٌ وعظيةٌ لتأنيبِ الضمير الذي ينتظر الشخصَ الآثمَ وهو ما زال في هذه الدنيا بعدُ (ما زال براندیس يفسِّر «ماكبث» على هذا المنوال حتى الآن: fabula docet[2]).

(1) «الجريمة والعِقاب»، صفحة 260.

(2) الحكاية الخرافية تعلِّم. (لاتيني)

والآن يطرح سؤالٌ نفسَه: في حالِ كانت فكرةُ راسكولنيكوف فريدةً إلى هذه الدرجة، بحيث إنها لم تخطر ببالِ أحدٍ آخرَ على الإطلاق، باستثناء مبدِعها، لماذا كان دوستويفسكي مضطرّاً إلى أن يتسلَّح ضدَّها ويحاربَها؟ ما الغايةُ من تكسيرِ الرماح؟ ضد مَن يحاربُ دوستويفسكي؟ الجواب: ضد نفسِه وفقط ضد نفسِه. إنه الوحيدُ في العالَم كلِّه الذي حسَدَ الجلالةَ الأخلاقية للمجرم، دون أن يمتلكَ الشجاعةَ لكي يعلنَ عن أفكاره بكلِّ صراحةٍ ووضوح، وهو ما اضطرَّه إلى أن يخلق نوعاً من «الحالة» المناسبةِ لها. عبَّر أولاً عن خضوعِه أمام المحكومِ عليهم بالأشغالِ الشاقَّة في «مذكَّرات من بيت الموتى»، وبطريقةٍ أغوى بها الناسَ الأكثرَ «طيبةً» ورهافةَ حسٍّ. ثم وضعَ المحكومَ عليهم بالأعمالِ الشاقَّة ضمنَ مفهوم الشَّعب. ثم راح يحاربُ طَوال حياتِه المرتدين نظريّاً عن «الخير»، علماً بأنه لم يكن في الأدبِ العالمي كلِّه سوى منظِّر واحد من هذا القبيل – دوستويفسكي خاصة. فلو أنَّ مهمةَ دوستويفسكي كانت تنحصِر في محاربة الشرِّ فقط، لكان يجدُر به عندئذٍ أن يشعرَ بأنه على أكملِ وجه. ومَن مِن بين رِفاقه في الكتابةِ لم تكن لديه مثل هذه المهمَّة؟ بيدَ أن دوستويفسكي كانت لديه فكرةٌ خاصةٌ به وفريدةٌ من نوعِها جدّاً. كان وهو يحاربُ الشرَّ، يستخدم للدفاعِ عنه مثلَ تلك الحججِ التي لم يكن الشرُّ يجرؤ على أن يحلُم بها حتى في منامه. حتى إنَّ الوجدان خاصةً أخذَ قضيةَ الشرِّ على عاتقه! وقد طُوِّرت الفكرةُ التي تقوم مقالةُ راسكولنيكوف على أساسها، بالتفصيل وفي صيغةٍ أخرى عند نيتشه، في «Zur Genealogie der Moral»، وقبل ذلك في «Menschliches Allzumenschliches». أنا لا أريدُ القول إنَّ نيتشه استعارَها من دوستويفسكي.

عندما كتب «Menschliches Allzumenschliches»، لم يكُن الأوروبيُّون قد عرفوا شيئاً عن دوستويفسكي. بيدَ أنه يمكن الجزمُ بكلِّ ثقةٍ أنَّ الفيلسوف الألماني ما كان ليصل أبداً في عمله «Genealogie der Moral» إلى تلك الجرأةِ والصراحةِ في شرحهِ وتفسيره، لو لم يكن يشعرُ بدعم دوستويفسكي له.

على أي حال، من الواضح - بالرغم من الحبكة الروائية - أن مأساة راسكولنيكوف الحقيقيةُ لم تكُن تكمُن في أنه قرَّر تجاوُز القانون، وإنما في أنه اكتشف عدمَ قدرته على تنفيذِ هذه الخطوةِ. لم يكن راسكولنيكوف قاتلاً، ولم يرتكب أيَّ جريمة. أما قصَّته مع العجوزِ المرابية، ومع ليزابيت فهي مختلَقة، مجرَّد افتراءٍ وتشويهِ سُمعة، واتِّهام كاذب. كما أنَّه لم تكن ثمَّة أيُّ علاقةٍ لـ «كارامازوف» فيما بعدُ بقضيةِ سمِردياكوف. كان دوستويفسكي قد افترى عليه. جميعُ هؤلاء «الأبطال» - من لحمِ دوستويفسكي نفسِه ودمِه - حالمون يحلِّقون فوقَ النجوم، رومانسيون وأصحابُ مشاريع للبناءِ الكامل والسعيد في المجتمع المستقبلي، وأصدقاء أوفياء للبشريةِ شعروا فجأةً بالحرَج والخجل من سموِّهم ومن تحليقهم فوق النجوم، وقد أدركوا أنَّ الأحاديث عن المُثُل العليا مجرَّد ثرثرةٍ فارغةٍ لا تضيف ذرَّةً واحدةً إلى الكنزِ العامِّ للثروةِ البشرية. ومأساتهم تكمُن في عدم قدرتهم على بدءِ حياةٍ جديدة، وأنَّ تلك المأساة عميقةٌ إلى أقصى درجةٍ وغير قابلة للإصلاح، لدرجةِ أنَّ دوستويفسكي لم يواجه صعوبةً في تقديمِها على أنها السببُ في تلك الآلامِ الشديدةِ عند أبطالِه المشاركين في الجريمة. لكن هذا لا يعني على الإطلاقِ أنه يوجد أدنى مبرِّر أو أساسٍ لكي نعتبرَ دوستويفسكي خبيراً وباحثاً للرُّوح المجرِمة والآثمة. على الرغم من أنه عرف المحكومين بالأشغال الشاقة، لكنه رآهم في السِّجن فقط.

في حين أنَّ حياتهم الماضيةَ قبل السِّجن وتاريخَ جرائمهم ظلَّا لغزاً بالنسبة إليه كما بالنسبة إلينا جميعاً؛ ذلك أنَّ المحكوم عليهم بالأشغالِ الشاقَّة لم يتحدَّثوا عن ذلك على الإطلاق. سيقولون لي: وماذا بشأنِ التخيُّلات الشِّعرية؟ من وجهةِ نظري، لن نكون مضطرِّين إلى أن نتذكَّرها فيما يخصُّ دوستويفسكي؛ فالفانتازيا كانت موجودةً عند الشعراءِ القدماء فقط، وإليهم كانت تأتي ربَّاتُ الإلهام ليلاً، بكل تأكيد، وتبثُّ فيهم أحلاماً ساحرةً وغريبة، ومن ثَمَّ يدوِّنها عشَّاقُ أبوللون في صباحِ اليوم التالي. أما دوستويفسكي، الإنسانُ من العالَم السُّفلي، والمحكومُ عليه بالأعمالِ الشاقة، والأديبُ الروسي الذي اعتاد رهنَ تنانيرِ زوجتِه في مكاتبِ القروض؛ فلم تكن تليقُ به تلك الميثولوجيا إجمالاً. كان تفكيره يتسكَّع في صحارى رُوحه هو نفسه؛ ومن هناك حَمَل تفكيرُه مأساةَ الإنسانِ من العالَم السُّفلي، راسكولنيكوف وكارامازوف هكذا دَوالَيك. هؤلاء المجرمون من دون جرائم، وهؤلاء الذين يؤنِّبهم ضميرُهم من دون ذنبٍ، هم الذين يشكِّلون محتوى الروايات الكثيرة لدوستويفسكي. وفي هذا يكون هو نفسه، وفي هذا يكون الواقع، وفي هذا تكون الحياة الحقيقية. كلُّ ما عدا ذلك مجرَّد «تعاليم». كلُّ الباقي مجرَّد كوخٍ حقيرٍ جُمِّع على عجَلٍ وكيفما اتَّفق من حُطام النُّظُم القديمة المتهالكة. مَن بحاجته؟ دوستويفسكي نفسُه - وهذا ما يجبُ التنويهُ به - كان يولِي تعاليمَه اهتماماً كبيراً، شأنه شأن الكونت تولستوي، ونيتشه، وكما هي الحال مع جميعِ الكتَّاب تقريباً. كان يعتقد أن بإمكانه أن يقول للناس ماذا يتعيَّن عليهم أن يفعلوا وكيف يجبُ عليهم أن يعيشوا. لكنَّ هذا الادعاءَ المثيرَ للسخرية، بالطبع، بقي مجرَّد طُموحٍ إلى الأبد؛ لأن الناسَ عاشوا دائماً ويعيشون اليوم لا على أساسِ الكتبِ.

في نهاية «الجريمة والعقاب» يمكننا أن نقرأ سطوراً مليئة بالوعود: «... وهنا يبدأ تاريخٌ جديد، تاريخُ التحديث المتدرِّج للإنسان، تاريخُ تجدُّده، والانتقال التدرُّجي من أحدِ العوالم إلى عالَمٍ آخرَ، وتاريخ التعرُّف على واقعٍ جديدٍ غيرِ معروف للإنسان من قبلُ نهائيّاً. كان يمكن لهذا أن يكون موضوعَ قصةٍ جديدة، لكنَّ حكايتنا الحاليةَ قد انتهت». ألا تبدو هذه الكلماتُ وكأنها نَذْرٌ مهيبٌ؟ وأيضاً، ألم يأخذ دوستويفسكي على عاتقِه بوصفه معلِّماً، واجبَ أن يدُلَّنا على هذا الواقع الجديد، وعلى الفرصِ الجديدةِ المتاحةِ أمام راسكولنيكوف؟ لكن المعلِّم لم يذهب أبعدَ من النذر. ففي مقدِّمته لرواية «الأخوة كارامازوف»، العمل الأدبي الأخير لدوستويفسكي، نصطدم من جديد بذلك النذرِ نفسِه. لا تكفي دوستويفسكي روايةٌ واحدة لكي يقوم برسم بطله الحقيقي، بل يحتاج إلى روايةٍ أخرى، حتى ولو كانت «الأخوة كارامازوف» التي يبلغ عددُ صفحاتها الألفَ صفحة، حيث يجب أن يتوافر مكانٌ كافٍ من أجل «الحياة الجديدة». مع العلم أنَّ دوستويفسكي كتب، خلال الفترة الفاصلة بين «الجريمة والعقاب» و«الأخوة كارامازوف»، ثلاثَ روايات ضخمة: «الأبله»، و«المراهق»، و«الشياطين»! دون أن يتذكَّر نذره بأيِّ شكل. بطبيعة الحال، لا يمكن أن نأخذَ رواية «الأبله» مع الأمير ميشكين بالحسبان. وفي حال أنَّ ذلك «الجديد» الذي ينتظر الإنسان، وأنَّ «مَثلنا الأعلى» يجب أن يكون على شاكلة الأمير ميشكين، هذا الظلُّ المثير للشفقة، وهذا الشبح الخالي من الحياة، ألن يكون من الأفضل لنا ألا نتطلعَ نهائيّاً نحو المستقبل؟ إنَّ الإنسان الأكثر تواضعاً وذلّاً، حتى

مـاكار ديفوشـكين، سـوف يرفـض مثـلَ تلـك «الآمـال» وسـيعود إلى ماضيـه البائـس. كلَّا، فالأمـير ميشـكين مجـرَّد فكـرةٍ وحسـب، أي إنـه مجـرَّد فـراغ. ثـمَّ، أيُّ دَور عنـده! هـا هـو ذا يقـف بـين امرأتَـين وينحنـي تـارةً إلى هـذه الجهـة وتـارةً إلى الجهـة الأخـرى، كـما لـو أنـه دُميـة صينيـة تمامـاً. لكـن الحقيقـة هـي أنَّ دوستويفسـكي يمنحـه بـين الفينـة والأخـرى فرصـةً لكـي يتكلَّـم بأسـلوب جيـد. بيـدَ أنَّ هـذه ليسـت ميـزةً بعـدُ؛ لأن المؤلـف هـو الـذي يتكلَّـم. كـما تُضفـى عـلى الأمـير ميشـكين أيضـاً، شـأنه شـأن أليوشـا كارامـازوف، قـدرةٌ اسـتثنائية عـلى التنبـؤ الـذي يـكاد يصـل إلى درجـةِ حـدَّة الرؤيـا والاسـتبصار. لكـن هـذه مجـرد ميـزةٍ صغـيرةٍ أيضـاً في بطـل الروايـة، حيـث يتحكَّـم المؤلِّـف بالتحديـد في أفـكار جميـعِ الشـخصيات الفاعلـة وتصرُّفاتهـا. وفـوق هـذه الصفـات، الأمـير ميشـكين شـخصٌ تافـهٌ ولا محـلَّ لـه مـن الإعـراب. فهـو، وإذ يعـبِّر بصـورة دائمـة عـن حزنـه مـع المحزونـين، عاجـزٌ عـن مواسـاةِ أيِّ شـخص كان. وهـو يجعـل آغليـا تنفِـر منـه، دون أن ينجـحَ في تهدئـة ناستاسـيا فيليبوفنـا. لكنـه ينسـجِم مـع روغوجـين، ويتنبـأ بارتكابـه الجريمـةَ، دون أن يكـون قـادراً عـلى فعـلِ أيِّ شيء. كان يجـب عـلى الأقـل أن يُمنَـح القـدرةَ عـلى فهْـم مأسـاوية الوضـع عنـد الأشـخاص القريبـين منـه! لكـن هـذا غيـرُ موجـود أيضـاً؛ لأن حزنـه ينحـصر في حـزن الواجـب؛ ولهـذا السـبب مـن السـهل عليـه أن يتفـوَّه بالكلـمات المفعمـة بالأمـل والمواسـاة.

حتـى إنـه يقـترح عـلى أيبوليـت البلسـمَ الأدبي الخـاص بـه، ولكنهـم في هـذه اللحظـة بالضبـط يسـتقبلونه أو، إذا شـئتم، يودِّعونـه كـما يسـتحق. كلَّا،

فالأمير ميشكين مجرَّد شخص منحط و«ابن حرام» حتى بين الناس الرفيعي المستوى عند دوستويفسكي، على الرغم من أنهم جميعاً فاشلون إلى هذه الدرجة أو تلك. كان دوستويفسكي يفهم ويصوِّر بمهارةٍ الروحَ المتمردة والمكافحة والباحثة فقط. ولكنه، بمجرَّد أن حاول تصويرَ الإنسان الذي اهتدى واستكان وأدرك، فقد وقعَ في ابتذالٍ مهين على الفور. تذكَّروا على الأقل أحلامَ العجوز زوسيما بخصوص «المستقبل والاتحاد الرائع الذي قام بين البشر». ألا تفوح تلك الأحلامُ برائحةٍ نمطية جدّاً من Zukunftsmalerei[1]، الذي تخلَّى عنه حتى الاشتراكيون الذين هزئ بهم بقسوةٍ في العالَم السفلي. إلَّا أنه لا توجد أدنى رغبةٍ لدى دوستويفسكي للتفكيرِ في جميعِ هذه الحالات، بل إنه يلتقط بيدٍ غيرِ متأنِّقة وغير ذوَّاقة كلَّ شيء وكيفما اتفق؛ من عند السلافوفيل، ومن الاشتراكيين، ومن الابتذالِ في الحياة البرجوازية. وقد شعرَ هو نفسُه، كما يبدو، بأنَّ مهمَّته لا تكمُن في ذلك، ولهذا راح يقوم بها بطريقةٍ مذهلة في الإهمال واللامبالاة. دون أن يكون قادراً على التخلُّص من إعطاء الدروس في الأخلاق ومن التنبؤ؛ وهذا وحدَه ما كان يربطه ببقية الناس. وهذا أفضلُ ما كانوا يفهمونه ويقدِّرونه عنده، ومن أجل ذلك رفعوه إلى مصافِّ الأنبياء. والعيش مستحيل من دون البشر، مستحيلٌ تماماً. يقول مرميلادوف: «إذ إنه من الضروري أن يكون لكلِّ إنسانٍ الحقُّ في الذهاب إلى مكانٍ ما. لأنه يصادف مِثل ذلك الوقت الذي يصبح فيه الذهاب إلى مكانٍ ما أمراً لا بدَّ منه». ولهذا الغرضِ بالتحديد تصبح البدلةُ الرسمية المتعارَف عليها حاجةً ضرورية؛ إذ إنه من غيرِ المنطقي

(1) اللوحة المستقبلية (ألماني).

الخروجُ إلى الناس مع كلماتِ الإنسان من العالَم السفلي، مع إعجابٍ عميق بسِجن الأشغال الشاقة، مع جميع الأفكار «الفريدة» التي كانت تملأ رأسَ دوستويفسكي! لأن الناسَ لن يرغبوا في الإصغاء إلى مثلِ هذا الإنسانِ القريب إليهم، وسوف يطردونه؛ فالبشَر بحاجة إلى المثالية مهما كلَّف الأمر! وها هو ذا دوستويفسكي يرمي لهم ذلك الخيرَ بمقاديرَ كبيرة، بحيث إنه هو خاصةً يبدأ أحياناً بالاعتقاد في نهايةِ المطاف أنَّ مثلَ هذا العملِ جديرٌ بالاهتمام في حقيقة الأمر. ولكن أحياناً فقط، لكي يسخَر هو خاصةً من نفسِه فيما بعد. عمَّن يدور الحديثُ في الحكايةِ عن المحقِّق العظيم؟ مَن هو ذلك الكاردينال الذي يتلقى الشعبُ من يديه قوتَه الخاص؟ ألا ترمُز هذه الخرافة إلى «النشاط» النبوي لدوستويفسكي؟ لقد كانت موعظته مكوَّنةً من العناصر التالية فقط لا غير: المعجزة، واللغز، والهيبة. لكن دوستويفسكي تعمَّد ألا يقولَ الشيءَ الرئيس. ذلك أنَّ المحقِّق العظيم نفسَه الذي راح بجرأةٍ كبيرة وبتحدٍّ يصحِّح مسألةَ المسيح، كان ضعيفاً ومثيراً للشفقة، شأنه شأن أولئك الناسِ الذين يستخفُّ بهم بازدراء شديد. لقد ارتكب خطأً فظيعاً في تقييم دوره. لن يجرؤَ على الإفصاح إلا عن جزءٍ من الحقيقة، وعن الجزءِ الأقل فظاعةً وحسب. لقد تلقَّى الشعبُ منه المُثُل العليا بلا تمييز ولا دراية، ومن دون أن يتحقَّق منها. لكنَّ هذا حدث فقط لأن المُثُل العليا بالنسبة إلى الشعب مجرَّدُ تسليةٍ؛ حالة ومظهر خارجي فقط. أما إيمانه الطفولي والساذَج الذي لم يعرف الشكوكَ بعدُ، فلم يَعُد بحاجة إلى أي شيء، مِثل هذه أو تلك من الكلمات من أجل التعبير عنه. ولهذا السببِ الشعبُ يسير تقريباً خلفَ

كلِّ شخص يريد أن يقوده وراءه، وهو يبدِّل أصنامَه بمنتهى السهولة: le roi est mort, vive le roi[1].

لكنَّ الكاردينال العجوزَ، الذي أنهكته التأمُّلاتُ الطويلةُ، والمكسورَ معنويّاً كان يتصوَّر أنَّ فكرتَه الضعيفة قادرةٌ على أن تصوغ وأن تمنح اتجاهاً صلباً للجماهير غير المنظَّمة والعشوائية، وأنها منحت مئات الآلاف وملايين من الناس القدرةَ على العيش في بحبوحة ... يا له مِن ضلال سعيد ورائع إلى درجة العمى! وللعلم، لم يكن هذا الضلالُ مميزاً للمحقِّق العظيم في رواية دوستويفسكي فقط، بل إنَّ المعلِّمين كافة وفي جميعِ الأوقات، كانوا يعتقدون أنَّ الكون برُمَّته إنما هو موجودٌ بفضلهم، وأنهم يقودون أتباعَهم نحو السعادة، ونحو الفرحِ والنور! بيدَ أنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الرعاة كانوا ضروريين للقطيع بدرجةٍ أقلَّ بكثير من كونِ القطيع ضرورياً للرعاة. ماذا كان سيحلُّ بالمحقِّق العظيم لو لم تكن لديه عقيدةٌ أبيَّة؟ هل كانت البشرية ستهلك من دونه؟ ماذا كان سيفعل بحياته؟ وها هو ذا العجوزُ الطاعن في السن، الذي يخترق بذكائه الحادِّ جميعَ أسرارِ وخفايا الوجودِ عندنا، لا يجيد (لعله يتظاهر بأنه لا يجيد) رؤيةَ شيء واحد - ما هو أكثر أهمية. إنه لا يعرف أنَّه هو المَدين للشعبِ بإيمانه، ولا يَدين الشعبُ له بالإيمان؛ ذلك الإيمان الذي يبرِّر ولو جزئيّاً بالنسبة إليه حياتَه الطويلة، والكئيبة، المليئة بالألم وبالوحدة. لقد خدعَ الشعب بقصصه عن المعجزات والأسرار، كما أنه أخذَ على عاتقه مظهرَ العارفِ الكبير الذي يفهم كلَّ شيء، وادَّعى أنه وكيلُ الرب في الأرض. وقد سلَّم الشعبُ بهذا الكذبِ عن براءة؛ لأنه لم يكن بحاجة إلى الحقيقة، ولم يكن يريد أن

(1) مات الملك، عاش الملك. (فرنسي)

يعرفَها. لكنَّ الكاردينال العجوزَ مع خبرتِه التي تكاد تمتدُّ لقرن كامل، صاحبَ العقل، الذي يُعمل فكرَه الوقَّاد الذي لا يكلُّ، لم ينتبِه إلى أنَّه هو نفسه بات ضحيةَ خداعه هو خاصةً، وهو ما جعله يتخيَّل نفسَه وليَّ نعمةٍ بالنسبة إلى البشرية بأكملها. كان ذلك الخداعُ ضرورياً بالنسبة إليه؛ لأنه لم يكن يعرف من أين وكيف له أن يكتسبَ الثقةَ بنفسه؛ ولذلك تلقَّاها من أيدي الحشدِ التافه الذي يزدريه ويحتقره ...

# 15

لكـن دوستويفسـكي خاصـة لم يستطِع أن يتحمَّـل هـذا الخـداع، لم يتمكَّـن مـن الاكتفـاء بمثـل «هـذه الثقـة بالنفـس». عـلى الرغـم مـن أنـه كان بارعـاً في الحديـثِ بشـكلٍ جميـلٍ ومغـرٍ عـن «الوحـدة المتعجرفـة» للمحقِّـق العظيـم عنـده، كان يـدرك أنَّ التضليـل المهيـب مـن الكلـمات الرفيعـة والطنَّانـة كان ضروريّـاً مـرةً أخـرى ليـس لـه بالتحديـد، وإنـما للآخريـن، للشـعب. وحـدةٌ متعجرفـة! وهـل بإمـكان الإنسـان المعـاصر، يـا تُـرى، أن يكـون فخـوراً بوحدتـه مـع نفسـه؟ الأمـر مختلِـف أمـام النـاس، وفي الخُطـب والكُتـب. ولكـن هـل سـيجرؤ عـلى اسـتخدامِ كلمـةٍ ساميةٍ واحـدة عندمـا يكـون وحيـداً، لا يـراه ولا يسـمعه أحـدٌ، وعندمـا يـدرك وضْعـه وحياتـه إدراكاً كامـلاً في منتصـفِ الليـل البهيـم وسـط الصمـت والسـكينة؟

كان بروميثيـوس يشـعرُ بالمسرَّة؛ لأنـه لم يكـن يبقـى وحيـداً عـلى الإطـلاق. كان زيـوس يسـمعه عـلى الـدوام؛ أي كان ثمَّـة خَصـم لـه، وكان ثمَّـة مَـن يمكنـه أن يثـيرَ الحَنَـق لديـه ويسـتفزَّه بمظهـره الحـازم وبأقوالـه المتعجرفـة، وهـذا يعنـي أنـه كان ثمَّـة «قضيـة». لكـن الإنسـان المعـاصر، سـواء كان راسـكولنيكوف أو دوستويفسـكي، لا يؤمـن بزيـوس. عندمـا يهجُـره النـاس،

وعندمـا يبقـى وحيـداً مـع نفسـه، يبـدأ لا إراديّـاً بقـولِ الحقيقـة لنفسـه، ويـا لها، عفـوك يـا رب، مـن حقيقـةٍ رهيبـة! وكـم هـي قليلـةٌ فيهـا تلـك الصـورُ الآسرة والسـاحرة التـي كنـا نعتبرهـا، طبقـاً للأسـاطير الشـاعرية، مرافقـةً دائـماً للأشـخاص الوحيديـن! وإليكـم، عـلى سـبيل المثـال، أحـدَ تأمُّـلات دوستويفسـكي (راسـكولنيكوف، في واقـع الأمـر، لكننـا نعـرف أنَّ الأمـر سـواء): «ولذلـك أنـا قَملـةٌ - أردفَ وهـو يكَـزُّ عـلى أسـنانه - لأننـي أنـا نفسـي، ربـما، أكثـرُ قبحـاً وأشـنعُ مـن قَملـةٍ مقتولـة، وقـد تنبـأتُ مسـبقاً بأننـي سـأقول ذلـك لنفسـي بعـد أن أُقتـل! وهـل ثمَّـة مـا يمكـن مقارنتُـه مـع فظاعـةٍ كهـذه! أواه، أيتهـا الدَّنـاءة! أواه، أيتهـا الوقاحـة! أواه، كـم أنـا أفهـم «النبيَّ» وهـو يمتشِـق سـيفاً ويمتطـي حصانـاً قائـلاً: الله يأمـرك وكـنْ مطيعـاً، أيهـا المخلـوق التافـه! إنَّ النبـي عـلى حـق، إنـه عـلى حـق عندمـا ينصـب في مـكانٍ مـا مـن الشـارع وبطريقـةٍ معترضـة مدفعـاً رائعـاً، ثـم يـضرب المؤمـنَ والمذنـبَ مـن دون أن يكلِّـف نفسَـه أن يسـتوضح! هيـا، كـنْ خانعـاً، أيهـا المخلـوق المرتجِـف الضعيـف، ولا تتمـنَّ لأنَّ ذلـك ليـس مـن شـأنك! أواه، لـن أغفـرَ، لـن أغفـرَ أبـداً للعجـوز عـلى الإطـلاق، ولا بـأي شـكل مـن الأشـكال ومهـما كان الثَّمـن»[1]. يـا لهـا مـن كلـماتٍ وصـورٍ مهينـة ومثـيرة للاشـمئزاز! ألم يكـن مـن الـضروري، يـا تُـرى، أن يمنـح راسـكولنيكوف لأجـل «الشـاعرية» فرصـة أن يقتـلَ عـلى الأقـل العجـوز وليزابيـت، لكـي يكـون ثمَّـة تفسـيرٌ لائـق لمثـلِ تلـك الأمزجـة؟! أمـا الحقيقـة فهـي أنـه لم تُسـفك الدمـاءُ ولا وجودَ لجريمـةٍ جنائيـة هنـا. كان ذلـك «عقابـاً» عاديّـاً سـوف يطـول جميـعَ «المثاليـين» عاجـلاً أو آجـلاً. سـوف تـدقُّ السـاعة لـكلِّ واحـدٍ منهـم عاجـلاً أو آجـلاً،

(1) «الجريمة والعقاب»، صفحة 272.

وسـوف يهتـفُ وهـو يرتجـف رعبـاً ويكَـزُّ عـلى نواجـذه: «النبـي عـلى حـق. كنْ خانعـاً، أيهـا المخلـوقُ المرتجِـف الضعيـف!». سـبق أن نُطِـق قبـل ثلاثمائـة سـنةٍ بالحُكـم الرهيـب مـن قِبـل أحـدِ أعظـم الشـعراء بحـقِّ أحـدِ أعظـم المثاليِّـين. تتذكَّـرون الصرخـةَ المجنونـة لهاملـت: «لقـد انقطعـت سلسـلةُ الزمـن!». منـذ ذلـك الحـين لا تكـفُّ هـذه الكلـمات عـن التكـرار بطـرقٍ وصيـغٍ مختلِفـة إلى مـا لا نهايـة عـلى لسـان الكتَّـاب والشـعراء. إلَّا أنـه مـا مِـن أحـدٍ حتـى هـذا اليـوم يريـد أن يقـولَ لنفسـه بصراحـة إنـه لا معنًـى لوصـل الحلقـات التـي تقطَّعـت ذاتَ مـرة، وأنـه لا معنًـى لإعـادة الزمـن مـن جديـدٍ إلى مجـراه الطبيعي الـذي خـرج منـه. ثمَّـة محـاولاتٌ جديـدة وجديـدة مـرةً بعـد أخـرى مـن أجـل اسـتعادةِ شـبحِ الهنـاء القديـم. إنهـم يكـرِّرون عـلى مسـامعنا وبصـوتٍ مرتفـع جـدّاً أن التشـاؤمية والتشـكيكية قـد أهلكتـا كلَّ شيء، وأنـه يجـب «الإيـمان» و«العـودة إلى الـوراء» مـن جديـد، وأن نصبـح «محدودِيـن» وهكـذا دَوالَيـك وإلـخ. ويقترحـون عـلى الـدوام «الأفـكارَ» القديمـةَ لتكـون أسـمنتاً لاصقـاً، رافضِـين بعنـادٍ أن يفهمـوا أنَّ الأفـكار هـي مصـدرُ شـقائنا وتعاسـتنا. مـاذا سـتقولون أنتـم لدوستويفسـكي حـين يعلـن لكـم أنـه «اقتطـع نفْسَـه بالكامـل عـن الجميـع وعـن كلِّ شيء في هـذه اللحظـة»؟[1] هـل سـوف ترسـلونه لكـي يُحسِـنَ للمقرَّبـين؟ لكنـه سـبق أن جـرَّب هـذا الطريـقَ منـذ فـترةٍ طويلـة وألَّـف «المحقِّـق العظيـم». وليقُـمْ كلُّ مَـن يسـتطيع، بالعمـل مـع الحقائـقِ السـاميةِ ومـع الحِيَـل الرفيعـة؛ لأنَّ دوستويفسـكي يعـرف أنـه في حـالِ كانـت صلـةُ الزمـن تكمُـن في ذلـك، فـإن هـذا يعنـي أنهـا انقطعـت إلى الأبـد. وهـو يتحدَّث عـن ذلـك لا بصفتـه هاويـاً غـيرَ بـارع قـرأ الكثـيرَ مـن الكتـب العاديـة،

(1) «الجريمة والعقاب»، صفحة 115.

وإنـما بصفتـه شـخصاً رأى بـأمِّ عينيـه كلَّ شيء، وجـسَّ بيديـه كلَّ مـا يمكـن جسُّـه. الفصـل الرابـع مـن الكتـاب الخامـس مـن رواية «الأخـوة كارامـازوف» معنـون بكلمـة «عِصيـان». هـذا يعنـي أنَّ دوستويفسـكي لا يرفـض السـعيَ مـن أجـل اسـتعادة «الرابطـة» السـابقة وحسـب، بـل مسـتعد أيضـاً لأن يفعـل كلَّ مـا يمكـن لكـي يبرهـنَ أنـه لا يوجـد هنـا أيُّ آمـال، ولا يمكِـن أن يكـون. هـا هـو ذا إيفـان كارامـازوف ينتفـض ضـد الأوضـاع الراسـخة جـدّاً التـي تقـومَ في أسـاسِ العقيـدة الأخلاقيـة المعـاصرة. والفصـل يبـدأ عـلى الفـور بالكلـمات التاليـة: قـال إيفـان: «يجـب أن أفصِـحَ لـك عـن اعـتراف واحـد، وهـو أنني لم أتمكَّـن عـلى الإطـلاق مـن أن أفهـمَ كيـف يمكـن للمـرء أن يحـبَّ القريبـين منـه؛ لأنَّ محبَّـة القريبـين بالتحديـد، مـن وجهـةِ نظـري، مسـتحيلةٌ، وإنـما تجـب محبـةُ البعيديـن عنـك»[1]. يقاطـع أليوشـا أخـاه بملاحظـةٍ يفـترض بهـا أن تكشـفَ لنـا أن دوستويفسـكي نفسَـه غيـرُ موافـق عـلى آراء إيفـان. بيـدَ أننـا كنـا قـد اعتدنـا الثغثغـةَ العنيـدة والرتيبـة لهـذا الرضيـع، وهـو لا يسـبِّب الحـرجَ لنـا إلا قليـلاً، لا سـيما أنَّ الذاكـرة توحـي لنـا بمقطـعٍ آخـرَ مـن دفـترِ يوميـات الكاتـب، هـذه المـرةَ يعـود إلى عـام 1876، يقـول دوستويفسـكي هنـاك: «حتـى إنَّ محبـةَ البشريـة غيـرُ واردة وغـير مفهومـة ومسـتحيلة مـن دون إيـمان مشـترك بخلـود الـروح البشريـة. المسـألةُ واضحـة: لا يوجـد أيُّ فـرق بـين كلـمات إيفـان كارامـازوف وكلـمات دوستويفسـكي نفسـه؛ إذ إنَّ إيفـان كارامـازوف يواصـل كلامَـه بالافـتراض نفسـه بـأنَّ الـروح البشريـة خالـدة. إلَّا أنـه في الحقيقـة لا يـورِد أيَّ براهـين لصالـح «افتراضـه»، كـما أنَّ دوستويفسـكي نفسَـه يذكُـر افتراضَـه «مـن دون أدلَّـة» أيضـاً. بهـذا الشـكل

(1) «الأخوة كارامازوف»، صفحة 280.

أو ذاك، يصبح واضحاً بلا أدنى شك أنَّ بطل الرواية والمؤلِّف على حدٍّ سواء لا يؤمنان بالخلاص الذي تمنحه فكرةُ «محبَّة الأقربين». وإذا شئتم، فإنَّ دوستويفسكي يذهب أبعدَ من إيفان كارامازوف؛ فقد كتب يقول: «وفوق ذلك، أنا أؤكد أنَّ إدراكَ عجزِك الكاملِ عن تقديمِ المساعدة أو عن تقديم أدنى فائدةٍ مهما كانت صغيرةً، أو تخفيفِ المعاناة عند البشريةِ المعذَّبة، ومع اقتناعنا الكامل في الوقت نفسِه بهذه المعاناة عند البشرية؛ يمكنه أن يحوِّل حتى محبَّة البشرية في قلوبنا إلى كراهية نحوها»[1]. (العبارة مشدَّدة من قِبل دوستويفسكي). أليس من المؤسف حقّاً أنه لم ينشأ هنا وضعٌ يشبه رازوميخين، ولم يكن هناك من أحد لكي يذكِّر دوستويفسكي بأنَّ فكرتَه كانت أصيلةً للغاية؟ إذ إنَّ هذا يشبه تماماً ما هو موجودٌ في مقالة راسكولنيكوف: الضميرُ يبيح الكراهيةَ تجاه البشَر! ما دام تقديمُ المساعدة للقريب ممنوعاً، فهذا يعني أنه لا تجوز محبَّته أيضاً. بيدَ أنَّ أولئك الأقربين بالتحديد الذين يطمحون عادةً لنيلِ محبَّتنا، يكونون في معظمهم من الناسِ الذين لا يمكن مساعدتُهم على الإطلاق - دعْكَ من الكلام عن البشرية جمعاء. كان يكفي في يومٍ من الأيام أن تمجِّد المُعذَّب وأن تذرفَ الدموع عليه، بالإضافة إلى تسميته بالأخ. أما اليوم فقد بات هذا قليلاً. بات من الضروري مساعدتُه مهما كلَّف الأمر، يريدون أن ينتفيَ وجودُ الإنسان الأخير، وأن يصبح إنساناً أولاً! وفي حالِ كان ذلك غيرَ قابل للتحقيق، تُرسَل المحبةُ إلى الشيطان وتقيم على عرشِها الشاغرِ كراهيةٌ أبديةٌ إلى الأبد ... لم يَعُد دوستويفسكي يؤمن (أعتقد أنهم لن يخلطوا بعدَ المقتطفات التي استُشهِد بها، بينه وبين أليوشا كارامازوف)

(1) الأعمال الكاملة، المجلد العاشر، صفحة 425.

بالقـدرةِ المطْلَقـة للمحبـة، ولا يقـدِّر دمـوعَ التعاطـف والحنـان. أصبـح العجـزُ عـن تقديـم المسـاعدة حجَّـةً نهائيـة ومدمِّرة لـكل شيء بالنسـبة إليـه. راح يبحثُ عـن القـوة والجـبروت. وسـوف تكتشِـفون لديـه الغايـةَ المنشـودة باعتبارهـا الأخـيرةَ والأكثـرَ إخلاصـاً لطموحاتـه Wille zur Macht[1]، التـي أفصـحَ عنهـا بالجِـدَّة والوضـوح أنفُسِـهما على غِـرار نيتشـه! وكان بإمكانـه أن يطبـعَ في نهايـة أيِّ روايـة مـن رواياتـه، كـما هـي الحـال عنـد نيتشـه، تلـك الكلـماتِ بأحـرفٍ كبـيرة سـوداء؛ لأن فيهـا يوجـد المغـزى مـن جميـعِ التطلُّعـات.

لقـد عُتِّـم في «الجريمـة والعقـاب» عـلى المهمـةِ الأسـاسِ لمجمـلِ النشـاط الأدبي عنـد دوستويفسـكي بطريقـةٍ حاذقـة مـن خـلالِ إلحـاقِ فكـرةِ الانتقـام بالروايـة. يُخيَّـل إلى القـارئ الحسـنِ النيـةِ أنَّ دوستويفسـكي كان بالفعـل قاضيـاً في موضـوع راسـكولنيكوف وليـس محكومـاً عليـه. إلَّا أنَّ المسـألةَ طُرحـت في «الأخـوة كارامـازوف» بوضـوحٍ كبـير بحيـث إنـه لم يبـقَ أدنـى شـكٍّ في نوايا المؤلف.

راسـكولنيكوف «مذنـب»؛ فقـد ارتكـب الجريمـةَ وقتـلَ، طبقـاً لاعترافـه القـسريِّ الـذي انتُـزِع منـه تحـت التعذيـب، ومـن ثَـمَّ فهـو غيـرُ جديـرٍ بالتصديـق. وأنكـر النـاسُ عـن أنفسـهم المسـؤولية تُجـاه معاناتـه مهـما كانـت مؤلمـةً وفظيعـة. وإيفـان كارامـازوف يعـرف هـذا المنطـق؛ يعـرف أنـه في حـالِ طُـرِح مصـيرُه الخـاصُّ للنقـاش، فإنهـم سـيلصقون التهمـةَ بـه وسـيفضحونه عـلى الفـور، بهـذه الطريقـة أو تلـك، وأنـه هـو الـذي «أكل التفاحـة» حسـبَ تعبـيرِ دوستويفسـكي؛ أي إنـه مذنـبٌ إنْ لم يكـن بأفعالـه فـلا بـدَّ في نوايـاه. لذلـك فـإن كارامـازوف لا يحـاولُ حتـى أن يتحـدَّث عـن نفسـه. لكنـه يطـرح

(1) الإرادة أو السعي إلى السلطة (ألماني).

سؤالَه الشهير بخصوص دموع الطفل التي لم يُنتقَم لها. يقول مخاطباً أخاه: «قُل لي، أنا أتوجَّه إليك مباشرةً فأجبني: تخيَّل أنك أنت الذي تُشيِّد بناءَ المصير الإنساني، وذلك بهدفٍ نهائي وهو إسعادُ الناس ومنْحُهم السلامَ والسَّكينةَ في نهايةِ المطاف، ولكنك كنت بحاجةٍ - ولا بدَّ، وفي سبيلِ تحقيقِ ذلك - إلى أن تضطهدَ وتعذِّب مخلوقاً واحداً ضئيلاً فقط لا غير، ذلك الطفل الصغير الذي راح يدقُّ على صدره بقبضةِ يده (الذي سبق أن حدَّث إيفان أخاه أليوشا عنه)، وأن تؤسِّس ذلك البناءَ على دموعِه غيرِ المنتقَم لها، فهل كنت ستقبل أنت المهندسُ المعماريُّ بتلك الشروط، هيا أخبرني ولا تكذِب في ذلك». يجيب أليوشا عن هذا السؤال بصوتٍ خافت، كما يفعل الأمير ميشكين في ردِّه على أيبوليت، لكن الجوابَ بطبيعةِ الحال لم يكن كما يجب. لم تُذكَر كلمةُ «الغفران»، ويرفض أليوشا رفضاً قاطعاً المشروعَ الذي اقتُرِح عليه. لقد قال دوستويفسكي كلمتَه الأخيرةَ في نهاية الأمر؛ فهو يعلن الآن صراحةً ما كان قد عبَّر عنه بتحفُّظ ومع ملاحظات في روايته «مذكِّرات من العالَم السفلي»: ما مِن تناغم، وما مِن أفكار، ولا توجد أيُّ محبة أو غفران، باختصار لا يوجد شيءٌ من كلِّ ما ابتكره الحكماءُ منذ قديم الزمان وحتى عصرنا هذا، يمكنه أن يبرِّر تلك السخافةَ والهُراء في مصيرِ إنسانٍ واحد معزول. وهو يتحدَّث عن الطفل، لكن هذا من أجل «تبسيط» السؤالِ المعقَّد بالأساسِ فقط، والأدق، لكي ينزع فيما بعدُ سلاحَ الخصوم الذين يتلاعبون بكلمةِ «ذنْب» بمهارةٍ أثناء الجدال. وبالفعل، هل ذلك الطفلُ الذي يدقُّ صدرَه بقبضتَي يديه الصغيرتين، أكثرُ فظاعةً من دوستويفسكي - راسكولنيكوف، الذي أحسَّ هو نفسُه فجأةً «كما

لـو أنـه انتـزع نفسَـه بمقـصٍّ بعيـداً عـن الجميـعِ وعـن كلِّ شيء»؟ تذكَّـروا مـا الـذي حـدَث مـع رازوميخـين، عندمـا خمَّـن فجـأةً وهـو خـارجٌ في إثـرِ راسـكولنيكوف، وبعـد ذلـك المشـهدِ المؤلم لوداعـه مـع أمِّـه ومـع شـقيقته؛ أي نـار جهنـم تتأجَّـج في رُوح صديقـه التَّعِـس. «سـأله راسـكولنيكوف مـع وجـهٍ شـوَّهه الألم: هـل تفهـم؟» بحيـث إنَّ الشَّـعر يقـفُ منتصبـاً عـلى الـرأس مـن هـولِ هـذا السـؤال. أجـلْ، توجـد عـلى الأرض فظاعـاتٌ لا يمكـن أن تخطـرَ ببـالِ أكثـر العلـماء معرفـةً وسَـعةَ اطـلاع. تشـحب في مواجهتهـا قصـصُ آل كارامـازوف وحكاياتهـم بخصـوصِ الجرائـم الوحشـية التـي ارتكبهـا الأتـراك، وعـن تعذيـب الأطفـال مـن قِبـل الأهـالي وغـير ذلـك. و«التفاحـة» هنـا، بـكل تأكيـد، لا تفـسِّر شـيئاً. يجـب إمَّـا الثـأر لتلـك الدمـوع، وإمَّـا ... ولكـن هـل يمكـن أن تكـون هنـاك أيُّ «إمَّـا» أخـرى هنـا بالنسـبة إلى أولئـك الذيـن ذرفـوا الدمـوع، كـما فعـل دوستويفسـكي؟ عـن أيِّ جـواب يمكـن الحديـث هنـا؟ هل الجـواب هـو «إلى الـوراء نحـو كانـط»؟ أمـا مـع الـرب فـما مِـن أحـدٍ يرغمـك عـلى البقـاء. لكـن دوستويفسـكي يحـثُّ الخطـوة إلى الأمـام، بغـضِّ النظـر عـن أيِّ شيء يمكـن أن يكـون بانتظـاره هنـاك.

عندمـا يقتنـع راسـكولنيكوف بعـد عمليـةِ القتـل بـأنَّ الطريـقَ للعـودة إلى الحيـاة السـابقة مسـدودٌ أمامـه إلى الأبـد، وعندمـا يـرى أنَّ أمَّـه الغاليـةَ تحديـداً التـي تحبُّـه أكثـرَ مـن أي شيء في الدنيـا، لم تَعُـد أمّـاً بالنسـبة إليـه (مَـن كان بإمكانـه أن يتصـوَّر، قبـل دوستويفسـكي، أنَّ مثـلَ هـذه الفظائـعِ واردة؟)، وأنَّ شـقيقته التـي وافقـت مـن أجـلِ مسـتقبله أن تجعـل مـن نفسِـها عبـدةً عنـد لوجـين، لم تَعُـد أختـاً بالنسـبة إليـه، فإنـه يفِـرُّ غريزيّـاً إلى سـونيا مرميلادوفـا. لمـاذا؟ مـاذا يمكنـه أن يعثـرَ عنـد تلـك الفتـاةِ التَّعسـة التـي

لم تتعلَّم شيئاً والتي لا تعرف شيئاً؟ ما الذي جعله يفضِّلها، وهي قليلة الكلام ولا تتجاوبُ معه، على صديقه الوفي والمخلِص، الذي يجيدُ الكلامَ عن الأشياء الرفيعة ببراعةٍ؟ حتى إنه لم يخطر بباله رازوميخين! لن يعرفَ هذا الصديق، بالرغم من استعداده الكامل لتقديم المساعدة، ماذا يجب عليه أن يفعلَ مع السرِّ الذي يعرفه عن راسكولنيكوف. سوف ينصح، على الأرجح، بأن يقوم بأعمالٍ خيرية، وبهذه الطريقةِ سوف يهدِّئ ضميرَه البائس! لكن راسكولنيكوف يستشيط حَنَقاً بمجرَّد أن يفكِّر في الخير. باتت واضحةً في مناقشاته تلك الدفقةُ من اليأس التي أوحى بها فيما بعدُ لإيفان كارامازوف سؤالُه الرهيب: «ما الغايةُ من إدراكِ لعنةِ الخير والشر تلك، حين يكون ثَمن ذلك باهظاً جداً؟» لعنة الخير والشر، لا بد أنكم تفهمون علامَ يتطاول دوستويفسكي؛ إذ إنَّ الجرأة البشرية لا يمكنها أن تذهبَ أبعدَ من ذلك. لأن جميعَ آمالنا، وليس تلك الموجودة في الكتب فقط، بل تلك الموجودة في أفئدة البشر أيضاً وفي الحياة؛ بقيت قائمةً وصامدة حتى الآن بفضل الإيمان بأنه ليس بالأمر الفظيع أن نضحي بأي شيء من أجلِ انتصارِ الخير على الشر. وإذ يظهر الإنسانُ فجأةً، من عالَم الغيب، ويبدأ بصبِّ اللعنات على ما كانت جميع شعوب الأرض ومنذ فجرِ التاريخ تخرُّ ساجدةً أمامه، بطريقةٍ مظفَّرة ومكشوفة وبلا وجلٍ تقريباً (تقريباً، لأنَّ أليوشا يغمغم مع ذلك بشيءٍ ما لإيفان احتجاجاً)! كان الناس قليلي الإيمان جداً، إلى درجةٍ أنهم غفروا لدوستويفسكي الفلسفةَ الفظيعةَ عند إيفان كارامازوف، وذلك كرمى للثرثرة التافهة التي قام بها أليوشا. لقد كان ن. ك. ميخائيلوفسكي الكاتبَ الوحيد في الأدب الروسي على العموم، الذي رأى أنَّ دوستويفسكي

إنسانٌ «قاسٍ وجِلْف»، وأنه من أنصارِ القوةِ الظلامية التي كان الجميع يعتبرونها عِدائيةً منذ الأزل. لكن حتى هو لم يدرك كاملَ الخطورةِ الكامنةِ في ذلك العدوِّ، بل خُيِّل إليه أنه يكفي اكتشافُ «سوء النية» عند دوستويفسكي وأن يسمِّيه باسمه الحقيقي، لكي يقضيَ عليه إلى الأبد. لم يكن قادراً على الاعتقادِ قبل عشرين سنةً أنَّه مُقدَّر للأفكار من العالَم السفلي أن تنبعثَ من جديدٍ عمَّا قريب، وأن تعلنَ عن حقوقها من دون خجل وخوف، وليس تحت ستارِ العبارات المألوفة والنمطية التصالحية، وإنما بشجاعةٍ وبمنتهى الحرية، بانتظارِ الانتصارِ الأكيد. إنَّ مقولة «العنة الخير والشر» التي بدَت كما لو أنها عبارةٌ عابرة على لسانِ بطلِ الرواية الغريبِ بالنسبة إلى المؤلف، اتَّخذَت الآن صيغةً علميةً «في الجانب الآخر من الخير والشر»، وهي في مثلِ هذه الصيغة ترمي قفَّاز التحدي لعقيدةِ جميع الحكماء الذين عاشوا حتى اليوم، والتي مضى عليها آلافُ السنين. وأمام أي شيء أحنى «الخير» رأسَه الأبيَّ الشامخ عند دوستويفسكي؟ كاراما‌زوف يتحدَّث عن مصير الطفل المقهور، لكن راسكولنيكوف يطالب بتحمُّل المسؤولية عنه، عنه وحدَه فقط. وعندما لم يَجِد الجوابَ المناسب لدى الخير، تنكَّر له. تذكروا حديثَه مع سونيا مرميلادوفا. لم يذهب راسكولنيكوف إليها لكي يعلنَ توبتَه. وهو لم يتمكَّن من التوبةِ في أعماقِ روحه لأنه لم يكن يَعُدُّ نفسَه مذنباً في أي شيء، وكان يعرف أنَّ دوستويفسكي ألصقَ به تهمةَ القتل من بابِ الأصولِ وحسب. ها هي ذي مناقشاته، الأخيرة هذه المرة وهو في السِّجن: «أواه، كم كان سيصير سعيداً لو أنه استطاع أن يتَّهم نفسَه (في جريمة القتل)! كان سيتحمَّل حينئذٍ كلَّ شيء، ويشمل ذلك الخجلَ والعار. لكنه حاكمَ

نفسَـه بقسـوة، ولم يجِـد ضمـيرُه القـاسي أيَّ ذنـبٍ لـه، ذنـبٍ فظيـع بالتحديـد في ماضيـه، باسـتثناء ربـما العثـرة (التشـديد مـن دوستويفسـكي) التـي يمكنهـا أن تحـدُث مـع الجميـع ... وهـو لم ينـدَم عـلى جريمتـه[1]. تلـك الكلـمات محصلةُ مُجمـل التاريـخ الفظيـع لراسـكولنيكوف؛ فقـد تبـيَّن أنـه كان محطَّـماً لأسـبابٍ مجهولـة. كانـت تكمُـن مهمَّتـه وتتلخَّـص جميـعُ مسـاعيه في أمـرٍ واحـد وهـو أن يـبرِّر تعاسـتَه وبؤسَـه، وأن يسـتعيدَ حياتَـه الخاصـة، وأنـه مـا مِـن شيء، لا سـعادة العـالم بأكملـه ولا انتصـار أيِّ فكـرة مهـما كانـت، يمكِنـه أن يمنـح معنـى لمأسـاته الشـخصية في عينيـه. لهـذا السـببِ، وبمجـرَّد أنـه لمـح الإنجيـلَ عنـد سـونيا، طلـبَ منهـا أن تقـرأ لـه عـن قيامـةِ لعـازر. لم تُثِـر اهتمامَـه الموعظـةُ عـلى الجبـل، ولا حكايـةُ العَشَّـار والفريسـيين، بعبـارةٍ أخـرى، لم يُثِـر اهتمامَـه شيءٌ مـما تُرجِـم مـن الإنجيـل إلى علـمِ الأخـلاق المعـاصر، حسـب صيغـةِ تولسـتوي «الخـير والمحبَّـة الأخويـة همـا الـرب». لقـد اسـتجوب واختـبر كلَّ ذلـك وتوصَّـل إلى قناعـة، كـما هـي حـال دوستويفسـكي، بـأنَّ مـا هـو معـزول ومقتطَـع مـن السـياق العـام للكتـاب المقـدَّس، لا يصبـح حقيقـةً وإنـما يصـير كذبـاً. عـلى الرغـم مـن أنـه لـن يجـروَ عـلى الاعتقـادِ بـأن الحقيقـة ليسـت عـن العلـم، بـل هنـاك حيـث كُتِبـت الكلـمات الغامضـة والملغـزة «ولكـنَّ الَّـذي يَصْـبِرُ إلى المُنْتَهـى فَهـذَا يَخْلُـصُ»[2]، ولكنـه مـع ذلـك يحـاول أن يشـيح بـصرَه نحـو تلـك الآمـالِ التـي تحيـا بهـا سـونيا. «يقـول في نفسـه: إذ إنهـا مثـلي أنـا، إنسـان أخـير أيضـاً؛ لأنهـا عرفـت بتجربتهـا الخاصـة مـاذا يعنـي أن تعيـشَ مثـلَ هـذه الحيـاة. لعـلي سـوف أعـرفُ عـن طريقِهـا

(1) «الجريمة والعقاب»، صفحة 539.

(2) «وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ الجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي. وَلكِنَّ الَّذي يَصْبِرُ إلى المُنْتَهَى فَهذَا يَخْلُصُ» (إنجيل مرقس 13: 13). (المترجم)

مـا لا يُحسِـن شرْحَـه لي العالِـم رازوميخـين، مـا لا يسـتطيع أن يخمِّنـه قلـبُ الأم المحبُّ إلى أكبرِ درجةٍ والمستعِدُّ لتقديـمِ التضحيـات كافـة». وهـو يحـاول أن يسـتعيدَ في ذاكرتـه ذلـك الفهْـمَ للإنجيـل، الـذي لا يرفـضُ صلـوات الشـخص الوحيـد الهالـك وآمالـه، تحـت سِـتار أنَّ تفكـيرَه في مصيبتـه يعنـي، كـما يُقـال في لغـةِ العلـم الحديـث، أن يكـون المـرءُ «أنانيّـاً». إنـه يـدرك أن حزْنَـه هنـا سـوف يكـون مسـموعاً، وأنهـم لـن يرسـلوه بعـدَ الآن إلى الأفـكارِ لكـي يتعَـب ويتألَّـم منهـا، وأنـه سـيُمنَح فرصـةً لكـي يقـول الحقيقـة الداخليـة المُـرَّة بأكملهـا عـن نفسـه، تلـك الحقيقـة التـي وُلِـد معهـا. بيـدَ أنـه لا يسـتطيع أن يتوقَّـع كلَّ ذلـك إلا مـن ذلـك الإنجيـلِ الـذي يوجـد فيـه إلى جانـب التعاليـم الأخـرى حكايـةٌ عـن قيامـةِ لعـازر، حيـث إنهـا، عِـلاوة عـلى ذلـك، تـدُلُّ عـلى القـوةِ العظيمـة لصانـع المعجـزات، وتعطـي معنـى لبقيـةِ الكلـماتِ البعيـدةِ المنـال والغامضـة بالنسـبة إلى العقـل البـشري، الإقليـدي، الفقـير. وكـما أنَّ راسـكولنيكوف راح يبحـثُ عـن آمالـه مـن خـلالِ بعْـثِ لازار، كان دوستويفسـكي يـرى في الإنجيـل ضمانـةً لحيـاة جديـدة، وليـس تبشـيراً بهـذه الأخـلاق أو تلـك: «كتـب يقـول: لا يمكِـن لأي إنسـانٍ أو أمَّـة أن تحيـا مـن دون فكـرة سـامية، وهنـاك فكـرةٌ سـامية واحـدة في الأرض (التشـديد مـن قِبـل دوستويفسـكي)، وتحديـداً فكـرة خلـود الـرُّوح البشريـة؛ لأن جميـعَ الأفـكار «السـامية» الأخـرى التـي يمكـن للإنسـان أن يحيـا بفضلِهـا، إنـما هـي مشـتقَّة مـن تلـك الأولى»[1].

(1) الأعمال الكاملة، المجلد العاشر، صفحة 424.

# 16

كلُّ هـذا، بطبيعـة الحـال، غيــرُ «علمـي»، بـل هـو أكثر مـن ذلك أيضـاً؛ كلُّ هـذا يقـوم في تناقـضٍ مـع المقدِّمـة الأساسـية للعلـم الحديـث. ودوستويفسـكي يعلـمُ أكثـرَ مـن أي شـخص آخـر، كـم هـي قليلـةٌ الدعامـاتُ التـي يمكـن أن تمنحَهـا المكتسَبات والمنجـزات الحديثـة جـدّاً للعقـل البـشري. ولهـذا السـبب نـراه لا يحـاول عـلى الإطـلاقِ أن يتخـذَ مـن العلـم حليفـاً لـه، وفي الوقـت نفسِـه يخشـى الدخـولَ معـه في نـزاع مسلَّح. وهـو يـدرك جيـداً أنـه لم تَعُـد ثمَّـة ضمانـاتٌ مـن قِبـل السماوات. لكـنَّ انتصـارَ العلـم وغيـابَ الشـكِّ والوضـوح في صوابـه؛ كلُّ هـذا لا يقـود دوستويفسـكي إلى الخنـوع والاستسـلام أبـداً؛ إذ إنـه سـبق أن قـال لنـا منـذ زمـن طويـل إنَّ الجـدار بالنسـبة إليـه لا يمثِّـل عائقـاً غـيرَ قابـل للنفـاذ، وأنـه مجـرَّد اعـتراضٍ وحُجَّـة. لديـه إجابـةٌ واحـدة عـلى التصـوُّرات العلميـة كافـة (دميـتري كارامـازوف): «كيـف يمكننـي أن أكـون تحـت الـترابِ مـن دون الـرب؟ يسـتحيل عـلى السـجينِ أن يحيـا مـن دون رب»[1]. يثـير راسـكولنيكوف كراهيـةً شـديدة لا تهـادِن عنـد الرِّفـاق المحكـومِ عليهـم بالأشـغال الشـاقة، مـن جـرَّاء علميتـه وبسـبب انتصـاره للوضـوح

(1) «الأخوة كارامازوف»، صفحة 700.

الأكيد وللبقين، وبسبب عدم إيمانه الذي أحسُّوا بوجوده عنده على الفور، طبقاً لكلمات دوستويفسكي. «راحوا يصرخون فيه: أنت ملحِد! أنت لا تؤمن بالرب! يجب علينا أن نقتلك!»[1]. من البديهي أنَّ هذا كلَّه غيرُ منطقي. فأن يعتبر السُّجناء عدمَ الإيمان أفظعَ جريمةٍ من الجرائم، لا يعني بتاتاً أنه يتعيَّن علينا أن نرفض الاستنتاجات العلمية الموثوق بها. حتى لو مات جميعُ السجناء والبشر على الأرض، لا ينبغي أن نعيدَ بسببهم النظرَ من جديد في تلك البديهياتِ المسلَّمات التي اكتُسِبت بجهودِ عشرات الأجيال من الناس، كما أنه لا يجوز التخلي عن جميع الأحكام المسبقة التي عُلِّلت سلفاً، في نهاية المطاف، قبل مائة سنة فقط، وذلك بفضل العبقرية الفذَّة والعظيمة للفيلسوف من كونيغسبرغ (كالينينغراد الروسية حاليّاً – المترجِم). هو ذا المنطق السليم للناس الذين يعيشون فوق الأرض، الذي يضعونه بمواجهةِ الطموحات غيرِ المحدَّدة لسكان العالم السفلي. يستحيل مصالحةُ الجهات المتجادِلة بعضها مع بعض؛ فهي تتحارب حتى الإنهاك الكامل للقوى – à la guerre, comme à la guerre[2] – من دون تمييزٍ بين أدوات الصراع. يشوِّهون سُمعةَ السجناء ويشتمونهم، يخلطونهم مع القذارةِ منذ أن نشأ هذا الكون. يحاول دوستويفسكي استخدامَ الأساليب نفسها بحق الناس الأحرار أيضاً. لماذا لا يمكن، على سبيل المثال، تقديمُ العالِم في صورة كاريكاتورية ومبتذَلة؟ ما الذي يمنع الهزء بكلود برنارد؟ أو لماذا لا يجوز فضحُ الصحفي في صحيفة ليبرالية وتلويثُه، ومعه جميعُ الناس الذين يفكِّرون بطريقة ليبرالية؟

(1) «الجريمة والعقاب»، صفحة 541.

(2) في الحرب كما في الحرب، أو لا رحمة ولا هوادة في الحرب. (فرنسي)

لم يتوقَّف دوستويفسكي أمام ذلك. لم يترك شيئاً إلَّا اختلقه بخصوص راكيتين![1] كان أحدَ أكثر المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة يأساً وإحباطاً، وكان يبدو فارساً نبيلاً مُقارَنةً بزعيم الليبراليين القادم الذي لا يتأفَّف من القيام بدورِ قوَّاد لقاء 25 روبلاً. كلُّ ما سُرِد عن راكيتين افتراءٌ باطلٌ تماماً بحق الليبراليين، و تشويهُ سُمعة متعمَّد. يمكنكم أن تقولوا عنهم ما تشاؤون، لكن من المؤكَّد أنَّ أفضل الناس وأكثرهم شرفاً وأمانةً كانوا موجودين في صفِّهم. إلَّا أنَّ الكراهية لا تميِّز بين الأدوات. ولأنهم لا يؤمنون بالرب يجب قتلُهم، هذا هو الدافع الداخلي عند دوستويفسكي، هذا ما يحرِّكه عندما يضمِر مختلف الخزعبلات والأخطال بحقِّ حلفائه السابقين من الليبراليين. أما «الكلمة التي ألقاها بمناسبةِ ذكرى ميلاد بوشكين»، التي دعا فيها، على ما يبدو، جميعَ شرائح المجتمع الروسي وأحزابه للوحدة، فلم تكن في حقيقة الأمر سوى إعلانٍ عن صراع أبدي حتى الموت. «هيا، استكِن، أيها الإنسانُ الأبي الفخور، وهيا اعمل، أيها الإنسانُ العقيم العديم الجدوى». ألم يكن دوستويفسكي يعرف، يا تُرى، أنَّ هذه الكلمات سوف تثير عاصفةً كاملة من السخط والاستياء بالتحديد عند أولئك الذين كان يُفترض بهم أن يَهمُدوا ويستكينوا؟ وماذا تعني؟ إنها تدعو الناس فوق الأرضيِّين للنزول إلى العالم السفلي، إلى السِّجن والأعمال الشاقة، إلى الظلام السرمدي. هل كان دوستويفسكي ليجرؤ ولو لحظة على أن يراهن بأنهم سوف يسيرون خلفه؟! كان يعرف، كان يعرف بشكلٍ

(1) ميخائيل أوسيبوفيتش راكيتين: شخصية ثانوية في رواية الأخوة كارامازوف. الشاب في وقت أحداث الرواية هو تلميذٌ في معهد اللاهوت، يتلقى تربيةً روحية وفقاً لمبدأ الطبقة بصفته ابنَ كاهن، لكنه لا يريد أن يصبح كاهناً. (المترجم)

رائع أنَّ أولئك الذين لن يرغبوا في أن ينافقوا من بين المستمعين إليه، لن يقبلوا دعوتَه. «نحن نريد أن نكون سعداءَ هنا والآن»؛ هذا ما يفكِّر فيه كلُّ شخص فوق أرضي. لكن ما علاقته بأن دوستويفسكي لم يخرج من سِجنه حتى آنذاك! يُحكى أنَّ جميع الحاضرين في الاحتفال بذكرى بوشكين شعروا بالتأثُّر من الكلمة التي ألقاها دوستويفسكي، حتى إنَّ كثيرين منهم انتحبوا. ولكن، ما المدهشُ هنا؟ فقد تلقَّى الحضورُ كلماتِ الخطيب على أنها أدب، مجرَّد أدب. لماذا لا يجوز، إذن، للمرء أن يرِقَّ ويحِنَّ وأن يبكيَ؟ إنها قصةٌ عادية بامتياز.

إلَّا أنه كان ثمَّة أشخاصٌ نظروا إلى الأمر من زاويةٍ أخرى وراحوا يعترضون. ردُّوا على دوستويفسكي قائلين إنهم يتلقَّون كلامَه الرفيع عن المحبة بسرور كبير، لكن هذا لا يمنعُ الناس على الإطلاق، ويجبُ ألا يمنعَهم، من «الاهتمام ببناء السعادة الأرضية» أو، بعبارةٍ أخرى، أن يكون لهم «مُثُل اجتماعية عليا». لو أنَّ دوستويفسكي كان يفترض مثل هذا التقييد فقط، لكان بإمكانه أن يتصالحَ مع الليبراليين إلى الأبد. لكنه لم يكتفِ بأنه لم يقدِّم أيَّ تنازل، بل شنَّ على البروفسور غرادوفسكي، الذي راح يدافع عن قضية الليبراليين، هجوماً عنيفاً بلا رادع، كما لو أن غرادوفسكي انتزع منه آخِرَ ما يملِكه. والأهم هو أنَّ غرادوفسكي لم يرفض قط التعاليمَ الرفيعة بشأن محبة الناس - التي كرَّس لها دوستويفسكي في دفتر يومياته وفي رواياته و«كلمته عن بوشكين» كلَّ ذلك العدد الكبير من الصفحات الحماسية - بل على العكس، كان يبني عليها، وعليها فقط، خططَه كافةً بخصوص تنظيم المجتمع. لكن هذا بالتحديد كان أكثرَ ما يخشاه دوستويفسكي. لدى رينان في مقدِّمة كتابه

«تاريخ إسرائيل» تقييمٌ مثيرٌ للاهتمام عن أهمية الأنبياء اليهود:

«Ils sont fanatiques de justice sociale et proclament hautement que si le monde n'est pas juste ou susceptible de le devenir, il vaut mieux qu'il soit détruit: manière de voir très fausse, mais très féconde; car comme toutes les doctrines désespérées, elle produit l'héroisme et un grand éveil des forces humaines»[1].

بالطريقة نفسها تماماً تعامل البروفسور غرادوفسكي مع أفكار دوستويفسكي. لقد وجد أنها زائفةٌ «في جوهرها»، لكنه اعترف بأنها مثمرة؛ أي إنها قادرةٌ على تحفيز الناس وتقديم أولئك الأبطال الذين لا يمكن لحركة البشرية أن تسير نحو الأمام من دونهم. لا يمكن تمنّي ما هو أكثر من ذلك، في حقيقة الأمر. كان يجب أن يكون ذلك كافياً من «المعلّم»، كحدٍّ أدنى. إلّا أنَّ دوستويفسكي رأى في مثل ذلك الموقفِ منه إدانةً له. لم يكن بحاجة إلى «الخصوبة»؛ إذ إنه كان يفتّش عن أمرٍ واحد وحيد فقط؛ أن يقتنع بـ «صدقية» فكرته الخاصة. وفي حالِ تطلّب الأمر، كان على استعدادٍ لأن يدمِّر العالم بأكمله وأن يحكم على البشريةِ بالمعاناة الأبدية؛ فقط لكي يحقِّق النصر المظفَّر لفكرته، وبشرطِ أن يزيل عنها الشكوك بخصوص عدم توافقها مع الواقع. وأسوأ ما في الأمر أنه هو نفسه كان في أعماقِ روحه، على الأرجح، يخاف من أنَّ الصواب ليس في جانبه، وأنَّه بالرغم من أنَّ الخصوم سطحيون أكثرُ منه، فإنهم في الوقت نفسه أقربُ إلى الحقيقة.

(1) «إنهم متعصّبون للعدالة الاجتماعية ويعلنون بصوتٍ عالٍ أنه إذا كان العالم غيرَ عادل أو من المحتمل أن يصبح كذلك، فمن الأفضل تدميره. إنها وجهة نظر خاطئة للغاية، لكنها مثمرة جداً؛ لأنها، مثل كل التعاليم اليائسة، تنتج البطولةَ وتشكّل يقظةً عظيمة للطاقات البشرية» (فرنسي).

وهـذا بالتحديـدِ مـا كان يثـير فيـه حنقـاً شـديداً، وهـذا مـا كان يحرمـه مـن تمالـك نفسـه ومـن رِباطـة الجـأش، وهـذا مـا جعلـه في جدالـه مـع البروفسـور غرادوفسـكي يتجـاوز جميـعَ حـدود اللباقـة. مـاذا لـو أنَّ كلَّ شيء كان سـيجري على هـذا النحـو بالتحديـد، كـما يقـول العلـماء، وبحيـث إنَّ نشـاطه الشـخصي في نهايـة المطـاف، وضـد إرادتـه، سـيخدم مصالـح الليبراليـين، وأنـه سـيكون خصبـاً، في حـين أنَّ الفكـرة التـي تتحكَّـم فيـه وتقـوده تكـون كاذبـة، وأنَّ الخـير الشـيطاني سـوف يسـود بالفعـل عاجـلاً أو آجـلاً عـلى الأرض المسـكونة بأنـاسٍ راضـين وسـعداء، مشرقـين في سـعادتهم ومتجدِّديـن؟

بديهـي أنَّـه كان مـن الأفضـل لشـخصٍ لـه مثـل هـذه الآراء والأمزجـة ألَّا ينخـرط في كتابـة المقـالات الاجتماعيـة والسياسـية، حيـث سـيصطدم بـكل تأكيـد بالسـؤال العمـلي: مـا العمـل؟ يمكـن التأكيـد في الروايـات وفي المناقشـات الفلسـفية عـلى أنَّ الشـعب الـروسي يجـبُّ أن يعـاني وأن يتـألم. ولكن كيـف يمكـن اسـتخدام هـذه المقولـة عـلى أرض الواقـع، عمليّـاً؟ هـل ينبغـي التقـدُّم باقـتراح تأسيس لجنـةٍ تقـوم بحمايـة المواطنـين الـروس مـن السـعادة؟! مـن الواضـح أنَّ هـذا غـير صالـح وغـير مفيـد. بـل أكثـر مـن ذلـك، لا يمكنـك حتـى التعبـير باسـتمرار عـن فرحـك وسـعادتك بخصـوص المناسـبات القادمـة التـي تحمـل للبشريـة الآلام والمعانـاة. لا يجـوز الابتهـاج عندمـا يصـاب النـاس بالأمـراض ويتعرضـون للجـوع، كـما لا يجـوز الفـرح بالفقـر والحرمـان والسُّـكْر؛ لأن هـذا سـوف يُرمـى بالحجـارة.

ينقـل ن. ك. ميخائيلوفسـكي أنَّ الفكـرة التـي طُرِحـت في مقـالات العـدد الـذي صـدر في ينايـر عـام 1873 مـن «أوراق وطنيـة» حـول أنَّ «الشـعب مهـدَّد بعـد عمليـة الإصـلاح، وجزئيّـاً بسـببها، بخطـر أن يصبـح منهوبـاً عقليّاً

وأخلاقيّاً واقتصاديّاً»؛ رأى دوستويفسكي فيها «فتحاً جديداً». من الوارد جدّاً أنّ هذا ما فهمه دوستويفسكي بالتحديد، أو على الأرجح هذا ما فسَّر مغزى المقالات في «أوراق وطنية»؛ إذ إنَّ عملية الإصلاح التي عقد الحالمون عليها آمالاً كثيرة، لن تجلب «السعادة» المقيتة، ولكنها تحمل تهديداً بوقوع كارثة رهيبة. يبدو أنَّ المسألة سوف تُحلُّ من دون الحاجة إلى الجنتلمان صاحب السَّحنة الرجعية الذي يستشهد به فيلسوف الديالكتيك من العالم السفلي. ما زالت المسافةُ حتى القصر الزجاجي بعيدةً، ما دامت المبادرات السامية والنبيلة تجلِب التعاسة فقط من دون أي ثمار لذيذة وغنية. لكن دوستويفسكي، والحق يُقال، باعتباره كاتبَ مقالات اجتماعية، لا يقول مثل هذه الأشياء بصراحةٍ كاملة؛ لأن «قسوته» لم تغامر حتى الآن بأن تكون صريحةً إلى هذه الدرجة. وحتى أكثر من ذلك، هو نفسه لم يفوِّت الفرصة قط لأن يجلد - وهو يجلد بقوة وبقسوة! - مختلف أنواع القسوة. على سبيل المثال، سبق أن اعترض على التقدُّم الأوروبي على «أساس» أنه «سوف تُسفَك أنهار من الدِّماء»، قبل أن يقود الصراعُ الطبقي جيراننا الغربيين إلى شيءٍ ما معقول وصائب. كانت تلك واحدة من حججه العزيزة على قلبه التي لم يكلَّ من تكرارها عشرات المرات. بيدَ أنه لا يمكننا هنا سوى الاقتناع بشكل واضح ومميز بأنَّ جميع argumenta[1] هي لـ argumenta ad homines[2].

وهل يمكن لدوستويفسكي أن يخاف من الفظائع وسفك الدماء؟ لكنه كان يعرف تماماً كيف يمكنه أن يمارس تأثيره في الناس، وعندما كان يجب فعل ذلك، كان يرسم مشاهدَ رهيبة. وهو في الوقت نفسه تقريباً

---

(1) الحجج (لاتيني)

(2) «حُجة على الإنسان» (لاتيني) (مفهوم في المنطق).

راح يعاتب الأوروبيين على نضالهم غير الدموي نسبياً، وناشد الروسَ لكي يشنُّوا الحرب ضد الأتراك، على الرغم من أنَّ حرباً متواضعة جدّاً سوف يُسفَك خلالها، بالطبع، من الدماء أكثر مما سُفك خلال عشر ثورات. وثَمَّة مثالٌ آخر مثير للذهول بدرجةٍ أكبر حول استخدام التعليل؛ يروي دوستويفسكي أنَّ أحد «معارفه» أعرب عن رأيه بضرورة الاحتفاظ بالعصي لأجل الأطفال؛ ذلك لأن العقوبات الجسدية تحصِّن الطفل وتدرِّبه على خوض النضال وعلى المقاومة. لا علاقة لنا، بالطبع، برأي «أحد معارفه» (ولدى دوستويفسكي في «يوميات كاتب» كمٌّ هائل من «المعارف» الذين يُعرِبون عن آراءٍ فريدة ومثيرة)، لكن المثير للفضول هو أن يثير مثلُ هذا الرأي اهتمامَ دوستويفسكي نفسه، وأنه وعد بالتفكير فيه في أوقات فراغه. مع العلم أنَّ دوستويفسكي نفسَه - الذي ينعم بالآلام على جميع الناس ومن ضِمنهم الأطفال - نراه يغرَق فجأةً في العاطفية والحساسية المفرِطة، عندما يدور الحديث حول مصير زوجة بوشكين تاتانيا. لو أنَّ تاتيانا قرَّرت أن تهجره، وأن تجعله تعِساً، لكانت جميع المُثُل العليا ستصبح باهتة وستنطفئ إلى الأبد! ولكن، حتى بين أنصار «القسوة» سوف يوجَد شخص واحد، كما أعتقد، يرى أن جرعةً لا بأس بها من «الألم» ستكون مفيدة نوعاً ما لهذا السيدِ الذي شمَخ بأنفه عالياً جدّاً، ورفع كتفيه بتعجرُف. بكافة الأحوال، لن تكون أقلَّ فائدة من فائدتها للأطفال الروس الذين لا يمكنهم كما هو معروفٌ تحاشي «المعاناة والألم» حتى وهم خارج المدرسة. يمكن العثور على عدد كبير جدّاً من هذه الأمثلةِ عند دوستويفسكي؛ فهو يطالبنا في إحدى الصفحات بالتفاني في سبيل التخلُّص من معاناة القريبين وآلامهم، ثم يمجِّد هذه المعاناة والآلام في صفحةٍ أخرى تكاد تكون التالية.

ينتج من ذلك أنّه ما مِن شيء يقوله الإنسان من العالَم السفلي، عندما يقوم بدور المعلّم أمام الناس. لكي يكون قادراً على القيام بهذا الدور، لا بدَّ له أن يتستر على حقيقته الخاصة وأن يخدع الناس، كما كان يفعل الكاردينال ذلك. وفي حال لم يكن ممكناً أن يصمت أكثر، إذا ما حان الوقت، في نهاية المطاف، لكي يعلن على الملأ سرَّ المحقِّق العظيم، كان من الضروري للناس أن يجدوا لأنفسهم كهنةً، لا بين المعلّمين، كما كان يحدُث في الماضي القديم، وإنما بين التلاميذ، الذين يقومون على الدوام بسرور و bona fide[1] أيضاً، بمختلف أنواع الواجبات الرسمية. أما المعلّمون فقد حُرِموا من آخرِ عزاء لهم؛ إذ لم يَعُد معترَفاً بهم على أنهم أولياءُ نعمة ومعالجون للشعب. لقد قيل لهم وسوف يقال لهم: لقد شُفي الطبيب من تلقاء نفسه. بعبارة أخرى: اعثُر على مهمّتك، على عملٍ لك لا يتعلق بعلاج أمراضنا، بل بصحتك الخاصة. يتعيَّن عليك أن تهتمَّ بنفسك - وبنفسك فقط.

(1) بنزاهة (لاتيني).

# 17

تصبح المهمةُ أبسطَ للوهلة الأولى. ولكن، خذوا بعين الاعتبار للحظة واحدة وجهةَ نظر دوستويفسكي، والإنسان من العالَم السفلي، والمحقِّق العظيم، وسوف تفهمون أيُّ عقوبة تتخفى خلف هذا التبسيط. أن تقوم بعلاج نفسك تحت الأرض، وأن تهتم بنفسك وأن تفكِّر في نفسك، عندما يصبح أيُّ شفاء مستحيلاً، على الأرجح، وحين لا يكون بالإمكان ابتكارُ أي شيء آخر، عندما يصبح كلُّ شيء منتهياً! لكن المذهل هو أنه عندما يَحيق بالإنسان خطرٌ داهم وقاتل، وعندما تنكشف أمامه هاويةٌ ويتلاشى آخرُ أمل، تُرفَع عنه فجأة جميع الالتزامات الثقيلة والصعبة تجاه الناس وتجاه البشرية، تجاه المستقبل والحضارة والتقدُّم وغير ذلك، ويُطرح عليه بدلاً من كلِّ ذلك سؤالٌ مبسَّط بشأن شخصيته الوحيدة والتافهة وغير المهمة. جميع أبطال المأساة «أنانيون». كلُّ واحد منهم يحمِّل الكونَ بأكمله مسؤولية ما يعانيه من شقاء وبؤس. ها هو ذا كارامازوف (إيفان بالطبع) يعلن بصراحة: «أنا غير راضٍ عن هذا العالَم». ماذا تعني هذه الكلمات؟ لماذا يتقدَّم كارامازوف - بدلاً من أن يختبئ، كما يفعل الجميع، من المسائل الرهيبة التي بقيت بلا حلول - إلى الأمام

مبــاشرة ويهجُــم عليهــا كــما يهجُــم الــدبُّ عــلى حربــة ذات رأســين؟ وهــو لا يفعــل ذلــك بســبب غباوتــه الدببيــة، بالمناســبة! أواه، كــم إنــه عــلى درايــةٍ جيــدة بــما تمثِّــل تلــك المســائلُ غــير المحلولــة! وكــم مــن الصعــب عــلى الإنســان أن يخبِــط بجناحيــه المقصوصــين عــلى جــدران الخلــود! ولكنــه بالرغــم مــن ذلك لا يستســلم. مــا مِــن Ding an sich، ولا إرادة، ولا deus sive natura[1] يمكنهــا أن تغريــه وتدفعــه إلى المصالحــة. هــذا الإنســان الــذي أغفلــه الخــير يتعامــل مــع جميــع المنظومــات الفلســفية بــازدراءٍ مكشــوف وباشــمئزاز صريــح: «يقــول كارامــازوف: يَعُــد بعــضُ الأغــرار من الوعّــاظ أنَّ التعطُّــش للحياة دنــاءة ...»[2] مــا مِــن بطــل واحــد عنــد دوستويفســكي مــن بــين أبطالــه الذيــن يســتجوبون المصــير، يُنهــي حياتَــه انتحــاراً، باســتثناء كيريلــوف الــذي قتــل نفســه ليــس لأنــه يريــد أن يتخلَّــص مــن حياتــه، وإنــما لكــي يختــبرَ تصميمــه وإرادتــه. جميعهــم هنــا يشــاركون العجــوزَ كارامــازوف وجهــةَ نظــره؛ فهــم لا يبحثــون عــن النســيان بغــضِّ النظــر عــن الصعوبــات التــي تواجههــم في حياتهــم. ويمكــن لتلــك الأحــلامِ الفتيــة عنــد إيفــان كارامــازوف التــي خطــرت ببالــه أثنــاءَ حديثــه مــع الشــيطان، أن تقــومَ بــدور الرســم التوضيحــي المثــير للاهتــمام لـ «وجهــة النظــر» هــذه. كان قــد حُكِــم عــلى أحــد الآثمــين بــأن يجتــاز *كوادريليــون* مــن الكيلومــترات، قبــل أن تُفتــح أمامــه أبــوابُ الجنــة. لكــنَّ الآثــم رفــض بعنــاد. راح يقــول: «لــن أذهــب». بــل اســتلقى ولم يتحــرَّك مــن مكانــه. وهكــذا بقــي مســتلقياً ألــفَ عــام. ثــم قــام ومشــى. ســار بليــون ســنة. «وبمجــرَّد أن فتحــوا أمامــه أبــوابَ الجنــة ... وقبــل أن تمــضي

---

(1) الرب أو الطبيعة.

(2) «الأخوة كارامازوف»، صفحة 272.

ثانيتـان كاملتـان هتـف قائـلاً إنَّ بإمكانـه أن يجتـازَ خـلال هاتـين الثانيتـين *كوادريليـون* بـل *كوادريليـون* وحتـى مضاعفتـه إلى *كوادريليـون مـرة*». كان دوستويفسكي يناقش مثلَ هـذه *الكوادريليونـات المذهلـة والمسبِّبة للـدُّوار* مـن الكيلومـترات التـي اجتِيـزت، وتلـك البلايـين مـن السـنوات مـن الهـراء الـذي طُـرِح مـن أجـل ثانيتـين مـن السـعادة والنعيـم في الجنـة التـي لا يوجـد في اللغـة البشريـة كلـماتٌ لوصفهـا، تعبِّـر عـن جوهـر ذلـك التعطُّـش للحيـاة الـذي يدور الحديـثُ عنـه هنـا. إيفـان كارامـازوف أنـانيٌّ حتـى النُّخـاع مثـل والـده. وهـو لا يرفـض وحسـب، بـل إنـه حتـى لا يحـاول أبـداً أن يذيـبَ شـخصيته في الفكـرةِ العليـا السـامية، وأن يتَّحـد مـع «الأول المطلَـق»، مـع الطبيعـة وإلى غـير ذلـك، كما ينصـح الفلاسـفة. ومـع أنـه نـال تعليـماً عصريّـاً جـدّاً، فإنـه لا يتهيَّـب أن يعلـن أمـام العلـوم الفلسـفية بأكملهـا عـن مطالبـه. لا يخـافُ حتـى أنهـم قـد يخلِطـون بينـه وبـين والـده (ومـن ثـم يكـون مرفوضـاً أيضـاً). وهـو نفسـه يقـول بمنتهـى الوضـوح: «كان بابـا، فيـودور بافلوفيتـش، خنزيـراً، لكنـه كان يفكِّـر بشـكل صحيـح»[1]، أمـا فيـودور بافلوفيتـش نفسـه، ذلـك الخنزيـر، الـذي كان يـرى ويعـرف بشـكلٍ رائـع مـا يفكِّـر النـاس فيـه، فـراح «يفكِّـر» في أنَّ هـذه الحيـاة كانـت قصـيرةً مـن وجهـة نظـره، وذلـك عـلى الرغـم مـن أنـه عـاش مـا يكفـي. وهـو يتمنَّـى لنفسـه الخلـود أيضـاً. هـا هـو ذا حديثـه مـع أبنائـه:

- هيا، قلْ يا إيفان، هل يوجد ربٌّ أم لا ...؟
- لا، لا يوجد ربٌّ.
- أليوشا، هل يوجد ربٌّ؟
- نعم، يوجد ربٌّ.

(1) «الأخوة كارامازوف»، صفحة 702.

- إيفـان، وهـل ثمَّـة خلـودٌ أيّـاً كانـت درجتـه، حتـى ولـو كان صغـيراً جـدّاً؟

- لا وجود للخلود أيضاً.

- على الإطلاق؟

- على الإطلاق.

- هـل تقصـد أن الخلـود صفـرٌ كامـل أم أنَّ ثَمَّـة شـيئاً مـا مـن هـذا القبيـل؟ لعلـه يوجـد الـشيء القليـل منـه؟ إذ لا يمكـن ألا يوجـد شيءٌ نهائيّـاً.

- هل يوجد خلود، يا أليوشا؟

- نعم، يوجد.

- هل يوجد ربٌّ ويوجد خلود؟

- نعم، يوجد ربٌّ وخلود.

- امم! الأرجح أنَّ إيفان على حق.

كـما هو واضـح، لم تسـقط التفاحة بعيـداً عن الشـجرة؛ إذ إنَّ دوستويفسـكي يمنـح فيـودور كارامـازوف القـدرةَ عـلى البحـث عـن «الفكـرة العليـا»؛ لأن الحـوار، كـما تـرون، مميَّـز إلى أقـصى درجـة. «الأرجـح أنَّ إيفـان عـلى حـق»؛ هـذه مجـرَّد خاتمـة موضوعيـة فقـط لطالمـا اسـتحوذَت عـلى دوستويفسـكي، ولطالما كان يخشـاها. إلَّا أنَّ المهـم هنـا أيضـاً هـو أنَّ دوستويفسـكي رأى أنـه مـن الـضروري تمييـزُ إيفـان كارامـازوف. يمكـن أن يخيَّـل إلى القـارئ أنـه حتى لـو كان ثمـة خلـود، فإنـه ليـس لأجـل هـذا نجـس مثـل فيـودور كارامـازوف في كافـة الأحـوال، وأنـه سـوف يكـون هنـاك مثـلُ ذلـك القانـون الـذي سـوف يضـع حـدّاً لهـذا الوجـود المثـير للقـرف. لكـن دوستويفسـكي لا يعـير آراءَ القـارئ اهتمامـاً كبـيراً. وهـو يُبقـي راكيتـين عـلى مسـافة فرسـخ كامـل مـن

الفكـرة العليـا، في حـين أنـه يسـمح للعجـوز كارامـازوف بالاقـتراب منهـا، يسـتقبله في المجتمـع الموقَّـر للمحكـوم عليهـم بالأعـمال الشـاقة، ولـو جزئيّـاً. طبقـاً لذلـك، كلُّ مـا هـو بشِـع ومقـرف، وكلُّ مـا هـو صعـبٌ ومـؤلم، باختصار كلُّ مـا هـو إشـكاليٌّ في الحيـاة يجـد لنفسـه لسـانَ حـال متحمسـاً وعبقريّـاً إلى أقـصى درجـة عنـد دوستويفسـكي. إنـه يـدوس عـلى الموهبـة والجـمال، عـلى الشـباب والـبراءة أمـام أعيننـا، كـما لـو كان عـن قصـد تمامـاً. هنالـك في رواياته مـن الرعـب والفظاعـة أكثـرُ ممـا هـو في الواقـع. كـم هـي موصوفـة بمهـارةٍ عاليـة وبدقـةٍ متناهيـة تلـك الفظائـع! لا يوجـد لدينـا أيُّ كاتـب آخـرَ عـلى تلـك الدرجـة مـن المهـارة في سردِ المـرارة الناجمـة عـن الإهانـة والإذلال، كـما يفعـل دوستويفسـكي. مـا مِـن شيء في تاريـخ غروشـينكا فيليبوفنـا وناستاسـيا فيليبوفنـا يثـير الذهـولَ عنـد القـارئ بالدرجـة نفسِـها التـي يثيرهـا مـا تحمَّلتـه هاتـان المرأتـان مـن عـارٍ «... سـوف يـأتي ذلـك الشـخص، وسـوف يُلحِـق بنـا العـار ويهيننـا، وسـوف يوغـر صدورَنـا ويفسـدنا ثـم يغـادر؛ بحيـث إننـي اشـتهيت ألـف مـرة لـو أننـي أغـرَق في البحـيرة ...»[1].

وكـم عانـت غروشـينكا وهـي تتذكَّـر الإهانـة! «تقـول: هـا هـو ذا قـد جـاء الشـخصُ الـذي يـسيء إليَّ، بحيـث إننـي أجلـس وأنتظـر الأخبـار. وهـل تعـرف مـا يمثِّلـه لي هـذا المسيء؟ أتـى بي كوزمـا إلى هنا قبـل خمـس سـنوات، وقـد حـدَث أننـي كنـت أجلـس متحاشـيةً النـاس، لكيـلا يـروني ولا يسـمعوني، كنـت أجلـس أنـا النحيلـةُ والحمقـاء، وأنتحِـب، دون أن أنـام الليـالي، وأفكِّـر: لا بـدَّ أنـه يضحـك الآن عـليَّ مـع امـرأةٍ أخـرى، في حـين أننـي أحلُـم بـأن أراه وحسـب، أن ألتقـيَ بـه ذات يـوم؛ كنـتُ سـأدفع إليـه،

(1) «الأبله»، صفحة 184.

سـوف أدفـع إليـه بالتأكيـد! أجلـس ليـلاً، في الظلمـة، وأنتحِـب فـوق الوسـادة وأعيـد كلَّ ذلـك في عقـلي، أقطِّـع قلبـي عـن قصـد، أرويـه بالحقـد. «سـوف أدفـع إليـه، سـوف أردُّ إليـه دينَـه!» وقـد حـدث أننـي كنـت أصرُخ بهـذا القـول في العتَمَـة. وعندمـا أتذكَّـر أننـي لا أسـتطيع أن أفعـلَ لـه شـيئاً، وأنـه يسـخر منـي الآن، وربـما نسـيني تمامـاً ولم يَعُـد يذكـرني البتـة، أرمـي نفسـي عـن السريـر إلى الأرضيـة، وأبـدأ بـذرف دمـوع يائسـة وأنـا أرتجـف، أرتجـف حتـى طلـوعِ الفجـر. أنهـض في الصبـاح وأنـا أكثـرُ حنَقـاً مـن كلب، بحيـث إننـي سأشـعر بالسـعادة لـو ابتلعـت الكـون بأكملـه. ومـن ثَـم، مـاذا تظـنُّ: رحـتُ أجمـع المـال، وأصبحـت خاليـةً مـن أي شـفقة، فـازداد وزني وصرتُ بدينـة. وهـل تعتقـد أنني أصبحـتُ أكثـرَ فطنـة وذكاء؟ كلا، لم أصبح كذلـك قَـطُّ، دُون أن يـرى أو يعـرف أحـدٌ ذلـك في الدنيـا كلِّهـا، ولكـن مـا إن يهبِـط الليـل حتـى يبـدأ كلُّ شيء مـن جديـد، حينـما كنـت فتـاةً صغـيرة قبـل خمـس سـنوات، أسـتلقي مـرةً أخـرى وأكـزُّ عـلى أسـناني وأنـا أنتحِـب طَـوال الليـل: «سـوف أعطيـه مـن كلِّ بـد، أجـل، سـوف أعطيـه، سـوف أدفـع إليـه، سـوف أردُّ إليـه دينَـه!» هكـذا أقـول في نفـسي. هـل سـمِعت كلَّ ذلك؟»[1].

تلـك هـي الطريقـة التـي «تُولَـد» بهـا القناعـات عند أبطـال دوستويفسـكي مـن الذكـور والإنـاث، دعنا مـن الحديـث عـن راسـكولنيكوف، وكارامازوف، وكيريلـوف، وشـاتوف ... جميعهـم تعرَّضـوا لإهانـات غـير مسـبوقة. كيـف راحـوا يطـردون دلغوروكـوف بطريقـةٍ ماهـرة مـن نـادي القـمار (في روايـة «المراهـق»)، وكيـف يفـتَرون عـلى الإنسـان مـن العالَـم السـفلي! لقـد جمـع

(1) «الأخوة كارامازوف»، صفحة 420.

دوستويفسكي كلَّ ما في جَعبته من أدواتٍ لكي يسدِّد ضربة قوية إلى قلب القارئ من جديد، ولكن هذه المرة ليس بهدف جعل القارئ أكثرَ طيبةً، وكي يوافق بسخاء على مناداة الإنسان الأخير بأخيه في أيام الآحاد وفي الأعياد. باتت المهمة مختلفة. أصبح الآن ضرورياً انتزاعُ الاعتراف من العلم ومن «الإيفيك»[1]، كما يعبِّر كلٌّ من راكيتين ودميتري كارامازوف، بأن التنظيم الناجح للغالبية، وأنَّ سعادة البشرية في المستقبل وتقدُّمها وأفكارها وهكذا دَوالَيك. باختصار، كلُّ ما كان يُستخدم حتى الآن في تبرير الموت والعار لأفرادٍ معيَّنين، لا يمكنه أن يحلَّ المسألةَ الأساسية في الحياة. وحقاً، من جراء الواقع الذي صُوِّر من قِبل دوستويفسكي، لا يكاد يوجد من الضمير حتى عند النصيرِ الأكثر تعصباً وحماسةً للفلسفة الوضعية، وعند أكثرِ الناس «استقامةً وحُسنَ سلوك»، ما يكفيه لكي يتذكَّر المُثل العليا الخاصة به. حين تؤدي «الأنانية» التي افتُرِي عليها وشُوِّهت من قِبل الجميع إلى حدوث كارثة، وعندما يتحوَّل كفاحُ شخص بشري واحد وحيد إلى قهرٍ واضطهاد مستمر، لن يكون عند أي شخصٍ ما يكفي من الصفاقة والمُجون لكي يتحدَّث عن المُثل العليا. حتى إنَّ الأرواح المؤمنة تلتزم الصمتَ حينذاك ... بيدَ أننا لا نعودُ نصطدم هنا مع تعاليم الفلسفة الوضعية أو أنصار المثالية، ولا مع النظرياتِ الفلسفية أو مع النظم العُلمائية. يمكن إعادة الناس إلى جادة الصواب، كما يمكن كبْحُ جِماح الفلاسفة والواعظين في مطاردتهم التركيبَ والدمجَ ضمن منظومةٍ عن طريق الإشارة إلى مصير الناس المأساويين. ولكن

(1) هي مجموعة عِرقية تعيش في المقام الأول في جنوب نيجيريا، وغرب الكاميرون. داخل نيجيريا، يمكن العثور على «الإيفيك» Efik في ولاية كروس ريفر وولاية أكوا إيبوم الحالية. (المترجم)

مـاذا يمكـن للمـرء أن يفعـل بالحيـاة؟ كيـف لـه أن يُرغِمهـا عـلى أن تأخـذ أمثـال راسـكولنيكوف وكارامـازوف بعـين الاعتبـار؟ إذ إنهـا بـلا حيـاء وبـلا وجـدان. وهـي تنظـر بـلا اكـتراثٍ ومـع عـدمِ مبـالاة إلى الكوميديـا البشريـة وإلى التراجيديـا البشريـة عـلى حـدٍّ سـواء. وهـذه المسـألة تنقلنـا مـن فلسـفة دوستويفسـكي إلى فلسـفة نيتشـه الـذي يواصـل المسـيرة بعـده، والـذي رفَـع الشـعار الفظيـع: «مديـح الحماقـة» عـلى رايتـه بمنتهـى الصراحـة ولأول مـرة.

# 18

لقد تتبَّعنا عمليةَ التحوُّل التي خضعت لها قناعاتُ دوستويفسكي، وتتلخَّص من حيث ملامحها الرئيسة في محاولة إعادة تأهيل الحقوق عند الإنسان من العالَم السفلي. وإذا ما عُدنا الآن إلى مؤلَّفات نيتشه، فسوف نجد فيها - مع أنها تشبه ما كتبَه دوستويفسكي بدرجةٍ قليلة جدّاً ومن الناحية الخارجية فحسب - قبل كل شيء آثاراً أكيدة وواضحة وضوحاً كبيراً لتلك الأمزجة والمعاناة التي أذهلتنا في إبداع هذا الأخير. كما أنَّ نيتشه كان في شبابه رومانسيّاً وحالماً يحلِّق فوق الغيوم. وهذا ما يمكننا أن نستدلَّ عليه لا عن طريق أول عمل من أعماله؛ «ولادة المأساة»، بل عن طريق مقالاته «شوبنهاور مربِّياً» و«فاغنر في بايرويت»، التي تلتصق بصورة مباشرة بـ «Menschliches, Allzumenschliches»، ذلك العمل الذي سمح لنفسه لأول مرة في حياته، بحياءٍ وبحذر، أن يلقيَ نظرةً إلى العالَم وإلى البشَر بعينيه الخاصتين. وقد دفع غالياً لقاءَ هذه التجربة؛ لأن معظم أصدقائه، ومن ضمنهم فاغنِر، ابتعدوا عنه وأداروا له ظهورهم. دون أن يكترِث أيُّ واحد منهم، كما يحدُث عادة، بسبب ذلك الانكسارِ الذي حدث في أعماق روح نيتشه. بل راح أصدقاؤه

يضرُخون ويقولون إنه «خان» قناعاته السابقة، ووجدوا أنَّ ذلك كافٍ لكي يصدروا عليه حكمَ إدانة. كان الجميع يعلمون أنَّ نيتشه يعاني مرضاً عضالاً ومؤلماً جداً. ولكنهم لم يروا حتى في ذلك ظروفاً مخفِّفة للذنب الذي ارتكبه. وقد أعرب فاغنر - الذي كان حتى وقت قريب يكيل المديحَ لنشاط نيتشه الأدبي - عن سخطِه الشديد بعد أن قرأ «Menschliches, Allzumenschliches»، لدرجةٍ أنه عدَّ حتى محاولة أن يعاتبَ صديقَه وتلميذه الفتي غيرَ جديرة بالاهتمام. بل التزم الصمت الكامل دون أن يستأنف علاقتَه مع نيتشه حتى آخرِ يوم من حياته؛ أي إنَّ نيتشه وجد نفسه وحيداً تماماً في أصعبِ لحظة من حياته، حين يكون الإنسان أكثرَ حاجةً إلى الدعم المعنوي. في الواقع، إنَّ الرأيَ العام المشترك في هذه الحالة، يقدِّم لنا ما هو ضلالٌ مؤكَّد على أنه حقيقةٌ لا ريبَ فيها؛ إذ إنَّ مساندةَ ودعم الأصدقاء في اللحظات القاسية والصعبة من الحياة لا تفيد عادةً، ولا يمكنها أن تمنح الإنسانَ أيَّ شيء، وإنما هي تثقل كاهلَه بمطالبَ ملِحَّة حول ضرورةِ الشفافية والاعترافات؛ لذلك يصبح المرءُ في مثلِ هذه اللحظات وحيداً. في حال كان لديك من الطاقة والقوة ما يكفي لتحمُّل مأساتك، فسوف تخرج منها منتصراً إذن. وإذا كانت غيرَ كافية فالأمر سواء، ولن يستطيع أيُّ فاغنر مساعدتك. وأنا لا أتحدَّث، بالتأكيد، عن الصعوبات المعيشية العادية، التي يصبح وجودُ عقلين اثنين فيها أفضلَ بكثير من عقل واحد، وإنما عن تلك الحالات التي تبدأ الأرض فيها بالتشقُّق تحت الأقدام، حسب تعبير دوستويفسكي. وهي تُصادَفُ في الحياة الحقيقية، بالمناسبة، أكثرَ مما في الروايات بكثير. وهنا لن يكون بإمكان الأصدقاء أن يساعدوا في شيء. لكن أصدقاء نيتشه لم يكلِّفوا

أنفسهم حتى التفكير في تقديم المساعدة، بل تحوَّلوا إلى أعداءٍ له، وراحوا ينتقمون منه عن طريق الازدراء والتجاهل، دون أي محاولةٍ منهم لكي يفهموا الرجل. وحسب تعبير نيتشه نفسه، الذي كان جديراً بالثقةِ هذه المرة على وجهِ الخصوص، يصبح ازدراءُ الآخرين أكثرَ صعوبة بكثير من ازدراء المرءِ نفسَه[1]. وبالفعل، مهما يبلغ ازدراءُ المرءِ نفسَه، تبقَ في أعماق روحه جَذوةُ أمل دائمة بأنه سوف يعثر على مخرجٍ من وضعه الميؤوس منه والصعب. في حين أنَّ حكْمَ الناس يكون قاسياً وبلا رأفة، صلباً ونهائيّاً؛ إذ يلقون بالقرار إلى المحكوم عليه كما لو عرضاً، لكيلا يكون بإمكانه أن يعيد النظر فيه أبدَ الدهر ...

كان نيتشه قد قام، حسب اعترافه هو نفسه، بكتابة مقالتي «شوبنهاور مربِّياً» و«فاغنر في بايرويت» في وقتٍ لم يَعُد يؤمن فيه لا بفلسفة شوبنهاور ولا بفن فاغنر. مع العلم أنَّ كلتا المقالتَين تمثِّل مديحاً خالصاً لهما. فما الذي جعله يلجأ إلى مثل هذا النوع من التصنُّع والتكلُّف؟ يوضِّح نيتشه أنه أراد وهو يودِّع معلِّميه أن يُعرب لهما عن امتنانه وشكره لقاء الماضي. أفترض أنَّ القارئ سوف يَعُدُّ هذا الأسلوب في التعبير عن الشكر غيرَ جدير بالاستحسان: يتعيَّن على المرء أن يُحسِن التضحيةَ بأصدقائه وبمعلِّميه في سبيل الحقيقة. من المحتمل أنَّ نيتشه أيضاً كان له مثل هذا الرأي، ما دام يعلن عن نفسه صراحةً أنه من أنصار شوبنهاور وفاغنر، مع أنه يدرك أن الوقت قد حان لمفارقتهما وتوديعهما، وأنه كانت لديه أسبابٌ أخرى، ربما، أقلُّ روعةً ولكنها أكثرُ عمقاً وجِديَّة بكل تأكيد. من الواضح أنَّ المسألة كانت تكمُن في التلميذ وليس في الأستاذين؛ كان

(1) نيتشه، المجلد الثاني، صفحة 376.

نيتشه سيودِّع على الأرجح معلِّميه خلال فترة شبابه بطريقةٍ رسمية ومتكلفة بدرجةٍ أقل، لو أنه كان يعرف معرفةً مؤكدة إلى أين سيذهب بعيداً عنهما. نحن نرى كيف أنَّ الشكر والامتنان لم يمنعاه فيما بعدُ من كتابة مقالةٍ حادة عن فاغنر، كما أنهما لم يمنعاه من إطلاق لقب «مزوِّر العملة العجوز» على شوبنهاور. لكنَّ هذا حدَث في أواخر نشاطه الأدبي، في الفترة 1886–1888. ففي عام 1875 لم يكن يتحلَّى بعدُ بشجاعةٍ كافية لأن يعتقد أنَّ تلك الأفكار والمشاعر التي راحت تتوالد في أعماق روحه، غير الواضحةِ والعشوائية، سوف يطرحها في مواجهةِ فلسفة شوبنهاور المتناسقةِ والمنجزة، التي حازت التقديرَ والاعتراف، وفي مواجهة أمجادِ فاغنر المدوِّية في أوروبا بالكامل. كان يُخيَّل إليه حينذاك أنَّ أسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان هو القطيعة مع أساتذته، خيانة العقيدة والقناعات السابقة. كان يعتقد أنَّ الإنسان يحصُل على قناعاته مرةً واحدةً خلال حياته عن طريق المعلِّمين الأكْفاء والجديرين. ومع أنه كان يقرأ كثيراً، فإنه لم يخطر بباله قط أنَّ مثل هذه القناعات التي يتلقَّاها جاهزةً ومعلَّبةً من آخرين، أقلُّ قيمةً وشأناً من وجهة نظره الخاصة إلى الحياة، التي توصَّل إليها من خلال التجارب والمعاناة الشخصية؛ أي إنه كان، إذا شئتم، يعرفُ حتى هذا. حتى إنه هو نفسه عبَّر عن هذا المعنى؛ لأن الكتب التي كان يقرؤها (عند شوبنهاور على الأقل) كانت تتحدَّث عن ذلك مراراً وبنوع من التفصيل. إلَّا أنه عندما حان وقت «الاختبار»، عندما جاء الغموض، لم يخمِّن نيتشه، كما هي حالُ جميعِ الناس في مثل وضعه، أنَّ ذلك هو ما تتحدَّث عنه الكتب؛ إذ إنه شعرَ مع بعض الرعب وحسب، بأنَّ ثمة ما هو قبيح وفظيع إلى درجةٍ غير مسبوقة

بـدأ ينشـط ويتحرَّك في أعـماق روحـه هو خاصـةً. ونظـراً إلى مـا كان يعيشـه من آلام ومـن إحبـاط فإنـه لم يـدرك تلـك «المعانـاةَ» الماجـدةَ التـي راح يباركهـا على غِـرار شـوبنهاور، ويبـشِّر بهـا في أول عمـلٍ لـه - «ولادة المأسـاة». كان شـبيهاً في عـينِ نفسـه بالبطـل إلى درجـةٍ صغـيرة جـدّاً، بأحـد أولئـك الآثمـين الكُثـر والمثيريـن للاهتـمام، مثـل تانهـاوزر، الذيـن كانـوا يتخـذون وضعيـاتٍ رائعـةً في أوبـرا فاغنـر. لم يكـن في وضعـه أيُّ أثـر للجـمال التراجيـدي الـذي كان يهـوى الاسـتمتاع بـه في أعـمال الكُتـاب القدمـاء. وهو لم يـسرِق النـارَ من السمــاوات لمـا فيـه خـيرُ البشريـة، كـما أنـه لم يفـكَّ ألغـازَ أبي الهـول كـما فعـل أوديـب، ولم يكـن حتـى في عَريـن الزهـراء؛ بـل عـلى العكـس، عندما ألقـى نظرةً عـلى ماضيه بـدا لـه هـذا المـاضي سلسـلةً متصلـةً مـن الإهانـات المشـينة والمخزية جـدّاً. على هـذا النحـو وفي ضـوء ذلـك كان يتخيَّـل خدمتَـه للفـن؛ أي تاريـخَ علاقاتِـه مـع فاغنِـر: «يقـول في قـولٍ مأثـور بعنـوان «شـهيد ضـد إرادتـه»: كان الرجـل في أحـدِ الأدوار خَجُـولاً وجبانـاً جـدّاً، وذلـك لكـي يكـون مناقضـاً لرفاقـه: كانوا يسـتخدمونه لمختلِـف الغايـات والأهـداف، وكانـوا ينتزعـون منـه كلَّ مـا يحلـو لهـم؛ ذلـك لأنـه كان يخـاف التأثـيرَ الفاسـدَ لشركائـه في الـرأي أكثـرَ ممـا يخـاف المـوت. كان شـخصيةً مثـيرة للشـفقة وضعيفـة. كان رفاقـه يفهمونـه فكانـوا يسـتغلُّون تلـك الصفـات المذكـورة ويصنعـون منـه بطـلاً، حتـى إنهـم حوَّلـوه في نهايـة المطـاف إلى شـهيد. بالرغـم مـن أنَّ الشـخص الضعيـف كان يقـول في نفسـه دائـماً «كلا»، فإنـه كان يقـول بصـوتٍ مسـموع «نعـم»، حتـى وهـو عـلى منصـة الإعـدام، حـين راح يمـوت في سـبيل حزبـه: كان يقـف بالقـرب منـه أحـدُ رفاقـه القدامـى وقـد راح يـمارس عليـه الإرهـاب بنظراتـه وكلامـه، وأنـه اسـتقبل المـوت بالفعـل بجـدارة؛ ولذلـك فهـو يُعَـدُّ منـذ ذلـك الحـين

شـهيداً وشـخصية عظيمـة»[1]. في حـال كانـت هـذه الكلـمات تلخِّـص «مـاضي» نيتشـه، فهـل سـيكون ممكنـاً عندئـذٍ تصديـقُ أنَّ المـرء كان أثنـاء وداعـه لـه ينتابـه شـعور بالامتنـان والعرفـان؟ أليـس مـن المرجَّـح أكثـرَ أن تكـون مقالتـا «فاغنـر في بيرياتيـه» و«شـوبنهاور مربِّيـاً» قـد كُتِبتـا فقـط لأن نيتشـه كان مسـتمرّاً في إحساسـه بنظـرةٍ فاغنـر مسـلَّطة عليـه (وربـما، ليـس فاغنـر وحـدَه) وأنـه لم يكـن قـادراً عـلى محاربـةِ تأثـيره المنـوِّم مغناطيسـيّاً عليـه. ثـم كيـف لـه أن يحـارب مثـل ذلـك التأثـير؟ كان هـذا يتطلَّـب في الدرجـة الأولى أن ينتـزعَ مـن ذاتـه الاحـترامَ لنفسـه، وأن يدعـو ماضيـه الخـاص باسـمه الحقيقـي، كـما كان بحاجـةٍ إلى أنَّ يعـترف بـأنَّ نقَّـاد الجرائـد الذيـن اعتـاد أن يَعُدَّهـم أشـخاصّاً تافهـين وغـيرَ جديريـن بالتقديـر، كانـوا عـلى حـقٍّ عندمـا كانـوا يطلِقـون عليـه لقـبَ «الخـادم الأدبي لفاغنـر». بعبـارة أخـرى، يجـب أن يصـدِرَ بحـقِّ نفسِـه حكـماً بـأن يعيـش بصفتـه «إنسـاناً أخـيراً». والإنسـان لا يكـون قـادراً عـلى اتخـاذِ خطـوة كتلـك عـلى الفـور. كان نيتشـه مـا زال يأمُـل أن يكـون مفيـداً لحزبـه مـن خـلال دعـم مبادئـه وطموحاتـه ومسـاعيه بالـكلام عـلى الأقـل. سـوف يكـون اسـمه الطيـب، عـلى الأقـل، محفوظـاً دون أن يعرف أحـدٌ كـم هـو شـخص تعِـس إلى درجـةٍ مثـيرة للقـرف وبصـورة معيبـة. وهـذا الأمـر جديـرٌ بالاهتـمام. كان نيتشـه شـخصاً عزيـزَ النفـس، لم يشـأ أن يعـرِض جروحَـه وآلامـه، بـل كان يميـل إلى إخفائهـا عـن أعـينِ الآخريـن. وهـذا مـا أرغمـه عـلى التظاهـر والكـذب، بالطبـع، كـما تطلَّـب ذلـك منـه أن يكتـبَ مقـالاتٍ مادحـةً وحـارَّة وحماسـية موجَّهـة إلى كلٍّ مـن شـوبنهاور وفاغنـر، اللذيـن لم يَعُـد يطيقهـما في أعـماق روحـه؛ لأنـه كان يَعُدُّهـما المسـؤولَين بالدرجـة

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، صفحة 86.

الأولى عن شقائه الرهيب الذي لا حدودَ له. ثم، مَن كان بحاجةٍ لحقيقته تلك؟ وماذا كان بإمكانه أن يرويَ لو أنه أراد أن يقول الحقيقة؟ هل كان سيعترف صراحةً بعدم صلاحيته؟ ولكن، هل هو قليلٌ عددُ الأشخاص غير المفيدين في شيء في هذا العالم؟ وهل يمكن لاعترافٍ كهذا أن يثيرَ دهشةَ أحدٍ أو اهتمامَه؟ إذ إنه في حقيقة الأمر، لم يحدُث شيء مميز قط. كان نيتشه يرى نفسه شخصاً جديراً ومخصصاً للقيام بأمرٍ مهمٍّ وذي شأن. تبيَّن أنه على خطأ، وأنه كان إنساناً تافهاً ومثيراً للشفقة. وكثيراً ما تحدُث مثل هذه الحالات في الحياة، دون أن يتذكَّرها أحد. على سبيل المثال، توصَّل نيتشه نفسه ذات يوم إلى قناعةٍ بأنَّ ديفيد شتراوس، الذي كان الألمان يَعُدُّونه فيلسوفاً عظيماً وصاحبَ أسلوب رائع في الكتابة، كان في حقيقة الأمر مجرَّد شخصٍ «ضيِّق الأفق متعلِّم فقط» لا يتقن اللغة الأدبية المألوفة بشكل جيد. ولكن، هل أثار مثل هذا الاكتشافِ الذهولَ والدهشةَ عند أيٍّ كان، ويشمل ذلك نيتشه تحديداً؟ كلا بالطبع؛ فقد ظلَّ هناك في هذه الدنيا عددٌ كبيرٌ من الفلاسفة البارزين وأصحابِ الأسلوب الرائع في الكتابة، حتى من دون ديفيد شتراوس. لو أنَّ نيتشه ناقش الأمرَ مناقشةً موضوعية، لاقتنع بمنتهى السهولة بأنَّ الحالةَ الخاصة به أيضاً لا قيمةَ مميزة لها. ولو أنه فوق ذلك تذكَّر أيضاً الموضوعاتِ الأساسيةَ لفلسفة شوبنهاور، لاستطاع أن يواسيَ نفسَه في حزنه وشقائه؛ ذلك لأنَّ «الإرادة» بقيت ثابتةً من دون تغيير، فهل يستحق الأمر التفكيرَ في أنَّ فرداً ما، أي واحد من مليار حالةٍ من حالات «الإرادة» الموضوعية، وجد نفسه مسحوقاً ومهشَّماً؟ بيدَ أنَّ «الموضوعات الأساسية للفلسفة» تتبخَّر عادةً من الذاكرة بسرعة البرق، بمجرَّد أن يصطدمَ الإنسانُ بالحياة

بصورةٍ جديـة. إذا كان نيتشـه قـد اسـتعاد في ذاكرتـه شـوبنهاور، فإنـه لم يقُـم بذلـك لكـي يبحـثَ عنـده عـن مواسـاةٍ أو عـن دعـم، وإنـما لكـي يصـبَّ عليـه اللعنـات باعتبـاره ألـدَّ عـدوٍّ لـه. «سـوف أقـول لأعدائـي الـكلامَ التـالي: مـا قيمـةُ أي قتـلٍ للحيـاة البشرية مقارَنـةً بـما فعلتمـوه بي! مـا فعلتمـوه بي أسـوأ مـن أي عمليـة قتـل، لقـد انتزعتـم منـي مـا لا يمكـن اسـتعادتُه. هـذا مـا أقولـه لكـم، يـا أعدائـي. لقـد قتلتـم أحلامـي والمعجـزات اللطيفـةَ في شـبابي ... لقـد انتزعتـم منـي رفاقـي والأرواح الهائمـة والسـعيدة. وهـا أنـا ذا أضـع هنـا عـلى ذكراهـم هـذا الإكليـلَ وهـذه اللعنـةَ. إنهـا لعنـةٌ عليكـم يـا أعدائـي!» هـذه الكلـمات التـي نطـق بهـا زرادشـت كانـت موجَّهـة لـكلٍّ مـن فاغنِـر وشـوبنهاور. إنَّ نيتشـه يلعـن معلِّمَيـه لأنهـما قضيـا عـلى شـبابه ...

# 19

بيـدَ أننـا سنسـأل مـن جديـد: wozu solch Lärm? مـا الـذي حـدث؟ هـل يمـوت نيتشـه؟ ولكـن هـل هـذا مـبرِّر كافٍ لكـي تُصـبَّ اللعنـاتُ عـلى فلسـفة شـوبنهاور والتنكُّـر لموسـيقى فاغنـر؟ إذا مـا تذكَّرنـا الأعـمالَ الأولى لنيتشـه، وإذا مـا أصغينـا لـ«تعاليـم» زرادشـت بخصـوص السـوبرمان، فإنـه سـوف يُخيَّـل إلينـا أنَّ نيتشـه لم يكـن بحاجـةٍ عـلى نحـوٍ أكيـدٍ وحاسـم، في حقيقـة الأمـر، إلى أن يقلـقَ ويضطـرِب إلى هـذه الدرجـة. فَـما مـن مصيبـة إذا مـا فشِـلت حيـاةُ شـخص واحـد؛ فالطبيعـة تُنتِـج مـن الأفـراد بالملايـين، ومهمَّتهـا لا تكمُـن في الحفـاظ عـلى نسـخ منعزلـة ومحـدَّدة ولا في تطويرهـا، وإنـما في تطويـرِ النـوعِ والسـلالةِ ككل. هـذا مـا كان يقولـه شـوبنهاور، وهـذا مـا كان يقولـه زرادشـت، أو هـو شيءٌ مـا قريـبٌ مـن هـذا. فـما المشـكلة في أنـه راحـت تهلَـك أحـلامٌ شـبابية لأحـد الفلاسـفة؟ وهـل يحمل ذلـك في طياتـه أيَّ تهديدٍ للبشرية؟

كان نيتشــه يــدرك جيــداً أنَّ الموضوعــاتِ الفلســفيةَ التــي أخذهــا عــن شـوبنهاور تنطـوي في ذاتهـا عـلى قـرارِ إدانـة. في حـالِ أنـه كان يمتلِـك الحـقَّ في أن يَعُـدَّ نفسَـه شـخصاً بـارزاً! لكنـه لم يَسـتدعِ أن يسـتنِد إلى مَواهبـه الاسـتثنائيَّة

تحديداً من أجل تبرير نفسه. كما هو واضحٌ من القول المأثور الذي ورد في الفصل السابق «شهيد رغماً عنه»، كان هو خاصةً يحَسَب نفسَه في تلك المدة مجرَّد خادم لفاغنر وحسب. لماذا يجب على مخلوقٍ تافهٍ كهذا أن يحيا، إذن؟ ألن يكون من الأفضل له أن يتلاشى بهدوءٍ وخُلسة، وأن يتنازلَ عن مكانه في الحياةِ لممثلين آخرين أكثرَ جدارةً من الجنس البشري؟ لقد أُتيحت الآن لنيتشه بالتحديد فرصةُ أن يحقِّق المطالبَ الرفيعةَ للأخلاقيات المتعارَف عليها، تلك المطالب التي أخذتها فلسفةُ شوبنهاور تحت حمايتها، وأن يبرهن - على أرضِ الواقع وليس بالكلام فقط - على أنَّ فكرةَ التضحية ونكران الذات ليست صدى فارغاً، وإنما قوة جبارة وعظيمة قادرة على أن تلهم الإنسانَ وأن تمنحه الجرأةَ لأن يقبل ويتحمَّل طائعاً مصيرَه مهما يكن قاسياً ومؤلماً. لكن نيتشه تصرَّف على العكس بالضبط، حسب ما كانت تطلُب منه «قناعاته» السابقةُ التي تلقَّاها من المربي العظيم شوبنهاور. بدلاً من أن يستكينَ ويسعدَ في شقائه بنجاحاته في الماضي وبالآمال الجديدة عند البشرية - وهذا ما كان سيتوافق إلى أقصى درجةٍ مع القناعات التي عُبِّر عنها في «ولادة المأساة» - قرَّر نيتشه أن يتحقَّق بواسطة مصيره من عدالةِ وحقيقةِ المُثُل العليا المنشودةِ عبْر آلاف السنين، والتي سُوِّغت تسويغاً مراتٍ كثيرةً من قِبل أفضلِ العقول عند البشرية. كان قد بدأ في «Menschliches, Allzumenschliches»[1] بطرحِ السؤال حول «أهمية الدوافع غير الأنانية، وغريزة التعاطف، ونكرانِ الذات والتفاني، تلك الدوافعُ التي لطالما لمَّعها شوبنهاور وبجَّلها وجعلها من

(1) «إنسان مفرط في إنسانيته» هو عمل فلسفي لفريدريك نيتشه.

صفـاتِ عـالَمِ الآخـرة (verjenseitigt)[1] إلى أن تحوَّلـت بالنسـبة إليـه إلى قيـم ansich[2]. وفي سـبيل حـلٍّ هـذه المسـألة لم يَعُـد يتجـه إلى الفلاسـفة والشـعراء والواعظـين، كـما في السـابق عندمـا كان يكتـب أولَ أعمالـه؛ باختصـار، لم يَعُـد يتجـه إلى التعاليـم التـي تناقلهـا النـاس جيـلاً بعـد جيـل. فهـو يشـعر بأنـه لـن يعثـر في كلِّ ذلـك عـلى جـوابٍ بالنسبة إليـه، كـما لـو أنَّ جميـعَ معلِّمـي البشريـةِ اتفقـوا عـلى التـزام الصمـت بشـأنِ مـا هـو أكثـرُ أهميـةً بالنسـبة إليـه. ولـن يجـرؤ ولمـدة طويلـة عـلى قـول كلمـة واحـدة بخصـوصِ مؤلَّفاتِـه الخاصـةِ التـي كان يقـوم فيهـا بـكل فخـرٍ وثقـةٍ بـدَور القـاضي الـذي يعـرف الأشـياءَ كلَّهـا ويفهمهـا. فيـما بعـدُ فقـط، بعـد مـرور سـنوات طويلـة، حـاوَل في مقدِّمتـه - وعـلى نحـوٍ أدقَّ، في خاتمـةِ كتابـه «ولادة المأسـاة» - تقييـمَ أوَّل تجربـةٍ أدبيـة لـه. وكـم هـو مُصمَّـمٌ بطريقـةٍ غريبـةٍ قلـبُ الإنسـان! عـلى الرغـم مـن أن ذلـك الكتـابَ يبـدو لـه مكتوبـاً بصـورةٍ سـيئة مـن نـواحٍ عديـدة، وبالرغـم مـن أنـه يـرى بمنتهـى الوضـوح جميـعَ عيوبـه («... لكـن الكتـاب الـذي انسكبت فيـه حميَّتـي الفتيـة والشـك في أنَّ هـذا الكتـاب المسـتحيل كان يجـب أن ينبُـت مـن مثـل هـذه المهمـةِ غـير الفتيـة»[3])، فإنـه لا يسـتطيع ألَّا يشـعر نحـوه بحنـانٍ أبـوي. مـع العلـم أنـه كان يجـب عليـه، عـلى نحـوٍ خـاص، أن يكرهـه كـما كان يكـره مؤلَّفـات شـوبنهاور وموسـيقى فاغنـر؛ إذ إنَّ الكتاب كان انعكاسـاً كامـلاً لذلـك الاغـتراب عـن الحيـاة، ولذلـك الخـوفِ مـن الواقـع؛ باختصـار، لتلـك الرومانسـيةِ التـي سـيطرت عـلى روحـه البريئـة سـيطرةً كليـةً، وفي مرحلـةٍ باكـرة مـن فتوَّتـه، وذلـك بفضـل التربيـة التـي تلقَّاهـا

(1) في ذاته (ألماني).

(2) الأعمال الكاملة، المجلد السابع، صفحة 292.

(3) الأعمال الكاملة، المجلد الأول، صفحة 3.

نيتشـه في ظـروفٍ هـي أقـربُ إلى ظـروفِ الدفيئـةِ أو «البيـت البلاسـتيكي».
وليـس كتـاب «ولادة المأسـاة» فقـط، بـل كافـة أعـمال نيتشـه الأولى وصـولاً إلى «Menschliches, Allzumenschliches» - الـذي كان يُفـترض لـه أن يكـون بغيضـاً بالنسـبة إلى مؤلِّفـه، للسـبب نفسـه - كانـت عبـارة عـن رومانسـيةٍ مزيَّفـة بالكامـل؛ أي تلاعـب رشـيق لهـذه الدرجـة أو تلـك بالصـورِ الشـاعرية وبالمفاهيـم الفلسـفية الجاهـزة. كان كلام شـوبنهاور بمنزلـةِ قانـون بالنسـبة إلى نيتشـه الشـاب. «كتـب يقـول عـام 1875 حـين تجـاوَز عمـرُه الثلاثـين سـنة، وعندمـا بـات الواقـع يطـرح عليـه أولَ مَطالبـه الرهيبـة: أنـا أنتمـي إلى تلـك المجموعـةِ مـن قـرَّاء شـوبنهاور الذيـن يعرفـون بـكل تأكيـد بمجـرَّد أن يقـرؤوا أولَ صفحـة مـن أعمالـه، أنهـم سـوف يقـرؤون كلَّ مـا كتبـه، وأنهـم سـوف يصغـون باهتـمامٍ كامـلٍ إلى كل كلمـة يقولهـا. لقـد حـاز ثقتـي عـلى الفـور، وهـا هـي تلـك الثقـة لا تقـلُّ اليـوم عـمَّا كانـت عليـه قبـل تسـعِ سـنواتٍ خلـت. أنـا أفهمـه كـما لـو أنـه كان يكتـبُ خصوصـاً لأجـلي»[1]. كـما تـرون، لقـد وضـع نيتشـه ثقتَـه في غـير محلِّهـا. وعـلى العمـوم ينبغـي التعامـلُ مـع «الثقـة» بطريقـةٍ حَـذِرة؛ لأن شـوبنهاور أقـلُّ مـا يصلـح لأن يكـون معلِّـماً للشـبيبة، وذلـك بسـبب تلـك المسـائل التـي يجـري الحديـثُ عنهـا عنـده، والتـي لا تعنـي شـيئاً في العـادةِ للإنسـان الفتـي مهـما كان موهوبـاً. لم تكـن الحـال أفضـل مـع الموسـيقى أيضـاً؛ إذ إنَّ فاغنـر هـو أيضـاً مـع موسـيقاه الأوبراليـة خطـيرٌ بالنسـبة إلى النـاس الذيـن لم ينضجـوا بعـدُ؛ لأنـه يرغمهـم عـلى الدخـولِ قبـل الأوان في مجـالاتٍ غريبـةٍ عنهـم وليسـت في متناولهـم. وهـذا مـا أدركـه نيتشـه في وقـتٍ لاحـق بصـورةٍ جيـدة. «كتـب يقـول: كنـتُ مُغرمـاً بالفـن

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الأول، صفحة 398.

مـع شـغفٍ حقيقـي، وفي نهايـة المطـاف لم أرَ أيَّ شيء باسـتثناء الفـن في كلِّ مـا هـو موجـود - في تلـك السـنوات التـي تكـون فيها عـادةً مشـاعرُ وشـهواتٌ أخـرى هي التـي تثـير روحَ الإنسـان»[1].

مـع العلـم أنَّ الثقـة بتعاليـم شـوبنهاور والشـغف بفاغنـر لم يكونـا، في حقيقـة الأمـر، قاتلَـين عـلى الـدوام إلى تلـك الدرجـةِ بالنسـبة إلى الإنسـان. لـو أنَّ حيـاة نيتشـه مضـت مـن دون تعقيـداتٍ عابـرة، فلربـما كان احتفـظ في روحـه حتـى سـنِّ الشـيخوخةِ المتقدمـةِ بمشـاعرِ المحبـة والوفـاء تُجاه معلِّميـه؛ لأنَّ الرومانسـية لا تـؤدي بصـورة دائمـةٍ عـلى الإطـلاق إلى تشـويه المصـير الإنسـاني وتخريبـه. عـلى العكـس، غالبـاً مـا توفِّـر الرومانسـيةُ حمايـةً سـعيدة للنـاس مـن الاصطـدام بالواقـع وتسـاعدهم في المحافظـة سـنواتٍ طويلـةً عـلى ذلـك التفـاؤل المفـرِط، وعـلى ذلـك الوضـوحِ والإشراق في وجهـات النظـر، وتلـك الثقـة بالحيـاة، وهـذه الأشـياء هـي أكثـرُ مـا نثمِّنـه عنـد الفلاسـفة. وكان بإمـكان نيتشـه أن يطـوِّر حتـى أواخـر أيامـه تلـك الأفـكارَ التـي وضعهـا في أسـاسِ عملـه «ولادة المأسـاة». كان بإمكانـه أن يعلِّـم النـاسَ التصالـح مـع الفظائـع في الحيـاة، كـما كان قـادراً عـلى أن يفعـل مثـل سـلفِه ويمجِّـد «الفيلسـوف والفنـان والمقـدَّس». وكان سـيحظى حينئـذٍ بالاحـترام العظيـم بـين معاصريـه وبالشـهرة والمجـد لـدى الخلـف؛ فهـذا هـو البروفسـور ريـل يَعُـدُّ عملـه «ولادة المأسـاة» عمـلاً عبقريّـاً. إلَّا أنَّـه مـن الممكـن، والحـقُّ يقـال، التقـاطُ مـا يشـبه المكـرَ السـياسي في تقريـظِ البروفسـور الألمـاني. لعـلَّ البروفسـور رأى أنـه مـن غـيرِ المستحسَـن أن يلـومَ ويعيـبَ كلَّ شيء في نيتشـه، ولأنـه كان يريـد أن يتخـذَ وضعيـةَ القـاضي الحيـادي والنزيـه؛ لذلـك فضَّـل أن يبالـغَ في مديـحِ ذلـك الكتـابِ لنيتشـه الـذي كان قريبـاً جـدّاً ممـا يكتبـه

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الحادي عشر، صفحة 130.

الجميـع، وذلـك بهـدفِ تحريـر يديـه ومـن ثـم يشـنُّ هجومـاً لاذعـاً عـلى أعمالـه الأخـرى. ومـع ذلـك، لا شـك أن نيتشـه لـو واصـل الكتابـةَ بـرُوحِ «ولادة المأسـاة» نفسِـها، لَاضطُـرَّ إلى أن يتحـرَّر فقـط مـن تلـك القناعـاتِ والآراءِ المتعـارفِ عليهـا، إلى الحـد الـذي تسـمح بـه التصـوراتُ القائمـة حـول الفـرادةِ المسموحِ بهـا والمرغـوب فيهـا. ظهـر لـه خصـومٌ، بطبيعـة الحـال، منـذ بدايـةِ نشـاطِه الكتـابي، ولكنـه كان سـيبلغ في النهايـة تلـك البراعـةَ في الـشرح التـي تسـلُب اللـبَّ عنـد الأعـداء، وتضمـن للإنسـانِ تقديـراً سـعيداً إلى أكـبرِ درجـةٍ ممكنـة مـن قِبـل القريبيـن الذيـن يحيطـون بـه. ومما لا شـك فيـه أنَّ نيتشـه كان سـيكتب في ظـل ظـروفٍ أخـرى، شـيئاً ما آخـرَ ومختلفـاً، وكان البروفسـور ريـل[1] عندئـذٍ سـيَعُدُّ أعمالـه عبقريـةً بـكل راحـة ضمـير.

لكـنَّ مشـيئةَ القـدَر كانـت مختلِفـة؛ فبـدلاً مـن أن يتيـح لنيتشـه العمـلَ بهـدوء عـلى مسـتقبل البشريـة ككل، بـل حتـى الكـون بأكملـه، اقـترح عليـه، كـما عـلى دوستويفسـكي، مسـألةً صغـيرة وبسـيطة واحـدة بشـأنِ مسـتقبله الشـخصي الخـاص. لكـنَّ الفيلسـوفَ العاطفـي الـذي كان يراقـب فظاعـاتِ العالَـم بأكملـه مـن دون أدنـى وجـل، وقـد اضطـرب وشـعرَ بالضيـاع، مثـل طفـلٍ تائـه فـي غابـة، بمواجهـة هـذه المهمـةِ غـير المعقَّـدة التـي كانـت تُعَـد سـهلةً؛ تبـيَّن أنَّ عِلمـه الـذي اكتسـبه في الماضي غيـرُ مفيـدٍ لـه، بـل كان حِمـلاً ثقيـلاً عـلى هـذه القضيـة. «كتـب يقـول: أصبـح كلُّ شيءٍ مَهيـبٍ كريهـاً إليَّ! مـاذا نعنـي نحـن؟»[2] مـع العلـم أنَّ ذلـك «المهيـب» كان هـو مـا عـاش بـه

(1) نيكولاوس ريل (1901–1990): عالِـم فيزياء صناعي ألمانـي. كـان رئيس المقر العلمي لأوير جيسيلشافت. عندما دخل الروس برلين قُرب نهاية الحرب العالمية الثانية، دُعِي نيكولاوس إلى الاتحاد السـوفيتي، حيث مكث 10 سنوات. لعمله في مشروع القنبلة الذرية السوفيتية، حصل على جائزة ستالين وجائزة لينين ووسام الراية الحمراء للعمل. (المترجم)

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الحادي عشر، صفحة 153.

وعليه حتى الآن، وما كان يَعُدُّه حكمةً عظيمة، وما كان يرى في نشره رسالتَه المقرَّرة من قِبل العناية الإلهية. وقد بات من الضروري الآن التخلّي عن كلِّ ذلك. ولكن، ماذا سيتبقى بعد ذلك؟ كيف يمكن النظر في أعينِ الناس جميعاً؟ وماذا يمكن القول لفاغنر؟ ثم كيف يمكنه أن يبقى على انفرادٍ مع نفسه؟ راح نيتشه بعضَ الوقت يقوم بمحاولات من أجل المصالحة بين واقعه الجديد و«قناعاته» القديمة. كما سبق أن قيل، بدأ بكتابة مقالاتٍ عن فاغنر وشوبنهاور على أملِ أنَّ قوة العادة سوف تنتصر، وأنه سوف يتكيَّف مع جديدٍ مع الإيمان الضروري له بالمُثُل العليا. لكن حساباته كانت خاطئة؛ لأن الخدمةَ المتكلِّفة حتى بالنسبة إلى الإنسان في ظروفٍ كهذه أمرٌ غير سهلٍ البتة. وقد تحوَّلت لدى نيتشه، الذي كان يعيش ظروفاً قاسيةً، إلى عمليةٍ تعذيب لا يُطاق؛ فقد رأى بوضوحٍ أنه يستحيل العيشُ وَفق النَّهج القديم. ولأنه كان يعرف جيداً ما الذي ينتظره، ولأنه كان يعرف أنَّ أصدقاءه، لا سيما فاغنر بصورةٍ خاصة، لن يغفروا له خيانتَه أبدَ الدهر، فقد قرَّر التنكُّر للآلهة القديمة وانطلق في دربٍ جديد، على الرغم من أن الدربَ الجديد لم يَعِده بأي شيء باستثناء المخاطر والشكوك المضنية والوحدة الأبدية.

# 20

وماذا كان سيحمل معه في الطريق الجديدة؟ ما الذي كان سيحصل عليه مقابل القناعات القديمة؟ يكمُن الجواب في كلمة واحدة: لا شيء.

لا شيء باستثناء الآلام الجسدية المقيتة في الوقت الحاضر، والذكريات المشينة والمهينة عن الماضي، بالإضافة إلى الخوفِ الجنوني من المستقبل. لم يكن وارداً أن يكون لديه أيُّ أمل؛ إذ ماذا بمقدور الشخص المسحوق والمريض الذي أضاع أفضلَ سنوات حياته في ممارسةِ أعمالٍ لا فائدة منها وغير لازمة ولم تقدِّم له أيَّ شيء؟ لقد ظلَّ ملتزِماً بيتَه حتى صار عمره ثلاثين عاماً، على غِرار إيليا موروميتس[1]، وهو يتأمَّل المُثل العليا للآخرين. والآن أصبح بحاجة إلى أن ينهض واقفاً وينطلق، لكنَّ رجليه ترفضان تلبيةَ طلبه، وأما العَجَزة البررة الذين يحملون الإكسير السحري فلم يأتوا ولن يأتوا؛ ففي عصرنا لا تحدُثُ معجزات. وفوق ذلك كله اتخذ المرض أبعاداً كبيرة بحيث إنه كان مضطرّاً إلى التخلِّي عن ممارسةِ مهامِّ الأساتذة العادية التي كانت تملأ يومَه، وأن يبقى على مدار الـ24 ساعة متبطلاً على انفرادٍ مع هواجسه وذكرياته. حتى إنَّ الليل لم

(1) الاسم الملحمي الكامل: إيليا مورومتس، ابن إيفانوفيتش؛ إحدى الشخصيات الرئيسية في الملاحم الروسية القديمة. بطل، ابن فلاح، من مواليد شمال شرق روسيا، جاء للخدمة في كييف عند الأمير فلاديمير، وقاد الدفاع عن روسيا القديمة. (المترجم)

يكن يجلب له الراحةَ والسكينة؛ لأنه كان يعاني الأرقَ، المُرافق المألوف للأمراض العصبية العُضال. وإذ بإنسانٍ مثل هذا يصبح كاتباً، ويسمح لنفسه بالتوجُّه إلى الناس بخطابٍ خاص به. ثَمَّة سؤالٌ طبيعي يطرح نفسَه: هل يحق لمثلِ هذا الإنسان أن يكتب؟ وماذا بإمكانه أن يخبرنا؟ أنه يعاني ويتألَّم؟ لكننا سبق أن سمِعنا تأوهاتٍ وشكاوى كثيرة على لسان الشعراء، وقد سبق أن عبَّر ليرمنتوف وهو في ريعان شبابه صراحةً عن هذه الفكرةِ التي كتمَها آخرون في أنفسهم. وما علاقتنا إذا ما كان نيتشه يعاني أو لا يعاني؟ ثُمَّ إنَّ الشعراء أمرٌ آخَر؛ فهُم لا يعبِّرون عن شكواهم ببساطة وحسب: مَن كان سيصغي إليهم لو أنهم راحوا يتأوَّهون «ببساطة» فقط! بل إنهم يغلِّفون شكواهم في صورةِ أشعارٍ رنَّانة وجميلة، كما أنَّ دموعهم تتحوَّل إلى أزهار. ونحن نمتِّع نظرنا بالأزهار دون أن نتذكَّر الدموع؛ لأن التناغم الرباني للقصيد يجعلنا نفرح مُرغَمين حتى لأكثر الألحان حزناً. بيدَ أنَّ نيتشه فيلسوف؛ فهو لا يجيد الغناء والتغريد وليس مضطرّاً إلى ذلك. يجد نفسه مضطرّاً إلى الكلام، تُرى هل سيتجرَّأ على أن يقترح على الناس حكايةً رتيبة وأحادية المعنى بخصوص تلك الفظائعِ التي كان مضطرّاً إلى أن يعيشها؟ أم إنه توجد في الفلسفة أيضاً أزهارٌ خاصة بها وشِعرٌ خاص بها، وهما يشكِّلان raison d'etre[1] فيها؟ وأنَّ أم العلوم هي أيضاً نوعٌ من الفن؛ فن تحويل شتَّى الأشياء المثيرة للاهتمام والمهمة إلى حقيقة؟ هيا بنا نصغي إلى توضيحاتِ نيتشه. قليلون أولئك الذين يمكنهم أن يقارَنوا معه في هذه الأمورِ من ناحيةِ تنوُّع التجربة وتعدُّد جوانبها. وسوف يخبرنا بالتفصيل كيف ألَّف كتبَه.

---

(1) أساس عقلاني (فرنسي).

«كتب يقول: ذاك الذي يمكِنه أن يخمِّن جزئياً على الأقل تلك العواقبَ التي يقود إليها أيُّ شك عميق، ومَن يكون على دراية بما تسبِّبه الوحدةُ لنا من رعب وبرودة تحتِّمها علينا كلُّ رؤية مختلفة بلا ريب عمَّا هو متعارَف عليه (jede unbedingte Verschiedenheit des Blicks[1])، ذاك سيفهم كم قُيِّض لي مراتٍ كثيرةً أن أُعالَج من نفسي خاصةً، لكي أنسى، ولو مدةً من الزمن، وأن أبحثَ عن ملاذٍ لي من خلال تبجيل شيءٍ ما، ومن خلال العِداء، والعلمية، إلى جانبِ الطيش والحماقة؛ ولماذا كنت أقوم في بعض الحالات التي لا أعثرُ فيها على ما أنا بحاجةٍ إليه في صيغة جاهزة، بتحصيله بطريقةٍ مصطنَعة؛ إذ كنتُ ألجأ إلى التزييف، وكنت أختلقُ (وهل كان الشعراء يفعلون غير ذلك؟) ولماذا على العموم توجد الفنونُ على اختلافها؟»[2] إنه اعتراف مقبول، أليس كذلك؟ يُنظَر فيه إلى الفن باعتباره تزييفاً مقصوداً للواقع، وحيث تقدَّم للفلسفة نصيحة باعتماد الأساليب نفسها، وإلَّا لَما كان ممكناً تحمُّل الرعب والبرودة الناجمين عن الوحدة. ولكن، هل يمكن للتزييف، لا سيما المقصود، أن يساعد في مثل هذه الحالات؟ وهل يمكن لـ«وجهة النظر» الخاصة إلى الحياة أن تصبح سبباً للحزن مع تلك التلاعبات التي يقوم بها العقل والوجدان؟ ثمَّ، هل يحق لنا، يا تُرى، أن نغيِّر «وجهة نظرنا»؟ إذ إننا نرى ما نراه، وما هو موجود أمام أعيننا، وما مِن جهود للإرادة تستطيع أن تصوِّر لنا الأبيضَ على أنه أسودُ، وبالعكس. بيدَ أنَّ نيتشه يفكِّر، كما يبدو، بطريقة مغايرة. ففي مقدِّمة المجلد الثالث من مؤلَّفاته يقول: «لقد تعلَّمت حينئذٍ بالتحديد (أي أثناء مرضِه) تلك الخطاباتِ

(1) «كل اختلاف غير مشروط في وجهات النظر» (ألماني).

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الخامس، المقدمة.

المعزولـةَ التـي يعرفهـا الناس الوحيـدون الذيـن عانوا كثيراً فقط: كنـتُ أتحدَّث بـلا شـهود؛ أو بشـكلٍ أدقّ، مـن دون أيِّ تفكـير في الشـهود، ودائـماً عـن أشـياءَ لم يكـن لي أيُّ صلـة بهـا، ولكنها كانـت تبـدو وكأنهـا ذات معنـى بالنسـبة إليَّ. حينئـذٍ تعلَّمـت أن أقـدِّم نفسـي عـلى أننـي نشِـط وموضوعـي وفضـولي، وقبـل كل شيء أنني سـليمٌ صحيّـاً وسـاخر؛ وهـذا مـن علامـات الـذوق الجيـد عنـد المريـض، كما أعتقـد. ومـع ذلـك، لـن يخفـى عـلى النظـرةِ المتعاطفـةِ مـا يمثِّـل جاذبيـةً مميـزة في ذلـك الكتـاب («Menschliches, Allzumenschliches»): سـوف يشـير إلى أنَّ إنسـاناً مريضـاً وبائسـاً يتكلَّـم عـلى نحـوٍ مـا كـما لـو أنـه ليـس مريضـاً ولا بائسـاً. يسـعى الإنسـان هنـا لكـي يحافـظ، مهـما يكلِّـف الأمـر، عـلى توازنـه وهدوئـه - ويشـمل ذلـك شـكرَ الحيـاة - إذ تهيمـن هنـا إرادةٌ صارمـة وأبيَّـة، نشـطة ومهتاجـة عـلى الـدوام، تضـع أمامهـا مهمـةَ حمايـة الحيـاة في وجـه الآلام والمعانـاة ورفـض كافـة الاسـتنتاجات التـي تنمـو، مثـل الإسـفنج السـام في تربـةٍ مسـتنقعية خصبـة ومتنوِّعـة - عـلى خلفيـةِ الآلام والخيبـات، التخمـة والوحـدة».

الآن بتنـا نعـرف كيـف ألَّـف نيتشـه كُتُبَـه. مـن الواضـح أنـه لم يُمنَـح فرصـةً للتحـرُّر مـن سـلطة الأفـكار. وقـد راح يتحـدَّث ذات يـوم، وهـو يدافـع عـن فاغنـر وشـوبنهاور، عـن أشـياءَ لم تكـن لـه أي علاقـة بهـا، ولكـن بطريقـةٍ كـما لـو كانـت تعنـي لـه شـيئاً مـا، وهـا هـو ذا الآن مـن جديـد، في دور جديـد «محامـيَ الحيـاة»، يَقمـع في نفسـه كـما هـو واضـح جميـعَ الاحتجاجـات وكلَّ مـا هـو شـخصي ومـا يخصُّـه لكـي يمجِّـد زَبونـه الجديـد. إنـه ينافـق مـرةً أخـرى، ويلعـب الـدورَ مـن جديـد، ولكـن هـذه المـرةَ ليـس بطريقـة لا واعيـة وبضمـير غـير نقـي، كـما كان الأمـر في شـبابه؛ إذ بـات يـدرك الآن مـا

يقـوم بـه، وبـات يعـرف أنـه لا يجـوز بطريقـة أخـرى، ودون أن يشـعر بـأي رعـبٍ عندمـا يجـد نفسـه مضطـرّاً إلى أن يقـول بصـوتٍ مسـموع «نعـم»، في الوقـت الـذي يؤكـد بكامـل كِيانـه «كلا»، حتـى إنـه يتفاخـر بهـذه المهـارة ويجـد فيهـا ميـزةً رائعـة عـلى نحـوٍ خـاص. إنـه يرفـض الاسـتنتاجات كافـة التـي تنمـو عـلى تربـةِ الخيبـةِ والألم والوحـدة؛ أي تلـك الاسـتنتاجات بالتحديـد التـي يمكِنهـا بالضبـط أن تظهـر عنـد المـرء في مثـل ظروفـه. مَـن ذا الـذي أو مـا هـو الـشيء الـذي يحيـا في داخلـه؟ ومـا الـذي حـاز الحقـوقَ السـيادية للسـيطرة عـلى روحـه؟ لعـل العقـلَ القديـم الـذي تنكَّـر لنيتشـه ذات يـوم ولهـذا السـببِ حُـرِم مـن جميـع الحقـوق السـابقة، شـغَل مـن جديـد، عـن طريـق القـوة أو الاحتيـال، مكانَـه السـابق المسـيطر؟ أم إنَّ الضمـير والخـزي أمـام النـاس يغريـان نيتشـه مـرةً أخـرى بالانتقـال إلى عقيـدةٍ غريبـة عنـه ويُقنعـان المريـضَ والمظلـوم البائـس بـأن يتظاهـر بأنـه سـعيدٌ وسـليم عقليّـاً؟ إنهـا حقيقـةٌ في غايـة الأهميـة! بـات مـن واجبنـا أن نشـيرَ إلى أنَّ جميـعَ أعمالـه، ومـن ضِمنهـا تلـك الأخـيرة، التـي يقـدِّم نفسـه فيهـا باعتبـاره معاديّـاً للأخـلاق وملحـداً إلى أبعـدِ درجـة ممكنـة، حيـث يرفـع فيهـا شـعاراً يحمـل كلـماتٍ رهيبـةً كان بإمكانهـا أن تكـون في القـرون الوسـطى كلمـةَ السـرِّ عنـد إحـدى الطوائـف المحمَّديـة التـي اصطدمـت في الأراضي المقدَّسـة بالصليبيـين: «لا يوجـد أيُّ شيء حقيقـي، كل شيء مبـاح»[1]. إنَّ نيتشـه يسـتغيث في جميـع أعمالـه باسـتمرار وبشـكل ثابـت بهيئـةٍ مـا أعـلى، تـارةً يدعوهـا ببسـاطةِ الحيـاة،

(1) هذه المقولة جوهرية في فلسـفة نيتشـه. وهي تؤكِّد بالتحديد على عدمِ وجود الحقيقة المطلقة، وعلـى غيـاب الإله المسـيحي وأخلاقياتـه. وهذه المقولـة تتماهى مع تعبيرٍ شـائع يُنسَـب إلى دوستويفسكي على لسان إيفان كارامازوف: «في حال لم يكن هناك إله، فإنَّ كلَّ شيء مسموح به». علماً بأن العبارة غير موجودة بهذه الدقة في رواية «الأخوة كارامازوف». (المترجم)

وتارة «الحياة بمجملها»، دون أن يجرؤَ على الحديثِ باسمه الشخصي. ينشأ انطباع معيَّن أفضل تلخِّصه تلك الكلمات المثيرة للسخرية، التي تعود إلى دوستويفسكي: «كلُّ شيء مباح ونقطة على السطر! ... ولكن في حال أنك كنت تريد أن تمارس الاحتيال، فما هو الغرض، عندئذٍ، من إجازة الحقيقة؟»[1] إنَّ شغفَ نيتشه بإجازةِ الحقيقة، بالنسبة إلى أنصارِ الدافع الحتمي، كان يمكن أن يقوم بدورِ أفضلِ دحضٍ لتعاليمه بالكامل، وإنه لأمرٌ يثير دهشتي أنه ما مِن أحدٍ اعترض حتى الآن عليه مبرزاً هذا الدليلَ القاطع. لا سيما أنَّ التناقضات في أحكامه، التي كثيراً ما تُصادَف عند نيتشه، والتي استُخدمت لتوجيه اللوم إليه تعود في أصلها إلى ذلك التبجيل لـ «إله الفكرة التجريدية» الجديد الذي حلَّ اليوم مكانَ تلك الآلهة القديمة والكثيرة. ومع ذلك، أنا لا أريد أن أقول بذلك كما لو أنَّ إجازة الحقيقة، أو - بصورة أدقَّ - أنَّ أيَّ إجازة نهائية عمومًا هي إلى جانب أولئك الذين يُعلِنون أنَّه ليس كلُّ شيء مباحاً ويمتنعون عن الاحتيال، طبعًا، بذلك المعنى (إذ إنَّ مثلَ هذه التحفُّظات تبقى لازمة!) الذي يستخدم فيه دوستويسكي هذه الكلمة. أكثر من ذلك، سبق أن أشرتُ إلى أنه يلوح في تذلُّل دوستويفسكي أمام السِّجن وعيٌ بأن الإجازة التي تباهى بها جميعُ المثاليين حتى الآن على أنها صلاحيةٌ غير منقوصة ولا تتجزأ، نسَبَها هؤلاء الأخيرون إلى أنفسهم من دونِ وجهِ حق. كان شيللر قد وضع ذات يومٍ بلا أدنى تردُّد، بل وحتى من دون أيِّ تفكير باحتمالِ أيِّ نوع من التردُّد، الكلمات التاليةَ على لسانِ بطله فيليب:

---

(1) «الأخوة كارامازوف»، صفحة 769.

Gern mag ich horen,
Dass Karlos meine Räte hasst, doch mit
Verdruss entdeck ich, dass er sie verachtet (1).

لقد حُدِّدت في تلك العبارةِ تحديداً أبديّاً ونهائيّاً العلاقاتُ بين الأنماط التي يُعَدُّ فيليب الثاني ودون كارلوس ممثِّلَين لها. يزدري دون كارلوس، في حين أنَّ فيليب الثاني كان سيشعر بنفسه ممتنّاً لو أنه لمس عند ابنه كراهيةً نحوه. ولم يكن ثمَّة أدنى شكٍّ عند أحدٍ في أن مثل هذه العلاقات بين الخير والشر، إذا ما استخدمنا اللغةَ العاديةَ الشائعة، يمكنها أن تستمرَّ إلى الأبد: ليس بوسع الشر أن يتجاوز ازدراء الخير له؛ ولذلك فهو يزدري نفسَه خُفيةً، في أعماقه. أي إنَّ إجازة الحقيقة هي في جانبِ دون كارلوس والحالمين. أما ما يخصُّ فيليب، ففي حالِ أنه كان يريد أن «يحتال»، وجب عليه أن يتخلَّى عن الأملِ في الحصول على أيِّ إجازة. هذا ما كان في زمن شيللر، أما الآن فقد تغيَّرت الظروف؛ أصبح الآن أمثالُ دون كارلوس ينتظرون من أمثال فيليب - على شاكلةِ صدقة - الكراهيةَ تجاههم، لكنهم لا يحصلون على أيِّ شيء سوى الازدراء. ومن الأمثلة على ذلك دوستويفسكي في علاقته مع السِّجن، أو نيتشه الذي عبَّر عن هذه الفكرةِ بوضوح رهيب مَن خلال كلماتِ زرادشت التي أوردَها ذات يوم: «هل تعرف، يا صديقي، أن معنى كلمة الازدراء وآلام عدالتك هو أن تكون عادلاً بحقِّ أولئك الذين يحتقرونك». انقلوا هذه الكلماتِ إلى لغةٍ واضحةٍ ومحدَّدة - ويجب أن يقول بمثلِ هذا النقلِ كلُّ شخص يريد أن يعثرَ في الكتب لا على اللذة الجمالية فقط - وسوف تحصُلون على صيغةٍ

(1) كنتُ أودُّ أن أسمع أنَّ كارلوس يمقت نصائحي، ولكني اكتشفتُ أنه يزدريها، وهذا ما يكدِّرني. (المؤلف)

جديـدة للعلاقـات المتبادَلـة بـين فيليـب ودون كارلـوس. لم يَعُـد فيليـب هـو الـذي يـدرك معنـى كلمـةِ ازدراء، ولم يَعُـد هـو الـذي يتـألَّم مـن جـرَّاء ضرورةِ الاعـتراف بـأنَّ العـدل (إجـازة الحقيقـة) ليـس في جانبـه، وإنـما بحـقِّ أعدائـه، وأنـه عـلى العكـس؛ جميـع تلـك الملـذَّات تصبـح مـن نصيـب دون كارلـوس.

# 21

ولكـن دعونـا نـترك جانبـاً الجـدلَ بخصـوص العقوبـةِ ومـا يسـعى النـاس مـن أجـلِ تحقيقـه عـلى وجـهِ التحديـد، عندمـا يسـعون بكامـل الشَّـغف وبإلحـاح وبـلا رأفـةٍ لكـي يبرهنـوا عـلى بديهيـةِ وحصريـةِ حقِّهـم في إنزالهـا؛ لأنَّ أمـراً آخـر بـات يشـغَل بالنـا الآن. مـاذا يتعـيَّن علينـا أن نفعـل بمؤلَّفـات الكاتـب الـذي اعـترف أكثـرَ مـن مـرة بأنـه كتـب في مؤلَّفاتـه بطريقـةٍ كـما لـو أنـه كان شـخصاً غـيرَ مـا هـو عليـه في حقيقـةِ الأمـر؟ إنَّ سـلوك نيتشـه لا يُعَـدُّ، والحـق يقـال، أمـراً غريبـاً ومثـيراً للدهشـة بالنسبة إلى القـارئ الـروسي. لدينـا هنـا دوستويفسـكي الـذي يتحـدَّث كـما لـو أنـه لم يكُـن ذلـك الإنسـانَ مـن العـالَمِ السـفلي، ولم يكـن ثَمَّـة راسـكولنيكوف أو كارامـازوف الـذي يتصنَّـع الإيـمان والمحبـة، والرقَّـة وكلَّ مـا تشـاؤون، ولدينـا الكونـت تولسـتوي الـذي كتـبَ انطلاقـاً مـن «الغـرور والأنانيـة والشـموخ» كـما أخبرنـا هـو نفسـه في لحظـةٍ مـن التوبـة المتأخـرة في كتابـه «اعـتراف». لذلـك لا يجـوز لنـا أن نرفـضَ نيتشـه عـلى الفـور ومبـاشرةً، حتـى لـو أننـا كنـا نريـد ذلـك؛ لأنَّ هـذا سـيؤدي لاحقـاً إلى نكـران كلٍّ مـن دوستويفسـكي والكونـت تولسـتوي أيضـاً. مـن ثَـم، تنشـأ لدينـا حاجـةٌ إلى طـرح سـؤال عـن قيمـةِ تزييـفٍ أو ادِّعـاءٍ مثـل

هـذا، ومـا إذا كنـا نحـن بحاجـة إليـه. وهنـا نعطـي نيتشـه خاصـةً الكلمـةَ مـن جديـد؛ ففـي مقدِّمتـه لكتـاب «Menschliches, Allzumenschliches» الـذي أوردنـا مقتطفـاتٍ منـه في الفصـل السـابق، توجـد ملاحظـةٌ كـما لـو أنهـا تفسِّر وتـبرِّر بدرجـةٍ كافيـة مثـلَ ذلـك النـوع مـن الأسـاليب الغريبـة: «يقـول نيتشـه: ... حينئـذٍ اسـتنبطتُ لنفـسي مبـدأً جديـداً: لا يحـقُّ للمريـض بعـدُ أن يكـون متشـائماً، وعندئـذٍ بـدأتُ كفاحـاً دؤوبـاً وعنيـداً مـع النزعـة الرئيسـة والمضـادة للعلـم عنـد مختلِـف أشـكال التشـاؤمية الرومانسـية، التـي تفـسِّر وتضخِّـم بعـضَ الآلام المعزولـة والشـخصية إلى درجـةِ تحويلهـا إلى أحـكام عامـة، بـل حتـى تحويلهـا إلى قـرارات إدانـة بحـق الكـون ككل ... باختصـار، أرغمـتُ نفـسي حينئـذٍ عـلى الانعطـافِ إلى جهـة أخـرى. كان التفـاؤل بقصـدِ اسـتعادة القـوى، وذلـك لكـي يكـون بالإمـكان لاحقـاً اكتسـابُ الحـقِّ بـأن أكـون متشـائماً - هـل يمكنكـم أن تفهمـوا ذلـك؟ عـلى غـرارِ مـا يفعلـه الطبيـب عندمـا ينقـل مريضـه إلى حالـةٍ جديـدة تمامـاً ... هكـذا أنـا، في دور طبيـب ومريـض في شـخص واحـد، فرضـتُ عـلى نفـسي أجـواءً روحيـةً مغايـرةً تمامـاً وغـيرَ معروفـة لي مـن قبـلُ»[1]. ولكـن، هـل يمكـن لمثـلِ هـذه التصـوُّرات أن تكـون كافيـة مـن أجـل التصنُّـع عنـد المؤلِّـف؟ لنفـترض أنَّ المريـض بالفعـل لا يحـقُّ لـه أن يكـون متشـائماً (يـا لـه مـن حـقٍّ يُحسَـد عليـه!)، وأنَّ التفـاؤل، مثـل تبديـلِ الأجـواء الروحيـة، يمكنـه أن يكـون مفيـداً لتلميـذ شـوبنهاور وفاغنـر. إلَّا أنَّ القـرَّاء الذيـن قـرؤوا الطبعـةَ الأولى مـن كلا مجلـدَيْ كتـاب «Menschliches, Allzumenschliches»، وقبـل أن يُـزوَّدا بمقدِّمـاتٍ توضيحيـة (لم تُكتـب المقدِّمـات إلا بعـد مـرور

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، صفحة 9.

8 سنوات)، كيف كان بإمكانهم أن يخمِّنوا أنهم لا يتعاملون مع الكتب وحسب، أي مع القناعات التي يعبِّر عنها المؤلف، وإنما مع أجواءٍ خُلِّقت بطريقةٍ مصطنَعة وصالحة لبعض أنواع الأمراض فقط؟ لم توضِّح عناوينُ الفصول والأفكار المعروضة فيها أيَّ شيء من هذا القبيل. ولو أنَّ النشاطَ الأدبي لنيتشه بقي محصوراً في المجلدات الأربعة من مؤلَّفاته، لكانت وجهةُ النظر الأكثر دقةً وتعاطفاً معه عاجزةً عن التقاط أهدافِ المؤلِّف فيها. وحتى الآن، حين بات لدينا مقدِّمات طويلة، وعندما أصبحنا على درايةٍ بالمجلدات الأربعة الأخيرة من مؤلَّفاته، وبعد أن بتنا نعرف سيرةَ نيتشه، يبقى النقادُ على اقتناعهم العنيد بأن نيتشه يمثِّل نصيراً مبدئيّاً للفلسفة الوضعية في كلٍّ من «Menschliches, Allzumenschliches» و«Morgenruthe»[1]. ويستنتج من ذلك أنَّ هذين الكتابين لم يحقِّقا هدفهما، على الأرجح. كان يجب إجراءُ التجارب للعلاج لا بطريقة علنية وأمام الملأ، وإنما في بيته الخاص دون أن يعلم أحدٌ بها. وهل كانت تلك الحقيقةُ غائبة، يا تُرى، عن إدراك نيتشه؟ من ثَم، إنَّ الشرح الذي استُشهِد به يحمل بالنسبة إلينا، ربما، أهميةَ شهادة من السيرة الذاتية، دون أن يلقي الضوءَ إلَّا بدرجة قليلة جداً على الطرق التي استعملها نيتشه من أجل العثورِ على الحقيقة في تلك المرحلةِ من حياته. مع العلم أنه كان قد أعلن في «Menschliches, Allzumenschliches» بشكلٍ واضح ومحدَّد جداً، وإن كان بطريقةٍ غير شجاعة، عن تلك الأحكامِ الخاصة به حول الأخلاق، والتي بقي ملتزماً بها حتى نهاية حياته، وهو نفسُه يشير إلى ذلك في مقدِّمة «Zur Genealogie der Moral». وما دمنا

(1) كتاب «الفجر» لنيتشه.

نريد أن نصلَ إلى مصدرِ العقيدة عند نيتشه، وبما أننا نريد أن نعرفَ كيف «وُلدت» قناعاتُه الجديدة (وهنا لبُّ الأمر إجمالاً بالنسبة إلينا)، فإنه لا يحق لنا أن نرى في أعماله «ذات الصبغة الوضعية» مجرَّد تجاربَ تتعلَّق بالعلاج الذاتي فقط. بل يجب أن نبحثَ فيها، بل يوجد فيها أيضاً كلُّ ما قاد نيتشه فيما بعدُ إلى صيغة «في الجانب الآخر من الخير والشر»، إلى تعظيم وتبجيل القسوة وتمجيد الأنانية، وإلى التعاليم الخاصة بالعودة الأبدية، نحو[1] Wille zur Macht، وحتى إلى المَثل الأعلى للإنسانِ الخارق أو السوبرمان. وسوف نتوصل بعد التمعُّن فيها إلى قناعةٍ بأنها قد تخبرنا عن المؤلِّف في بعض الأحيان، أكثر من الخطابات الحماسية عند زرادشت، وأكثر من ذلك الجموح في الإبداعِ المرهِق والمحطِّم الذي تجلَّى في كتابه «المسيح الدجال». من هذا المنطلق، يجب النظرُ إلى قصةِ العلاج الذاتي مع تحفُّظات كبيرة، وحتى إنه يمكن مبدئيّاً رفضُها بصورة كاملة.

هناك شرحٌ آخرُ أكثرُ أهميةً وجديرٌ بالاهتمام الدقيق بدرجةٍ أكبر، ولم يُعِره القراء سوى اهتمام عابر فقط. يقول نيتشه إنه وضع لنفسه في «Menschliches, Allzumenschliches» مهمةَ «الدفاع عن الحياة في مواجهةِ الألم والمعاناة، ورفض جميع الاستنتاجات التي تنبُت مثل الإسفنج السام، على مختلِف أنواع التربة المستنقعية؛ على أرضيةِ الآلام والخيبات والتُّخمة والوحدة». إنها بكل تأكيد طريقةٌ للبحث عن الحقيقة، مع العلم أنها طريقةٌ سلبية بطبيعة الحال. لا يبقى لنا سوى التحقُّق من صلاحيتها. هل ستقود بالفعل، يا تُرى، إلى «الحقيقة» أم العكس؟ (يحدُث مثل هذا عادةً مع الطُّرق والأساليب) سوف تقود بعيداً عن الحقيقة؟ دعونا

(1) الإرادة إلى السلطة (ألماني).

نرجع إلى تجربةِ نيتشه. يقول في سياقِ حديثه عن سقراط وعن تعاليمه: «إنَّ الفلاسفةَ والواعظين يخدعون أنفسَهم إذ يفترضون أنَّ بإمكانهم التحرُّر من الـ «ديكادِنت» بواسطة إعلانهم الحربَ على هذا الأخير. لا توجد لديهم قوى كافيةٌ لكي ينجوا، كما أن جميعَ الأساليب التي يختارونها أدواتٍ للنجاةِ سوف تكون هي نفسُها مجرَّدَ تعبير عن الـ «ديكادِنت»؛ فهي تبدِّل الشكل فقط، في حين أنَّ الجوهر يبقى كما هو. كان سقراط مجرد سوء تفاهم وحسب. كان السعي نحو ضوء النهار المشرق، ونحو المعقولية مهما يكلِّف الأمر، والرغبة في جعلِ الحياة مضيئةً وباردة، حذِرةً ولا واعية، لا غريزية ومتصارعة مع الغرائز؛ كلُّ ذلك كان مرضاً لا أكثرَ، مرضاً جديداً وليس عودةً إلى «الفضيلة»، وإلى «الصحة» و«السعادة» على الإطلاق ... أن يكون المرء مرغماً على محاربة الغرائز، تلك هي صيغة الـ «ديكادِنت»: ما دامت الحياة تتطوَّر، تكون السعادة مكافِئة للغريزة»[1].

كلُّ هذا يتعلَّق بسقراط وبموعظته حول مقاومةِ الذات أو حول «نظرية التصحيح»، كما يعبِّر نيتشه عن ذلك. يعتقد أن هزيمةَ الـ «ديكادِنت» في الذات أمرٌ مستحيل حتماً. إنَّ سقراط ديكادِنت [من أنصارِ الانحطاط]، وجميعَ المحاولات من أجل النجاة ستكون مجرَّد تعبيرٍ عن الانحطاط، وعن التقهقر. وهو لا يصلح لأنْ يكون معلِّماً، ويجب رفضُ تعاليمه بالكامل. ولكن، ماذا عن نيتشه؟ إلى جانب أنه بقيَت في الأوراق التي ترَكها نيتشه بعدَه إشاراتٌ يَعُدُّ نفسَه فيها قريباً إلى سقراط من الناحية الروحية («إنَّ سقراط، وهذا ما يجب أن أعترفَ به، قريبٌ جدّاً إليَّ، حتى إنني أجد نفسي مضطرّاً إلى محاربته بصورة

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثامن، صفحة 74.

مستمرة»[1])، فإننا في المجلد الثامن الذي يُدين فيه أخلاقَ الإصلاح باعتبارها طريقةً فاشلة ويائسة لإنقاذ الناس الهالكين لا محالةَ وبلا أمل، نعثر في مقدِّمة المقالةِ عن فاغنر على الكلماتِ التالية: «أنا، مثلي مثل فاغنر، ابنُ عصرنا هذا الـ «ديكادِنت»، إلا أنني أدركت ذلك وحاربته، لقد قاوم الفيلسوفُ فيَّ ذلك»[2].

بيدَ أنَّ المقاومةَ في حدِّ ذاتها، كما رأينا الآن، «مرضٌ» وحسب، وهي مجرَّد تعبيرٍ جديد عن الانحطاط. هل هذا يعني أنَّ نشاط نيتشه بمجمله ينتفي كليّاً أو يذهب هباء، وقد ظلَّ ذلك الـ «ديكادِنت» نفسه يتلاشى بالرغم من محاولات العلاج الذاتي كما كان حال كلٍّ من سقراط وفاغنر، بحسَب كلامه؟ كيف يمكن الخروجُ من هذا التناقض الرئيس؟ هل يتعيَّن الاعتراف بأنَّ نيتشه لم يكن على حقٍّ في إدانته العصرَ الحديث، ومعه كلٌّ من فاغنر وسقراط، أم على العكس، الموافقة على أن محاربةَ الانحطاط هي انحطاطٌ أيضاً، ومن ثَم تصنيف نيتشه في عِداد الناسِ الميؤوس منهم والزائدين عن الحاجة؟ إنه سؤال جوهري وكبيرٌ جداً، كما هو واضح، ولكن بسببِ ضخامةِ السؤال لا يجوز أن نسهوَ عن الإشارة إلى السِّمة السيكولوجية المميزة. لقد أدان نيتشه إدانةً حاسمةً بخصوص سقراط ذلك، العقمَ المتعلِّقَ بمختلف المحاولات لمحاربة «الانحطاط»، حتى إنَّ المجدَ الذي يتمتَّع به الحكيم والذي يعود إلى آلاف السنين والذي لم يسبق أن أنكره أحدٌ من قبل، لم يرغمه على تخفيفِ حكمِه بشأن الإغريقي الشهير. ولكن، عندما بات الأمر يتعلَّق به هو نفسه - كما لو أنَّ النظرية لا توجد

---

(1) الأعمال الكاملة، المجلد العاشر، صفحة 452.

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الثامن، الفصل التاسع.

بالأصل - تبيَّن أنه ليس من الممكن مقاومةُ الانحطاط وحسب، بل إنَّ النجاح مضمونٌ في هذه المقاومة - بشرط أن تتوافر الشجاعةُ والتصميمُ والقدرةُ الضرورية. «يقول نيتشه في مكانٍ آخر: الحياة نفسُها تُكافِئنا على إرادتنا القويةِ والمثابرة في الحياة، وعلى مثلِ ذلك النضالِ الطويل، مثل الذي خضتُه أنا حينئذٍ مع ذاتي ضد التشاؤميةِ من التعب الحياتي ... ونحن نتلقَّى منها هِبةً عظيمة لقاءَ ذلك، هبةً هي الأعظم من بين جميع الهِبات التي يمكنها أن تمنحنا إياها؛ إنها تعيد لنا المهمةَ الحياتية».[1] ولكن، ألم يُبدِ سقراط الشجاعةَ والقدرة دون أن يفيده ذلك في شيء؟! في حين أنَّ نيتشه نجا بجلده ويَعُدُّ نفسَه محقّاً لكي يأخذَ على عاتقه من جديدٍ المهمةَ العظيمة بوصفه معلِّماً للناس، تلك المهمة التي تبيَّن أنَّ سقراط لم يكن كفؤاً لها. قارنتُ هنا بين حُكمَين متناقضَين لنيتشه لا بهدف ضبطه، بطبيعة الحال، بجُرم عدم الثبات واللامنطقية. المهم هنا هو تلك الحقيقة التي تفيد بأنَّ نيتشه، على الرغم من توافر كافة المعطيات «الموضوعية» التي تَسمح له بأن يعظِّم نفسَه ويرفعها إلى فئة الناس الشهداء، وإلى أنصار الانحطاط وأشباه سقراط، فإنه لم يَضمُم نفسَه إلى تلك الفئة قَطُّ، بل على العكس، ميَّز نفسه عنها بطريقةٍ مهيبة وواثقة. وقد انعكست هنا سِمةٌ مشتركة للجنس البشري ككل، وليست تلك السِّمة الخاصة بنيتشه. ما مِن أحدٍ بيننا مستعد أن يوقِّع على حكمِ إدانة أخلاقية لنفسه، وذلك على الرغم من أي وضوح خارجي هنا. هذه صفةٌ ثابتة لا تتجزأ من صفات الطبيعة البشرية، تلك الصفة التي لم تسمع بها أغلبيةُ البشر بسبب مختلِف

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، صفحة 10.

أنـواع التعاليـم السـامية. ولم يسـمع بهـا نيتشـه بـدوره إلى أن بـدأ بتلقـي الـدروسِ عـلى يـد فاغنـر وشـوبنهاور. ولكنـه بـدأ يأخـذ ذلـك بالحسـبان بشـكلٍ واضـحٍ تمامـاً منـذ كتابتـه «Menschliches, Allzumenschliches»، «لا يمكــن أن نعــرفَ مــا إذا كان يوجـد لـدى الإنسـان نـابُ أفعـى أم لا، إلّا بعـد أن يـدوسَ أحـدٌ مـا بكعبه عليهـا. كانـت سـتقول المـرأةُ أو الأمُّ: إلّا بعد أن يـدوس أحـدٌ مـا برِجلـه عـلى الشـخصِ الحبيـبِ أو عـلى طفلهـا؛ لأن طِباعنـا تتحـدَّد بدرجـةٍ أكـبرَ مـن خـلال التأثـير الـذي يتركـه غيـابُ صِنـف معيَّن مـن المعانـاة والآلام، أكثـر مـن كوننـا عشـنا تجربـةً مريـرة بعينهـا»[1]. هـذا مـا جـرى مـع نيتشـه بالتحديـد. مـا دامـت الظـروفُ مواتيـة، لم يكـن بإمـكانِ أحـدٍ عـلى التعيـين (حتـى هـو نفسـه بالتحديـد) أن يرتـابَ في وجـود «لدغـة أفعـى» لـدى هـذا الإنسـانِ اللطيـف والرقيـق الـذي كان عـلى تلـك الدرجـةِ مـن الوفـاءِ العميـق الخـالي مـن أي أهـدافٍ شـخصية؛ أو أن يرتـاب - إذا مـا تخلَّينـا عـن المجـاز - في وجـود تلـك الدرجـةِ المتطرفـة مـن الأنانيـة التـي قـادت الإنسـانَ مـن العالَـم السـفلي إلى معضلـة: أيهـا أفضـل بالنسـبة إلى الإنسـان من العالَـم السُّـفلي؛ أن يبقـى العالَـم أم أن يـشربَ الشـاي؟ أكـرِّر، هـل كان بإمـكان أي شـخص أن يفـترضَ وهـو يتأمَّـل نيتشـه الـذي قـدَّم روحـه بالكامـل بمنتهـى التفـاني وبمثابـرة وإصرار واعٍ مـن أجـل خدمـة العلـم والفـن؛ أنـه لا العلـم ولا الفـن، لا العالَـم ولا البشريـة، كان هدفـاً رئيسـاً بالنسـبة إليـه؟ وأنـه في تلـك اللحظـةِ التـي قـام أمـام نيتشـه بمشـيئة القـدَر سـؤالٌ عمـلي وليـس نظريّـاً: عـلامَ يجـب عليـه أن يحافـظ: عـلى تلـك المعجـزاتِ التـي تغنَّـى بهـا ومجَّدهـا مـن الثقافـة الإنسـانية، أم عـلى حياتـه الوحيـدة والعابـرة؟ كان مضطـرّاً إلى أن

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، صفحة 33.

يرفض مُثُله العليا المنشودة، وأن يعترف بأنّ الثقافة بمجملها والعالَم بأكمله لا يساويان شيئاً في حالِ لم يكن بالإمكان إنقاذُ شخص نيتشه! لقد بدَت هذه الفكرة جنونيةً بالنسبة إليه، ولم يستطِع حتى نهاية حياته أن يقبلها ككل، وكلما كانت تلاحقه بعنادٍ أكبر، كان يسعى بطريقةٍ شغوفة أكبرَ للتخلُّص منها أو، بالحد الأدنى، لربطها بأحدِ المُثل العليا. كانت تلك الفكرةُ تخيفه بما تحمله في طياتها من احتياجاتٍ للبشر، وكانت تبدو له فظيعةً من حيث عقمها؛ لأنها لم تكن قادرةً، كما هو واضح، على أن تقدِّم أيَّ شيء باستثناء الدمار والنفي، باستثناء العدمية (النهلستية). بيدَ أنَّ التخلي عنها لم يكن بالأمر السهل. ولم يكن نيتشه هو أول مَن حاربها وآخِرهم؛ إذ سبَقَ أن رأينا كم بذل ل. ن. تولستوي من جهودٍ جبارة لكي ينتزعَها من جذورها ولكي يقضيَ على بقايا الأنانية في أعماقِ روحه. وكذلك دوستويفسكي. لكن الأنانيةَ لم تضعُف قط، بل على العكس اشتدَّت وتفاقمت، وراحت تعلن بأشكالٍ مختلِفة عن حقوقها: كان ينبُت لها - مثل الأفعوان في الأسطورة - رأسان بدلاً من الرأس الواحد الذي قُطع. وهذا ما حدث مع نيتشه أيضاً؛ فقد أعلن على نحوٍ احتفالي: «ينبغي عليك أن تقتنع بأمِّ عينك أنَّ العدلَ أكثر ما يتجلى هناك؛ حيث لا يكون بإمكان الحياةِ التافهة والضيقة، الحياة الفقيرة والبسيطة جداً، أن تمتنعَ عن الحفرِ والتقويض خلسةً، ولكن بصورةٍ دائمة وبلا كلل، ودون أن تنازع حقوقَ كلِّ ما هو أكثر سموّاً وعظمةً وثراءً»[1].

لا تعبِّر هذه الكلمات عن الحكم الشخصي لنيتشه، كما يمكن أن يبدوَ للوهلة الأولى. بل توجد هنا صيغةٌ فريدة؛ لأن الفكر قديمٌ قِدمَ

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، صفحة 11.

العالم. اذكروا لنا فيلسوفاً أو واعظاً لم يرَ أنَّ من واجبه تمجيدَ الحياةِ الثرية والرفيعة على الحياة الفقيرة والضيقة؟ لم يرِد إلا في الإنجيل: «طوبى للفقراء بالروح»[1]، وقد فهِم العلم الحديث، وليس الحديث فقط، بل كلُّ علم من العلوم التي كانت موجودةً في يوم من الأيام، تلك الكلمات بطريقةٍ مشروطة جدّاً أو أنه، إذا ما قلنا بصراحة، لم يفهمها على الإطلاق، بل كان أيضاً يتحاشاها مع التوقير المعهود، كما يتحاشون في الاجتماعات الحاشدة والكبيرة أولئك الضيوفَ الطاعنين في السن والجديرين بالتقديرِ وغير اللازمين لأحدٍ، الذين وُجِّهت إليهم الدعواتُ من أجل الوجاهة فقط. كان الجميع يعلم أنَّ الأغنياءَ بالروح هم السعداءُ (طوبى لأغنياء الروح)، في حين أنَّ الفقراء بالروح يستحقون الشفقةَ اليوم وفي كل العصور وإلى الأبد؛ أي إنَّ حُكم نيتشه ينطوي على هذه المسلَّمة البديهية والمعروفة منذ زمن قديم. فهو لم يكتفِ، بعد أن انتفض ضد كلِّ شيء، بأن عارَض تلك المسلَّمةَ فقط، بل تَعامَل أيضاً معها بكل تأكيد على أنها عقيدةٌ جامدة ويقينية (دوغمائية)، وأنها noli me tangere[2] ولكن، إذا كان أشاد بالتحيُّز المتجذِّر فينا بعمقٍ شديد، فقد عمِل طَوال حياته على تطبيق مبدأ مناقض تماماً؛ إذ إنَّه هو الذي كان فقيراً بالروح، وهو الذي راح يحفِر ويقوِّض، وهو الذي أخضع للشك كلَّ ما هو عظيم ورفيع وغني، ولسببٍ واحد وحيد لكي يبرِّر حالته البائسة والفقيرة - على الرغم من أنَّ هذا الدافع كان مخفيّاً عنده بدقَّة وبشكل مستمر. وقد شرح هو نفسه في دفتر يوميات عام 1888 معنى «Menschliches, Allzumenschliches» على النحو التالي:

(1) «طُوبَى للمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (إنجيل متى 5: 3). (المترجم)
(2) لا تلمسني (لاتيني).

«كانت تلك عبارةً عن حرب، لكنها حربٌ من دون بارود ولا دخان، ومن دون تخطيط عسكري ولا حماسة، ومن دون أعضاء مقطَّعة ومشوَّهة؛ كان يمكن لكلِّ ذلك أن يكون من المثالية». ما يجري هنا هو وضعُ الضلالات الواحد بعد الآخر على الجليد بكل هدوء: لا يُدحض المَثل الأعلى، وإنما يُجمَّد فقط. فهنا، على سبيل المثال، تُجمَّد «العبقرية»، وبعد ذلك بقليل يُجمَّد «المُقدَّس». ومن ثَم أبعدَ بقليل مرةً أخرى يتحوَّل البطل إلى قطعةٍ جليدية متدلية وثخينة؛ وفي نهاية المطاف تُجمَّد «العقيدة»، وما يُعرف بـ«اليقين»؛ كما أنَّ التعاطف مُبرَّد بدوره إلى درجة كبيرة - بحيث إنَّ الشيء في ذاته «Ding an sich» [1] يتجمَّد في كلِّ مكان. إنه توصيفٌ دقيق «Menschliches, Allzumenschliches»: في بضع كلمات محصلةٌ نهائية لكتابَين ضخمَين. وفي الوقت نفسه، إنه تباينٌ واختلاف على الموضوع الذي نناقشه جميعاً اليومَ بخصوص «الحياة الفقيرة والبسيطة جداً»، التي تتجاسر وتُخضِع للشك مشروعيةَ الحق عند كلِّ ما هو أكثرُ سمواً وبذخاً ... إلخ. إنَّ نيتشه «يجمِّد» كلَّ ما كان الناس يبجِّلونه على مرِّ العصور، كما أنه يهزأ من البطل ومن العبقري ومن المقدَّس. ومتى يفعل ذلك؟ في الفترة من 1876م إلى 1878م، بمجرَّد أن بدأت تومض آخرُ بقايا الحياة، وبعد أن بدَّد وأهدر طاقاتِه كافة، حسب اعترافه هو نفسه، بلا جدوى ومن دون فائدةٍ لنفسه وللآخرين.

كما ترون، إنَّ «القناعةَ» - أو النظريةَ إذا شئتم - شيء، والممارسة شيء آخَر. يخطر على البال أنَّ الكونت تولستوي كان يتذمَّر بقوَّة من مثل هذا الفصلِ بين النظرية والممارسة. كان يقول: يجب أن يكون هناك عددٌ كبير

---

(1) الشيء في ذاته (ألماني).

مـن النظريـات الغبيـة، مـا دام ثَمَّـة رأي مثـل هـذا. إنـه عـددٌ كبـير جـدّاً بـكل تأكيـد! كنـتُ سأسـأل إن كان ثمَّـة نظريـة واحـدة «ذكيـة» أم لا؟ وهـل كان بإمـكان الكونـت تولسـتوي أن يكـون مـا هـو عليـه، لـو أنـه التـزم بمواقفـه النظريـةِ مـن الحيـاة؟ لـو أنـه «أنكـر نفسـه» بالفعـل، ثـم راح يقـضي أيامَـه في مـكانٍ مـا نـاءٍ، بعيـداً عـن أعـين الجميـع، وخلسـةً دون أن يـراه أحـد، وهـو يعمـل مـع المحـراث أو يديـر حديثـاً ورِعـاً مـع جيرانـه الفلاحـين؟ أو مـاذا كان سـيحدُث مـع نيتشـه لـو أنـه انصـاع طواعيـةً بمـلء إرادتـه لاسـتنتاجات «عقلـه»؟ إلَّا أنـه مـن النـادرِ أن يخضـع أحـدٌ مـا للنتائـج، للأسـف؛ لأنـه ثمَّـة قـوةٌ أخـرى جارفـةٌ في أعـماق النفـس البشريـة أكثـرُ جبروتـاً، وهـي تهيمـن علينـا وتسـخر مـن «الإرادة الحـرَّة» التـي كانـت سـتقودنا - في ذلـك المعنـى الـذي يُعطـى لهـا عـادةً - إلى اقـتراف أفعـالٍ وتصرُّفـات غـير واعيـة وجنونيـة تمامـاً. وقـد أغـوت تلـك «الإرادةُ» نيتشـه بـأن يُدِيـن سـقراط. ومَـن ذا الـذي لم يُدِنْـه نيتشـه؟ (حتـى الكونـت تولسـتوي لم يَسـلَم مـن إدانتـه) ومـاذا كان سـيحدث مـع الجنـس البـشري، لـو لم تبـقَ كافـة الأحـكام مـن هـذا النـوع مجـرَّد صـدى فـارغ، ولـو أنهـا كانـت تتمتَّـع بالسـلطة عـلى الحيـاة الواقعيـة؟ إلَّا أنَّ الإرادةَ الحـرَّة تسـيطر فقـط عـلى ذلـك الإنسـانِ الـذي تعـود إليـه. وفي المـرة الوحيـدة التـي كان مـن الممكِـن أن تصبـح قراراتهـا وأحكامهـا ذات معنـى، كانـت تتخـلَّى عـن حقوقهـا بتعقُّـل، كـما لـو أنهـا أدركـت غريزيّـاً أنهـا لا تسـتطيع أن تجلِـب أيَّ شيء سـوى المصيبـة.

عـلى هـذا النحـو يُـحَلُّ التناقـضُ في الحكـم الـذي أطلقـه نيتشـه عـلى سـقراط وعـلى نفسـه هـو خاصـةً. كانـت كلماتـه بحـق سـقراط بمنزلـةِ نظريـة. ولكـن، مـا علاقتنـا بهـا؟ لكنـه يخبرنـا في مؤلَّفاتـه عـن حياتـه الخاصـة، تلـك

الحياة الفقيرة التي كانت تتسلل تحت كلّ ما هو سامٍ وعظيم، والتي أخضعت للشك كلّ شيء مقدَّس بالنسبة إلى البشرية، وذلك في سبيل نجاتها هي ومن أجل الحفاظ على الذات. هنا التزمت الإرادةُ الحرَّة الصمتَ، وهنا بات الضجيجُ المألوف الذي يترافق مع الأحكام والمناقشات بشأنِ «الحياة الثرية» غيرَ مسموع إلا بصعوبة. ربما سوف تصل إلينا عبْر ذلك الصمت كلماتٌ جديدة، وربما ستتكشَّف أمامنا الحقيقةُ عن الإنسان، وليس الحقيقة البشرية التي أثارت السأمَ عند الجميع وأنهكتهم.

# 22

عـلى هـذا النحـو، يجـب علينـا أن نفتِّـش في أعـمال نيتشـه بأقـلِّ درجـة ممكنـة عـن تلـك الاسـتنتاجات التـي توصَّـل إليهـا رافضـاً المتطلبـات الناشـئةَ في روحـه بشـكلٍ تلقائـي. عـلى العكـس، يتعـيَّن علينـا بدورنـا أن نزيـلَ وأن نرفـض بطريقـة منتظمـة وثابتـة جميـعَ الأحـكام مـن ذلـك الصِّنـف مثلـما تُرفَـض مختلـف أنـواع الادعـاءات غـير المشروعـة. دعِ المريـض والمُعـذَّب يتحـدَّث بصفتـه مريضـاً ومعذَّبـاً، وعـن تلـك الأشـياء التـي تتَّسـم بالأهميـة بالنسـبة إليـه. إنَّ Unbedingte Verschiedenheit des Blicks (الاختـلاف غـير المشروط في وجهـات النظـر) يقـودُ إلى رعـب الوحـدة وبرودتهـا؛ فهو يقـول إنَّ الشـك العميـق تُجاه الحيـاة يهـدِّد بالمزيـد مـن العواقـب الفظيعـة. نحـن نعـرف كلَّ هـذا، ولكننـا مـع ذلـك نطالـب نيتشـه بـأن يقـول لنـا حقيقـةً واحـدة عـن حياتـه، ومـا هـو أكثـر أهميـةً في نهايـة المطـاف، هـو نفسُـه يريـد بكامـلِ مـا لديه مـن قـوةٍ أن يفصـحَ وأن يكشـفَ للقـارئ عـن سرِّه المضنـي، كـما هـي حـال دوستويفسـكي في روايتـه «المحقِّـق العظيـم». وإلا فلـماذا كتـب المقدِّمـات؟ لماذا لم يشـأ أن يتركنـا مـع قناعـةٍ بـأنَّ «Menschliches, Allzumenschliches» عبـارةٌ عـن كتـابٍ عـاديٍّ يناقـش فيـه إنسـانٌ سـليم مُثُـل شـخص سـليم،

وأشـياء مثـيرة لاهتـمام الجميـع عـلى حـدٍّ سـواء؟ وإذا كان نيتشـه لم يفصـح عـن مكنوناتـه إفصاحـاً كامـلاً وصريحـاً حتـى نهايـة حياتـه، فقـد فعـل ذلـك تحديـداً لأنـه لم يمتلِـك الشـجاعةَ للقيـام بهـذه البطولـة، والأدقُّ لأنـه لم يَحِـن الوقـتُ بعـدُ للحديـث مـع النـاس عـن كلِّ شيء بصراحـة؛ إذ إن حقيقـةً جديـدةً بـدأت تبـزُغ في وعيهـم، لكنهـا مـا زالـت تبـدو وكأنهـا ليسـت حقيقـةً، بـل فزَّاعـةٌ وشـبح رهيـب قـادم مـن عـالَمٍ آخـرَ غريـب بالنسـبة إلينـا. وهـم لا يحسـمون أمرَهـم ويطلقـون عليهـا اسـمها الحقيقـي، بـل يتحدَّثـون عنهـا مـن خـلالِ التلميحـات والإشـارات والرمـوز. سـبق أن رأينـا الحِيَـل التـي لجأ إليهـا دوستويفسـكي؛ يـكاد يكـون مـن المسـتحيل ضبـطُ فكرتـه أو التقاطهـا، بـل إنَّـه لمـن الصعـب حتـى تتبُّعهـا؛ فهـي تنزلـق وترفـرف كـما لـو أنهـا ثعبـان مـاء (حنكليـس) بالضبـط، ومـن ثَـم تختفـي في النهايـةِ بطريقـة تبـدو مقصـودةً في ضبـابٍ كثيـف مـن التناقضـات التـي لا تُهـادِن. الـشيء نفسـه موجـودٌ عنـد نيتشـه. يتطلـب الأمـر تركيـزاً مكثَّفـاً إلى أكـبرِ درجـة، كـما يحتـاج إلى تلـك «النظـرة المتعاطفـة» التـي يتحـدَّث عنهـا، وذلـك لكـي يكـونَ بإمـكان المـرء أن يفهـم مؤلَّفاتـه دون أن يتـوه في فـوضى الفرضيـات الباطلـة التـي لا يمكـن الركـونُ إلى صحَّتهـا، والأحاجـي السـيكولوجية الاعتباطيـة والتراجعـات الوجدانيـة والصـور الغامضـة. وهـو نفسـه يـدرِك ذلـك: «يقـول: لم يكُـن عبثـاً أننـي كنـتُ ومـا زلـتُ، ربـما، حتـى الآن عالِـماً لُغويّـاً (فيلولوجيّـاً)؛ أي معلِّـماً للقـراءة البطيئـة: هـذا يعلِّـم، في نهايـة الأمـر، الكتابـةَ ببـطء أيضـاً. وهـذا لم يصبـح عـادةً عنـدي فحسـب، بـل أصبـح ذائقتـي أيضـاً: ألا أكتـب شـيئاً يمكنـه أن يقـود النـاسَ المتعجِّلـين عـلى اختلافهـم إلى الإحبـاط. إنَّ علـم اللغـة وآدابَهـا هـو ذلـك الفـن الموقَّـر الـذي يطلـب مـن أنصـاره أمـراً

واحداً قبل كلِّ شيء: أن يتنحَّى المرءُ جانباً، وأن يمنح نفسَه الوقتَ الكافي للتفكير، والاستكانة وتخفيف الوطء»[1].

بيدَ أنَّه لا يكفي الصبرُ والإرادة الطيبة فقط. كان شوبنهاور على حقٍّ عندما أشار إلى أنَّ «التجربة الذاتية هي الشرطُ الضروري من أجل فهْمِ كلٍّ من الشِّعر والتاريخ على حدٍّ سواء؛ لأنها تقوم بدور القاموس بالنسبة إلى تلك اللغةِ التي يتحدَّثان بها». ولا بدَّ من قاموسٍ مثل هذا إلى درجةٍ معينة عند قراءةِ أعمال نيتشه؛ لأنه بالرغم من جميع تصوُّراته النظرية، كان هو نفسه مرغماً على استعمالِ آلامه ومعاناته بوصفها المصدرَ الوحيد للمعرفة: «يقول: ينبغي عليك أن تكون مصدراً لتجربتك، بغضِّ النظر عمَّن تكون»[2]. ومن المستحيل أن يكون الأمرُ بطريقةٍ أخرى. يمكن لمنظومةِ التصنُّع في أحسنِ الأحوال أن تُضفيَ مظهراً خارجيّاً لائقاً على مؤلَّفات الكاتب، ولكنها لن تمنحها المضمونَ الضروري أبداً. هكذا نجد أنَّ فكرةَ الإنسان من العالم السفلي عند دوستويفسكي تختبئ على شكلِ قصةٍ طويلةٍ عنيفةٍ وفاضحة: «انظروا، بالمناسبة، كم يكون بعضُ الناس حمقى وأنانيين، كيف أنَّ الأنانيةَ تسيطر في بعض الأحيان على الحيوانات ذوات القائمتَين». لكنَّ نيتشه ليس روائيّاً، وليس بإمكانه أن يتكلَّم «بلسان» أبطالٍ كما لو كانوا غرباء، بل هو بحاجةٍ إلى نظريةٍ علمية. ولكن، ألم يوجد مثلُ هذه النظريات، يا تُرى، التي أمكنها أن تكون ملائمةً لتجربته الجديدة؟

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، صفحة 10.

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، صفحة 292.

يكفـي أن تتوفَّـر الرغبـة للاختيـار، وعندئـذٍ سـوف توجـد النظريـة. وقـد اختـار نيتشـه أن يتوقَّـف عـلى الفلسـفة الوضعيـة التـي أسَّسـت لوجهـةِ النظر النفعيـة بخصـوص الأخـلاق؛ فقـط لأنهـا تفتـح آفاقـاً واسـعةً بدرجـةٍ أكـبرَ أمـام الفكـرة مـن العالَـم السـفلي، في حـالِ توافـرت الرغبـة المناسـبة. كان بإمكانـه، عـلى غـرارِ دوستويفسـكي، أن يعتكـفَ عـلى مذهـب المثاليـة المتطرفة، وأن يلعـب دورَ المتهـم والفاضـح. كـما كان بإمكانـه أن يجلِـد كافـةَ مظاهـرِ الأنانيـة؛ أي أن يتحـدَّث عـن نوايـاه الخاصـةِ «الدنيئـة»، وأن يُرعِـد ويُـبرِق باتجـاه القـراء كـما فعـل الكونـت تولسـتوي. وقـد كان للمصادفـة دورٌ في اختيارِ الشـكل، كـما كان للطبـعِ الخـاصِّ عنـد نيتشـه دورٌ جزئـي بالإضافـة إلى ذلـك الإحبـاط الروحـي، الـذي كان يعانيـه في السـنوات الأولى مـن مرضـه. لم يكـن لديـه مـا يكفـي مـن القـوى لكـي يُرعِـدَ ويصـبَّ اللعنـات؛ ولذلـك أقـام في جـوار المعرفـة البـاردة. ثـم تقمَّـص الـدَّور فيـما بعـد، في أعمالـه المتأخـرة جـدّاً، وراح يتسـلَّح بأشـباه الإلـهِ بـيرون الشـديدِ البـأس والعنيـف. لكنـه ظهـر أمامنـا في كلٍّ مـن «Morgenröthe» و«Menschliches, Allzumenschliches» عـلى أنـه مـن أنصـارِ الفلسـفة الوضعيـة والنفعيـة والعقلانيـة، وأنـه يلخِّـص كافـةَ التجليـات المفرطـة في سـموِّها وفي نبلهـا للـروح البشريـة في أشـكالها الدنيـا والبسـيطة جـدّاً بمنتهـى الـبرود والهـدوء، كـما لـو أنـه يفعـل ذلـك بقصـدِ المعرفـة النظريـة فقـط لا غـير. «كتـب يقـول في دفـتر يومياتـه لعـام 1888: إنَّ مـا هـو إنسـاني، إنسـاني جـدّاً، عبـارةٌ عـن تمثـال للمعضلـة. يُدعـى ذلـك الكتـاب كتابـاً للعقـول الحـرَّة (ein Buch fur freie Geister): كلُّ جملـة فيـه تقريبـاً ترمـز إلى النـصر، وأنـا أتحـرَّر فيـه مـن كلِّ شيء مخالـف لطبيعتـي. وغريبـة عنـي جميـعُ أشـكال المثاليـة؛ عنـوان الكتـاب في حـدِّ ذاتـه يعنـي: هنـاك

حيث تشاهدون تعبيراً عن المثالية، أرى أنا ما هو بشريٌّ فقط لا غير، للأسف! بشريٌّ جداً. أنا أعرفُ الناسَ أكثر»[1].

وهكذا نرى أنَّ نيتشه كان في عام 1888 أكثرَ جرأة وثقة بالنفس، مما كان عليه عام 1876 عندما كتب «Menschliches, Allzumenschliches». ولكنه مع ذلك ظلَّ يستشهد بأنه يعرف «الناس»، أي الآخرين وليس نفسه هو! مع العلم أنَّ مضمون «Menschliches, Allzumenschliches» بمجمله مأخوذٌ بصورةٍ استثنائية من تجربته الخاصة.

كانت ثمَّة فرصةٌ عند نيتشه لأن يقتنع بأنَّ المثاليةَ غريبة عنه، وأنَّ الدوافع البشرية، والبشرية جداً هي التي تشغل في روحه الحيزَ الخاص بالطموحات المثالية. لم يُسعِده هذا الاكتشاف في عام 1876 وحسب، بل حطَّمه وقضى عليه؛ إذ إنه كان ما زال مشبعاً بتعاليم شوبنهاور في تلك الفترة. ذلك أنه كان يهتف في تلك الفترة تقريباً التي كان يمجِّد فيها معلِّمَه: «يعلِّمنا شوبنهاور أن نضحِّي بالأنا الخاصة بنا، وأن نُخضِع أنفسنا للأهداف الأكثرِ نبلاً - وفي الدرجة الأولى للعدالة والرحمة»[2]. هل يمكننا أن نصدِّق أنه تخلَّى على الفورِ عن الأهداف «المفرطة في نبلها»، واعترف بأنَّ حاجاته البشريةَ هي الوحيدةُ المشروعة والعادلة؟ هيهات! لم يصل إلى هذه الدرجة، ولم يكن بوسعه أن يصلَ حتى وهو في أواخرِ أيامه. أما في اللحظة التي قطَع فيها صِلته بكلٍّ من شوبنهاور وفاغنر، فكان يَعُدُّ عدمَ مقدرته على التفاني، على الأرجح، تشوُّهاً فظيعاً خاصّاً به وحدَه من التنظيم السيكولوجي. وقبل أن يحسمَ أمره تحت غطاء

(1) فورستر – نيتشه: حياة فريدريك نيتشه، المجلد الثاني، صفحة 296.

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الأول، صفحة 410

النظريـة العلميـة بـأن يتحـدَّث عـن نفسـه خلسـةً وبطريقـة لا تَلفـت النظـر، أمـضى الليـالي المؤرِّقـة وهـو يحـاول إعـادةَ روحـه الضالـة إلى التعاليـم الرفيعـة عـن نكـران الـذات. لكـنَّ جميـعَ محاولاتـه كانـت بـلا جـدوى. كلـما راح يُقنِـع نفسَـه أكثـرَ بـضرورة التخـلِّي عـن الأنـا الخاصـة، وكلـما راح يرسـم لنفسـه لوحـةً أكثـرَ وضوحـاً عـن النجـاح والازدهـار المستقبلي للبشريـة، كان أكثـرَ مـرارةً وأكثـرَ إهانـةً وألمـاً بالنسـبة إليـه أن يعتقـد أنـه لـن يكـون موجـوداً عنـد الاحتفـاء بانتصـار الحيـاة، وأنـه محـرومٌ حتـى مـن إمكانيـة تقديـم مسـاعدة فاعلـة في ذلـك الانتصـار القـادم للبشريـة. «سـوف يبلـغ البـشَر أهدافَهـم السـامية، دون أن يبقـى شـخصٌ واحـد مهانـاً أو بائسـاً عـلى الأرض، كـما أنَّ الحقيقـة سـوف تـشرق للجميـع ولـكلِّ فـرد. وهـل هـذا قليـل، يـا تُـرى، مـن أجـل مواسـاةِ روحـك التَّعِسـة؟ وهـل هـذا غيـرُ كافٍ لكـي تكفِّـر عـن عـارك؟ انـسَ نفسـك، وتخـلَّ عـن ذاتـك، تأمَّـل الآخريـن، استمتع وافـرح للآمـال التـي تلـوح أمـام البشريـة، كـما كان الحكـماء يعلِّموننـا ويعِظوننـا منـذ فجـرِ التاريـخ. وإلَّا فأنـت مجـرَّد تافـهٍ وعديـم القيمـة بدرجـةٍ مضاعفـة. وإلَّا فأنـت لسـت إنسـاناً مهزومـاً وحسـب، بـل أنـت أيضـاً هالـكٌ تمامـاً لا محالـة».

مثـل هـذه الكلـمات ومـا هـي أكثـر فظاعـةً أيضـاً، تلـك التـي يقولهـا المـرءُ لنفسـه عندمـا يكـون بمفـرده، والتـي لم يسـبق أن أخرجهـا إلى النـورِ مـن قبـلُ أيُّ عالِـم نفـس مهـما كان شـجاعاً (حتـى دوستويفسـكي لم يفعـل ذلـك)؛ كان يهمـس بهـا لنيتشـه ضمـيرُه الـذي تربَّـى عـلى تعاليـم المثاليـة؛ إذ إنـه كان مـن عائلـة قساوسـة لوثريـين: كان والـدُه وجَـدُّه واعظـين، في حـين أنَّ والدتـه وجَدَّتـه كانتـا ابنتـي واعظـين. هـل سـنحت لكـم الفرصـة لكـي تسـمعوا أو تقـرؤوا في يـومٍ مـن الأيـام مواعـظَ ألمانيـة مـن الإنجيـل؟ في حـالِ أنـه

أتيـح لكـم ذلـك، فإنكـم سـتفهمون مـاذا كان يعتمـل في روح نيتشـه. لم يكونـوا يسـألونه إن كان بإمكانـه أن يقـومَ بالمهـمات التـي كانـت تُطلَـب منـه، لم يكونـوا يريـدون أن يشـدُّوا مـن عزمِـه وأن يَعِظـوه ويبعثـوا الأمـل فيـه، بـل كان يَهـدِر فـوق رأسـه ليـلَ نهـارَ صـوتٌ مرعـب يـردِّد باسـتمرارٍ اللعنـةَ: «أيتهـا العظـام اليابسـة اسـمعي كلام الـرب»: Die Verbum audite, arida ossa[1].

أدرك نيتشـه وقتـذاك أنـه لا ينبغـي لـه أن يأمُـل مـن النـاس مـا هـو أكثـرُ مـن ذلـك. وقـد أحـسَّ ولأول مـرة في حياتـه مـاذا تعنـي الوحـدة. كان العالَـم بأكملـه ضـده؛ ولذلـك كان هـو بـدوره ضـد العـالم بالكامـل. كان يسـتحيل عَقـد صفقـة أو تقديـم تنـازل أو اتفاقيـة؛ لأنـه لم يكـن ثمَّـة خِيـار: إمَّـا أنَّ نيتشـه عـلى حـق، أو أن مأسـاته عميقـة جـدّاً ورهيبـة بشـكلٍ غـير مسـبوق، بحيـث إنـه يتعـيَّن عـلى جميـع النـاس أن ينسـوا أفراحَهـم المألوفـة ومراراتهـم البسـيطة، وأن يتركـوا أعمالَهـم واهتماماتهـم اليوميـة، وأن يرتـدوا في الوقـت نفسـه لبـاسَ الحِـداد الأبـدي بسـبب تلـك الحيـاةِ الفتيـة التـي قُتلـت مـن دون ذنـب، أو أنـه يجـب عليـه هـو خاصـةً أن ينكـرَ نفسـه، وأن يقـوم بـكلِّ مـا لديـه مـن نقـاء وصـدق بتنفيـذ تلـك المطالـب، التـي وضِعـت أمامـه باسـم الحكمـة الخالـدة. وفي حـالِ أنـه كان غـيرَ واردٍ إرغـامُ الجنـس البـشري بأكملـه عـلى أن يتعاطـفَ مـع محنـةِ بروفسـور ألمـاني واحـد، فـإن العكـس أيضـاً صحيـح؛ يسـتحيل بالدرجـة نفسـها وبغـضِّ النظـر عـن كافـة أنـواع التعذيـب أو التهديـد والوعيـد، إرغـامُ هـذا البروفسـور الألمـاني عـلى تقديـمِ تخـلٍّ طوعـيٍّ

(1) عنوان مقطوعة موسـيقية للموسيقار فرانز ليسـت ومعناها باللاتينية: ... أيتها العظام اليابسة، اسمعي كلمة الرب.

عـن حقوقـه في الحيـاة. نشـأ صِـدام بـين العالَـم كلـه وبـين فـرد واحـد، وتبـيَّن أن كلتـا القوَّتـين المتواجهتـين في هـذا الصـدام متكافئـة. وفـوق ذلـك، كانـت تقـف في صـفٍّ «العـالم» تقاليـدُ المـاضي جميعـاً، بالإضافـة إلى الحكمـةِ البشريـة التـي تمتـد قرونـاً طويلـة ووجـدان نيتشـه الخـاص، وأخـيراً البداهـة في حـدِّ ذاتهـا. أمـا في جانـب نيتشـه، فـماذا كان يقـف معـه باسـتثناء اليـأس والإحبـاط؟

مـا الـذي كان يدعـم نيتشـه في هـذا الـصراع المجنـون وغـير المتكافـئ؟ لمـاذا لم يتراجـع أمـامَ الخَصـم الجبَّـار إلى درجـةٍ غـير محـدودة؟ أيـن حصَـل عـلى الشـجاعة لا مـن أجـل خـوضِ الـصراع، وإنـما لكـي يحـدِّق في عينَـي مثـل ذلـك العـدوِّ مبـاشرةً؟ حقّـاً، كان ذلـك الـصراع رهيبـاً وغـير مسـبوق، ولكنـه مـع ذلـك كان مذهـلاً بالنسـبة إلينـا. ألَا تتخفَّـى فيـه تلـك الحقيقـةُ عـن الإنسـان التـي جـرى الحديـثُ عنهـا في نهايـة الفصـل السـابق؟ وهـل هـذا يعنـي أن الحقيقـةَ البشريـة وقـد وقفـت مـع العالَـم ضـد نيتشـه، كانـت مجرَّد كذِبٍ؟

# 23

هـو ذا جوهـرُ مـا كـان نيتشـه يدعـوه فـي قـرارةِ نفسـه «unbedingte Verschiedenheit des Blicks»[1]، وهنـا يكمُـن الفـرقُ بـين نظرتـه إلى الحيـاة وبـين جميـع وجهـات النظـر الفلسـفية الأخـرى التـي كانـت موجـودةً حتـى آنـذاك. كان كلٌّ مـن العقـل البشـري، والأخلاقيـات البشريـة التـي منحـت نفسَـها حقـوقَ إصـدار حكـم نهائـي وأخـير، يقـول لـه: أنـت مهـزوم، أنـت هالـك، لـن تنجـوَ وليـس أمامـك أدنـى أمـل. كان يسـمع مثـل هـذه الكلـمات البـاردة والخاليـة مـن أي شـفقة، حيثـما ذهـب وكيفـما أدار وجهـه. لم تكـن التعاليـم الميتافيزيقيـة المُبالـغ فيهـا والرفيعـة تختلـف في هـذه الحالـة عـن مناقشـاتِ وأحـكامِ النـاس العاديـين والسـذَّج الذيـن لم يسـبق لهـم أن قـرؤوا كتابـاً. كان كلٌّ مـن شـوبنهاور وكانـط وسـبينوزا، وأنصـار الماديـة والفلسـفة الوضعيـة يتأمّلـون نيتشـه ومصـيره، دون أن يكـون بوسـع أيٍّ منهـم أن يقـول لـه شـيئاً يمكنـه أن يتجـاوزَ الجملـةَ الشـهيرة التـي قالهـا أحـدُ أبنـاء روسـيا البيضـاء غـير المُبـالي لرفيقـه الـذي كان يغـرَق: «لا تهـدِر صحتـك، يـا فومـا، بـل اذهـب إلى القـاعِ مبـاشرة». كان الفـرقُ يكمُـن فقـط في أنَّ

(1) اختلاف غير مشروط في وجهات النظر (ألماني).

«التعاليم» لم تكن صريحةً بمقدار صراحة الفلاح البيلاروسي، وفوق ذلك كانت تطلب لنفسها معاملةً توقيرية وحنونة وتبجيلية، بل طلبت حتى الشكر والامتنان؛ إذ إنها كانت تمنح المرءَ عزاءً ميتافيزيقيّاً أو أخلاقيّاً! فهي «للعلم» ليست من هذا العالم، بل إنها نتاجٌ محض للعقل، نتاج conceptio immaculata![1] وكلُّ ما هو ليس معها، كلُّ ما هو ضدها، يصنَّف بشكلٍ كلِّي في خانة «الأنا» التي لا يُعتد بها والمحتقَرة والآدمية التي تنفَّس الفلاسفة الصُّعداء وتحرَّروا منها منذ زمن طويل، بفضل سموِّ طبْعهم وبفضل عبقريَّتهم.

أما نيتشه فكان يشعر بأنَّ جميعَ الأفكارِ الميتافيزيقية والأخلاقية باتت غيرَ موجودة على الإطلاق بالنسبة إليه، في الوقت الذي كانت فيه «أناه» المفتَرى عليها والمشوَّهة، بعد أن تضخَّمت إلى أحجامٍ هائلةٍ غيرِ مسبوقة ولا تُصدَّق، قد حجبَت عنه العالمَ بأكمله ... لو كان شخصٌ آخر مكانه، لكان استكانَ وربما إلى الأبد. وربما كان مات وهو على قناعةٍ بأن حظَّه العاثر جاء به إلى هذه الدنيا من دون تلك الفضائلِ السامية التي تُزيِّن الناسَ الآخرين، لا سيما دُعاة الخير البليغين والمثيرين للشفقة. لكنه، لحسن الحظ، استطاع قبل أن ينال منه المرضُ أن يقوم عدَّة مرات بدور المعلِّم؛ ومن ثَم، كانت لديه في ماضيه الخاصِّ بعضُ المادة من أجل «السيكولوجيا». وبينما كان يتأمَّل أولَ أعماله الأدبية الذي نال عليه الاستحسانَ والمديح من قِبل فاغنر ومشاهير آخرين في ذلك الوقت، كان ينبغي له تلقائيّاً أن يطرح على نفسه السؤال: «بيدَ أنني كنت أملِك

(1) «الحبل بلا دنس» مفهوم في العقيدة المسيحية ويعني العصمة من الخطيئة الأصلية، التي كانت لمريم هبة من الله وتدبيراً استثنائيّاً لم يُعطَ إلا لها.

مظهراً نبيلاً ومثاليّاً لا يقلُّ عن مَظهر جميع الكتّاب الآخرين، كما كنت أبشِّر بالخير وأدعو إلى الحقيقة، وأنشد الأناشيدَ للجمال بحرارةٍ وبشكلٍ طيب بطريقةٍ ليست أسوأ، على الأرجح، مما كان يفعل شوبنهاور خاصةً في أعماله الشبابية. في غضون ذلك كانت تكفي صدمةٌ واحدةٌ قاسية من القدَر، حادثةٌ بسيطة وعادية، حادثةٌ غبية وسوءُ حظ كان يمكنه أن يحدُث مع أي شخص في هذا العالم، سواء كان عظيمَ الشأن أو وضيعاً. وإذ بي أقتنع فجأةً بأنَّ تلك الأنانيةَ التي لم أكن أشكُّ في وجودها عندي، كانت ميزةً عندي مثل أي شخص فانٍ في هذه الدنيا. أَلَا يعني هذا أنَّ جميعَ المعلِّمين الآخرين يتظاهرون بأنهم عندما يتحدَّثون عن الحقيقة والخير، وعن المحبَّة والرحمة، إنما يقومون بالدَّور الاحتفالي التوقيري فقط؛ منهم مَن يفعل ذلك عن حسنِ نيةٍ وعن جهلٍ وعدمِ معرفة، كما كنت أنا أفعل ذاتَ يوم، ومنهم مَن يقوم بذلك، ربما، عن سوءِ نية وعن وعي؟ أَلَا يعني ذلك أنَّ كافة العظماء والقديسين، إذا ما وُضعوا في مكاني، ما كان بإمكانهم أن يواسوا أنفسَهم بحقائقهم الخاصة إلا بدرجة قليلة، مثلي أنا تماماً؟ وأنهم حين كانوا يتحدَّثون عن المحبةِ وعن التفاني ونكرانِ الذات، فإنها كانت تتخفى تحت مثلِ هذه العبارات البرَّاقة والجميلة، مثل أفعى بين الأزهار، تلك الأنانيةُ اللعينة نفسُها التي اكتشفتها أنا في نفسي فجأةً، والتي أحاربها فيَّ بكلِّ هذا السُّعار دون جدوى؟ لعلَّ تلك الفكرةَ غير الواضحة بعد، وربما لم تكن فكرةً بل غريزة، هي التي حدَّدت طبيعةَ التطلعات القريبة من نيتشه؛ فهو لم يقُم بتبريد المُثل العليا بثقةٍ كبيرة، كما يخبرنا عن ذلك في دفترِ يومياته لعام 1888. لدينا في مؤلفاته عشراتُ البراهين على أنه كان مضطرّاً إلى أن يختبر تردُّداً شديداً وشكوكاً كثيرةً

في الفـترة الأولى مـن إبداعـه المسـتقل. توجـد في الأوراق التـي بقيـت بعـد رحيلـه ملاحظـةٌ تعـود إلى عـام 1876؛ أي إلى تلـك الحِقبـة التـي أُلِّـف فيهـا «Menschliches, Allzumenschliches». «يسـأل نفسـه: كيـف يمكـن أن أعثـرَ عـلى اللـذةِ في تلـك الفكـرةِ البسـيطة القائلـة بأنَّـه يمكـن ربـط الدوافـع في كافـة أفعالنـا بالأنانيـة؟»[1] كـما تـرون، لا توجـد ثقـةٌ بعـدُ: تبـدو لـه الفكـرةُ سـاذَجة، ولكـنَّ قـوةً مـا غـيرَ واضحـة وغـيرَ مفهومـة بعـدُ مـن قِبلـه تجذبـه إليهـا. فيـما بعـد، في عـام 1886، وبعـد أن ألقـى نظـرةً اسـتعاديةً راجعـةً عـلى منشـأ «Morgenröthe»، راح يقـول: «إنكـم تشـاهدون في هـذا الكتـابِ الإنسـانَ مـن العالَـم السـفلي وهـو يعمـل، وهـو ينقِّـب ويقـوِّض. أنتـم تـرون، بـشرطِ أن تكـون أعينُكـم قـد اعتـادت التمييـزَ في العمـق، كيـف أنـه يتقـدَّم نحـو الأمـام ببـطء وبحـذر، مـع عنـادٍ وديـع، دون أن يكشـفَ بشـكلٍ كبـير كـم هـو صعـبٌ عليـه أن يتحمَّـل غيـابَ الضـوء والهـواء مـدةً طويلـة. يمكـن القـول، عـلى الأرجـح، إنـه راضٍ عـن عملـه الظلامـي. حتـى يـكاد يُخيَّـل إلينـا أنَّ إيمانـاً مـا يقـوده، وأنَّ لديـه عـزاءه الخـاص ... وهـو بحاجـة، ربـما، إلى ظُلمـةٍ خاصـة وطويلـة، إنـه بحاجـة إلى مـا هـو ملغـز وغـير مفهـوم وغامـض يخصُّـه هـو فقـط؛ إذ إنـه يعـرف أنَّ بانتظـاره صباحَـه الخـاص، وخلاصَـه الخـاص، وفجـرَه الخـاص»[2].

إلَّا أنـه كان بعيـداً عـن الإيـمانِ وعـن الفجـر. أمـا الفكـرةُ العزيـزةُ عليـه التـي لم يكـن يفارقهـا في ذلـك الحـين أبـداً، والتـي كان يقلِّبهـا عـلى أنـماطٍ وطـرقٍ مختلِفـةٍ جـدّاً، فكانـت تكمُـن في القـولِ المأثـور التـالي: «هـل تعتقـدون

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الحادي عشر، صفحة 133.

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، صفحة 3.

أنَّ كلَّ ما هو جيدٌ كان يضمن الوجدانَ إلى جانبه على الدوام وفي الأوقات كافةً؟ فالعلم - أيْ ذلك الشيءُ الجيدُ بكلِّ تأكيد - كان يستغني خلال مدة طويلة عن الوجدان، وقد أبصر النورَ من دون أيِّ حماسة، بطريقةٍ سريَّة دائماً وبطرقٍ ملتوية، وهو يختبئ خلف ستارٍ أو قناع، كما يفعل المجرم أو في أحسن الأحوال مع الشعور نفْسِه الذي يجب أن ينتاب المهرِّب. والضمير الفاسد ليس سوى درجةٍ سابقة، وليس نقيضاً للضمير الحي؛ لأن كلَّ ما هو حسنٌ كان في يومٍ من الأيام جديداً؛ ومن ثَم، كان غيرَ عاديٍّ ومناقِضاً للأعراف، وخالياً من الأخلاق، وكان يقضم، مثل جُرَذ، قلبَ ذلك الإنسانِ السعيد وحسن الحظ الذي اكتشفه أولَ مرة»[1]. يكشف ذلك بدرجةٍ كافية حجمَ الصراع وضراوته، وذلك التذبذبَ والشكوك التي كان نيتشه مضطرّاً إلى أن يتحمَّلها في «طريقه» الجديد. وهو لم يباشر عملَه تحت الأرضي بسبب فضوله البسيط ولا من منطلقِ الفضول العلمي، بل كان بحاجة إلى ظلمة طويلة، كان بحاجة إلى ما هو غير مفهوم وغامض وملغز. أوّاه! كم كان اهتمامه مشدوداً نحو «الوراء»، إلى ذلك العالم البسيط والخفيف والمنظَّم الذي عاش فيه في شبابه! كم كان يتمنى أن يتصالح مع «ضميره»، وأن يعيدَ لنفسه من جديدٍ الحقَّ في أن يتحدَّث عن الأشياء الرفيعة بطريقةٍ مهيبة ومع جميع المعلِّمين في الوقت نفسه! لَمَّا كانت جميع الطُّرق إلى «الوراء» مسدودةً بالنسبة إليه: «راح يروي: كان التفكر بشأن الخير والشر حتى الآن أسوأ ما نجيده؛ كان ذلك على الدوام عملاً محفوفاً بمخاطرَ كبيرة جداًّ. الضمير، والسُّمعة الحسنة، والجحيم، وحتى الشرطة أحياناً، لم

---

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، 49.

تكـن تسـمح ولـن تسـمح بالوضـوح وبالصراحـة هنـا: لا يجـوز التفكـيرُ أو الحديـثُ في حضـورِ الأخـلاق كـما في حضـور السـلطة؛ المطلـوب هنـا الطاعـةُ فحسـب. لم يحـدُث أن وافقـت أيُّ سـلطة، منـذ أن قـام العالَـم، عـلى أن تصبـح مـادةً للمناقشـة الانتقاديـة بشـكلٍ طوعـي؛ أن يقـوم المـرء بانتقـادِ الأخـلاق، وأن يتعامـل معهـا باعتبارهـا معضلـة، عـلى أنهـا شيء إشـكالي، ألا يعنـي ذلـك، يـا تُـرى، أن يصبـح هـو خاصـةً غـير أخلاقـي؟ بيـدَ أنَّ الأخـلاق لا تمتلِـك أدواتِ ترهيـبٍ مختلِفـة لكـي تُبعـد عنهـا أيَّ نقـدٍ قـاسٍ وغـير رؤوف فحسـب، بـل إنَّ جبروتهـا ورسـوخها أكثـرُ مـا يتجـذَّر في ذلـك الفـنِّ الخـاص الـذي يميزهـا، والـذي يقـوم عـلى افتتـانِ البـشر؛ إنهـا تجيـد الإلهـام. يحـدُث أن تكـون نظـرةٌ واحـدة منهـا كافيـة لكـي تصيـب بالشـلل موجـةَ الانتقـاد، وتغريهـا بالانتقـال إلى جانبهـا، بـل يمكِنهـا حتـى أن تحوِّلهـا إلى خَصـم لنفسـها هـي خاصـةً، بحيـث إنَّ الناقـد يغـرز إبرتَـه في جسـده هـو تحديـداً، كـما يفعـل العقـرب. لطالمـا كانـت الأخـلاقُ تمتلـك، ومنـذ قديـم الزمـان، الوسـائلَ كافـةً اللازمـةَ لفـن الإقنـاع: لا يوجـد مثـل أولئـك الخطبـاء المفوَّهـين الذيـن لم يسـتعينوا بهـا. ولطالمـا قامـت الأخـلاق، منـذ ذلـك الحـين الـذي بـدأ فيـه البـشرُ بالـكلام وبالإقنـاع، بـدورِ الغـاوي العظيـم - وقـد كانـت بالنسـبة إلينـا، نحـن الفلاسـفة، كيركـي حقيقيـة»[1].

(1) كيركي أو سيرس هي شخصية من الأساطير اليونانية، وهي ساحرة وابنة إله الشمس هيليوس وحورية البحر بيرسي، وكانت قد قتلت زوجها أمير كولخيس، فطُردت من قِبل شعبها، ووضعها أبوها في جزيرة أيايا المنعزلة في ساحل إيطاليا. وكانت تستطيع أن تغيِّر أشكالَ البشَر إلى ذئاب وأسود عن طريق التعاويذ السحرية والأدوية، وكان قصرها محاطاً بها. عَثر عليها أوديسيوس ورفاقُه الذين حوَّلتهم إلى خنازيرَ، لكن أوديسوس لم يتأثَّر؛ لأنه كان محصناً بعشبةٍ أعطاها له هيرمز، ولم ينتصر عليها فحسب، بل نال حبَّها أيضاً وظلا معاً سنةً، وعندما أراد الرحيلَ أرشدته كيف يبحر إلى أرض الظلال التي تقع على حافة تيار المحيط لكي يعلمَ مصيره من العرَّاف تيريزياس، وأعطته توجيهاتٍ ليتجنَّب الأماكنَ الخطرة في رحلة عودته. (المترجم)

وهكـذا، كلُّ شيء في هـذه الحيـاة «بـشري، وبـشري جـدّاً» فقـط. وهـل في هـذا تكمُـن النجـاة والأمـل والفجـر الجديـد؟ هـل يمكـن ابتـكارُ تأكيـدٍ أكثـرَ غرابـةً ومفارقـةً؟ عندمـا كانـت توجـد بـين أيدينـا الأعـمالُ الأولى لنيتشـه فقـط، التـي كان يؤكـد فيهـا أنَّ اهتمامـه ينحـصر في الحقيقـةِ الموضوعيـة، كان بإمكاننـا أن نفـسِّر لأنفسـنا تلـك الغرابـةَ بتصنيـف نيتشـه مـن ضمـن ذلـك النمـطِ الشـائع جـدّاً في العالَـم مـن العلـماء المكتبيِّـين، الذيـن يُحسـنون أثنـاءَ ممارسـتهم عمَلَهـم النظـري أن يغفِلـوا تمامـاً العـالمَ والبـشرَ والحيـاة. أمـا الآن فقـد تبـيَّن أن نيتشـه لم يكـن فيلسـوفاً وضعيّـاً قـطُّ في أي يـوم مـن الأيـام. إذ مـا هـو المشـترَك بـين الفلسـفة الوضعيـة وبـين الفجـر الجديـد؟ للفلسـفة الوضعيـة فجرُهـا الخـاصُّ وآمالهـا الخاصـة وتعليلهـا الخـاص، كـما أن عقيدتهـا هـي الأخـلاق النفعيـة، وهـي تلـك الأخـلاق نفسـها التـي كان نيتشـه يحفِـر تحتهـا ويقوِّضهـا خـلالَ مـدة طويلـة وبعنـاد. ومذهـبُ النفعيـة يهمـل سـكانَ العالَـم السـفلي عـن سـابقِ قصـد، مـدركاً أنـه لا يسـتطيع تقديـمَ أي مسـاعدة لهـم في شيء. لكنـه في حقيقـة الأمـر، يضـع سـعادةَ البـشَر في رأس مهامِّـه، ولا يتمنَّـى أن يَرفـضَ مـن حيـث المبـدأ حقَّهـم في العيـش. إلَّا أنـه في تلـك الحـالات التـي يُتنكَّـر فيهـا للإنسـان مـن قبـلِ أن يُقـال لهـا ظـروف مسـتقلة، فـإنَّ الأخـلاقَ النفعيـة تكـون عاجـزةً عـن فعـلِ أي شيء، ومـن ثَـم ترتمـي في أحضـان المثاليـة؛ لأنهـا لا تريـد أن تعـترفَ بعجزهـا بشـكلٍ صريـح ومبـاشر. وهـي تسـتبدل، خلسـةً عـن العـين الخبـيرة، كلـماتِ «سـعادة البـشر» بكلـماتٍ أخـرى شـبيهة بهـا مـن حيـث الشـكل؛ «سـعادة الغالبيـة». لكـن الشَّـبه هنـا شـكليٌّ فقـط؛ ذلـك أنَّ «سـعادة الغالبيـة» لا تحمـل المعنـى نفسَـه الـذي تحملـه «سـعادة البشَر»، بـل تحمـل معنـى مناقضـاً تمامـاً؛ لأن الحالـة الثانيـة تفـترض

أنَّ الجميع سوف يعيشون عيشةً جيدة، في حين أنَّ الحالة الأولى تفترض أن يُضحَّى بالأقلية لصالح الأغلبية. ولكن هل يحق، يا تُرى، للفلسفة الوضعيةِ أن تدعوَ إلى التضحية؟ وهل يمكنها أن تبرِّر التضحية؟ إذ إنَّ الفلسفة الوضعية تَعِد بالسعادة، وبالسعادة فقط، وهي لا ترى أيَّ معنى للحياة بعيداً عن السعادة وخارجها؛ وإذ فجأة: تضحية! من الواضح أنها لا تستطيع الاستغناءَ في اللحظة الحرجة عن مساعدة المثالية. وما هو أقلُّ وضوحاً ولكنه أكيدٌ بلا منازع، أنَّ المذهب النفعي لم يرغب يوماً في الافتراقِ عن المُثل العليا قط، ولكنه كان دائماً يتباهى بعلميته وحسب، في حين أنه في أعماق روحه (كما لو أنه كانت توجد «روح» لدى المذهب النفعي، مَن سيصدِّق ذلك؟!) كان يؤمن بالحقيقة وبالخير والحق، بالحَدْس المباشر وبمختلف المفردات الرفيعة والمقدَّسة. وقد كان دوستويفسكي يفتري على الإيمان بالفلسفة الوضعية، كما سبق أن أشرنا، عندما صوَّر راكيتين «مملَّحاً أو ملطَّخاً».

بيدَ أنَّ نيتشه كان قد هجر المُثل العليا منذ زمن طويل. لم تُغرِه «سعادة الأغلبية». التضحية؟ لعلَّ هذه الكلمةَ الجميلة كانت قادرة على أن تلهمه، ولكن للأسف! لم يبقَ لديه ما يمكنه أن يضحِّي به. ماذا كان بإمكانه أن يقدِّم؟ حياته؟ كان هذا سيكون انتحاراً وليس تضحية. كان سيسعده أن يموتَ لكي يتحرَّر من هذه الحياة الكريهة، بيدَ أنه تُحمَل الهبات والعطايا الثمينة فقط إلى المذبح، في حين أنَّ الكائن المنهك والمكسور والمشوَّه لا يروقُ للخير الشبيه بالأصنام الوثنية؛ ولذلك يطلب حيواتٍ فتيةً وطازجة وبديعة وسعيدة لم تَمَسْسها المعاناةُ والألم.

# 24

مـن ثَـمَّ، كان نيتشـه يطـارد تحـت سـتارِ الفلسـفةِ الوضعيـةِ غايـاتٍ ومهاتٍ أخـرى مختلِفـة تمامـاً. كان يسـتخدم الفلسـفةَ الوضعيـة والعلميـة لغايـات أخـرى؛ تـارةً كان يريـد أن «يبـدو» نشـطاً وفضوليّـاً ومثـيراً للسـخرية وهكـذا دَوالَيـك، وتـارةً كان بحاجـة إلى نظريـة يمكـن للشـخص المريـض والمُعـذَّب أن يلجـأ إليهـا رافضـاً تلـك المناقشـاتِ التـي تنشـأ لديـه بطريقـة تلقائيـة. كلُّ هـذا يمكنـه مـن أن يحمـل أهميـةً سـيكولوجية بحتـة بالنسـبة إلينـا، لا سـيما أنَّ نيتشـه كان يلـوي عـلى الـدوام مسـارَه، وكان يتحـيَّن فقـط الفرصـةَ لكـي يتحـرَّر مـن النظريـة التـي ضلَّلتـه؛ ومـن ثَـم أن يقـول مـا يريـد هـو نفسـه بجـرأة. لكـنَّ الشـجاعة بحاجـة إلى الموهبـة والقـوة، وهـي بحاجـة إلى سـلاح مـن أجـل خـوض الـصراع، وسـوف تنقـضي بضـع سـنوات عنـد نيتشـه قبـل أن يحسـمَ أمـره ويعلـن صراحـةً عـن أفـكاره «تحت الأرضيـة». مـع العلـم أنَّنـي أعتقـد أنَّ أنصـارَ الفلسـفة الوضعيـة الحقيقيِّـين كانـوا سـيفضِّلون ألَّا يكـون لديهـم في مكتبتهـم الشـخصية حتـى كتـاب «Menschliches, Allzumenschliches» و«Morgenröthe». وعـلى الرغـم مـن أنَّ نيتشـه يخـوض في هذيـن الكتابين حربـاً متواصلـة مـع الميتافيزيقـا، فإنـه يكتشـف في طموحاتـه العلميـة نوعـاً مـن القلق

الـذي يـكاد يرقـى إلى مسـتوى عـدم اللباقـة. تكمُـن قـوةُ الفلسـفة الوضعيـة في مهـارة الالتفـاف بصمـتٍ عـلى جميـع المسـائل التـي تَعُدُّهـا غـيرَ قابلـة للحـل مـن حيـث المبـدأ، وأن توجِّـه اهتمامنـا إلى جوانـبِ الحيـاة التـي لا توجـد فيهـا تناقضـات عميقـة لا يمكـن أن تتصالـح فيـما بينهـا فقـط؛ إذ إنَّ حـدودَ وعينـا أيضـاً تنتهـي بالتحديـد هنـاك، حيـث تنتهـي التناقضـات غـير القابلـة للحـل والتوافـق. وبهـذا المعنـى، تُعَـدُّ مثاليـة كانـط، كـما هـو معـروف، حليفـاً موثوقـاً بـه للفلسـفة الوضعيـة، وأنَّ الجـدل الشـهير بـين ويـلي[1] (ويليـام) ومِـل[2] إن لم يكـن، في واقـع الأمـر، جـدالاً حـول المفـردات والمصطلحـات العلميـة، عـلى وجـهٍ خـاص، فقـد كانـت لـه، عـلى أيِّ حـال، أهميـةٌ نظريـة محـدودة للغايـة. قـام ألـبرت لانغيـه بإدانـة مِـل وأخـذَ عـلى عاتقـه مهمـةَ الدفـاع عـن ويـلي وكانـط، كاشـفاً لنـا مـرةً أخـرى عـن مثـال الشـغف البـشري. وسـأقول أكثـر: مـن وجهـة نظـري، لم يكـن مِـل كـما يؤكـد لانغيـه، بـل عـلى الأرجـح ويـلي هـو الـذي أظهـر نوعـاً مـن عـدم الدقـة وقلَّـة الأمانـة. لمـاذا كان يجـب

(1) كان ويليام ويلي (1794–1866) موسـوعياً إنجليزياً، وعالِـماً، وقساً إنجليكياً، وفيلسوفاً، وعالِـماً لاهوتياً، ومؤرخاً للعلوم. وكان مدرّساً في كلية الثالوث، في كامبردج. في وقته عندما كان طالباً هناك، تميَّز في كلٍّ من الشعر والرياضيات. (المترجم)

(2) جون ستيوارت مل: فيلسوف واقتصادي بريطاني، وُلِد في لندن عام 1806، وكان البكر لأسرة كبيرة أنجبت تسعة أولاد، وكان والده جيمس ميل أحدَ كبار أهل العلم والمعرفة في القرن الثامن عشر، وعاش بعيداً عن تأثير التيارات الرومانتيكية الجديدة، وترك فيه جيرمي بنثام والفلاسفة الماديون الفرنسيون أثراً كبيراً. وقد نشأ ابنه جون ستيوارت في عزلةٍ عن بقية الأطفال، فنال تربيةً عقلانية. تعلَّم جون اليونانيةَ في السنة الخامسة من عمره؛ حيث اطَّلع على أعمال هيرودوت وأفلاطون، وتعلَّم اللاتينية في التاسعة، وفي الثانية عشرة درَس أرسطو ومنطق هوبز، وفي الثالثة عشرة قرأ مبادئَ ريكاردو، كان غذاؤه الفكري موجَّهاً بعناية من قِبل أبيه، وكان خليطاً من العلم الطبيعي والآداب الكلاسيكية، وحين بلغ جون الرابعة عشرة، كان له من المعرفة والاطلاع ما كان لرجلٍ في الثلاثين. لقد نجح والده في أن يجعل منه كائناً عقلانياً مزوداً بمعلوماتٍ واسعة. (المترجم)

دفْع مِل للوصول إلى اعترافاتٍ سخيفة؟ كان يمكن لأي شخص آخرَ لو كان في موقع هذا الأخير، أن يجد فرصةً لكي يتملّص بطريقةٍ ما دون أن يأخذ على عاتقه المسؤولية عن النتائج المتطرفة التي تشوِّه سمعةَ مختلف أنواع النظريات كما هو معروف. وهل نظرية كانط عمَّا هو مسبق وغير خاضع للتجربة لا تقود، يا تُرى، إلى السخف، وإلى ما يُعرف في لغة الفلسفة بالأنانية النظرية؛ أي إلى ضرورة أن يفكِّر كلُّ إنسان في أنه لا يوجد في الكون أحدٌ سواه على الإطلاق؟ ولا يُخفي ذلك أنصارُ كانط الأكثر نزاهة. هذا هو شوبنهاور، على سبيل المثال، يعلن صراحة أنَّ الأنانية النظرية يستحيل دحضها. لكن هذا لا يمنعه بتاتاً من أن يطوِّر موضوعاته الفلسفية التي تنبُع من المبادئ الكانطية. وهو يتخلّص من العائق المباغت عن طريق المزاح. وها هو ذا يقول إنَّ الأنانية النظرية هي في حقيقة الأمر قلعةٌ حصينة، ولكن الحامية الموجودة في داخلها ضعيفة جداً لدرجةِ أنَّه يمكِن متابعةُ السير إلى الأمام، من دُون احتلالها، ومن دُون الخوف من هجوم على الصفوف الخلفية. ويكاد يكون هذا هو السبيلَ الوحيد لإنقاذ المثالية من الخطر الذي يحيق بها على يد reductio ad absurdum[1]. وأما الوسيلةُ الأخرى الأكثر رواجاً والأكثر أماناً، فهي أن ننسى بكلِّ بساطةِ الأنانيةَ النظرية وأن «نتجاهلها» تماماً. لو أن مِل أراد أن يلجأ إلى مثل هذا النوعِ من الأساليب، لكان بإمكانه أن ينهيَ جداله بطريقةٍ مظفَّرة أكثر. لكنَّ مِل كان إنساناً شريفاً. كان مِل تجسيداً للصدقِ حتى بالمقارنة مع الألمان الذين يُعربون عن اعتراضات استثنائية على هذه الفضيلة. وهم يصوِّرون لنا صدقَهم على أنه عدم أمانة! لا أعرف

(1) الضغط حتى درجة العبث واللامعقول (لاتيني).

إنْ كان مِل مضطرّاً إلى أنْ يقرأ كتابَ لانغيه أم لا، ولكن في حالِ أنه قرأه، فمن المؤكَّد أنَّ الكتاب أكَّد له مرةً أخرى تلك الحقيقةَ الأولية، وهي أنه لا يمكنك العثورُ على العدل عند البشَر.

وفيمَ رأوا، يا تُرى، قلَّة الوجدان عند مِل؟ فهو لم يشأ أن يعترفَ، بعكس كانط، بالمعرفة من خارج التجربة، ولم يكن يرى في العلاقة السببية للظواهرِ سوى ما هو حقيقيٌّ وواقعي، وليس ما هو ضروري. من البديهي أنَّه لم يخطر في بالِ مِل على الإطلاق أن يتطاول على ثباتِ القوانين الطبيعية. ولكن، أَلَا تشكِّل خبرةُ آلاف السنين ضمانةً كافية على ذلك الثبات والرسوخ؟ فما الحاجة، إذن، لاستخدام الوسيلة الميتافيزيقية الخطيرة في البرهان، ما دام أنه ما مِن أحدٍ في عصرنا يشكُّ في واقع الأمر وبصورة جِدِّية في قانونية الظواهر في الطبيعة. كانت الميتافيزيقا تخيف المفكِّر، أما اليوم فيجري إعلاءُ ما هو قبلي في قانون السببية، وكمال الفضاء والزمن، وفي الغد سوف يبرِّرون، على تلك الأسسِ نفسها، القدرةَ على الاستبصار، والطاولات المتحركة والشعوذة، وكلَّ ما تشاؤون. كان مِل يعتقد أن السماح بما هو قبْلي وبديهي يُعَد خطوةً بالغة الخطورة في الفلسفة، وقد تبيَّن أن قلقه لم يكن عبثاً ومن فراغ؛ إذ كشف المستقبل القريب أنه كان على حقٍّ. وها هو ذا شوبنهاور نفسه قد استخدم نظريةَ كانط حول كمال الفضاء والزمن من أجل تفسير ظاهرة التنبؤ أو الاستبصار. وللعلم، إنَّ استنتاجه لا غبارَ عليه. في حالِ كان الزمن شكلاً لإدراكنا، ومن ثَم إذا كنَّا نتلقَّى ما يحدُث بالفعل خارجَ الزمن على أنه الحاضرُ والماضي والمستقبل، أي في الوقت نفسِه (هذا أمر سواء)، فإننا لا نجيدُ رؤيةَ ما مضى أو ما سيأتي،

ليس لأنَّ ذلك مستحيل بالمطلق، وإنما لأنَّ قدراتنا الإدراكية مصمَّمة على النحو المعروف! لكن قدراتنا الإدراكية، كما هي المنظومة الروحية عندنا، ليست شيئاً ثابتاً لا يتغيَّر، بل إنَّ التراجعات عن المعيار أمرٌ وارد لدى المليارات من البشَر الذين يُولدون طبيعيِّين، من وقت لآخر. ومن الوارد أن يكون ثمَّة تنظيمٌ للدماغ البشري، بحيث إنَّ الإنسان لن يكون قادراً على تلقي الظواهر الطبيعية في الزمن؛ ومن ثَم، سوف يندمج بالنسبة إليه المستقبلُ مع الماضي والحاضر، وسيكون بإمكانه أن يتنبأ بالأحداث التي لم تقع بعدُ، وأن يرى الأحداث التي امتصَّها التاريخُ بالنسبة إلى الآخرين. كما تلاحظون، إنَّ الاستمرارية في الاستنتاج عمليةٌ رياضية «خالصة». أمَّا مِل، ومع ما يتمتَّع به من نزاهة، فسيكون مضطرّاً إلى أن يؤمِن، على مضض، بالقدرةِ على الاستبصار، فقط لو أنه كان يعترف ببداهة الزمن. والأسوأ من ذلك، بكل تأكيد، أنه لم يكن ليتخلَّص حتى من الأنانية النظرية، بل كان سيضطرُّ إلى أن يؤكِّد أنه موجود وحدَه في هذا الكون ككل! لهذا يمكن القول إنه كانت لديه أسسٌ جِدية لأن يهابَ المثالية الكانطية، لكن هذا لا يعني بأي حال أنَّ مسألة العلم كانت أقلَّ قرباً إلى قلبه منها إلى قلب كانط، وأنه لم يسْعَ لكي يؤكِّد إلى الأبد تلك الحقيقةَ بخصوص مشروعية الظواهر الطبيعية؛ كان يتحاشى فحسب الفرضياتِ الخطيرةَ والأساليبَ المحفوفةَ بالمخاطر لعملية البرهان.

وها هم أولاء خصومُه، بدورهم، يعلنون له عن اعتراضهم: في حالِ أنه لم يكن ممكناً البرهان على مشروعية الظواهر الطبيعية إلا بالتجربة فقط، أي بالتاريخ المنصرِم، فإنه يمكن الافتراضُ من الناحية المبدئية، والنظرية كحدٍّ أدنى، أن نهايتها سوف تحين ذاتَ يوم. ما زالت المشروعيةُ

مهيمنةً اليوم، ولكن مملكة التعسُّف والجور سوف تقوم ذات يوم بديع. أو أنَّ العلاقة السببية بين الظواهر تقوم هنا في الأرض، في حين أنها غيرُ موجودة في مكانٍ ما من كوكب بعيد. لا يمكنكم أن تقدِّموا أيَّ براهينَ على عكس ذلك؛ لأنَّ الملاحظة التاريخية لا يمكنها أن تتمتَّع إلا بأهميةٍ محدودة ونسبية. كلُّ شخصٍ آخر في مكانِ مِل كان سيتهرَّب على أي حال وبطريقةٍ ما، بيدَ أنَّ مِل لم يكن قادراً على ألَّا يكون صادقاً وأن يعترف بأنه ليس لدينا أيُّ براهين بشأن يوم غد والكوكب البعيد. هذا يعني، بعبارةٍ أبسط، أنَّ الأشياء التي كانت قائمةً حتى الآن في حالة سكون، لم تدخل في حالة حركة من تلقاء نفسها وبلا سبب خارجي، إلَّا أنَّ كلَّ شيء يمكنه أن يبدأ يومَ غدٍ بطريقة مغايرة، وأنه يمكن للحجارة أن تصبح ملتصقة بالسماء، ويمكن أن تتحرَّك الجبال من أماكنها، وأن تجري الأنهار في اتجاه معاكس(1). أي أنَّ كلَّ هذا لن يكون مرةً أخرى:

(1) أرى أنه من الضروري التحفُّظ هنا بأنني أشرح رأي مِل «بكلماتي الخاصة»؛ إذ إنَّ مِل لا يتحدَّث، بالطبع، عن «يوم غد» (إنه يحتفظ بـ «يوم غد» من أجل الفلسفة الوضعية)، كما أنه لا يأتي على ذكر الجبال المتحرِّكة ولا الأنهار التي تجري القهقرى، بل قمتُ أنا بإضافة جميع هذه المحددات من عندي بقصدِ التوضيح بكل تأكيد. وتحاشياً لأي ملامة سوف أورد هنا مقتطَفاً من كتابه «المنطق»: «أنا واثق من أنَّ كلَّ إنسان ... لن يجدَ صعوبة في أن يتخيَّل أنه في واحد من المجالات الكثيرة التي يفرزها علم الفلك في المجرَّة، وأنَّه يمكن للأحداث أن تتوالى الواحد بعد الآخر عن طريق المصادفة، من دون تدخُّل أي قانون. ما مِن شيء في تجربتنا الواقعية ولا في طبيعتنا الروحية يشكِّل سبباً كافياً أو مبرراً لا على التعيين لكي نؤمنَ بأن هذا لم يحدُث في أي مكان وعلى الإطلاق. لنفترض (وهذا ما يمكن تصوُّره بسهولة) أنَّ النظام القائم حالياً في المجرة انتهى وعمَّت فوضى لا يوجد فيها أيُّ تسلسل زمني للأحداث، وأنَّ الماضي غير مسؤول عن المستقبل. وإذا ما حدثت معجزةٌ وبقي شخص واحد فقط حياً وكان شاهداً على ذلك التبدُّل، فإنه على الأرجح سرعان ما سيكفُّ عن الإيمان بالتماثل مهما كان؛ وذلك لأنَّ التماثل لم يَعُد قائماً في حدِّ ذاته» («منظومة المنطق»، الكتاب III، الفصل XXI، الجزء 1).

يشـهد التاريـخ الـذي يمتـد آلاف السـنين عـلى ذلـك بطريقـةٍ مقنعـة إلى درجـةٍ كافيـة، دون أن يكـون ممكنـاً احتـمالٌ كهـذا مـن حيـث المبـدأ. هـذا مـا كان يقولـه أو مـا هـو شـبيه مـن ذلـك، والأدق، مـا كان مِـل مضطـرّاً إلى أن يقولـه. مـن المفهـوم أنَّ المفكِّـر الإيجـابي سـوف يتلقَّـى هـذه الاسـتنتاجات عـلى مضـضٍ، وفي تلـك الحـالات فقـط التـي يرغمـه ضمـيرُ العالَــم النامـي بصـورةٍ مميـزة عـلى القيـام بذلـك. مـن المفهـوم أيضـاً لمـاذا كان ثمَّـة مثـلُ هـذا المظهـر الحزيـن والكئيـب عنـد مِـل حـين كان يقـوم بهـذه الاعترافـات. وإذ لاحـظ لانغيـه بشـكلٍ صحيـح أنَّ المـزاج الروحـي الواضـح والمتـوازن عـادةً عنـد مِـل قـد خذلـه، سـارعَ إلى إعـلام القـارئ بـأنَّ سـببَ ذلـك هـو الضمـيرُ الفاسـد: يشـعر مِـل بأنـه محشـورٌ في الزاويـة، ولأنـه لا يريـد أن يعـترفَ بخطئـه وضلالـه، فإنـه يسـمح لنفسـه بالتوصُّـل إلى اسـتنتاجاتٍ سـخيفة. في حـين أنَّ الأمـر كان في الواقـع عـلى العكـس مـن ذلـك تمامـاً: لم يقـدِّم مِـل «الحقيقـة» قربانـاً لوجدانـه، بـل قـدَّم اسـتقراره الروحـي. إذ إنَّ الفكـرة القائلـة بإمكانيـة الفعـل مـن دون سـببٍ كانـت كريهـة بالنسـبة إليـه إلى درجـةٍ كبـيرة جـدّاً، وكانـت تقـضُّ مضجعـه، ولـو أنـه كانـت توجـد لديـه أدنـى فرصـة لـكان أنكرهـا. ولكـن، مـاذا اقـترح المثاليـون عليـه؟ مفاهيـم قبْليَّـة غـير مبنيـة عـلى التجربـة مـع إمكانيـةِ الطـاولات المتحركـة والإيـمان بالقـدرة عـلى التنبـؤ؟ لذلـك، مـن الأفضـل فعـلُ شيءٍ مـن دون سـبب في مـكانٍ مـا بعيـد جـدّاً وبعـد مـرور آلاف كثـيرة مـن السـنين (سـببية قبْليَّـة تقريبـاً). عندئـذٍ، أولاً، لا تخـدع نفسـك، وثانيـاً، مـا مِـن أحـد أبـداً سيسـتغلُّ في نهايـة المطـاف هـذا الوضـع؛ ذلـك لأنَّـه في الأحـوال كافـة غـيـرُ قابـل للاسـتخدام ولا يلـزم أحـداً كان - حتـى إنَّ كانـط نفسـه لم يتمكَّـن مـن تحقيـقِ مـا هـو

أكثـر. لذلـك تكفـي لحظـة واحـدة مؤلمـة وقاهـرة، ولكـن مـع تعليـلٍ تجريبـي لصـدق معرفتنـا - لأن تكـون بمنزلـة دعامـة ضـد التشـكيكية التـي لـن تصمـدَ بالمقارنـة معهـا أيُّ نظريـات ميتافيزيقيـة للمعرفـة، ومـن ضِمنهـا النظريةُ الكانطية.

يـرى القـارئ أنَّ خصـوم مِـل كانـوا غـير أمينـين. لا يمكننـي أن أفـترضَ أنهـم لم يكونـوا يشـعرون بنقطـة ضَعـف المثاليـة وسـهولة تعرُّضهـا للعطـب؛ إذ إنَّ كلَّ شـخص خبـير ولـو قليـلاً في مسـائل الفلسـفة، يعـرف بشـكل رائـع أنـه لم تُبتكَـر حتـى الآن أيُّ منظومـة خاليـة مطلقـاً مـن التناقضـات. ربـما لا يسـتحق الأمـر الحديـثَ بصـوتٍ قـوي عـن ذلـك، إلَّا أنَّ شـوبنهاور نفسـه كان قـد أعلـن أنَّ أي فلسـفة لا تعـترف بالمقدِّمـات الأساسـية تُعَـد شـعوذةً. وهـذا سرٌّ فقـط بالنسـبة إلى غـير المطَّلعـين وغـير المؤتمَنـين عـلى الأسرار. وفي حـالِ كان الأمـر كذلـك، فهـذا يعنـي أنَّ اللباقـة الأدبيـة البسـيطة كانـت تطلـب مـن ويـلي أو مـن لانغيـه ألَّا يزعـج مِـل وألَّا يمـسَّ مقدماتـه الأساسـية، وألَّا يتجـاوز في المجادلـة حـدّاً معينـاً. كان وجدانهـما يتحمَّـل كلّاً مـن الأنانيـة النظريـة والقـدرة عـلى الاسـتبصار، وهـذه آثـامٌ كبـيرة وثقيلـة، مهـما حـاول شـوبنهاور أن يعبـثَ بطريقـة ظريفـة: كان يجـب غفـران الفعـل مـن دون سـببٍ لأنصـار الفلسـفة الوضعيـة في ذلـك المعنـى، الـذي كان يفترضـه مِـل. لا يمكـن التخلُّـص مـن نتائـجَ كهـذه إلَّا بواسـطة المقدمـات الأساسـية؛ فعـلى أي أسـاس يطالبـون مِـل بتقديـم البراهـين، إذن؟ والأهـم مـن كلِّ ذلـك، إلامَ تقـود هـذه المطالـب؟ إنهـا قـادرةٌ فقـط عـلى نسـف الثقـة بالعلـم بصـورة عامـة؛ أي تُجـاه جميـع المحـاولات التـي تهـدُف إلى تبسـيط الواقـع وتهدئتـه وتمهيـده وجعلـه ملائـماً. وهـي تفتـح الطريـقَ فحسـب أمـام التشـكيكية التـي

تراقب مختلف أنواع الأفكار الدوغمائية الواصلة إلى درجة السخف، مثلما تراقب الحِدأة طريدتَها، ومن ثَم تنقل القضية المشتركة من أجل طموحات نظرية غير مبرَّرة نهائيّاً، إلى أكثرِ الأعداء خطورةً على الإطلاق؛ لأنَّ المهمة الأساسية للعلم، كما هي للأخلاق، تقوم على منحِ الناس قاعدةً راسخة ومتينة في الحياة، وتدرِّبهم على أن يعرفوا ما يوجد وما لا يوجد، وما هو مسموح وما هو غير مسموح. أما السُّبل إلى ذلك فهي قضيةٌ ثانوية، وهي، على أي حال، غيرُ مهمة كثيراً بحيث تجعلنا ننسى بسببها الهدفَ الرئيس. كم كان أنصارُ كانط يفهمون ذلك بصورة سيئة! وكم كان كانط يدرك ذلك بصورة جيدة! وعلى الرغم من أنه لم يكن قادراً على ألَّا يفرح وألَّا يَنسُب لنفسه الفضلَ في وجهة نظره في الفلسفة، فإنه كان يرى في هيوم حليفاً وسلفاً له وليس عدوّاً وكان يقدِّر عالياً تعليله، وإنَّ مِل، بالمناسبة، لم يكن أقلَّ أهميةً وقيمة بالنسبة إلى العلوم من هيوم. لاحظوا فقط، كيف يراعي بمنتهى الصبر وبمعرفةٍ كبيرة في كتابه «منظومة المنطق» أو في مبحثٍ عن مذهب النفعية؛ جميع الحجارة الموجودة تحت الماء التي يصادفها في طريقه، وكيف يقود سفينتَه بدأبٍ ومواظَبة، وبذراع ثابتة وماهرة، إلى ذلك الشاطئ الذي يعيش فيه العلمُ الإيجابي، أي اليقين والوضوح، وأخيراً تلك المتانة والصلابة الكانطية-التولستوية تتويجاً لكلِّ ذلك! أليست مأثرة هائلة؟ وهل تؤدي الأحكام المسبقة، يا تُرى، إلى نشوءِ حالةِ ثباتٍ ووضوحٍ أكبرَ من طريقة مِل؟

لكنَّ الجدالَ في نهاية المطاف، كما سبق أن قلنا، بين المثالية والفلسفة الوضعية، بل حتى مع المادية، ليس سوى جدالٍ حول المفردات فحسب. ومهما آذت الأطرافُ المتجادِلة بعضها بعضاً، فمن الواضح بالنسبة إلى

المراقبِ الحيادي أنها متفقةٌ معاً بخصوصِ ما هو جوهري، وأن الحكاية القديمة نفسَها تتكرَّر هنا: يخلِط المرء بين الغريب والقريب![1] أما ما يتعلَّق بنيتشه، فيمكن تصنيفُ أعماله الأولى فقط في إطارِ أحدِ الاتجاهات الفلسفية القائمة. وابتداءً من «Menschliches, Allzumenschliches»، أي منذ تلك اللحظة التي بدأ ينظر فيها إلى الكون بعينيه الخاصتين، ابتعد على الفور وبالمسافة نفسها عن جميع المنظومات. وقد استعار السلاح من الفلسفة الوضعية ومن المادية من أجل محاربةِ المثالية، وبالعكس؛ ذلك لأنه لم يكن يرغب في شيء بتلك الدرجة نفسها من الصدق والقوة أكثرَ من هلاك جميع التعاليم التي اخترعها البشَر؛ إذ إنَّ تلك «المتانة» التي كانت تُعَد أعلى الغايات وآخِرَها بالنسبة إلى البِنى الفلسفية، والتي كان مؤسِّسو المدارس الفلسفية يعلنون عن ادعاءاتهم عليها؛ لم تكن تثير عنده أيَّ إغراء، بل كانت تخيفه. كانت ضرورية بالنسبة إلى كانط وأنصار المادية ومِل؛ لأنها كانت تضمن لهم ثباتَ ذلك الوضع في الحياة، الذي كان عزيزاً عليهم. إلَّا أنَّ نيتشه كان يطمح في الدرجة الأولى، بالمناسبة، إلى تغيير وضعه؛ فما الذي كان يمكن أن يقدِّمه له الثباتُ من وعود؟ كانت Savoir pour prévoir [2] أو الانتظام اللذان سعَت الفلسفة الوضعية لاستمالتنا بواسطتها بقوة، أقربَ إلى سخرية مهينة بالنسبة إليه. ما الذي كان بإمكانه أن يتنبأ به؟ أنه يستحيل استعادةُ الماضي؟ وأنه لن يُشفى من مرضه أبداً، وسوف يفقد عقلَه في نهاية الأمر؟ كان يعرف ذلك من دون مساعدة الفلسفة الوضعية

(1) قول روسي مأثور: عندما يرتكب المرء الخطأ فيخلِط بين الغريب والقريب ... (المترجم)
(2) اعرف لكي تتنبأ (فرنسي).

والعلم. وهل كانت المثاليةُ الكانطية مع الأخلاقِ التي تتوِّجها للضرورةِ الحتمية تقول شيئاً آخرَ مختلِفاً؟ كانت لغة التشكيكية على الدوام قريبةً من نيتشه وقد ظلَّت كذلك، وليس المقصود هنا تشكيكية الصالونات أو المكاتب التي تتلخَّص في الظرافة اللفظية أو بناء النظريات، وإنما تلك التشكيكية التي تتسلَّل إلى رُوح الإنسان وتُخرِجه إلى الأبد من دوامة الحياة اليومية. يقول زرادشت: «لقد غاب الشاطئ عن ناظري، واجتاحتني أمواجُ ما هو نهائي»، ماذا بإمكان التشكيكية أو المثالية أن تفعل هنا، ما دامت كلتاهما تفترض أن مهمتَها تنحصر في إقناع الإنسان باقترابِ الشاطئ؛ وذلك لكي تخفي عنه اللانهايةَ، ولكي تبقيه ضِمن المجال المحدود للظواهر، المتشابهة لجميع الناس، التي يمكن قياسُها بدقة متناهية، تلك الظواهر المألوفة والواضحة؟ كان الاعترافُ بوجود إمكانية الفعل بلا سبب حتى في كوكبٍ بعيدٍ يمثِّل لِمل خيبةً كبيرة جدّاً. في حينِ أنَّ لانغيه رضي بما هو مسبقٌ وقبْليٌّ بعد كانط، فقط لكيلا يرى نفسَه مرغماً على قبولِ مبدأ التعسُّف في الطبيعة. لكن مشاغلهم برُمَّتها كانت غريبة عن نيتشه؛ بل بالعكس، كانت هواجسهم بالنسبة إليه آمالاً وآفاقاً مفتوحة. كانت حياته ما زالت تعني شيئاً ما، كان يمكن أن تعني شيئاً ما في تلك الحالة فقط التي تصبح فيها جميعُ الإنشاءات العلمية تقييداً ذاتيّاً طوعيّاً للعقل البشري الجبان والضعيف. كانت مهمته الحياتية تتلخص على نحو محدَّد في تجاوز حدود تلك المجالات التي حُبِس فيها من قِبل تقاليدِ العلم والأخلاق. ومن هنا كانت كراهيتُه للعلم التي انعكست في نضاله مع المنظومات الفلسفية، والقرفُ من الأخلاق الذي أنتج مقولةَ «في الجانبِ الآخرِ من الخير والشر». لم يكن لنيتشه سؤالٌ

آخرُ سوى سؤال واحد هو: «إلهي، لماذا تركتني؟»[1] أنتم تعرفون تلك الكلمات البسيطة المفعمةَ بالحزن والمرارة إلى أقصى درجة؟ يمكن أن يكون هناك جوابٌ واحد فقط عن هذا السؤال: إنَّ العلم البشري الذي تأقلم مع الحياة المألوفة والاعتيادية، وتلك الأخلاق البشرية التي برَّرت وأنارت وبجَّلت، ورفعت المقاييسَ التي تمدُّ الغباء بالدعامة والأساس، إلى رتبةِ قانون («الذاكرة الرَّبانية عن روستوف»، «الخير هو الرب»)؛ كلاهما كذِبٌ في كذِب. وبتعبير نيتشه: ما مِن شيء حقيقي، كلُّ شيء مباح؛ أيْ إعادة تقييم جميع القيم.

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، صفحة 113.

# 25

ومن هنا ذلك الطابَع الغريب لفلسفة نيتشه، والذي يستهجنه الناس. لا يوجد فيها استقرار ولا توازن، وهي لا تبحث عنها؛ إنها تحيا على التناقضات كما هي عقيدة دوستويفسكي. لا يفوِّت نيتشه فرصةً لكي يسخرَ مما يُعرف بثبات اليقين. أما المقدِّمات الأساسية التي كان شوبنهاور يَعُدُّها ضروريةً جداً للفلسفة، والتي لم يكن يبرِّرها فحسب، بل إنه لم يكن يرى حاجةً إلى أن يتستَّر عليها، كما جرَت العادة؛ فقد كانت تجِد في شخص نيتشه ناقداً لدوداً ولاذعاً إلى أقصى درجة. «ثمَّة لحظةٌ معينة في كلِّ فلسفة - كان يقول - حين تبرُز إلى الساحة «يقينيات أو معتقَدات» الفيلسوف، أو - إذا ما استخدمنا لغةَ المسرحية الدينية القديمة - adventavit asinus pulcher et fortissimus»[1].

ولكن، إلى جانب هذه التأكيدات يمكنكم أن تصادفوا تأكيداتٍ أخرى مناقِضة لها تماماً: «لا يمكن لزيفِ حكمٍ ما أن يقومَ بدور الاعتراض الكافي ضدَّه على الإطلاق: وفي هذا تُلتَقط، على الأرجح، أكثرُ الأصوات غرابةً في لغتنا الحديثة. يتعلَّق السؤال هنا فقط بمدى تحفيز ذلك ودعمه

(1) جاء حمار جميل وقوي - الأعمال الكاملة، المجلد السابع، صفحة 16.

للحيـاة، وإلى أي درجـةٍ يدعَـم، وربـما يطـوِّر النـوع، ونحـن نميـل بصـورة خاصـة إلى التأكيـد عـلى أنَّ أكثـرَ الأحـكام زيفـاً (تنتمـي إليهـا الأحـكام القبْليَّـة a priori) هـي أكثـرُ مـا نحتـاج إليـه، وأنَّ الإنسـان غيـرُ قـادر عـلى أن يعيـش عـلى الإطـلاق مـن دون السـماح بالتوهُّمـات المنطقيـة، ومـن دون مقارنـةِ الواقـعِ مـع عـالم مختلـق لمـا هـو مطلَـق لا ريـبَ فيـه ومكافـئ لذاتـه دومـاً، ومـن دون تزييـفٍ متواصـل للكـون بواسـطة العـدد. أن نرفـض الأحـكام المزيفـة يعنـي أن نتخـلَّى عـن الحيـاة وأن ننكـر الحيـاة. إنَّ الاعـترافَ بالكـذب عـلى أنـه شرطٌ رئيـس في الحيـاة يعنـي، بالتأكيـد، الدخـولَ في تناقـضٍ خطـير للغايـة مـع وجهـةِ نظـر البـشَر المألوفـة، والفلسـفة التـي تتجـرأ عـلى ذلـك، تصبـح عندئـذٍ «في الجانـب الآخـر مـن الخـير والـشر»[1] إلَّا أنـه مـن الطبيعـي أن ينشـأ هنـا سـؤال: في حـالِ كان الزيـف والأحـكام الزائفـة يمثِّـلان شروطـاً أساسـية للكينونـة البشريـة، وفي حـالِ أنهـما كانـا يسـاعدان في البقـاء وحتـى في تنميـةِ الحيـاة وتطويرهـا، أفـلا يعنـي هـذا أنَّ أولئـك الحكـماء القدامـى الذيـن قدَّمـوا الزيـف، عـلى غِـرار المحقِّـق العظيـم عنـد دوستويفسـكي، عـلى أنـه حقيقـة، كانـوا عـلى صـواب؟ ألـن تكـون المحافظـة عـلى التقاليـد أكثـرَ حصافـةً مـن أي شيء آخـر، أي كـما كان الأمـر في السـابق ومـن دون محاولـة استكشـافِ ما يمكن أن تعنيـه الحقيقـة، والالتـزام في هـذا الشـأن بتلـك الآراء التـي تبلـورت بطريقـةٍ لا شـعورية، أي امتـلاك تلـك المقدِّمـات الأساسـية، و«اليقينيـات» التـي تَذكَّـر نيتشـه بخصوصهـا كلـماتٍ غـيرَ توقيريـة مـن سرٍّ دينـي قديـم؟ مـا دامـت الأحـكامُ القبْليَّـة ضروريـةً إلى هـذه الدرجـة للإنسـان، ومـا دامـت الحيـاة مسـتحيلة مـن دونهـا، ونكرانهـا يعنـي نكـران الحيـاة، فَلْتكُـن هـي التـي تحمـل،

(1) الأعمال الكاملة، المجلد السابع، صفحة 12.

إذن، المسمَّى القديمَ الشرفي للأحكام الحقيقية، في تلك الصيغة بالطبع التي يمكنها أن تنفِّذ مهمتَها النبيلة على أكمل وجه. فما الغاية، إذن، من إبرازِ وجهها المزيَّف؟ لماذا لا يجوز إرساءُ جذورها، كما فعل كانط والكونت تولستوي، في عالَمٍ آخرَ بحيث يكون بإمكان البشَر ألّا يصدِّقوا حقيقتَها فحسب، بل أن يقتنعوا أيضاً بأنها تمتلك قاعدةً ميتافيزيقية، أخروية؟ وبما أنَّ الزيف ضروريٌّ للحياة إلى هذه الدرجة، فإنه من الضروري للبشَر بدرجةٍ لا تقلُّ عنها أن يفكِّروا في أنَّ هذا الزيف ليس زيفاً، بل إنه الحقيقة ... لكن الواضح أنَّ نيتشه لا تشغَل بالَه «الحياة»، التي يبذل جهوداً كبيرة في سبيلها، وإنما يَشغله شيءٌ آخرُ مختلِف، في الحدِّ الأدنى، ليس هو تلك الحياة الشبيهة بتلك التي كانت الفلسفةُ الوضعية والأحكام القَبْليَّة وكَهَنتها وأساتذة الحكمة، يحرصون عليها حتى الآن، وإلّا لَما راح يصرُخ في الباحة العامة تقريباً مفشياً السرَّ المهني للفلسفة، بل على العكس، كان سيسعى لكي يتسترَ عليه ويخفيه في مكانٍ أعمق. كان شوبنهاور قد ارتكب خطأً تكتيكيّاً حين أعلن أنَّ الفلسفةَ مستحيلة من دون مقدِّمات أساسية، في حين أنَّ نيتشه ذهب أبعدَ منه. هذا يعني، في نهاية المطاف، أنَّ ما يشغَل بالَه ليس السؤال بشأنِ مساندة ما يدعوه هو بكلمةٍ مجرَّدةٍ: «الحياة»، والحفاظ عليه. فهو، شأنه شأن كثيرين غيره، لا يكترِث بحياةٍ كتلك، ولا يعبأ بها، مع أنه يتحدَّث عنها. إنه يدرك أنَّ «الحياة» كانت قائمةً حتى الآن من دونِ وصاية الفلاسفة؛ وأنها سوف تكتفي بقواها الذاتية في المستقبل أيضاً. وإذ يبرِّر نيتشه بهذه الطريقة المحفوفة بالمخاطر تلك الأحكامَ القَبْلية، فإنه يسعى من أجل تشويه سُمعتها فقط، وذلك لكي يفتحَ الطريقَ أمامه نحو الحرية التامة في البحث والدراسة، ولكي يفوزَ بالحق في أن يتحدَّث عمّا يلتزم الناس الصمتَ إزاءه.

يقول زرادشت:

«جميعُ الكلمات هناك، في الأسفل (لدى البشر) مجرَّد عبثٍ. إنهم يرون هناك أفضلَ حكمة في قدرتهم على أن ينسوا وأن يعبِّروا بلا اكتراث؛ لقد عرفتُ ذلك منهم. ومَن يريد أن يفهم كلَّ شيء لدى الناس، يجب عليه أن يهاجمَ كلَّ شيء»[1]. لم يكن نيتشه نفسُه يختلف في شبابه من هذه الناحية عن الفلاسفة الآخرين. ولم يكن يتوقَّف هناك بملء إرادته، حيث كان الآخرون يمرُّون بلا اكتراث، ويتذكَّر ما كان الآخرون يتناسونه ويغفُلون عنه. «تسأل المعاناةُ عن الأسباب؛ في حين أنَّ اللذَّة تميل إلى البقاء على ما هي عليه دون أن تنظرَ إلى الوراء»[2]، بيدَ أنَّه ليس كلُّ معاناة تعلِّمنا أن نسأل. يأتي الإنسان إلى الحياة بصفته نصيراً للفلسفة الوضعية، وهو ليس بحاجة على الإطلاق إلى أن يجتاز مراحلَ لاهوتية وميتافيزيقية لكي يتذوَّق المحدوديةَ في تحصيل المعرفة، التي تنصح بها الفلسفةُ الإيجابية. بل على العكس، إنه يتحاشى الحكمةَ الكبيرة والمُبالغ فيها كثيراً، حتى إنه يسعى إلى أن يتخلَّص ويتحرَّر من المعاناة قبل كلِّ شيء؛ وحينئذٍ فقط، بعد أن تصبح كافة المحاولات في هذا الاتجاه الإيجابي بلا جدوى، وبعد أن يقتنعَ بأنه لا يجوز «التكيُّف»، وأنه لا يمكِن العثورُ على ذلك الوضع الذي تكفُّ فيه «المعاناة» عن التذكير بنفسها؛ يخرج إلى ما بعد حدود الحقيقة الإيجابية ويبدأ بطرحِ الأسئلة دون أن ينتبه إلى ما إذا كانت أسئلته مسموحاً بها أم غير مسموح بها من قِبل علمِ المناهج المعاصر (الميثودولوجيا) ونظرية المعرفة. يقول نيتشه: «نحن جميعاً نعيش في أمانٍ كبير جدّاً إلى حدٍّ ما،

(1) الأعمال الكاملة، المجلد السادس «العودة إلى البيت» Die Heimkehr.

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الخامس، صفحة 51.

وهـو مـا يجعلنـا خـبراءَ حقيقيـين في الـرُّوح البشريـة: أحدُنـا سـوف يـدرك نتيجةً لشـغفه بالمعرفـة، والآخـر بسـبب السَّـأم، والثالث بفعـل العـادة؛ دون أن نسـمع أبـداً صوتـاً آمـراً: «هيـا اعـرِفْ أو مُـتْ». سـنظلُّ نتعامـل مـع الحقائـق بحـذرٍ استـخفافي إلى أن تخـترق جسـدَنا مثـل نَصـلِ سـكينٍ بالضبـط. سـوف تبـدو لنـا قريبـةً جـدّاً مـن تلـك «الأحـلام المريشـة»، التـي يمكننـا أن نقبَـل بهـا أو أن نرفضهـا، كـما لـو أن ثمَّـة شـيئاً مـا فيهـا مرتبطـاً باسـتبدادنا، كـما لـو أنَّ بإمكاننـا أن نصحـوَ مـن حقائقنـا هـذه»[1]. إنكـم تلاحظـون كيـف تتباعـد حـدودُ العالَـم المُـدرَك: يحتـاج الأمـر إلى صـوتٍ آمـرٍ - «اعـرِفْ أو مُـتْ» - لدافـعٍ حاسـمٍ لم يخطُـر ببـالٍ كانـط. وأخـيراً، يحتـاج الأمـر أن تخـترق الحقائـقُ الجسـدَ مثـل نَصـل سـكين بالضبـط؛ وهـذا مـا لا يُشـار إليـه، لا يُقـال شيء بشـأنه لا في نظريـة المعرفـة ولا في المنطـق. تُصـوَّر عمليـة العثـور عـلى الحقائـق هنـاك بطريقـةٍ مغايـرة تمامـاً، أن تفكِّـر هنـاك يعنـي أن تنتقـل مـن استـنتاجٍ إلى اسـتنتاجٍ آخـرَ بهـدوء وعـلى التـوالي، مـع توتُّـر ولكـن بطريقـةٍ غـير مؤلمـة. أمـا أن تفكِّـر عنـد نيتشـه فمعنـاه أن تتـألم، وأن تتعـذَّب، وأن تتلـوى في التشـنُّجات. وعنـد دوستويفسـكي أيضـاً، في حـالِ كنتـم تتذكَّـرون رواياتـه، مـا مِـن أحـدٍ مـن الشـخصيات يفكِّـر وفـق قواعـدِ المنطـق: لديـه في كلِّ مـكان جنـونٌ وانهيـار عصبـي، نحيـب وصريـر أسـنان. والفيلسـوف المنظِّـر يـرى في كلِّ ذلـك إسرافـاً غـيرَ ضروري، بـل إنـه ضـارٌّ. يقـول سـبينوزا: non ridere, non lugere, neque detestari, sed intelligere[2] وهـو يعتقـد أنَّ بإمـكان المـرء أن «يفهـم» عـن طريـقِ التفكـير المجـرَّد، أو كـما يدعونـه التفكـير

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، صفحة 311.

(2) لا تضحك ولا تنتحِب، ولا تلعن، بل افهم (لاتيني).

المنطقي عن طيبِ خاطر. ولكن ما الذي «فهمته» الفلسفة حتى الآن؟ تبرُز لدى نيتشه شكوكٌ مشروعة بخصوصِ ما إذا كانت الأساليب التي نصحَ بها سبينوزا، والتي ما تزال تُستخدَم من قِبل أساتذةِ الحكمة الممارسين، تضمن السبيلَ الأكثرَ صدقيةً أو حتى الوحيدَ الصحيح الذي يقود إلى الحقيقة. «ربما كانت كينونتنا المحارِبة تنطوي على بطولةٍ مستترة، لكن المؤكَّد أنَّه لا يوجد فيها شيءٌ ربَّاني، قائم في ذاته إلى الأبد كما كان سبينوزا يعتقد. إنَّ التفكير الواعي، وتحديداً التفكير الفلسفي، هو أكثرُ أشكال التفكير ضَعفاً وعجزاً؛ ومن ثَم أكثرها استقراراً وهدوءاً بشكلٍ نسبي؛ أي إنَّ الفيلسوف على وجهِ التحديد هو أكثرُ مَن يمكن جرُّه إلى حكم خاطئ بخصوص طبيعة الوعي ...»[1].

ولكن، ليس الفيلسوف فحسب، بل نحن جميعاً، أبناءَ التربية المعاصرة، وبسببِ شروط تطوُّرنا لسنا قادرين، إلَّا بصعوبةٍ، على الحكم بشكلٍ صحيح على طبيعة إدراكنا وحدوده، وبشأن «الحقيقة». والحقيقة هي أنَّ الخرافة كانت موجودةً بصورة دائمة بين الناس، ولا يمكن أن نحدِّد مثلَ هذه الحِقبة، التي عُدَّ فيها خطأٌ ما حقيقةً، وحقيقةً عظيمة. بيدَ أنَّ الناس لم يسبق أن كانوا في يوم من الأيام على هذه القناعةِ العميقة بعصمة أساليبهم المنهجية، كما هي الحال في أيامنا هذه؛ إذ إنهم يطلِقون على قرْننا هذا لقبَ قرن الشك par excellence[2]، بعبارة أخرى، يفترضون أنه إذا كنا ننظر إلى شيءٍ ما على أنه حقيقة، فإنما نفعل ذلك بعد الدراسة الدقيقة والفاحصة جدّاً فقط، حين لا يعود ثمَّة أيُّ شك بشأنه ممكناً على

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الخامس، صفحة 253.

(2) على الأغلب (فرنسي).

الإطلاق. أما أن «نؤمن» فنحن لا نجيدُ ذلك على الإطلاق، حتى لو أننا كنا نرغب فيه. مع العلم أننا نتلقى تربيةً بأن «نؤمن» منذ طفولتنا، والأهمُّ أن نؤمنَ بأشياءَ بعيدة كلياً عن الحقيقة! الصبي الريفي أو الشاب المتوحِّش كلاهما يؤمن، بالطبع، بما يرويه لهما الكبار، لكنهم لا يروون لهما عادةً أيَّ شيء بعيدٍ عن الحقيقة، غاصب للفكرة. كلُّ هذا غيرُ حقيقي، وكلُّ ذلك غيرُ موجود، ولكن هذا كله معقول ومفهوم. والعقل الفتي يتوصَّل من هذه القصص إلى استنتاج وحيد، ألَا وهو أنه توجد أشياءُ غريبة جداً ومثيرة للاهتمام، لم يسبق له أن شاهدها، ولكنه سوف يراها، ربما، في يوم من الأيام بأمِّ عينيه.

الأمر مختلِف بالنسبة إلى الطفل في مجتمعاتنا: رأسه مُعفىً من الحكايات، وهو يعرف أنه لا وجودَ للعفاريت والمشعوذين، ويدرَّب عقله كي لا يصدِّق حكاياتٍ من هذا القبيل، حتى ولو كان ثمَّة ميلٌ في أعماقه إلى العجائب. لكنهم في الوقت نفسِه يبدؤون بمدِّه منذ الطفولة الباكرة بمعلوماتٍ إيجابية تَفُوق - من ناحيةِ بُعدها عن الحقيقةِ - جميعَ التلفيقات التي ذهب إليها أكثرُ رواة الحكايات الخيالية تطرفاً في أي يوم من الأيام؛ إذ إنهم يقولون له، على سبيل المثال، وبنبرةٍ واثقة ومهيبة تختفي بفعلها - ولا بدَّ أن تختفيَ - كلُّ الشكوك: إنَّ الكرة الأرضية ثابتة لا تتحرَّك، وهذا ما يشهد عليه أمرٌ واضح وهو أنَّ الشمس لا تطوفُ حول الأرض، وأنَّ السماء ليست صلبة، والأُفق مجرَّد خداع بصري، وهكذا دَوالَيك إلى ما لا نهاية. يتلقَّى الطفل كلَّ ذلك في الطفولة المبكِّرة جداً، وعادةً من دون حتى أي تصوُّرات وأدلَّة يُستشهَد بها في الكتب المدرسية البدائية لمادة الجغرافيا. وكل هذا يسلِّم به الطفلُ على أنه حقيقةٌ لا ريبَ فيها ولا

حاجـة للتحقُّـق مـن صحتهـا؛ لأنها صـادرة عـن الكبـار، ولأنها مكتوبـة في الكتـب. تفضَّلـوا وقولـوا لنـا أيُّ حكايـةٍ مـن الحكايـات التـي يخترعهـا كتَّـابٌ جهلـةٌ بقصـد الربـح - وليـس مـن تلـك الحكايـات التـي ينصـح الشـعبَ بهـا النـاسُ المثقَّفـون - تنطـوي في ذاتهـا عـلى كـذبٍ أكـبرَ بالنسـبة إلى الطفـل مـن تلـك الحقائـقِ التـي نعلِّمـه إياهـا؟ المشـعوذ، والسـاحرة، والشـيطان؛ هـذه أشـياءُ جديـدةٌ، ولكنهـا مفهومـة ولا تتناقـض مـع مـا هـو جـليٌّ. في حـينِ أنَّ الأرَضَ التـي تـدور والشـمسَ الثابتـة والسـماءَ الصوريـة ... إلـخ، هـي ذروة السُّـخف والهـراء بالنسبة إلى الطفـل. ولكنهـا أشـياءُ حقيقيـة مـع ذلـك، وهـو يعـرف ذلـك بـكل تأكيـد ويعيـش مـع هـذه الحقيقـةِ التـي لا تُصـدَّق سـنواتٍ عديـدة. وهـل يمكـن لمثـلِ هـذا القـسرِ عـلى العقـلِ الطفـولي، يـا تُـرى، ألَّا يشـوِّه قدراتـه الإدراكيـة؟ ألَـن يتحـوَّل الإيـمانُ بمعنـى الهُـراء إلى طبيعـةٍ ثانيـة لـه؟ وهـل يمكـن في نهايـةِ الأمـر ألَّا يبقـى في أعـماقِ كلِّ واحـدٍ منَّـا ميـلٌ لقبـول مـا يُعـرَض عـلى مجتمعنـا بأكملـه مـن زيـفٍ عـلى أنـه حقيقـة؟ أو - في حـالِ بـدت هـذه النتيجـةُ مفارَقـةً أو مبالغـةً كبـيرة جـدّاً ألا يجـبُ أن يكـون لدينـا في كافـة الأحـوال اسـتعدادٌ لأن نؤمـن بهـراء واضـح بالنسـبة إلينـا (intelligere - بعبـارة أخـرى)، مـا دام هـو وحـدَه محاطـاً بتعليـلٍ معـروف ويَصـدُر عـن علـماءَ أو يُؤخَـذ مـن كتـبٍ لهـم؟ وأن نؤمـن، عـلى سـبيل المثـال، بـإرادةِ شـوبنهاور، وبـ Ding an sich[1] عنـد كانـط، وبـ deus sive natura[2] عنـد سـبينوزا؟ لقـد فقَدَ عقلُنا الذي اسـتوعب في الطفولة كلَّ هـذا الكـمِّ مـن السـخافات، القـدرةَ عـلى الحمايـةِ الذاتيـة وأصبـح يقبَـل كلَّ

---

(1) الشيء في حدِّ ذاته، مفهوم في فلسفة كانط.

(2) شعار وحدة الوجود عند سبينوزا (لاتيني).

شيء باستثناء ما سبق أن حذَّروه منه منذ الطفولة أيضاً، أيْ مما هو عجيب، أو بعبارةٍ أخرى، من الفعل بلا سبب. هنا يكون العقل حذِراً بصورةٍ دائمة، بحيث إنك لن تستطيعَ إغواءه بأي شيء؛ لا بالفصاحة ولا بالإلهام ولا بالمنطق. ولكن، بما أنه لا يوجدُ ما هو عجيب فسوف يمرُّ كلُّ شيء. ماذا «يفهم» الإنسانُ المعاصر، على سبيلِ المثال، من عبارة «التطوُّر العفوي للكون»؟ حاوِل أن تنسى للحظة واحدة - لحظة واحدة فقط، في حال كنتَ قادراً على ذلك - «المدرسةَ»، وسوف تقتنع من فورك بأنَّ تطوُّر العالَم يجري بطريقةٍ غير عفوية إلى درجةٍ فظيعة: كان سيصير عفويّاً لو أنه لم يكن ثمَّة شيء - لا العالم ولا التطور.

مع العلم أنه لا يوجد بين الناس المعاصرين شخصٌ واحد لا يؤمن بدوغمائيَّة العفوية إلى درجةٍ راسخة كما يؤمن كاثوليكي ورع بعِصمة بابا الفاتيكان. وحتى أكثر من ذلك؛ يمكن تغييرُ قناعةِ الكاثوليكي بهذه الطريقة أو تلك، في حين أنَّ الإنسانَ المعاصر لن يقبل بأي شكل ومهما كان الثَّمن بصورةٍ جِدِّية بالفكرةِ القائلة بأنَّ العالَم تطوَّر بشكلٍ غير عفوي، ومن ثَم فإنَّ العنفَ في الطبيعة والفعلَ من دون سبب الذي تحدَّث عنه مِل، لا يَصلحان مؤشراً على حدودِ إدراكنا أبداً. تلك حقيقةٌ بالنسبة إليه (الإنسان المعاصر)، مثلما هي الحال بالنسبة إلى كلٍّ من مِل وكانط، لا يمكن أن يوجد خارجَ إطارها تفكُّرٌ أو حياة. أولئك الذين يتنكَّرون لها يُعدَمون وَفق القناعةِ العامة بطريقةٍ هي الأكثرُ فظاعةً من بين الإعدامات الموجودة؛ بالعُقم الأبدي. ها هو ذا التنينُ الذي يقوم على حمايةِ الفلسفة الوضعية والمثالية! مَن ذا الذي سيكون لديه من الشجاعةِ ما يكفي لكي يدخل في صراعٍ معه؟ وكيف يمكن للإنسان العادي، محض

إنسـان، أن يُقْـدِم عـلى خطـوةٍ رهيبـة كهـذه، وأن يعلـنَ صراحـةً: لا يوجـد شـيء حقيقـي، كلُّ شيء مُبـاح؟ ألا يحتـاجُ لأجـل ذلـك في الدرجـة الأولى أن يكـفَّ عـن أن يكـون إنسـاناً؟ ألـن يكـون بحاجـةٍ إلى أن يبحـث في ذاتـه عـن قـوى غـيرِ معروفـة وغـيرِ مجرَّبـة، كنـا نتجاهلهـا حتـى الآن ونخـاف منهـا؟ اسـمع صـلاةَ نيتشـه، وسـوف تفهـم بصـورةٍ جزئيـة كيـف تُولَـد اليقينيـات في روحـك، ومـاذا يعنـي أن تذهـبَ في طريقـك الخـاص، وأن تكـون لـك وجهـةُ نظـر خاصـة إلى الحيـاة: «أواه، ابعثـوا الجنـونَ إليَّ، أيهـا القائمـون في السـماء! الجنـون، لكـي أسـتطيعَ أن أصـدِّق نفسـي، في نهايـة الأمـر. ابعثـوا إليَّ الهذيـان والتشـنُّجات، النـورَ المباغِـت والظُّلمـة المباغِتـة، اجعلـوني أُصـاب بنوبـاتٍ مـن الحُمـى التـي لم يسـبق لإنسـانٍ فـانٍ أن خبرهـا، وأرعِبـوني بصخـبٍ غامـض وبأحـلام ملغـزة، أرغمـوني عـلى الأنـين والنحيـب والزَّحـف مثـل الحيوانـات؛ بـشرط أن أعثـرَ عـلى الإيـمان في ذاتي. إنَّ الشـك يلتهمنـي، لقـد قضيـتُ عـلى القانـون، والقانـون يثـير الرعـبَ فيَّ، كـما تُرعِـبُ جثَّـةٌ إنسـاناً حيّـاً؛ مـا لم أكـن أكـبرَ مـن القانـون، فـإني المنبـوذُ الأكثـر نبـذاً بـين بنـي البشَر. مـن أيـن جـاءت تلـك الرُّوح الجديـدة التـي أبـصرَت النـورَ فيَّ، إنْ لم يكـن مـن عندكـم؟ برهِنـوا لي أننـي واحـدٌ منكـم؛ لأنَّ الجنـون وحـدَه قـد لا يبرهِـن عـلى ذلـك»(1).

(1) هكذا تكلَّم زرادشت، أغنية الرقص الأخرى.

# 26

اسـتُجيبَ لدعـاء نيتشـه: أنـزل سـكانُ السـماء الجنـونَ عليـه. خـلال إحـدى نزهاتـه المنفـردةِ في جبـال منطقـة إينغاديـن السـويسرية صعقتـه فجـأةً فكـرةٌ، مثـل الـبرق تمامـاً، بخصـوص «العـودة الأبديـة»؛ وإذ بطبيعـةِ إبداعـه تتغـيَّر تمامـاً منـذ تلـك اللحظـة. لم يَعُـد يوجـد أمامنـا إنسـانٌ مـن العالَـم السـفلي، يقـوِّض خُلسـةً - بحيـاءٍ وحـذَر - قناعـاتٍ تلقَّاهـا تحـت غطـاء نظريـاتٍ غريبـة عنـه. بـدأ يتحـدَّث إلينـا زرادشـت مؤمنـاً برسـالته النبويـة، ويتجـرأ عـلى الجهـر برأيـه في مواجهـةِ رأي جميـع النـاس. لكـن الغريـب في الأمـر هـو أنَّ نيتشـه لم يُطـوِّر فكـرةَ العـودة الأبديـة بصـورةٍ مفصَّلـة وواضحـة عـلى الإطـلاق، مـع أنـه كان يـرى فيهـا بدايـةَ تعاليمـه الجديـدة ومَصْدرَهـا. كان قـد تحـدَّث عنهـا عـدَّة مـرات في «Also sprach Zarathustra»[1]، لكنـه كان يقطـع حديثَـه في كلِّ مـرَّة دون أن يكمـل كلامـه؛ لذلـك يخطـر في البـال لا شـعوريّاً الظـن بـأنَّ «العـودة الأبديـة» كانـت في نهايـة المطـاف مجـرَّد تعبـير غـير كامـل وغـير كافٍ عـن نهـوض روحـي مفاجـئ عاشـه نيتشـه. وقـد سـبق أن تحـدَّث عنـه أنصـارُ فيثاغـورث، ومـن الطبيعـي أنَّ نيتشـه، الخبـيرَ في فقـه

(1) «هكذا تكلم زرادشت» رواية فلسفية لنيتشة.

اللغة الكلاسيكية، لم يكن وارداً ألَّا يعرف ذلك. من الواضح أنها كانت تعني بالنسبة إليه أمراً آخرَ مختلفاً عمَّا كانت تعنيه بالنسبة إلى القدماء، وأنه كان بمقدوره أن يبنيَ آمالاً أخرى تتفق مع ذلك. وبالفعل، ما هو المعنى الجديد الذي كان يمكن أن يمنحه وعدُ العودةِ الأبدية لحياته؟ ماذا كان بإمكانه أن ينهلَ من القناعة بأنَّ حياته - على ما كانت عليه، مع جميع ما فيها من مخاوفَ - قد تكرَّرت عدداً لا يُحصى من المرات؛ ومن ثَمَّ يمكنها أن تتكرَّر عدداً لا يُحصى من المرات الأخرى من دون أدنى تغيير؟ لو أنَّ نيتشه كان يرى في «العودة الأبدية» ما كان يقوله أنصارُ فيثاغورث فقط، لَكانت ستجلِب له هذه الفكرة القليلَ من الآمال الجديدة! وبالعكس، بما أنَّ «العودة الأبدية» منَحَته آمالاً جديدة، فهذا يعني أنها كانت تَعِده بشيء مختلِف عن التكرار البسيط لِما كان في حوزته في حقيقة الأمر؛ لذلك يمكن القول بثقةٍ إنَّ هذه الفكرةَ كانت بالنسبة إلى نيتشه في المقام الأول احتجاجاً رمزيّاً ضد نظريةِ الإدراك التي كانت مسيطرةً في تلك الفترة، مع النتائج العملية لها بخصوص دَور الإنسان الفرد وأهميته في العالم. لم تكُن هذه الفكرة تعكس كلَّ ما كان نيتشه يريده؛ ولهذا السببِ بالتحديد، وعلى الرغم من أنه يطلِق على نفسه لقبَ معلِّم العودةِ الأبدية، كان يعلِّم كلَّ شيءٍ باستثناء العودة؛ أما «فكرته الأخيرة» بالتحديد فهو يرفض الإعلانَ عنها بشكلٍ صريح. من المرجَّح أنَّه في مواجهة الخرافات أو المعتقدات التي تمتد آلاف السنين، حتى «الجنون» لا يمتلك الجرأة الكافية لأن يكون صريحاً ومكشوفاً حتى النهاية. وهذا ما يشهد عليه مقتطَف من حديثِ زرادشت مع الحياة: «... ألقت الحياةُ نظرةً متأمِّلة، ثم قالت بصوتٍ خافت: «أواه! إنك غير مخلِص لي بدرجة كافية، يا زرادشت! أنت لا تحبني كما تقول على الإطلاق؛ وأنا أعرِف أنك

تنوي هجراني عمَّا قريب. ثمَّة جرسٌ قديم وثقيل جداً يرنُّ باستمرار. تصل ضرباته أثناءَ الليل إلى كهفك، وعندما تسمع دقَّات الساعة في منتصف الليل، تبدأ بالتفكير بين الضربة الأولى والثانية عشرة. تفكِّر، أواه يا زرادشت، بأنك سوف تهجرني في وقتٍ قريب جداً!» أجبتُها بدَوْري على مهَلٍ: «كلا، ولكنكِ تعرفين أيضاً». وقلت لها هامساً في أُذنها، من خلال خُصلات الشَّعر المشاكسة والمجعَّدة ... - «هل تعرِف هذا، أواه، يا زرادشت؟ ما مِن أحدٍ يعرِف ذلك»، ومن ثَم ألقى كلانا نظرةً على الآخر من جديد، وعلى المرج الأخضر الذي كان المساء البارد يهجُم عليه في تلك اللحظة، وبدأنا ننتحب معاً. ولكن الحياة عندئذٍ أصبحَت أكثرَ لطفاً معي من حكمتي بأكملها»[1].

ما الذي همس به زرادشت إلى الحياة؟ ما هو ذلك السرُّ الذي لا يعرفه أحد، باستثناء زرادشت؟ من الواضح أنه يتعلَّق بـ «العودة الأبدية» بصورةٍ مباشرة، ولكنه أقل تجرُّداً و خالٍ من المضمون على أية حال. لقد أنهكت الحياةُ زرادشت وقهرته، وهو يريد مفارقتها، بيدَ أنَّ السرَّ الذي يعرفه هو وحدَه، يصالحه مع معاناته ويعلِّمه محبَّة الواقع أكثرَ من الحكمة. بعد حديثه مع الحياة مباشرةً، وكجزء ثالث من تلك الأنشودة نفسِها[2](«Das andere Tanzlied»)، توجد قصيدةٌ غريبة ولكنها آسرة، ويُفترَض بها، كما يبدو، أن تشرح ولو جزئيّاً مغزى «السرِّ». والقصيدةُ تتألَّف من اثني عشر شطراً، توافق اثنتي عشرة ضربة للجرس في منتصف الليل. وهذه هي الأبيات:

واحد!

أواه، أيها الإنسان،

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الخامس، صفحة 245.

(2) أنشودة أو أغنية الرقصة الأخيرة (ألماني).

هيَّا انتبه!

اثنان!

عمَّ يتحدَّث منتصفُ الليل الداجي؟

ثلاثة!

كنتُ نائماً، كنت نائماً.

أربعة!

ثم صحوتُ من نومي العميق.

خمسة!

العالَـم عميق،

ستة!

وأعمقُ مما كان يظنُّ النهار.

سبعة!

وحزنُه عميق.

ثمانية!

وأما السعادةُ فأكثرُ عمقاً من المعاناة،

تسعة!

يقول الحزنُ: هيَّا، اعبُرْ!

عشرة!

لكنَّ كلَّ سعادةٍ تتمنَّى الخلود.

أحد عشر!

تتمنَّى خلوداً عميقاً وعميقاً جدّاً.

اثنا عشر!

كما ترون، ما هو جوهري في «العودة الأبدية» هو الكلمة المعرِّفة (بكسر الراء) وليس المعرَّفة (بفتحها)؛ أي الأبدية هي الأساس وليس العودة. يجب على الحزن، مهما كان عميقاً، أن ينتهيَ وأن يتنازل عن مكانه للفرح الأبدي. والنهار (أي مِل وكانط) لا يجيدُ الحكمَ على عمق العالم. أَلَا يكمُن السرُّ الذي همس به زرادشت إلى الحياة في هذا؟ وألم يكن هذا ما اكتشفه عندما أشرقت فيه الفكرةُ عن العودة الأبدية أولَ مرة «على ارتفاع 6000 قدم فوق سطح البحر وأعلى من ذلك فوق جميع النوايا والمقاصد البشرية»؟ ولكن، دعونا نُنحِّي جانباً التخمينات بخصوص الأسرار التي لم يُفصِح عنها نيتشه: ما دام التزم الصمتَ إزاءها، فهذا يعني أنه كانت لديه أسبابه الخاصة للقيام بذلك؛ هناك أشياءُ يمكن للمرء أن يفكِّر فيها، ولكنه لا يستطيع الحديثَ عنها والبوحَ بها إلَّا بواسطة الرموز وبالتلميحات. على الأقل، لا يجوزُ الحديث الآن ما دمنا نوافق على اقتراح مِل بشأنِ الفعل من دون سببٍ بما يخصُّ الكواكب البعيدة فقط أو المستقبل الأبعد بكثير، ما دام النهارُ يحكم على العالَم. نحن نصادف في «هكذا تكلم زرادشت» سلسلةً كاملة من المحاولات من أجل التحرُّر من سيطرةِ النظريات المعاصِرة بجهود العقل وحدَه. سوف أشير، على سبيل المثال، إلى خطبةِ زرادشت التي تختتم الجزء الثاني من هذا الكتاب (die stillste Stunde)[1]، أو الجزء الثالث من der Genesende, die sieben Siegel [2] وهكذا دَوالَيك. لكن الواضح أيضاً هو أنَّ نيتشه نفسه كان بعيداً عن أن يألَف الحقيقةَ الجديدة

(1) الساعة الأكثر هدوءاً (ألماني).

(2) النقاهة من الأخطاء السبعة (ألماني).

في منتصف الليل. وباعتباره وريثاً لأسلافه، يمكنه أن يغادرَ للحظات فقط الأجواءَ المألوفة للفلسفة الوضعية؛ ومن ثَم فإنَّ الحياةَ الواقعة خارجَ حدودِ ما يقال له العالَم المُدرَك، لا تُعد حياةً «طبيعية» بغضِّ النظر عن شدَّة انجذابه إليها. في كلِّ مرَّة تنداح الأرضُ من تحت قدميه ينتابه ذعرٌ خرافي، دون أن يدرك هو نفسه ما الذي يجري له: هل يرى واقعاً جديداً أم تتراءى له كوابيسُ مرعبة؟ لذلك تنشأ أمامه معضلةٌ مأساوية دائمة: واقع إيجابيٌّ من ناحية، ولكنه مقفِر وخالٍ من المضمون، ومن ناحيةٍ أخرى حياة جديدة، غاوية وواعدة ولكنها مُخيفة كما لو أنها شبح. ليس مثيراً للدهشة أنه كان يتذبذب باستمرار من ناحيةِ اختيارِ الطريق، تارةً يستدعي «فكرته الأخيرة» بلعناتٍ فظيعة، وتارةً يدخل في حالةٍ من عدم الاكتراث الكامل، في حالةٍ قريبة من البلادة، لكي يرتاحَ من التوتر الرُّوحي المفرِط. لن تصادفوا في الأدب الحديث أيَّ كاتب عانى مثلَ هذه الأمزجة المتقلِّبة، التي يمكنكم أن تلاحظوها عند نيتشه: يمكنكم أن تضبطوه في اللحظة نفسها تقريباً في حالتَين متناقضتَين قطبيّاً وبشكلٍ كامل من التفكير البشري...

لقد أشار البروفسور ريل وعن حقٍّ إلى أنَّ نيتشه لا يصلح أن يكون معلِّماً؛ إذ إنَّ مؤلَّفاته لا تقدِّم - ولا يمكِنها أن تقدِّم - قواعدَ راسخةً ويقينيةً لقيادة التلاميذ. وهو نفسه كان يحاول ويجرِّب باستمرار ويقوم بتجاربَ على ذاته. كان يخيَّل إليه في بعض الأحيان أنَّ حياتنا عبارة عن «تجربة الساعي إلى المعرفة». ولكن، هل الفلسفة موجودةٌ لأجل «التلاميذ» فقط، يا تُرى؟ بالتأكيد، إنَّ الشبيبة و«جيل الشباب»، كما كانوا يقولون عندنا في الزمن القديم، بحاجة إلى دليل، إلى جوابٍ عن السؤال: ما العمل؟ ولكن

لا توجد ضرورةٌ من أجل حمْل هذا السؤالِ إلى نيتشه أو دوستويفسكي أو الكونت تولستوي؛ أي إلى أولئك الأشخاص الذين أُخرِجوا من مجرى الحياة الاعتيادية. ولو لم يكن لدينا أيُّ أسسٍ أخرى لنقضهم، فإنَّ تقلقُل أحكامهم الخاصة في حدِّ ذاتها وعدم رسوخها يشكِّلان أساساً كافياً لنقضهم بوصفهم معلِّمين. كيف يمكن أن نأتمنهم على أرواحٍ فتية، ما داموا هم أنفسهم لا يستطيعون ضمانَ يوم غد؟ فالكونت تولستوي، على سبيل المثال، الذي أقام تبجيلاً مهيباً لحياةِ ليفين العائلية، كتب بعد مرور بضع سنوات على تأليفه روايةَ «آنّا كارينينا»: «موت إيفان إيليتش»، ثُم «سوناتة كرويتزر». إنَّ قصةَ زواج ليفين وحياته العائلية من ناحية، وإيفان إيليتش وبوزدنيشيف من ناحيةٍ أخرى، هي في نهاية الأمر «حكاية» واحدة، ولكنها سُرِدت بطريقة مختلفة، وبطريقة مختلفة جرى تسليط الضوء عليها، أو إذا شئتم، جرى تقييمها. ولكي يقتنع المرء بذلك يكفي أن يقرأ على التوالي «آنّا كارينينا» و«سوناتة كرويتزر». لقد كانت علاقاتُ ليفين مع كيتي شبيهةً تماماً بالعلاقة التي كانت قائمة بين بوزدنيشيف وزوجته؛ لا توجد أدنى شكوك في ذلك. في حين تُقدَّم الحياة العائلية عند ليفين على أنها أنموذجية، نرى أن بوزدنيشيف يقول عن نفسه: «كنا نعيش مثل خنازير». لماذا أغفل الكاتب في حكاية ليفين الأنموذجية ما شدَّد عليه وأبرزه في حكاية بوزدنيشيف؟ ... ماذا يمكن للتلميذ أن يتعلَّم عند معلِّم مثل الكونت تولستوي؟ ... وعلى العموم، إنَّ الإنسان الذي خان مبادئه وقناعاته ذات يوم، لا يعود صالحاً لأن يقوم بدور المعلِّم؛ لأنَّ القناعات العابرة، ولفترة قصيرة، غيرُ جديرة بالاهتمام؛ إذ إنَّ ميزتها الرئيسة تكمُن في أنها تعِد بركائزَ دائمة مدى الحياة.

والقناعات أو اليقينيات لا يُبرهَن عليها ولا يُتحقَّق من صحتها، بل تُقبل وتُتلقى إنْ لم يكن بكلِّيتها، فعن طريق الإيمان بها وتصديقها جزئيّاً على الأقل، والإيمان غير وارد إلَّا بما هو راسخ لا يتغيَّر، بما لا يتعرَّض للتذبذبات على مرأى من أعيننا على الأقل. والمعلِّم، أي الشخص الذي يمكن تقديمه بضميرٍ مرتاح على أن يكون قائداً ومرشداً للشبيبة، يجب عليه أن يجيدَ في الدرجة الأولى منْحَ تلامذته وبأكبرِ قدْر ممكن مبادئَ «خالدة»، صالحةً لأي عمرٍ ولمختلِف الظروف. يستحيل ترجمةُ مثل هؤلاء المعلِّمين على الإطلاق، وهناك الكثير من أمثالهم، ويتوجَّه «جيل الشباب» عادةً إلى مثل هؤلاء المعلِّمين من أجل الحصول على العلم والنصيحة، ويحصل منهم على كلٍّ ما هو بحاجةٍ إليه. وحتى أكثر من ذلك، يحسِن هؤلاء المعلمون حمايةَ تلامذتهم من الاقتراب الخطير من كتَّابٍ من أمثال دوستويفسكي، أو نيتشه، أو الكونت تولستوي. ألقوا نظرةً إلى الكتب المدرسية في تاريخ الأدب، ماذا فعل الألمان بكاتبهم غوته! مع وجودِ مثل تلك الحواشي والتعليقات، لا يعود ثمَّة خوفٌ من تسليم «فاوست» حتى للمراهق. هل ثمَّة عملٌ أدبيٌّ آخرُ أكثر ضرراً وخالياً من الأخلاق، من زاوية نظرٍ «تعليمية»؟ كان تولستوي قد رفض غوته في عمله «ما هو الفن؟»! وبالفعل، ما الذي يريده فاوست؟ لقد عاش حياةً طويلة وشريفة مليئة بالعمل والجهد، وهو يحظى باحترام الشعب وتقديره، ويقصده التلامذة وطالبو العلم من جميع الجهات، حيث يمكنه أن يوحيَ إليهم بقيم الخير والشر، وأن ينقل إليهم تلك المعارفَ المفيدة، حتى لو كانت محدودة، التي استطاع أن يحصل عليها خلال سنوات طويلة من العمل الدؤوب. يبدو أنه كان يتعيَّن عليه أن

يفرح ويسعَد في شيخوخته، ولكنه غير راضٍ، وها هو ذا يعقِد الصفقات مع الشيطان، ويبيع روحَه لعدوٍّ الجنس البشري مقابل مرغريتا. ما هذا؟ هذا يعني، إذا ما قلنا بلغةٍ واضحة وبسيطة: شيب في اللحية، وأما في الصدر فيوجد شيطان. أكثرُ ما يثير دهشتي هو أنَّ الكونت تولستوي لم يتذكَّر هذا القول الروسي المأثور المذهِل بخصوص «فاوست». كان يمكن لمحدِّثيه الأعزاء على قلبه، أولئك «الفلاحين الأذكياء»، أن يفهموا الأمرَ على ذلك النحو بكل تأكيد.

إنَّ فاغنر، حسب رأيهم، أرفعُ وأكثرُ نبلاً من فاوست، مع العلم أن غوته صوَّره أحمقَ في صورة كاريكاتورية، فقط لأنه التزم بحدود العالَم المُدرَك دون أن يدخل في علاقاتٍ مريبة مع الشياطين، كما يعلم كلٌّ من مِل وكانط. جرِّبوا أن تستخدموا بحق فاوست القاعدةَ الكانطية عن الأخلاق: ماذا كان سيحدُث لو أنَّ جميعَ البشَر تصرَّفوا على غرار فاوست، فتركوا نشاطَهم العلمي الموقَّر والمفيد، ومن ثَمَّ راحوا في نهاية العمر يُغرَمون بمثيلات مرغريتا. وسوف يصمد فاغنر أمام مبدأ كانط! وسوف يكون على حق من زاوية النظر النفعية لـ«مِل»، وسيجد سبينوزا نفسه مضطرّاً إلى أن يمدحه!

لقد مارس كلٌّ من كانط وغوته النشاطَ الأدبي والتأليفَ في الوقت نفسِه تقريباً، لكن كانط حظر حظراً صارماً وقطعيّاً أيَّ أفكار بخصوص العودة الأبدية، ومنعَ الشياطين كافة ومثيلات مرغريتا من زعزعة استقراره الفلسفي؛ إذ وضَعهم جميعاً في العالَم الواضح الذي يمكن تصوُّره (أو غير المُدرَك، كما في اللغة الدارجة). في حين أنَّ غوته دعاهم إلى عالَمه الخاص، وترك لأمثال فاغنر أن يعيشوا وَفق الأخلاق الكانطية ...

يبدو أنَّ راسكولنيكوف كان على حق، وأنه يوجد معياران؛ أحدهما للناس العاديِّين، والآخَر للناس الاستثنائيِّين. وأمثال فاوست لا يفقدون احترامنا إياهم، وهم يسمحون لأنفسهم، على الرغم من الأقوال المأثورة الحكيمة والتعاليم الفلسفية، بأن يزدروا الأخلاقَ الشائعة، ويفتشوا عن حياةٍ لهم بعد أن يرفضوا الخيرات المثالية كافة التي تمنحها المكاتبُ العلمية والنشاط التنويري. هل فاوست «أناني»؟ إنَّ الشخصيات الأكثر سُمواً أنانية، وهل فاغنر المحدودُ والضيِّق الأفق يمثِّل أخلاقَ التضحية ونكران الذات؟!

ولكن، أكرِّر مرةً أخرى، لقد عاشت الأفكار القائمة على الأخلاق حتى الآن، وبدرجةٍ أكبرَ بكثير، على «المقدِّمات الأساسية» التي حُصِل عليها كليّاً من رصدِ العلاقات البشرية الخارجية ومراقبتها. كان يقود الواعظين والمتمسكين بالفضيلة ذلك السعيُ الغريزيُّ نفسُه نحو تحديد حقل المراقبة، الذي كان موجوداً عند العلماء أيضاً عندما كانوا يضعون نظرياتهم حول التطوُّر العفوي. كان للضرورة الحتمية عند كانط، وللمبادئ النفعية عند مِل هدفٌ واحدٌ فقط؛ ربطُ الإنسان بالأعراف المتوسطة والمألوفة التي كان يُفترَض بها أن تكون صالحةً للناس كافةً وبالدرجة نفسها. كان ثمَّة ثقةٌ عميقة عند كلٍّ من كانط ومِل بأنَّ قانون الأخلاق ضروريٌّ ومفهوم وقريب من قلب كلِّ إنسان بالدرجة نفسها التي عليها قانون السببية. وإذا كان يمكن لهذا القانونِ أن يفقد ضرورته، فإنَّ هذا سيكون في مكانٍ ما من كوكبٍ آخرَ، أو في المستقبل البعيد إلى ما لا نهاية (في العالَم المُدرك عند كانط)، أما هنا على كوكب الأرض، فيجب أن يعترفَ به جميعُ بني البشر بلا استثناء. ولكن، في حالِ كان

هنـاك أشـخاصٌ لا يريـدون أن يتخلَّـوا عـن «الفعـل بـلا سـبب»، وبـدلاً مـن أن يبحثـوا عـن آثـارٍ للقسـر في المجـالات التـي تُعَـدُّ بعيـدةَ المنـال عنَّـا ولا يمكننـا تجاهلهـا، يحاولـون اكتشـافَ غيـابِ المشروعيـة ها هنا عـلى الأرض، قريبـاً مـن السـماء، فكيـف سـيكون بإمكاننـا أن نُراهِـن عـلى اسـتعدادهم لإخضـاع إرادتهـم التـي يدركونهـا حـرَّة، للأعـراف العامـة، لسـببٍ وحيـدٍ فقـط؛ ألَا وهـو انتصـار النسـق العلمـي الـذي يمقتونـه أكثـرَ مـن أي شيء آخـرَ في هـذه الدنيـا؟ ألـن يكـون مـن الطبيعـي أن يتصرَّفـوا بطريقـةٍ مغايـرة تمامـاً، وعـلى غـرارِ السـيد صاحـب السَّـحنة المتخلِّفـة في روايـة «مذكِّـرات مـن العـالم السـفلي»، سـوف يخرقـون القواعـدَ لغايـةٍ واحـدة فقـط وهـي تدمـير أيِّ قانـون ليـس عـلى التعيـين؟ لـن يخلـق لديهـم أي انطبـاع عمـق التفكـير عنـد كانـط ولا وضـوح البراهـين ومصداقيتهـا عنـد مِـل. لـن تثـير الدهشـة عنـد هـؤلاء النـاس بعمـق تفكـيرك، وأما مـا يتعلَّـق بالديالكتيك، فإنَّ هيغـل خاصةً كان سيستسـلم أمـام فيلسـوف دوستويفسـكي مـن العالَـم السـفلي. وليـس مصادفـة أو حتـى بسـبب طبعهـم المضطـرب، أنهـم يسـعون في الأرض حيـث عثـرَ العلـم عـلى التناغـم والانضبـاط الصـارم، وعـلى الفـوضى والقسر؛ فالانضبـاط والتناغـم يضغطـان عليهـم، فيشـعرون بالاختنـاق في أجـواء العفويـة والمشروعيـة. ومـا مِـن علـمٍ، ومـا مِـن موعظـة إلَّا وتقيِّدهـم إلى ذلـك الواقـع الـذي أُقِـرَّ بـه في مناقشـات الحكـماء المشـهورين عـلى أنـه الوحيـد الحقيقـي. وهـم مـا زالـوا حتـى الآن متصالحـين إلى درجـةٍ نسـبيةٍ مـع «السـبب والفعـل»؛ تضطرهـم إلى ذلـك الـضرورةُ الخارجيـة. ولكـن، لـو أنهـا كانـت مشـيئتهم، لكانـوا نقلـوا الجبـالَ مـن أماكنهـا منـذ زمـنٍ بعيـد وجعلـوا الأنهـارَ تجـري القهقـرى، دون أن يبالـوا عـلى الإطـلاق بـأنَّ هـذا الصِّنـف مـن أفعالهـم يحمـل تهديـداً بحـدوث

خلـل عظيـم جـدّاً في التجـارة العالميـة، وفي الملاحـة البحريـة، وفي انعقـاد الـدورات البرلمانيـة. لكـن ذلـك لا يخضـع لمشيئتهم. يمكنهـم فقـط أن يحتفلـوا بخصـوصٍ أنَّ قانـون السـببية ليـس قَبْلِيّـاً (إنـه الاعـتراف الثمـين لـ«مِـل»! لـو أنَّ النـاس مـن العالَـم السـفلي أعلنـوا عنـه صراحـةً، لمـا صدَّقهـم أحـد، حتـى إنهـم هـم أنفسـهم مـا كانـوا صدَّقـوا أنفسـهم!)، وأنـه حتـى مِـل الواضـح والمشرق سـيكون مضطـرّاً إلى أن يعيـش القلـقَ والاضطـراب حتـى ولـو للحظـات بشـأن الفـوضى العارمـة السـائدة في كوكـبٍ آخـرَ. إنهـم يأمُلون في الـسرِّ بـأن يجـد أمثـال مِـل في المسـتقبل أنفسـهم مرغمـين عـلى اختبـارِ المزيـد والمزيـد مـن الخيبـةِ والمـرارة بهـذا المعنـى. ولكـن في ميـدان العلاقـات الأخلاقيـة - حيـث لا تتعـرَّض حريَّتهـم لأي تضييـق كان، باسـتثناء التعليـمات المجـرَّدة للواعظـين والمتمسـكين بمبـدأ الفضيلـة - هنـا هـم الوحيـدون الذيـن مُنِحـوا الحـق في الاحتفـال بالنـصر. ومهـما بـذل كلٌّ مـن كانـط ومِـل مـن مَسـاعٍ - لم يَعُـد ثمَّـة أيُّ شـك لـدى الأشـخاص مـن العالَـم السـفلي في ذلـك - فهنـا مملكتهـم، مملكـة النـزوات، مملكـة عـدم الوضـوح وعـدد لا نهائـي مـن الفـرص الجديـدة وغـير المعروفـة مـن قبـلُ عـلى الإطـلاق. هنـا تتحقَّـق المعجـزات عـلى مـرأى العيـون، هنـا يصبـح اليـومَ عجـزاً مـا كان في الأمـس قـوَّةً، ومَـن كان هنـا بالأمـس في المرتبـة الأولى، يصبـح اليـومَ في المرتبـة الأخـيرة، هنـا تتحـرَّك الجبـال، وهنـا ينحنـي «القديسـون» أمـام المحكـوم عليهـم بالأعـمال الشـاقة، هنـا تتراجـع العبقريـة أمـامَ المحدوديـة، وهنـا كان سـيفقد كلٌّ مـن مِـل وكانـط رأسـيهما المصمَّـين بطريقـةٍ علميـة، لـو أنهـما سـمحا لنفسـيهما فقـط بـأنْ يـتركا العالَـم الصغـير المسـيَّج بأحـكامٍ مسـبقة غـير مبنيـة عـلى التجربـة، وأن يلقـي كلٌّ واحـد منهـما نظـرةً إلى مملكـة

العـالم السـفلي ... كان سـبينوزا يؤكِّـد أن الثبـاتَ والاطـراد يُعَـدَّان مسـنداً بالنسـبة إلى الكـمال، وقـد وضـع هـذه «المسـلَّمة» في أسـاس علـم الأخـلاق الـذي بُنـي بطريقـةٍ رياضيـة أيضـاً. أمـا النـاس مـن العـالم السـفلي فيناقشـون بطريقـةٍ أخـرى؛ فالثبـات بالنسـبةِ إليهـم هـو المسـند في النقـص العظيـم، وبالتوافـق مـع ذلـك يحجـزون لأنفسـهم عندهـم مقاعـدَ في الصفـوف الأخـيرة لمثـلي المثاليـة والفلسـفة الوضعيـة والماديـة في عمليـة «إعـادة تقييـم القيـم». باختصـار، جميـعُ تلـك المنظومـات التـي يعلِـن ممثِّلوهـا للبشريـة، باسـم الفلسـفة، أنَّ كلَّ شيء في العـالم القديـم كان يقـوم عـلى أفضـلِ مـا يُـرام.

# 27

بـات الآن مناسـباً وفي حينـه أن نعيـدَ مـن جديـد طـرْحَ السـؤال الـذي سـبق لنيتشـه أن طرحـه: «كيـف يمكـن أن نحصـل عـلى اللـذة مـن تلـك الفكـرةِ العاديـة والمبتذَلـة القائلـةِ بأنـه يمكـن تلخيـص دوافـع جميـع أفعالنـا بالأنانيـة؟» الآن فقـط، بعـد أن بقيـت خلفنـا فكـرةُ «العـودة الأبديـة» وجميـع مطالـب فاوسـت العاصفـة، أصبحـت كلمـة «اللـذة» في غـير محلِّهـا. يتعـيَّن أن نسـتبدل بهـا كلمـةً أخـرى أكثـرَ مناسـبةً للحادثـة.

مـن المرجَّـح أننـا نتعامـل هنـا مـع مـا هـو حتمـي، ومـع حتميـةٍ قاطعـة لا يسـتطيع الإنسـان معارضتهـا والوقـوف في وجههـا. أمـا نيتشـه فقـد انطلـق في طريـق الشـك بطريقـةٍ لا شـعورية، ودون أن يـدركَ إلى أيـن سـيقوده الطريق. وحتـى إنـه عـلى العكـس، كان عـلى ثقـةٍ تقريبـاً مـن أنـه سـوف يتوصَّـل إلى نتائـجَ معينـةٍ، وقـد ظـلَّ محافظـاً عـلى «الفلسـفة الوضعيـة» الخاصـة بـه لسـببٍ رئيـس؛ ألا وهـو أنهـا كانـت تشـترط التصنُّـع بدرجـةٍ أقـلَّ، وكانـت تحـرِّره مـن ذلـك الخطـاب المهيـب الاحتفـالي الـذي كان بالنسـبة إليـه، في إدراكـه لتفاهتـه الخاصـة، أكثـرَ قَرَفـاً مـن أي شيء آخـر. ويـا للدهشـة! يُحـذِّر النـاس عـلى الـدوام مـن التشـكيكية والتشـاؤمية، ويُقنَعـون بـضرورة البقـاءِ

على إيمانهم بالمُثل العليا مهما كلّف ذلك، إلّا أنَّ التحذيرات ومحاولات الإقناع لا تمارس أيَّ تأثير على الناس؛ ثمَّة قوةٌ قدرية تشدُّنا نحو الأمام، باتجاه المجهول.

ألا يحقُّ لنا أن نرى في تلقائيةِ هذه الظاهرةَ ضمانةً للنجاح في المستقبل، وهل يجب علينا للسبب نفسه، يا تُرى، أن نبحثَ في التشاؤمية والتشكيكية عن أصدقاءَ لم نعترف بهم، وليس على أعداء؟ ... كان راسكولنيكوف يناقش بطريقة صحيحة: ثمَّة صِنفان من الأخلاق بكل تأكيد؛ أحدهما للناس العاديِّين، والثاني للناس غير العاديِّين، أو إذا ما استخدمنا اصطلاحَ نيتشه الأكثرَ حدَّة ولكنه الأكثر تعبيراً ودقَّة في الوقت نفسه: أخلاق العبيد وأخلاق السادة. بيدَ أن سؤالاً جوهريّاً إلى درجةٍ قصوى يطرح نفسه هنا: ما مصدرُ هذا الصِّنف وذاك من الأخلاق؟ كان يجب أن يُخيَّل للوهلة الأولى، كما لو أنَّ اللحظة الحاسمة هنا ستكون تكوينَ الطِّباع عند الإنسان؛ فالعبيد أو الناس العاديون خانعون، أما السادة أو الناس الاستثنائيون فيأمرون. طبقاً لذلك، ينبغي ضمُّ كلٍّ من نيتشه ودوستويفسكي إلى الصِّنف الثاني، كما هي الحال مع فاوست. لكن فاوست عاش حتى الشيخوخةِ المتقدمة قبل أن يخطر بباله الاحتجاجُ على هذه الحياة «الكلية»، ولولا التدخُّل الموفَّق من قِبل مِفيستوفِل، لمات فاوست وهو محاطٌ بهالةٍ من العفة والطهارة. يمكِننا أن نقول الشيءَ نفسه بخصوص دوستويفسكي ونيتشه: لقد أخرجتهما المصادفةُ من السياق الفاغنري لِما هو اعتيادي. لو لم يكن السجن عند أحدهما والمرض الرهيب عند الآخر، لَما كانا ليخمِّنا - ولم تخمِّنه غالبية البشر - أنهما مقيَّدان بالسلاسل من أيديهما ومن أرجلهما. كانا سيكتبان مؤلَّفات

حسنة النية، حيث سيمجِّدان فيها روعةَ الكون وسموَّ الأرواح المطيعة للضرورة، وأعمالهما الأولى تشهد على ذلك بطريقةٍ لا لبس فيها، بل أكثر من ذلك. يذكر القارئ أيَّ رعب كان ينتاب نيتشه، حسب اعترافه الشخصي، في كلِّ مرَّة كانت الظروف ترغمه على قبولِ حالة جديدة من «الإدراك». كان يتمنَّى أن يعيشَ على الطريقة القديمة، وعندما راح الإدراكُ الجديد يخترقه مثل سكين فقط، بعد أن سمِع فوق رأسِه الصوتَ الهادر الرهيب: «اعرفْ أو مُتْ»؛ قرَّر أن يفتح عينيه. وماذا عن دوستويفسكي؟ كم هي ثمينة النبرة فقط في «مذكِّرات من العالم السفلي»! كم هو مقدار الآلام! وكم هو حجم المعاناة التي يمكن سماعها من خلف تلك الخطابات اليائسة التي يتوجَّه بها إلى ليزا! حتى إنَّ فاوست أيضاً عانى الأمرَّين قبل أن يستدعيَ الشيطان. باختصار، جميعُ هؤلاء «الأشخاص غير العاديين الذين ثاروا ضد الأغلال المتعلِّقة بضرورة القوانين في الطبيعة وفي الأخلاق البشرية، لم ينتفضوا بمحض إرادتهم، بل أُرغِموا على قبول الحرية مثل الفلاحين الأقنان الذين أصبحوا عجزةً وهم يقومون على خدمة الأسياد. لم يكن ذلك «انتفاضةَ عبيدِ الأخلاق»، كما يعلِّمنا نيتشه، وإنما كان ذلك شيئاً لا يمكن التعبيرُ عنه بلغة البشر. هذا يعني أنَّه لا علاقة «للطباع» هنا، وإذا كان ثمَّة صِنفان من الأخلاق، فلن يكونا أخلاقَ الناس العاديين وغير العاديين، وإنما أخلاق ما هو مبتذَل وأخلاق المأساة - وهذه الملاحظة يجب أن تضاف إلى منظومة المصطلحات عند كلٍّ من دوستويفسكي ونيتشه. وهذا الظرف يفسِّر، بالمناسبة، سَعة الاطلاع المذهلة عند دوستويفسكي ونيتشه بخصوصِ الانحناءات الدقيقة في رُوح «العبد»، وما يمدحونه عندهما على أنه بصيرةٌ سيكولوجية ثاقبة.

وقد نوَّه نيتشه نفسه ذاتَ يوم إلى أنه يَعُدُّ الظرفَ سعيداً بصورةٍ مميزة بالنسبة إليه؛ إذ كان مضطرّاً لأن يكون بعضَ الوقت في جانبِ أعدائه المقبلين[1]. بهذه الطريقة عرف جميعَ «أسرارهم» وأصبح يمتلك فيما بعدُ سلاحاً قويّاً لمحاربتهم. هذا ما لا يقوله دوستويفسكي، مع أنه كان بإمكانه أن يقول ذلك، بالتأكيد. وبالفعل، لم يحدُث من قبلُ قط أنْ ظهرَ علم نفس «الخير» دون رأفة إلى هذه الدرجة التي ظهرت في مؤلَّفات هذين الكاتبَين. ويجب إنصافُ نيتشه: إنه يترك أخاه الروسي الشهيرَ في هذا الموضوعِ خلفَه أحياناً. بالنسبة إلى نيتشه، الخير صنو العجز، أما «الخيِّرون» فهم أناسٌ عاجزون، ولكنهم حسَّاد ماكرون قرروا ألَّا يستسلموا أو يتراجعوا أمام أي شيء مهما كان، وذلك فقط لكي يُلقوا بالمسؤولية عن بؤس حياتهم الفقيرة والحقيرة على خصومهم «الأشرار».

وها هو ذا أنموذجٌ صغير عن موقف نيتشه من «الخيِّرين» بقصد التوضيح:

«... إنهم جميعاً أناسُ الحقد والضغينة، أناسٌ مشوَّهون فسيولوجيّاً، نهشَ فيهم الدود؛ تلك هي المملكة الضخمة والهشَّة للانتقام تحت الأرضي، مملكةٌ شرهةٌ لا تنضُب في أفعالها وهجماتها العِدائية ضد السُّعداء، وأيضاً في فن تمويه الانتقام، وفي العثور على حجج ومبرِّرات له. ولكن متى سيحقِّقون نجاحَهم الباهرَ الأخير، الأعلى والأعظم؟ بلا شك، عندما سينجحون في رمي تعاستهم، بل رمي كلِّ تعاسة بالمطْلق، على ضمير الناس السُّعداء، بحيث إنَّ هؤلاء الأخيرين سوف يبدؤون ذاتَ يوم بالشعور بالخجل من سعادتهم، وسوف يقولون لأنفسهم: من العيب أن يكون المرء سعيداً؛ لأنَّ ثمَّة بؤساً كبيراً جدّاً في الأرض»[2].

(1) الأعمال الكاملة، المجلد السابع، صفحة 435.

(2) الأعمال الكاملة، المجلد السادس، «نشيد الجنازة».

إنكـم تلتقطـون عـلى الفـورِ في هـذه الكلـمات القليلـة أنكـم إزاءَ خبـيرٍ في «رُوح العبيـد». كيـف هـو السـؤال المطـروح: هـل السُّـعداء والمحظوظـون، أولئـك الأقويـاء بالـرُّوح والجسـد مسـؤولون عـن كلِّ التَّعاسـة والبـؤس الموجودَيـن في الدنيـا! وهـل يجـبُ عليهـم أن يأخـذوا عـلى عاتقهـم المسـؤوليةَ عـن الحـزنِ والألم الموجودَيـن في العـالم! مـا مِـن شـكٍّ في أنـه جـرَت ومـا زالـت تجـري محـاولاتٌ حثيثـة لتحميلهـم المسـؤولية. ليقُـم كلُّ شـخصٍ بمراجعـة تاريـخ أفعالـه مـع الضمـير: ألم تكـن أفضـل اللحظـات في حياتـه، يـا تُـرى، مسـمومة بـإدراكِ أنَّـه مـن العيـب أن يكـون المـرء سـعيداً، بينـما يهلـك كلُّ هـذا العـدد مـن الأقربـين مـن حولـه؟ أمـا مـا يتعلَّـق بنيتشـه نفسـه، فيمكنـه عـلى مـا يبـدو أن يشـعرَ بالفخـر مـن هـذه الناحيـةِ بماضيـه المثـيرِ للاهتـمام عـلى وجـهِ التحديـد. يقـول زرادشـت: «لقـد أرسـلت الفقـراءَ السُّـفهاء والوقحـين لملاقـاة رحمتـي. راح عديمـو الحيـاء بـلا أمـلٍ في الشـفاء يتوسَّـلون طالبـين مني المواسـاةَ والشـفقة. بهـذه الطريقـة قتلـتُ الإيـمان في أفضـالي»(1). لكـن القضيـة لا تكمُـن في ذلـك. كان الموضـوع المتعلِّـق بالفقـراء الوقحـين والنـاس العديمـي الحيـاءِ بطريقـةٍ غـير قابلـة للشـفاء، كـما هـي الحـال مـع جميـع الذكريـات البعيـدة، قـد انحسر وتراجـع إلى الخلـفِ بالنسـبة إلى نيتشـه عندمـا كان يكتـب «زرادشـت» و«في جنيالوجيـا الأخـلاق» ولم يَعُـد يؤرِّقـه. كـما أنَّ سـعادة السُّـعداء أيضـاً لم تكـن تثـير اهتمامَـه، بالمناسـبة، إلَّا نظريـاً وكدليـل فقـط: لقـد أغاظنـا وأرهقنـا الواعظـون والمتمسِّـكون بمبـدأ الفضيلـة وبمشـاهدِ المحنـةِ البشريـة، فلـماذا لا يمكننـا أن نواجههـم بلوحـاتٍ أخـرى؟ ولـماذا لا يحـقُّ لنـا أن نُظهِـر لهـم كيـف أنَّ الأقربـين «التعسـاء» يسـمِّمون، مثـل الوبـاء، حيـاةَ أولئـك الذيـن

(1) الأعمال الكاملة، المجلد السادس، «من مقاعد الفضيلة».

مـا زالـوا يحتفظـون بالحصـنِ الجسـدي والروحـي؟ يؤسـفني أنَّ المـكان هنـا لا يسـمح لي بأنْ أورد فصلاً أو فصلَين من مقالةِ نيتشـه «في جنيالوجيا الأخلاق». لـن يـضرَّ القـارئَ الـروسيَّ الـذي تربَّـى عـلى مواعـظِ دوستويفسـكي والكونت تولسـتوي أن يتأكـد ولـو مـرَّة واحـدة مـن أنَّ البلاغـة وشـغفَ النـبرة بالإضافة إلى الصـدق، يمكنهـا أن تكـونَ موجَّهـة ليـس مـن أجـل الدفـاع عـن «الحقيقـة» كـما هـو متعـارَف لدينـا حسـب التقليـد؛ وأنـه يمكـن لمسـألة «الـشر» أن تلهمنـا تماماً مثـل مسـألةِ «الخـير» بالضبـط وبالطريقـة النبويـة نفسـها. وإذا مـا قارنتـم مقالـةَ تولسـتوي عـن الإحصـاء في موسـكو، التـي أثـارت كلَّ ذلـك اللغـط الكبـير مـع مقالـةِ نيتشـه التـي يـدور الحديـث عنهـا، فسـوف تجـدون أنفسَـكم مضطريـن إلى الاعـتراف بأنَّـه يوجـد عند نيتشـه مـن اليقينيـات والحماسـة، ومن التذمُّـر المـشروع والعـادل أيضـاً في نهايـة المطـاف، مـا لا يقُّـل نهائيّـاً عـمَّا هـو عنـد الكونـت تولسـتوي. ولكـن، إذا كان وارداً أن «نتذمَّـر» بالدرجـة نفسـها دفاعـاً عـن الأقويـاء بمواجهـة الضعفـاء وعـن الضعفـاء ضـد الأقويـاء، فأيـن هـي الحقيقـة، إذن، في نهايـة الأمـر؟ مَـن عـلى «حـق»، الكونـت تولسـتوي أم نيتشـه؟ أم إنَّ الاسـتياء والحماسـة والشـغف أشـياءُ لا قيمـةَ لهـا في حـدِّ ذاتهـا، ولا تضمـن أحقيـةَ القضيـة التـي تقـف خلفهـا؟ وإلَّا فـإنَّ الضعفـاء والأقويـاء، الخيرَ والـشر، الحـقَّ والباطـل؛ كلها مجـرَّد حُجَّـة، عـلى الأرجـح، وإنَّ الواعظين العاطفيِّـين يضمـرون غايـاتٍ واهتمامـاتٍ أخـرى مختلفـة؟ لطالمـا أضجرونـا بالمواعظِ لدرجـةِ أنـه حـان الوقـت في نهايـة المطـاف لكـي يطرحَ نفسـه السـؤالُ التـالي: وبالفعـل، عـلى أي أسـاس يوجِّـه الواعظـون سـخطَهم واسـتياءهم إلينـا؟ لمـاذا يحدِّثنـا الكونـت تولسـتوي أو دوستويفسـكي عـن مـآسي البشريـة ومصائبهـا؟ أليـس مـن الطبيعـي بالنسـبة إلينـا نحـن بدورنـا، في نهايـةِ الأمـر،

أن نتوجَّـه إليهـا بجميـع هـذه الأسـئلة؟ ليقُـم الكونـت تولسـتوي، الـذي مـا زال حتـى الآن يؤكِّـد لنـا أنـه مـن العيـب أن يكـون المـرء سـعيداً، في الوقـت الـذي يوجـد فيـه كلُّ هـذا الكـمِّ مـن الشـقاء في هـذه الدنيـا، ويشـرح لنـا أيـن يوجـد مصـدرُ سـلامه الروحـي الخـاص بـه، ولمـاذا لا يشـعر بالخجـل مـن أن يحيـا حيـاةً هادئـة وبهيجـة (وهـذه الكلمـة محبَّبـة إليـه كثـيراً)، بينـما يحيـط بـه كلُّ هـذا الكـمِّ مـن المصائـب والشـقاء! وأمـا نيتشـه فيمكننـا أن نطـرح عليـه السـؤال نفسـه، ولكـن بعـد بلورتـه في صيغـةٍ شـكليةٍ مختلفـة. كنـا سـنقول لـه بأنـه كان يجـب عليـه أن يكـون هـو نفسـه سـعيداً قبـل أن يلـوم التعسـاء عـلى وجودهـم وحياتهـم، ويتعـيَّن عليـه هـو نفسـه أن يكـون قويّـاً بروحـه وبجسـده، قبـل أن يطالِـب بالمحافَظـة عـلى الأقويـاء بالـرُّوح والأصحـاءِ بالجسـد. وكان سـيتضح مـع هـذه الأسـئلة كـم هـو مهـمٌّ عنـد قـراءة الكتـب أن يسـتفسرَ القـارئ عـن السـيرة الذاتيـة للمؤلِّفـين؛ أي أن يعـرف القـارئ كيـف تُولَـد «القناعـات». إنَّ نيتشـه الـذي عـاش حتـى بلـغ الـ30 مـن عمـره وهـو يقـوم بـدور التابـع والمتملِّـق لفاغنـر (يصعـب تكـرار الأمـرِ ولكـن القـول ضروري؛ قـام بـدَوْر خـادم أدبي عنـد فاغنـر)، ومـن عمـر الـ30 حتـى عمـر الـ44 سـنة كان يعـاني مـن نوبـاتٍ قاسـية ومثـيرة للاشـمئزاز لمـرض عُضـال، ومـن عمـر 44 حتـى المـوت - أيْ نحـو 11 سـنة - كان يعيـش في حالـة فقـدان شـبه تـام للوعـي، يتقـدَّم بموعظـة ضـد التعسـاء والمـرضى، أي ضـد المشـوَّهين جسـديّاً! وضـد أولئـك «الفاضلـين والعادلـين» المدافعـين عنهـم في الوقـت نفسـه! إنهـا أُحجيـة سـيكولوجية جديـرةٌ بـأن يمعـنَ المـرءُ التفكـيرَ فيهـا! وأذكِّـر هنـا، بالمناسـبة، بـأنَّ «قناعـات» نيتشـه في هـذا البنـد، كـما في بنـودٍ أخـرى كثـيرة، تشـبه إلى درجـةٍ مذهلـة قناعـاتِ دوسـتويفسـكي؛

إذ إنَّ دوستويفسكي هو أيضاً كان يمقتُ «الخيِّرين والعادلين» كما سبق أن نُوِّه به في حينه: كانوا يتجسَّدون بالنسبة إليه في شخص الليبراليِّين وأنصارِ النزعة التقدُّمية من مختلِف الدرجات والتباينات. وقد سمح دوستويفسكي لنفسه أن يَعُدَّ قصيدةَ نكراسوف الشهيرةَ «على نهر الفولغا» نوعاً من «التصنُّع وتصعير الوجه»، مع أنها كانت قصيدةً صادقة ومؤثِّرة وشاعرية بحق، ولم يكن يقرؤها في السبعينيات (من القرن التاسع عشر - المترجِم) ممثلو «البروليتاريا المفكِّرة» فحسب، بل قرأها أيضاً الطبقة المتنوِّرة في روسيا بأكملها. كان دوستويفسكي يرى فيها تكلُّفاً، في حين أنَّ قرَّاء نكراسوف كانوا ينتحبون ويذرفون دموعاً صادقةً على أشعاره بصورةٍ عامة، وعلى قصيدته «على نهر الفولغا» بصورةٍ خاصة! بيدَ أنَّ كلّاً من دوستويفسكي ونيتشه كان يمقت أكثرَ من أيِّ شيء في الدنيا تلك الدموعَ المتعاطفةَ ومعها الشِّعر الذي يثير التعاطفَ على حدٍّ سواء. تلك هي وجهةُ النظر، أو إذا شئتم، «الذائقة» الخاصة بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقَّة الحقيقيِّين والناس من العالَم السفلي وأبناء المأساة. لم يَعُد ثمَّة دموعٌ عندهم منذ زمن طويل وهم يعرفون أنَّ الدموع لا تساعد في شيء، وأنَّ الشفقةَ عقيمة. مع العلم أنَّ ثمة أموراً أخرى كثيرة لا تساعد، ولا يقتصر الأمر على الدموع والمواساة؛ فمن أين إذن تلك الكراهيةُ تجاه التعاطفِ والشفقة؟ كما أنَّ «الأشرار» أيضاً لا يملكون القدرةَ على تغييرِ مصيرِ المُدان على نحوٍ يائس؛ فما هو سبب ذلك الاشمئزاز من «الأخيار والعادلين»؟ أليس لأن الخيِّرين والعادلين أخفقوا في تعليم نيتشه ودوستويفسكي، عندما علَّموهما نظريةَ التفاني ونكران الذات؟ يمكن غفران هذه الخطيئة، لا سيما أنها خطيئةٌ بنيةٍ

حسنة، مع أنهما كانا مُضطرَّين إلى أن يدفعا ثمنَها غالياً. كان بيلينسكي يَعُدُّ تعاليمَه هي الوحيدة الصحيحة، وهذا ما جعله يتألم كثيراً بسببها. كما أنَّ معلِّمي نيتشه لم يضعوا ممارسةَ الخداع على تلامذتهم هدفاً لهم.

لكنَّ كلّاً من نيتشه ودوستويفسكي تصالح مع الماضي منذ مدة طويلة. وهما يحاربان الآن من أجل المستقبل. في حين أنَّ تعاطف الخيرين والعادلين يحرمهما من آخرِ أملٍ لهما. كما تتذكَّرون، عندما كان دوستويفسكي في السِّجن، قبِل صدقةً من فتاة صغيرة، وقد ظلَّ محتفظاً بالقرش الذي تصدَّقت به عليه مدةً طويلة وبفرح كبير. لعلَّ نيتشه أيضاً كان مضطرّاً أثناء تسكُّعه إلى أن يتلقَّى مع الشكرِ كلمةَ محبةٍ وتعاطفٍ من طفل صغير أو من إنسان بسيط بعيد تماماً عن تصوُّرنا عن الخير والشر. وهو ينكِر المحبةَ تُجاه القريب والتعاطفَ اللذين تساميا إلى مستوى المبدأ الأخيرِ، وتحوَّلا إلى نظريةٍ، وتطاولا على حقوقِ الرَّب. وهو يعرف أنَّ الناس المعاصرين والمثقَّفين سوف يعطونه المئات وربما الآلاف من الفلوس وليس قرشاً واحداً، وأنهم قد يكسونه ويدفئونه ويُطعمونه، وسوف يؤمِّنون له المبيت، وأنهم سوف يرعونه عندما يمرض كما لو أنه ابنٌ لهم. لكنه يدرك أنَّ تلك الرعايةَ لن تكون مجاناً، ولن تُبدَّد بلا فائدة ومن دون غاية، وأنهم سوف يطلبون منه في النهايةِ الشكرَ والعرفان - بِتنا الآن نتحدَّث عمَّا هو أرفع من الشكر - بل سوف يطلبون منه أيضاً الاعترافَ بأنه بعد أن أحيط بكل ذلك الاهتمامِ وبتلك المحبة، ملزَمٌ بأن يشعرَ في أعماق رُوحه بالرضا التام مهما كانت حالته صعبة. يتعيَّن عليه أن يرى في محبةِ القريبين له تأكيداً على وجودِ مَثلٍ أعلى؛ أي أول وآخر مطلب يمكن أن يبرزه الإنسانُ تجاه الحياة. هذا التعاطف بالتحديد الذي رُفِع

إلى مستوى مثالٍ أعلى يثير عند نيتشه، كما عند كُهّانه، كلَّ ذلك الاستياءِ الذي يمكنه أن يشعر به. إنه يرى أنهم يريدون أن يشتروا منه حقوقَ الأسبقية أو البكرية لقاءَ صحنٍ من شوربة العدس. ومع أنه هو نفسه لا يؤمن بتلك الحقوق، فإنه يرفض تلك الصفقة. وهو يرفض تلك الهِباتِ المقدَّمة له بازدراءٍ ومع رعبٍ، لكيلا يتخلَّى عن إمكانية النضال المحتمَلة فقط.

# 28

كلُّ ذلـك يوضِّـح لمـاذا كان نيتشـه بحاجـة إلى عملـه في الخفـاء أو في العـالم تحـت الأرضي، ومـا الأمـل الـذي كان يمنحـه القـدرةَ لكـي يصـبرَ ويتحمَّـل فـترةً طويلـة جـدّاً غيـابَ النـورِ والهـواء. كان يشـعر غريزيّـاً بـأنَّ العقيـدةَ المعـاصِرة والأخـلاقَ الشـائعة متينتـان بفضـل الطيـش والضَّعـف البشريَّـين، مـع أنهـا ترتكـزان عـلى مـا يُعـرَف بالمعطيـات العلميـة الراسـخة. هـو نفسـه كان «تعِسـاً»، وكان يـرى أنَّ التعاطـف، بوصفـه الوسـيلةَ العلاجيـة الوحيـدة التـي تملكهـا الأخـلاق، أكثـرُ فظاعـةً مـن اللامبـالاة الكاملـة. يقـول زرادشـت: «أليـس التعاطـف هـو ذلـك الصليـب الـذي سـوف يَصلبـون عليـه كلَّ شـخص لا يحـبُّ البشر؟» أن تتعاطـف مـع الإنسـان يعنـي أن تعـترفَ بأنك لم تَعُـد قـادراً عـلى مسـاعدته في شيء. ولكـن، لمـاذا لا يجـوز الإعـلانُ عـن ذلـك صراحـةً، ولمـاذا لا يمكـن أن نكـرِّر خلـفَ نيتشـه: ألا يجـوز للمـرء أن يتمنّـى أن يكـون طبيبـاً بالنسـبة إلى المريـض الـذي لا أمـلَ في شـفائه؟ لأي غايـةٍ تُخفـى الحقيقـة؟ مـن الواضـح بالنسـبة إلى نيتشـه أنَّ «الخيِّريـن» يتعاطفـون مع التُّعسـاء والمـرضى، لكيـلا يشـغلوا بالَهـم بمصيرهـم، لكيـلا يسـعوا ولكيـلا يقاومـوا ويكافحـوا: «أنـا أدرك الآن بـكلِّ وضـوحٍ مـا الـذي كانـوا يسـعون إليـه ذات

يـوم في المقـام الأول، حـين كانـوا يبحثـون عـن معلِّمـين للعفَّـة والطهـارة. كانوا يفتِّشـون عـن نـومٍ عميـق وعـن فضيلـةٍ ذاتِ تأثـير منوِّم. كان هـؤلاء الحكـماء والمعلِّمـون المتبجِّحـون يَعُـدُّون النـومَ مـن دون كوابيـسَ حكمـةً: لم يكونـوا يعرفـون معنـى آخـرَ أفضـلَ للحيـاة»[1]. وبالتأكيـد، كان نيتشـه سـيمرُّ بهـدوءٍ وبـلا اكـتراثٍ بمحـاذاةِ النـاس النائمـين، وبمحـاذاةِ الفضائـل المنوِّمـة، بـشرطِ أن يتركـوه وشـأنه بسـلام فقـط. بيـدَ أننـا نذكـرُ كـم أذاقتـه الأخـلاقُ مـن صنـوفِ العـذاب الشـديد. في ذلـك الوقـت الـذي كانـت قوانـينُ الطبيعـة فيـه - أي المـرض، حسـب تعبـيرِ دوستويفسـكي - تُحـرِم نيتشـه النـومَ والسَّـكينة، كانـت القوانـينُ البشريـة، وكـما لـو أنـه بقصـد الهـزء والسـخرية، تطلـب منـه السَّـكينة والنـوم الهـادئ وكانـت تهـدِّده، كعادتهـا، باللعنـةِ الكنسـية (الأناثيـما) في حـالِ لم ينفِّـذ رغباتهـا ومطالبَهـا. كانـت «الحكمـةُ» قـد اقترحـت عليـه فضائلَهـا المنوِّمـة الخاصـة بهـا، وشـعرَت بالضيـم عندمـا تبـيَّن أنهـا خاليـةٌ مـن أي مفعـول علاجـي. وبـدلاً مـن أن تقـدِّم المسـاعدةَ للمُعـذَّب، راحـت تطلُـب لنفسِـها المديـحَ والأناشـيد. هـذا هـو سـلوكُها المعتـاد. ولهـذا السـببِ أعـربَ كارامـازوف عنـد دوستويفسـكي، كـما سـبق أن رأينـا، عـن اسـتيائه مـن «العنـة الخـير والـشر»، الـذي تجـاسرَ بطريقـةٍ فظَّـة وطلـبَ لنفسـه قرابـينَ بشريـة. وقـد كـرَّر نيتشـه بعـد دوستويفسـكي القـولَ نفسَـه الـذي قالـه إيفـان كارامـازوف تقريبـاً: يقـول زرادشـت: «آه يـا إخـوتي! مَـن ذا الـذي يهـدِّد الجنـسَ البـشري بأعظـمِ خطـر؟ أليـس أولئـك الخـيِّرون والعادلـون الذيـن يقولـون ويشـعرون في أفئدتهـم بهـذا القـول: «نحـن نعـرف الآن مـاذا يعنـي الخـيرُ والعـدل، وقـد أصبحنـا نملكهـا؛ الويـل لأولئـك الذيـن يبحثـون هنـا»».

(1) الأعمال الكاملة، المجلد السادس، «من المجموعات القديمة والجديدة».

وبغضّ النظر عن الأذى الذي يُلحِقه الأشرار، فإنَّ الأذى من الخيِّرين يبقى هو الأكثر فداحةً. ومهما كان الأذى الذي يسبِّبه المفترون للعالم، فإنَّ أذى الخيِّرين هو الأكثرُ ضراوةً. أواه، يا إخوتي! صادفَ أن ألقى أحدُهم نظرةً في أرواحهم ذاتَ يوم وقال: إنهم فريسيون[1]. لكنهم لم يفهموا ما قاله. ولم يكن على الأخيارِ والعادلين أن يفهموه: كانت رُوحهم أسيرةَ ضميرهم الحي. إنَّ حماقةَ الخيِّرين فطِنةٌ إلى ما لا نهاية. بيدَ أنَّ الحقيقة تكمُن في أنَّه: «يجب على الخيِّرين أن يكونوا فريسيِّين. لا خيارَ آخرَ أمامهم. يتعيَّن عليهم أن يَصلبوا ذاك الذي يبحث عن عفَّته الشخصية»[2]. إنهم بائسون أولئك «الخيِّرون والعادلون»! هل كان بإمكانهم – وهم الذين كانوا يؤمنون بقوةٍ بعِصمة الحقيقة عندهم – أن يظنوا أن ثمَّة اتهاماً رهيباً بانتظارهم؟ مع العلم أنه مضى عليه ألفا سنة؛ فقبْل ألفَي سنة تماماً ألقى أحدُهم نظرةً في أرواحهم، وقال إنهم فريسيون. لم يفهموا ما قاله يومئذٍ، تلك هي الحقيقة. واليوم لا يفهمونه أيضاً، ومَن يدري؟ لعلَّ «الجميعَ» لن يفهموه أبدَ الدهر، ما دام البشرُ، حسبَ كلامه هو نفسه، لا يعرفون ما هم فاعلون. لعل أولئك الذين لا يفهمون، غيرُ ملزمين بأن يفهموا. ولماذا هم يقولون: الويل لمَن يسعى هنا؟ لماذا يحوِّلون بأسَهم الفظَّ ضد دوستويفسكي ونيتشه؟ أم إنَّ هذا

(1) حركة دينية واجتماعية في يهودا في عصر الهيكل الثاني. واحدة من المدارس الفلسفية العبرية الثلاث التي نشأت خلال ذُروة المكابيّين (القرن الثاني قبل الميلاد)، على الرغم من أن ظهور العقيدة الفريسية يمكن أن يُعزى إلى زمن عزرا. تعاليم الفريسيِّين هي في قلب الهالاخا واليهودية الأرثوذكسية الحديثة. يعود أصلُ المصطلح إلى اللغة الآرامية، ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين. كان الفريسيون يتَّبعون مذهباً دينياً متشدداً في الحفاظ على شريعة موسى والسُّنن الشفهية التي استنبطوها. (المترجم)

(2) الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، صفحة 168.

أيضاً «ضروري»؟ لكن دوستويفسكي ونيتشه لم يعودا يكترثان بحاجات الخيِّرين والعادلين (من أمثال مِل وكانط) ومَطالبهم؛ لقد أدركا أنَّ مستقبل البشَر، في حالِ كان ثمَّة مستقبلٌ للبشرية فقط، لا يقوم على أولئك الذين يحتفلون عن قناعةٍ بأنه بات لديهم اليومَ خيرٌ وعدالة، وإنما يقوم أولئك الذين يناضلون ويبحثون دون أن يعرفوا النومَ والسَّكينة والفرح، وهم يتخلَّون عن المُثل العليا القديمة ويذهبون لملاقاةِ الواقعِ الجديد مهما كان فظيعاً ومقرفاً.

تجدُر الإشارة هنا إلى أنَّ تعاليمَ نيتشه فُسِّرت تفسيراً خاطئاً؛ إذ إنَّ العقلَ المعاصِر الذي اعتاد الإمكانياتِ الوعظيةَ، كان يبحث في كلِّ ما قاله نيتشه عن آثارِ التعاليم المادية الجديدة فقط. وقد كان نيتشه نفسه يقدِّم جزئيّاً الحجَّة لذلك. كان شأنه شأن كلِّ كاتب تقريباً، أي شخص يخاطب الناس، يتكيَّف لا إراديّاً وإلى درجةٍ معيَّنة مع طلابه، فلم يكن يترك للجمهور خلال مناقشاته القرارَ الحاسمَ فحسب، بل الاستشاري أيضاً. وهذا ما كان يفعله دوستويفسكي أيضاً الذي شعر بنفسه مقيَّداً «بروح الزمن» بدرجةٍ أكبر، كما سبق أن رأينا، من نيتشه. أما المستمعون فكانوا يلمحون ويلتقطون بنهمٍ وبدقةٍ ما هو مفهوم وما هو معروف بالنسبة إليهم من كلام المعلِّمين - دون أن يكترثوا بما تبقَّى على الإطلاق. وقد عثروا على الأخلاق عند كلٍّ من دوستويفسكي ونيتشه؛ بعضهم عثر على أخلاقٍ جديدة، والبعض الآخر على قديمة. ومن المحتمل أن تقرأ الأجيالُ اللاحقة أعمالَهما بهدوء، كما يقرؤون اليومَ غوته. سوف يكيِّف النقدُ التفسيري زرادشت وراسكولنيكوف مع حاجاتِ «الخيرين والعادلين»، مقنِعاً إياهم بأنَّ نيتشه ودوستويفسكي كانا يحاربان

مع أولئك الفريسيِّين التجريديِّين أو المنقرضين، وليس مع ذلك الابتذالِ الذي كان موجوداً على الدوام (الفلسفة الوضعية والمثالية التي تمثِّل العدوَّ اللدودَ والأخطرَ للبشرِ أنصارِ التقليد). كان نيتشه يقول إنه حين يكون بحضور الناس، كان يفكِّر مثل الجميع، ولذلك كان يبحث، بصورةٍ رئيسية، عن العزلة، وإنه لم يكن يشعر بتفكيره حرّاً إلَّا في عزلته. وهذا ما يجعل الابتذالَ مرعباً؛ فهو يمارس تنويماً مغناطيسيّاً بملايين الأعين ويُخضِع المفكِّرَ الوحيدَ والمعزول لإرادته. كما أنَّ الحياة صعبةٌ في الوحدة! يشير نيتشه بسخريةٍ مريرة: «في الوحدة أنت تلتهم نفْسَك بنفسِك؛ وأما بين البشر فيلتهمك الكثيرون. والآن يجب عليك أن تختار!»[1].

ولكن، لا بدَّ في نهايةِ المطاف من اختيارِ الوحدة؛ فهي مع ذلك أفضلُ من «الهجران»، أي من إدراكِ أنك أنت نفسك غريبٌ وسط حشدٍ هائل من الناس. يقول زرادشت: «أواه أيتها الوحدة! أواه يا وطني! لقد عشتُ فترةً طويلة جدّاً بطريقةٍ متوحشة في أرضٍ غريبة، وها أنا ذا الآن أعودُ إليك والدموع تملأ عيني. هدِّدني الآن بإصبعك، كما تهدِّد الأمهات، وابتسم لي الآن، مثلما تبتسم الأمهات وقلْ لي: ومَن ذا الذي فرَّ هارباً مني ذاتَ يوم مثل عاصفة؟ مَن الذي هتف وهو يغادر: لقد عشتُ طويلاً في الوحدة ونسيت الكلام؟ هل تعلَّمتَ الكلام، الآن؟ أواه، يا زرادشت! إني أعرف كلَّ شيء، أنا أعرف أنك من بين كثيرين، كنت مهجوراً، وأنك وحيدٌ أكثر مني. ولكن، أن يكون المرءُ مهجوراً شيء، وأن يكون وحيداً شيءٌ آخَر مختلِف. هل أصبحت تعرف ذلك الآن؟»[2].

---

(1) الأعمال الكاملة، المجلد السادس، العودة إلى الوطن.

(2) الفن لأجل الفن (فرنسي).

يرى القارئ الآن فيما تكمُن مهمةُ نيتشه: إنه يأخذ على عاتقه قضيةَ الإنسانِ المتروك والمنسي من قِبل الخير والعلم والفلسفة. آمُل أنَّ الأمر بات مفهوماً الآن لماذا لم يكن «إيثار الغير» يثير اهتمامَ نيتشه: لا يوجد بالنسبة إلى الناس المتروكين ذلك الحوارُ القديم بين الإيثار والأنانية. أكثرُ من ذلك، كلاهما يندهشان من أنهما كانا ذات يوم قادرين على أن يناصب أحدُهما الآخَرَ العِداء، ولا يكادان يصدِّقان أنَّ ذلك كان حقيقةً. ثم كيف يمكن تصديقُ ذلك ما دام كلاهما، الإيثار والأنانية، مُرغَمَين على التمرُّغ في الغبار، وأن يهتفا بلا أيِّ معنى وهما يقرضان التراب، يتوجَّهان إلى الفزاعة المعاصرة للضرورة أو إلى «التطور العفوي»: «ليس لنا، ليس لنا، وإنما لاسمك». اسم التطوُّر العفوي! اسم الضرورة! وهل يمكن للإيثار أن يعنيَ، يا تُرى، في مواجهةِ مثل هذه الآلهةِ الضعيفة، أكثرَ مما تعني الأنانية والجريمة؟ تتلاشى هنا جميعُ الحدود التي وضعها الإنسان، تتلاشى وتزول إلى أبدِ الآبدين. ما دامت الأنانية لا تعني شيئاً أبداً، وفي حالِ كان ضروريّاً التنكُّر للذات، فمن الضروري هنا في الوقتِ نفسه أن ينكر المرءُ القريبَ منه، وكلَّ ما هو عزيز على البشر. وعلى العكس، في حالِ كان بإمكاننا أن نحدِّق بلا خوف في وجه العفوية، فمن الضروري عندئذٍ أن نُحافَظ على الإنسانِ الفرد في مواجهةِ «الضرورة»، شأنه شأن العالَم بأكمله. لا يوجَد ولا يمكن أن يوجَد خيارٌ آخر، مع أنَّ الابتذال الذي اكتسب أخلاقَ التكيُّف، بعد أن رفض المقاومة، يؤكِّد بصورةٍ مبدئية وجهةَ نظرٍ مغايِرة، وينفِّذها على أرض الواقع، ساعياً بكلِّ ما لديه من قوةٍ من أجلِ إرغامِ جميعِ الناس على قبول مبادئهم الخاصة، التي يرفعها على لسان «الخيِّرين والعادلين» من جهة،

وعلى لسان زبائنهم الدائمين ومختلف أنواع المستضعفين والتُّعساء، من ناحيةٍ أخرى؛ إلى مصافٍّ قوانينَ عليا للأخلاق، ويُطلِق عليهم اسم مُثُل عليا. لأنَّ أبناءَ «المأساة»، «المتروكين»، سيجدون أنفسَهم مضطرين إلى أن يخوضوا كفاحاً مزدوِجاً: مع «الضرورة» ومع القريبين منهم الذين ما زال أمامهم فرصةٌ للتأقلم، ولأنهم لا يعرفون ما هم فاعلون، يقفون في صفِّ العدوِّ اللدود والفظيع للبشرية. ومن هنا كانت تلك الصيغةُ ذات الحدَّين عند نيتشه: «لا يوجد شيء حقيقي، بل إنَّ كلَّ شيء مباح». الجزء الأول منها موجَّه ضد الضرورةِ والتطور العفوي. أما الجزء الثاني فموجَّه ضد الناس الذين راحوا عن وعي أو بطريقةٍ لا واعية يدافعون عن «قوانين الطبيعة» التي أهانت دوستويفسكي بشدَّة. أما نيتشه فلم يسْعَ فحسب لإزالة كلِّ ما هو غامض وملغز، كلِّ ما هو صعب ومؤلم من الحياة، بل كان يبحث عن كلِّ ذلك. تقوم ضمانة الشقاء في قوانين الطبيعة والانضباط، في العلم والفلسفة الوضعية والمثالية، أمَّا ضمانةُ المستقبل فموجودةٌ في فظائع الحياة. تلك هي أسسُ فلسفة المأساة: يقود إلى ذلك كلٌّ من التشكيكية والتشاؤمية، اللتين كان كانط يخشاهما ذات يوم إلى درجة كبيرة جداً، واللتين يتنكَّر لهما البشرُ حتى الآن، كلٌّ على طريقته، كما لو أنهما وحشان خرافيان ...

كانوا يلومون نيتشه بسبب كراهيته للضعفاء والمسحوقين، وعلى أخلاقه الأرستقراطية. وقد سبق أن لاحظتُ أنَّ الأخلاقَ على اختلاف أنواعها - ومن ضِمنها الأرستقراطية والديمقراطية - كانت غريبةً عن نيتشه. كانت مهمته تقوم «في الجانب الآخر من الخير والشر». كان، شأنه شأن كارامازوف، يرفض التفسيرَ الأخلاقي وتبرير الحياة،

لكنـه كان مذنبـاً في كراهيتـه «للضعفـاء»، الذيـن كانـوا يثـيرون اشـمئزازَه، هـم والمدافعـون عنهـم، أولئـك «الخيِّرون والعادلـون». ولم يكـن سـببُ ذلـك يعـود إلى «بؤسـهم» ولا إلى فشـلهم وحظهـم العاثـر، وإنـما بسـبب اسـتعدادهم لأن يقبلـوا «التعاطـف» الـذي يُعـرَض عليهـم مـن أجـل مواسـاتهم. لقـد شـاركوا في المؤامـرةِ ضـد الحيـاة، لكـي ينسـوا مآسـيهم؛ وهـذا مـا يَعـدُّه نيتشـه أعظـمَ جريمـة وخيانـة للقضيـة العظمـى، وهـذا مـا لم يغفـره قَـطُّ لأيٍّ كان عـلى الإطـلاق. كانـت تعاليمـه بأكملهـا ورسـالته الحياتيـة بمجملهـا تتلخَّـص في الكفـاح. ألم يكـن مـن الطبيعـي أكثـر أن يكـره أولئـك الذيـن كانـوا، مـن خـلال جُبنهـم واسـتعدادهم للتنـازلِ، يعـزِّزون مـن بـأسِ صفـوف الخصـوم الذيـن لا يُحـصى عددُهـم في الأصـل، ويُربِكـون ذلـك العـددَ القليـل ممـن لم يفقـدوا شـجاعةَ المقاتـل بعـد؟ مـن المثـيرِ للاهتـمام أنَّ شـوبنهاور، أسـتاذَ نيتشـه، كان يبخـس الشـجاعةَ حقَّهـا ولا يمنحهـا اهتمامـاً كافيـاً، حتـى دون أن يفهـمَ الغايـةَ منهـا في الحيـاة. كتـب يقـول: «إنَّ الشـجاعة هـي في حقيقـة الأمـر طهـارةٌ ثانويـة جـدّاً تليـق بضبـاط الصـف بـكل بسـاطة، ويمكـن للحيوانـات أن تتفـوَّق فيهـا علينـا؛ ولذلـك يُقـال: «شـجاع مثـل الأسـد». وبالطبـع، كانـت ثمَّـة أسـبابٌ خاصـة لـدى شـوبنهاور لكـي يناقـش الأمـرَ عـلى ذلـك النحـو: لا توجـد حاجـةٌ إلى الشـجاعة مـن أجـل تأليـفِ كتـبٍ ذات توجُّـه تشـاؤمي، ولكـن مـع عقيـدةٍ تفاؤليـة. ففـي مثـل هـذه الحـالات سـوف تكـون الظرافـة، والمهـارة في العثـورِ عـلى مقارنـةٍ جميلـة أو نعـت دقيـق، بالإضافـة إلى دهـاءِ العقـل الجـدلي، صفـاتٍ أرفـعَ بكثـير. كـم كانـت سـتبدو غريبـةً بالنسـبة إلى نيتشـه تلـك الكلـماتُ التـي كتبهـا شـوبنهاور أعـلاه، في حـالِ أنـه كان مضطـرّاً إلى أن يتذكَّرهـا. لقـد كـفَّ شـعارُ «الفـن لأجـل الفـن»،

ســواء كان في الفلســفة أو في الشــعر، عــن أن يغريَــه منــذ زمــن طويــل: كتــب يقــول: «كان النضــالُ ضــدَّ الغايــةِ في الفــن عــلى الــدوام مجــرَّدَ كفــاح ضــد النزعــة الأخلاقويــة، ضــد إخضــاعِ الفــن للأخــلاق. L'art pour l'art[1] وهــذا يعنــي: لتذهــبِ الأخــلاقُ إلى الجحيــم! لكــن هــذا لا يعنــي بعــدُ أنَّ الفــن عــلى العمــومِ بــلا هــدفٍ وبــلا معنــى، باختصــار، l'art pour l'art دودة تعــضُّ ذيلهــا ... مــا الــذي ينقلــه إلينــا الفنــانُ التراجيــدي، إنْ لم يكــن حالــةً مــن رباطــةِ الجــأش في مواجهــة الفظائــع والألغــاز التــي يصوِّرهــا هــو نفســه؟

يحتفــل المحــاربُ في روحنــا بعيــدِ ســاتورن[2] الخــاصِّ بــه بمواجهــة المأســاة؛ ذاك الــذي اعتــاد المعانــاةَ، وذاك الــذي يبحــث عــن الآلام – الإنســان البطــولي – ينشــد المديــحَ، إلى جانــبِ المأســاة، للكينونــة ولــه نفســه فقــط يقــدِّم الفنــانُ التراجيــدي عصــيرَ هــذه القســوةِ الأكثــرِ عذوبــةً عــلى الإطــلاق[3]. مــن الواضــح أنَّ الشــجاعةَ ليســت ضروريــةً لضبــاط الصــفِّ فقــط، وهــو مــا يجعــل الإنســان مضطــرّاً في بعــض الأحيــان إلى أن يحسُــد الحيوانــات عــلى بعــضِ مزاياهــا! يســأل زرادشــت: «آه يــا إخــوتي! هــل توجــد لديكــم شــجاعة؟ هل توجــد لديكــم جــرأة؟ لا شــجاعةَ عــلى مــرأى مــن الشــهود، وإنــما شــجاعةُ الزهّــاد والنســور، الذيــن لا تراهــم حتــى الآلهــة؟ ذاك الــذي ينظــر إلى الهاويــةِ

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الثامن، صفحة 135.

(2) عيد ساتورن في الأساطير الرومانية احتفالات قديمة كانت تُقام سنوياً للإله ساتورن إلهِ الخصب والزراعة. وكانت الاحتفالات تبدأ في يوم 17 ديسمبر وتستمر يومين، ولكنها أصبحت تمتد أسبوعاً فيما بعد. وربما نشأت أصلاً عن كلمات شكرٍ كانت تُردَّد في الاحتفال بذكرى الزراعة الشتوية. وبمرور السنوات فقدت أهميتَها الزراعية وأصبحت مناسبةً للاحتفالات العامة. حتى إن العبيدَ كانوا يُمنحون حريةً مؤقتةً ليفعلوا ما يحلو لهم في فترة العيد. وكانت تقام في عيدِ الإله ساتورن الولائم والزّيارات، وتُمنح الهدايا والعطايا. ومن الهدايا المعروفة في هذه المناسبة الشموعُ وتماثيل الطين الصغيرة. (المترجِم)

(3) الأعمال الكاملة، المجلد السابع، صفحة 100.

ولكـن بعينَـي نـسر، ومَـن يقبـض عـلى الهاوية بمخالـب نـسر، ذاك توجـد لديه شـجاعة». كان النسر والأفعى مرافقَين دائمَين لزرادشـت؛ تعلَّم منهما أن يحلِّـق عالياً فـوق السُّحب وأن يزحـف عـلى الأرض، أن ينظرَ بجـرأة إلى الشـمس وأن يبقـى ملتصقاً بـالأرض دون أن ينفصـل عنهـا. كـم مـرَّة كانـت تفصلـه شَـعرة عـن المـوت! وكـم مـرَّة شـعر باليـأس مـن جـراء إدراكـه أنَّ المهمـةَ التـي أخذهـا عـلى عاتقـه غيـرُ قابلـة للتحقيـق، وأنَّ المأسـاة يجـب أن تتراجـع في نهايـةِ المطـاف لكـي يحـلَّ محلَّهـا الابتـذال! تحمـل أقـوال زرادشـت في ذاتهـا آثـارَ النضـال الـذي يخوضـه الأمـلُ ضـد اليـأس. لكـن نيتشـه حقَّـق في نهايـةِ الأمـر مـا كان يسـعى إلى تحقيقـه؛ لم يَجـرؤ فحسـب عـلى أن يطـرح السـؤالَ بخصـوص الإنسـان مـن العـالم السـفلي، بـل جـرؤ أيضـاً عـلى الإجابـة عنـه. إنـه يقـول: «تبـدأ الحِقَـب العظيمـة في حياتنـا عندمـا نكتسـبُ الشـجاعةَ، فنحـوِّل مـا كنـا نحسـبُه شرّاً إلى خـير»[1].

هـذا يعنـي أنَّ نيتشـه قـرَّر أن يـرى في «أنانيتـه» - التـي سـبق أن أطلـقَ عليهـا يومـاً مـا تسـميةَ «نـاب الأفعـى» والتـي كان يخـاف منهـا إلى درجـةٍ كبـيرة جـدّاً - صفـةً راقيـة وليسـت مشـينة. تلـك الفكـرةُ نفسـها وبصيغـةٍ أكثـرَ اكتـمالاً تتجسَّـد مـرةً أخـرى في القـول المأثـور: «إنِّي أقـرُّ المبـدأ التـالي وأغامـرُ بـأن أهـينَ الصـوتَ الـبريء: تقـوم الأنانيـةُ في أسـاسِ أيِّ روح أرسـتقراطية - وأنـا أقصـد الإيـمان الراسـخ بأنَّـه يجـب عـلى الكائنـات مـن أمثالنـا، وعـلى جميـع الكائنـات الأخـرى بحكـمِ طبيعتهـا الخاصـة، أن تكـون مطيعـةً وأن تقـومَ بـدور الضحيـة. إنَّ الأرسـتقراطي يقبـل هـذه الحقيقـةَ بخصـوص أنانيتـه عـلى أنهـا شيءٌ لا يحتـاج إلى أي تفسـيراتٍ، دون أن يـرى فيهـا أيَّ قسـوةٍ أو عنـف

(1) الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، صفحة 193.

أو قسر، بل على الأرجح، كما لو أنها شيء مشروط بالقوانين الكونية. ولو احتاج الأمر أن نعثرَ على تسميةٍ له، لَكان سيقول: إنها العدالة نفسها».

بما أنَّ هذه الكلمات تتعلَّق بنيتشه نفسِه (أي بما قد يكون له معنى)، فإنَّ نوعاً من عدم الدقَّة يوجد هنا. فهو لم يكن ينظر إلى أنانيته باعتبارها حقيقةً واقعةً لا تحتاج إلى التفسير. وعلى العموم، كانت «الأنانية» تثير، كما نذكر، الإرباكَ عند نيتشه؛ إذ إنها كانت تبدو بالنسبة إليه أمراً مبتذلاً ومثيراً للاشمئزاز. ولذلك ومن هذا المنطلق، يجب أن نستبدل بكلمةِ «أرستقراطي» مُفردةً أخرى أقلَّ روعةً؛ «الإنسان من العالَم السفلي»، لا سيما أنَّ كلَّ ما قاله نيتشه عن الأرستقراطية كان يتعلَّق به شخصياً بطريقةٍ غيرِ مباشرة. فهو نفسه كان مجرَّد «إنسان من العالم السفلي»، وكان قد توصَّل إلى هذه القناعة منذ زمنٍ طويل، بصفته قارئاً. ولم يصنِّف نفسَه في فئة الأرستقراطيِّين والسعداء والناجحين والفائزين إلَّا على أساس تصوُّرات غريبة، يمكن تفسيرُها بصورة تامة على النحو التالي: «تكمُن الميزةُ العظيمة للانتماء إلى المنشأ الأرستقراطي في أنها تمنح القوةَ لكي يكون ممكناً تحمُّل الفقر بشكلٍ أفضل»[1]. كان يُخيَّل إلى نيتشه أنَّ الفقر سيكون أقلَّ وضوحاً في ظل السلوكيات الأرستقراطية.

ثمَّة جزءٌ من الحقيقة في ذلك، لكنَّ الفقر يبقى فقراً بغضِّ النظر عن أي عادات أرستقراطية. والأنانية التي تحدَّث عنها نيتشه لم تكن أنانيةَ الشخص الأرستقراطي الذي يقبل القرابين بكل ثقة، وإنما أنانية الفقير والمتسول، أنانية الساخط والمهان؛ لأنهم يتأفَّفون حتى من تضحياته. هنا يكمُن الفضلُ الهائل لنيتشه، في أنه نجح في الدفاع عن «أنانية» الفقير في

(1) الأعمال الكاملة، المجلد السابع، صفحة 143.

وجـه العالَــم بأكملـه، وليـس ذلـك الفقـر الـذي يحاربونـه بشـتَّى الإصلاحات الاجتماعيـة، بـل الفقـر الـذي لـن يبقـى لـه في دولـة الرخـاء في المسـتقبل مـن شيء سـوى التعاطـف والعفَّـة والمُثُـل العليـا؛ ذلـك أنـه لن يكـون ثمَّة مـكانٌ في دولـة المسـتقبل لأبنـاء المأسـاة أيضـاً، كـما هـي الحـال في الـدول الحديثـة؛ ومـن ثَـم فـإنَّ مـا يقـال لهـا الأخـلاق البرجوازيـة سـوف تتغـيَّر فيهـا تغـيُّراً محـدوداً، إلى الدرجـة الضروريـة «لسـعادة الأغلبيـة» فقـط. أمّـا بالنسـبة إلى النـاسِ مـن أمثـال دوستويفسـكي ونيتشـه، فسـوف يبقـون عـلى مـا هـم عليـه بصـورة تامة، وسـوف يكـون مـن نصيبهـم تلـك المُثُـل العليـا التقشُّـفية المجيـدة، وذلـك «الرائـع والرفيـع» الـذي لطالمـا أثقـلَ كاهـلَ الإنسـان مـن العـالم السـفلي خلال ثلاثـين عامـاً. لكـن نيتشـه لا يريـد العفـةَ والزهـد، وهـو لا يؤمـن بأخـلاق التفـاني ونكـران الـذات. وعبثـاً أنفـق وقتـاً كثـيراً في تعقُّـب «السـيكولوجيا» واقتفائهـا عنـد وعّـاظ الأخـلاق. بـات يعـرف أنَّ جميـعَ الخطابـات الباذخـة عن التفـاني ونكـران الـذات لم تكـن سـوى تكلُّـف عـلى لسـان المتمسـكين بمبـادئ الأخـلاق والفضيلـة والفلاسـفة. وقـد لاحـظ: «مـا هـو المشـترك بـين هـؤلاء النـاس والعفـة!». فهـم يفهمـون عـادةً تحـت مسـمَّى الفضيلـة تلـك القواعـدَ الحياتيــةَ التــي تضمــن لهــم نجاحــاً محــدوداً في نشــاطهم. «يقــول نيتشــه: بفضــل المثــل الأعــلى التقشــفي، تبتســم الظــروف الأمثــل للفكــرة المجــرَّدة العليــا والجريئــة، وهــو لا ينكــر الكينونــةَ بواســطة المَثــل الأعــلى التقشُّــفي، بـل عـلى العكـس، إنـه يؤكـد مـن خلالـه عـلى وجـوده هـو وحـدَه لا غـير، وهـذا عـلى الأغلـب بدرجـةٍ كبـيرة تجعلـه غـير بعيـدٍ عـن الفكـرة الجسـورة - pereat mundus, fiat philosophia, fiat philosophus, fiam...[1]».

(1) تمنيات طيبة (لاتيني).

... تمثِّل تلك الكلماتُ الأخيرة ترجمةً تكاد تكون حرفيةً للعبارة الشهيرة التي قِيلت على لسان البطل البائس من العالم السفلي: «أيهما أفضل، أن يَهلك العالم وأن يذهب إلى الشيطان، أم أن أشرب الشاي؟ وأنا أقول ليذهب العالمُ إلى الجحيم، بشرطِ أن أشربَ الشاي». هل كان بإمكانه أن يظنَّ في يوم من الأيام، أنَّ العبارة التي قالها في لحظةِ غضبٍ وعمى بصيرةٍ لتلك المومس التَّعِسة سوف يقوم الفيلسوف الشهير بترجمتها إلى لغةِ شيشرون وهوراس، وأنه سيقترحها لتكون صيغةً تحدِّد بذاتها جوهرَ الطموحات البشرية العليا؟ لو كان بإمكان دوستويفسكي أن يتنبأ بأنَّ مثل تلك الشهرة العظيمة بانتظار بطله الصغير، لكان على الأرجح أغفلَ الحاشية التي ألحقها برواية «مذكِّرات من العالم السفلي» ...

# 29

وهكـذا، pereat mundus, fiam[1]، لـن يتخلى الإنسـانُ مـن العـالم السـفلي عـن حقوقـه حتـى لـو هلـك العـالمُ بأكملـه، كـما أنـه لـن يبدِّلهـا بـأي «مُثُـل عليـا» نابعـةٍ مـن التعاطـف ومـا إلى ذلـك مـن الخـيرات الأخـرى مـن هـذا القبيـل، التـي جهَّزتهـا لـه خصوصـاً الفلسـفةُ الحديثـة والأخـلاق المعـاصرة. كان ذلـك بالنسـبة إلى دوستويفسـكي بمنزلـة حقيقـة رهيبـة قـرَّر أن يعـبِّر عنهـا باسـم أبطـال رواياتـه مـع كلِّ مـا في ذلـك مـن ذعـرٍ وحيـاء. أمـا بالنسـبة إلى نيتشـه فقـد كان ذلـك بمنزلـة «إعـلان حقـوق»، ولأجلهـا لجـأ إلى كلِّ ذلـك النشـاط تحـت الأرضي؛ ومـن هنـا كانـت تلـك القسـوةُ عنـد نيتشـه. إنـه يسـعى لكـي يخلِّـص نفسَـه والبـشرَ مـن «الآلام».

لقـد ابتعـد كثـيراً في هـذا الموقـف، كـما في أمـورٍ أخـرى كثـيرة، عـن معلِّمـه أثنـاء شـبابه، عـن شـوبنهاور. كان الأخـير، كـما هـو معـروف، يدعـو النـاسَ ويعلِّمهـم البحثَ عـن السَّـكينة في الحيـاة. كتـب يقـول: «لا داعـيَ نهائيّـاً لشراء الملـذَّات مقابـل الآلام، ولا حتـى مـن خـلال المخاطـرة بالتعـرُّض لـلألم؛ وذلك لأنـك في هـذه الحـال تدفـع مـا هـو إيجـابي، تدفـع قيمـةً حقيقيـة مقابـل مـا هـو

(1) دع العالم يهلك، دعني أكون (لاتيني).

سلبي، ومن ثَم ما هو صوري. على العكس، يبقى ثمَّة ربحٌ عند ذاك الذي يضحِّي باللذة لكي ينجوَ من الألم». وهذه الكلمات مميزةٌ بصورة استثنائية لفلسفة شوبنهاور، بل لكل فلسفة على العموم. لطالما كانت حكمةُ الحكماء الرسميِّين تنظر إلى الألم على أنه سخيفٌ وفاقد للمعنى وغير لازم بحكم جوهره الخاص به، وأنَّ هذا ما ينبغي تحاشيه مهما كلَّف الأمر. كما أنَّ ما تُعرَف بالحكمة الدنيوية، إذ كان يُعبَّر عنها بالكلمات، هي أيضاً كانت تنظر إلى المعاناة بالطريقةِ نفسِها تماماً. معظمُ الحِكَم والأقوال المأثورة الشعبية تنصحُ بالاعتدال وبالدقة بوصفهما فضيلتَين عُليَيَين، وهما أنجعُ من حيث قدرتهما على ضمانِ حياة سعيدة وهادئة للإنسان. لا تطارد غرنوقاً يطير في السماء، بل اقبِضْ على طائر الزِّمِّير بكلتا يديك[1]. مع العلم أنَّ حياة البشَر لا تحدِّدها الأقوالُ المأثورة وعبارات الحكماء، بل كانت على مرِّ العصور وعند كافة الشعوب مجرَّد جري دائم ومتواصل خلف السعادة، التي تشبه غُرنُوقاً في السماء، لطالما حذَّرَنا منه المتمسكون بمبادئ الأخلاق والفضيلة. يهرُب الناس من طيور الزِّمِّير (سن المنجل) مع شعور بالقرف، وذلك على الرغم من أنها تُدَسُّ في أياديهم مباشَرةً تقريباً. كان الملك هنري الرابع يحلُم بأن تحتوي وجبةُ الغداء في أيام الآحاد على ديكٍ لكل فرد من عامة الشعب. لو أنَّ سواد الشعب رأوا في الديك مَثلهم الأعلى، ولو أنهم سعَوا لكي يعيشوا حياةً هانئة وهادئة فقط، مضحِّين كما ينصحهم شوبنهاور والأقوال المأثورة، «باللذة» بشرطِ ألَّا يتألموا، لكان تاريخ البشرية، ربما، فظيعاً بدرجةٍ أقل. لكن السكان،

(1) ربما يقابل هذا القول المأثور في العربية: «عصفورٌ باليد أفضلُ من عشرة على الشجرة» أو «لا تشترِ سمكاً في البحر». (المترجِم)

شأنهم شأن حكامهم، كانوا ينظرون إلى الحياة بطريقةٍ مغايرة، ولم يكونوا يعتبرون الوجودَ الآمن والمُسالم مَثلهم الأعلى وغايتهم القصوى. بل على العكس، كان الإنسان كما خلقته الطبيعة، مستعداً لأن يرضى بسنواتٍ كاملة من المعاناة والشقاء العظيم مقابل لحظةٍ واحدة من السعادة ولقاءِ شبحِ سعادة؛ فهو ينسى في مِثل تلك الحالات مختلِفَ أنواع الحسابات وأي اعتبار، ثم ينطلق إلى الأمام نحو المجهول، وغالباً إلى الهلاك المحتوم. فأين هي الحقيقة؟ هل في الحكمة اللفظية أم في الواقع؟ وهل يجبُ بالفعل على الإنسان أن يخشى المجهولَ والألم والهلاك، كما اعتدنا أن نفكِّر نحن الناسَ المتعلمين الذين غرفوا أحكامَهم من الكتب المتراكمة خلال قرون، أو الإنسان الساذَج الذي لم ينسَ أن يثقَ بدوافعه المباشرة؛ ولذلك فهو يعرف أكثرَ مما يعرفه أكثرُ الفلاسفة تعلُّماً؟ لا يمكن أن يكون أيُّ سؤال هنا، بالطبع، من وجهة نظر العلم الإيجابي المعاصر. لكن دوستويفسكي الذي عاش تجرِبة السجن، عرفَ حقيقةً أخرى من خلال رفاقه في المعتقل، أي أولئك الناس الذين قادهم عدمُ الخوف من المعاناة إلى بيت الموتى. وقد حمل معه من السجن «قناعةً» بأنَّ مهمةَ الإنسان لا تكمُن في النحيب فوق ماكار ديفوشكين، وفي الحُلم بمِثل ذلك المستقبل الذي لن يقوم فيه أحدٌ بإهانةِ آخرَ، بل سيعيش الجميع في سكينةٍ وفرح وسرور، وإنما تكمُن مهمته في أن يُحسِن قبول الواقع كما هو مع كلٍّ ما فيه من أوجاع وفظائع. أواه! كم كان غيرَ راغب في قبول حقيقة السجن هذه! كان يظن بادئَ الأمر أنه سوف يتخلَّص منها عن طريق التوقير الأفلاطوني، وأنه سوف يبدأ في العيش من جديد على الطريقة القديمة! بيدَ أنَّ الحقيقة هي التي تجري وراء الإنسان، وليس الإنسان هو الذي

يجـري خلـف الحقيقـةِ كما كان يعتقـد شـوبنهاور. وقـد أدركـت حكمـةُ المعتقَل دوستويفسـكي بعـد مـرور سـنوات كثـيرة، حـين بـات يعيـش بعيـداً عـن سيبيريا، في بطرسـبورغ، وسـط المفكِّريـن الإيجابيِّـين الذيـن كانـوا يحيطـون بـه، وأرغمتـه تلـك الحكمـةُ عـلى الاعـتراف بنفسـه وعـلى خدمـة نفسـه.

«إنَّ الشـعب الـروسي يحـبُّ المعانـاة»، لم يكـن هـذا القـول مفارقـةً، كـما ظـنَّ خصـوم دوستويفسـكي، بـل كانـت تلـك هـي الحقيقـةَ، لكنهـا حقيقـةٌ مـن عـالمٍ آخـرَ، عـالمٍ أغفلـه النـاسُ العاملـون في حقـل الكتابـة ولم يتذكَّـروه إلَّا فيـما بعـد، وذلـك لكـي يقولـوا وأعينهـم تقـدح شرراً مـن الاسـتياء: يجـب ألا يكـون موجـوداً! يجـب ألا يكـون في الوقـت الـذي هـو موجـود فيـه! وقـد ردَّ دوستويفسـكي عـلى ذلـك: أحبُّـوا الشـعبَ التَّعِـس والبشـع والمثـير للاشـمئزاز، وليـس الشـعب الـذي تتصورونـه والغـارق في سـعادته. عيشـوا كـما يعيـش هـو. هـل يمكنكـم ذلـك؟ وهـل تريـدون ذلـك؟ أمَّـا مسـاعدتكم ومشـاريعكم الإصلاحيـة فهـي آخـرُ قضيـةٍ عـلى الإطـلاق. وقـد رأى أولئـك «الخـيِّرون والعادلـون» مفارقـةً في ذلـك، أولئـك الذيـن كانـت المُثـل العليـا الاجتماعيـة وسـعادةُ البشريـة في المسـتقبل تلهمهـم مُثـل الأنبيـاء ...

وهـا هـو ذا نيتشـه يـأتي بعـد دوستويفسـكي. وهـو أيضـاً قـادمٌ مـن سـجن الأشـغال الشـاقة؛ مـن العـالم السـفلي، مـن حقـل المأسـاة الـذي لا يعـود منـه أحـدٌ إلى العـالم الاعتيـادي. أصغـوا إليـه، إنـه يبرهـن عـلى مـا لم يُسـعِف الحـظُّ دوستويفسـكي لأن يبرهـنَ عليـه، وربـما مـا لم يكـن يجيـد شرْحَـه، كـما ينبغـي: يقـول زرادشـت: «أمَّـا أنـا فأشـعر بالفـرح مـن الإثـم العظيـم كـما لـو أنـه عـزاءٌ عظيـم بالنسـبة إليَّ. لكـن هـذا قيـل لا لأجـل أصحـابِ الآذان الطويلـة. وليـس كل الأفـواه تملـك الحـقَّ في أن تقـول هـذه الكلمـة. إنهـا أشـياءُ غايـة

في الدقـة وبعيـدة. ولا يجـوز لحوافـرِ الغنـم أن تـدوسَ عليهـا. هـل تعتقـدون، أيهـا البشَر العِلْويـون، أنني إنـما جئتُ إلى هنـا لكـي أصحِّـح مـا أفسـدتموه؟ أو لكـي أُجهِّـز فِراشـاً مريحـاً أكثـر لأولئـك الذيـن يتعذَّبـون؟ أو لكي أرشـدكم أنتـم، الذيـن ضلُّـوا الطريـقَ وتاهـوا، إلى الـدرب الأسـهل على الإطـلاق؟ كلا، كلا، ثلاثـاً كلا! سـوف يَهلـك الأفضـلُ مـن بينكـم بوتـيرةٍ أسرعَ وأسرعَ؛ لأنَّ الأمـرَ سـيكون أصعـبَ وأصعـبَ عليكـم».

إنه تحفُّظ ضروري: «ليست كلُّ الأفواه مخوَّلة لأن تقول تلك الكلمات».

يفكِّـر النـاس الذيـن يعيشـون فـوق الأرض، وينبغـي عليهـم أن يفكِّـروا بطريقـةٍ مغايـرة (توجـد بالنسـبة إليهـم أخـلاقٌ إلزاميـة بخصـوصِ مـا يجـب ومـا لا يجـب). لكـن دوستويفسـكي ونيتشـه كانـا يتحدَّثـان ويحـق لهـما أن يتحدَّثـا بالنيابـة عـن النـاس مـن العـالم السـفلي - ومـن المؤكَّـد أنـه مـا مِـن أحـد سـيجادل في ذلـك، حتـى مـن بـين أولئـك الذيـن لا يريـدون أن يأخـذوا آراءهمـا بعـين الاعتبـار. وبالمناسـبة، حتـى إذا مـا جادلـوا فلـن يكـون ثمَّـة مصيبـةٌ كـبرى مـن جرَّاء ذلـك؛ لأن فلسـفةَ المأسـاة بعيـدةٌ تمامـاً عـن أي سـعي نحـو الشـعبوية أو الجماهيريـة، ونحـو النجـاح؛ فهـي لا تحـارب الـرأي العـام، بـل إنَّ عدوَّهـا الحقيقـي هـو «قوانـين الطبيعـة». أمـا أحـكام البشَر ونقاشـاتهم فـلا تخيفهـا إلَّا بمقـدارِ مـا تؤكـده مـن خـلال وجودهـا عـلى خلـود القوانـين وثباتهـا. مهـما كان المفكِّـر الفـرد شـجاعاً، فإنـه يقـع لا شـعوريّاً بـين الفينـة والأخـرى تحـت تأثـير الذُّعـر مـن التفكـير في أنَّ غالبيـةَ البشر، أن «الجميـع» الذيـن يعلِّمهـم الازدراء، قـد يكونـون في نهايـة المطـاف عـلى حـقٍّ. ولكـن في حـال كان رفاقـه في مهنـةِ الكتابـة والـكلام ضـده، فسـوف ينافـح عنـه الشـعبُ الصامـت الـذي يعيـش حيـاةً خاصـة غـيرَ مدروسـة وغامضـة. ليـس أولئـك

«الفلاحـون الأذكيـاء» الذيـن يبحـث لديهـم الكونـت تولسـتوي عـمَّا يثبـت تعاليمـه، وإنـما ذلـك الشـعب غـير الفطِـن والفـظ، والسـاذَج الـذي هـو بحاجـة إلى إعـادة تعليـم وإعـادة صياغـة، بحاجـة إلى التنويـر، باختصـار، بحاجـة إلى أن يُكيَّـف مـع مُثُلنـا العليـا. ذلـك الشـعب الـذي حتـى لـو كان يعـرف الأقـوالَ المأثـورة، فإنـه يحيـا بالأحـوال كافـة طبقـاً لحكمـةٍ أخـرى لا نملـك الحـقَّ لأن نشـوِّهها في أعينـه، لا عـن طريـق جمعيـات محاربـةِ السُّـكْر مـع مقـاهٍ لـشرب الشـاي، ولا بالمـدارس، لا بـالأدب التنويـري العقيـم ولا بالتقـدُّم. وهـو لا يعـترض علينـا، بـل إنـه يوافـق معنـا ويـشرب أحيانـاً الشـاي الـذي نقدِّمـه له، كـما أنه يقـرأ الحكايـات التـي كتبهـا الكونت تولسـتوي لأجلـه ويحـنُّ إليهـا، لكنـه يواصـل العيـشَ عـلى طريقتـه الخاصـة باحثـاً عـن أفراحـه الخاصـة بـه، ويسـير لملاقـاةِ أوجاعـه وآلامـه بثبـاتٍ وبـلا وجـل. وهـذا لا يقتـصر عـلى الشـعب الـروسي فقـط، كـما كتـب دوستويفسـكي، بـل ينطبـق عـلى أي شـعب. وأنتـم تـرون الـشيءَ نفسَـه في كلٍّ مـن فرنسـا وإيطاليـا وألمانيـا، كـما في روسـيا. أمـا المُثـل العليـا بشـأن الدجاجـة في وجبـة غـداء يـوم الأحـد، وبخصـوص السـعادة العامـة، فقـد كانـت عـلى الـدوام مـن اخـتراعِ المعلِّمـين والأشـخاص المتعلِّمـين؛ ولهـذا السـبب، عـلى الأرجـح، لم ولـن تتحقَّـق أبـدَ الدهـر، بالرغـم مـن أنَّ المتفائلـين يعتقـدون أن مملكتهـم باتـت قريبـة.

تلـك الحقيقـة وحدَهـا بخصـوص أنـه بـات ممكنـاً توفُّـر معلِّمـين مـن أمثـال دوستويفسـكي ونيتشـه، ينـادون بالمحبـة تجـاه التعاطـف والمواسـاة، ويعلنـون أنَّـه يجـب أن يَهلـك أفضـلُ النـاس لأن حياتهـم سـوف تصبـح أكثـرَ سـوءاً وأكثـرَ صعوبـة؛ تبـيَّن أنَّ الآمـال الورديـة لأنصـار الفلسـفة الوضعيـة والماديِّـين والمثاليِّـين، كانـت مجـرَّد أحـلام طفوليـة لا أكثـر. فـلا توجـد

أيُّ إصلاحات وإعادة بناء مجتمعية قادرة على طرد المآسي من الحياة، وقد حان الوقت على ما يبدو لكيلا ننكرَ المعاناة كما لو أنها حقيقةٌ مزيفة، يمكن التخلُّص منها عن طريق الكلمة السحرية: «ينبغي لها ألا تكون»، كما يُتخلَّص من الشيطان بواسطةِ الصليب، بل يجب قبولها والاعترافُ بها وربما فهمُها في نهاية الأمر.

لم ينجح العِلم عندنا حتى الآن إلَّا في تجاهُل كلِّ ما هو رهيب وفظيع في الحياة، كما لو أنَّ هذا الفظيع غيرُ موجود على الإطلاق، وفي مواجهته بالمُثل العليا كما لو أنَّ المُثل العليا هي الواقع الحقيقي. لقد حانت بالنسبة إلى «الإنتلجنسيا» فترةٌ عصيبة جداً. كانت فيما مضى تذرف الدموعَ على الشعبِ المتألم، وكانت تنادي بالعدالةِ وتطالب بقيام ضوابطَ أخرى، كما وعدت بأنظمةٍ وبضوابطَ جديدة، دون أن يكون لها أدنى حقٍّ في ذلك، بالمناسبة، وراحت تفرح لجهوزيتها، ولفن التظاهر والكذب عندها، معتبرةً ذلك ميزةً أخلاقية استثنائية. وها هي ذي الآن مطالِبةٌ بشيء جديد. ليس من قِبل العلم بالطبع؛ لأن العلم أُسِّس بجهود العلماء، وكان يتطلَّب ما يمكن للعلماء أن يحققوه بسهولة فقط. أما الآن فقد جاءت إلينا الحياةُ بمطالبَ جديدة. وهي لا تذكر شيئاً بخصوص المُثل العليا، بل راحت تتكلَّم بلغتها الصامتة الخاصَّة بها مع صرامةٍ غامضة عن شيء لم يسبق لنا أن سمِعنا به من قبلُ على الإطلاق، ولم نكن نرتاب بوجوده قط. وأما دوستويفسكي ونيتشه فيشرحان ويفسِّران لغتها غير المفهومة فقط؛ إذ يعلنان أن حياتنا سوف تصبح أسوأ وأسوأ بكثير. لم تصدُق حساباتنا. لن تكون ثمَّة دجاجةٌ على وجبة الغداء في أيام الآحاد عند سواد الشعب، بل سوف ينتزعون منَّا كافة الخيرات المادية والروحية، التي وهَبَنا العِلمُ

إيَّاها. وفقط عندما لن تكون ثمَّة آمال، حقيقية أو متخيَّلة، في العثور على نجاةٍ تحت سقف كريم الضيافة للتعاليم المادية أو المثالية، سوف يتخلَّى البشَر عن أوهامهم وعن أحلامهم الأزلية، وسوف يغادرون شبه الظُّلمة القائمة عند الآفاق المحدودة والضيقة، التي كانت تُدعى حتى اليوم باسم الحقيقة المدوِّية، مع أنها كانت ترمز إلى ذلك الخوفِ الغريزي عند الطبيعة البشرية المحافِظة أمام ذلك المجهول الغامض الذي يُدعى المأساة. من الممكن، حينئذٍ، أن يفهموا السببَ الذي حدا بكلٍّ من دوستويفسكي ونيتشه إلى أن ينتقلا من النزعةِ الإنسانية إلى القسوة، وأن يكتبا على رايتهما الكلماتِ الغريبة: Wille zur Macht.

لا تكمُن مهمةُ الفلسفة في تعليمنا الاستكانةَ والطاعةَ ونكرانَ الذات. لقد اختلق الفلاسفةُ جميعَ هذه الكلمات لأجل الآخرين وليس لأجلهم هم خاصةً. حين يقول الكونت تولستوي: «نفِّذوا مشيئةَ الذي أرسلكم إلى هنا»، بحيث إنه يكتب كلمةَ «أرسلكم» بحروفٍ صغيرة، يصبح بمقدورنا أن نفهمَ أنه يطلب منا، على غِرار الواعظين الذين سبقوه، أن ننفِّذ رغبته هو ومشيئته هو. وهو يكرِّر من دون أن ينتبه لذلك - في صيغةٍ مألوفة لنا؛ ولهذا فهي لا تخدشُ السمع - كلماتِ نيتشه والإنسان من العالم السفلي: pereat mundus, fiam. ففي نهاية الأمر، يُوجد بالنسبة إلى جميع بني البشَر هذا القانونُ الأخيرُ فقط («الفكرة العليا» عند دوستويفسكي). لكنَّ «العظماء» يعبِّرون عنه بشجاعةٍ أكبرَ أو أقل، في حين أن غيرَ العظماء يخفونه في داخل أنفسِهم. لكن القانون يبقى واحداً بالنسبة إلى الجميع. ألا يحقُّ لنا أن نرى في شموليته علامةً على جبروته، ومن ثَم نعترف بأن «إجازةَ الحقيقة» هي من حقِّ البطل من العالَم

السفلي؟ وأنَّ إعلانَ الحقوق الذي أعلنه نيتشه وWille zur Macht، هو أكبرُ نوعاً ما من المُثل العليا ومن pia desideria[1]، اللتين كانت الكتب العلمية مليئةً بهما حتى تاريخه؟ لعلَّ الإنسانَ من العالَم السفلي لم يكن على حقٍّ في موقفه من «قوانين الطبيعة»، حين راح يقول إنها أهانته أكثرَ من أي شيء آخر! إذ إنَّ تلك القوانين هي التي منَحَته - وهو الكائنُ التافهُ والمحتقَر والمنبوذُ من قِبل الجميع - ذلك الإدراكَ الشامخَ بقيمته وبكرامته بصفته إنساناً، الذي قاده إلى قناعةٍ بأنَّ العالَم بأكمله لا يساوي أكثرَ من إنسانٍ واحدٍ من العالَم السفلي!

بهذا الشكل أو ذاك تقيم فلسفةُ المأساة عداوةً مبدئية مع فلسفة الابتذال. هناك حيث فلسفةُ الابتذال تنطِق كلمةَ «النهاية» ثم تدير ظهرَها، يرى كلٌّ من نيتشه ودوستويفسكي البدايةَ ويباشران البحثَ. يوجد في «Also sprach Zarathustra» قصةٌ حول «الإنسان القبيح جدّاً»، التي تصوِّر بطريقةٍ رمزيةٍ حياةَ نيتشه الخاصة. الحكايةُ ضخمةٌ جدّاً، ولا يمكنني أن أستشهدَ إلّا ببعض المقتطَفات منها، لكني أنصح القارئ الذي يهتم بفلسفةِ نيتشه بأنْ يقرأ الحكايةَ كاملةً، وحبَّذا لو يقرؤها باللغةِ الأصلية. «تغيَّر المنظرُ الطبيعي فجأةً، ودخل زرادشت إلى مملكة الموت. هناك كانت قد شمخت جلاميدُ سوداء وحمراء، ولكن من دون أعشاب أو أشجار، ولم تكن تُسمَع أصواتُ طيور. كان ذلك عبارةً عن وادٍ تتحاشاه جميعُ الوحوش - ومن بينها الوحوشُ الكاسرة. وحدَها الأفاعي من صِنفٍ معيَّن، الدميمة والبدينة، كانت تزحفُ إلى هناك في أواخر عمرها لكي تلقى حتفَها؛ ولهذا السبب كان الرعاةُ يطلقون على ذلك الوادي اسمَ الموت الثعباني. غرق زرادشت في تفكيرٍ عميق: خُيِّل

(1) رغبات تقية. (لاتيني).

إليـه أنـه سبق لـه أن وقـف في هـذا المكان مـن قبـل. راح يتذكّـر الكثـيرَ ممـا هـو ثقيـل، بحيـث إنـه راح يبطِّـئ ويبطِّـئ مـن خطواتـه، ثـم توقَّـف في نهايـة المطـاف. ولكنـه مـا إن رفـع عينيـه حتـى رأى عـلى الطريـق مـا يشـبه الإنسـان، ولكنـه لا يـكاد يكـون إنسـاناً، بـل كان شـيئاً مـا، لا يمكـن العثـورُ عـلى اسـمٍ لـه». كان ذلـك هـو «الإنسـان الشـنيع جـدّاً» الـذي هجـر النـاسَ وذهـب إلى وادي المـوت الثعبـاني المظلـم. لمـاذا هجـر النـاس؟ راح الإنسـان الدميـم جـدّاً يقـول لزرادشـت: «إنهـم (أي البـشَر) يطاردوننـي، وأنـت الآن آخـرُ مـلاذٍ بالنسـبة إليَّ. وهـم لا يطاردوننـي بكراهيتهـم ولا بجنودهـم؛ كنـتُ سأسـخر مـن كلِّ ذلـك، بـل كنـت أيضـاً سـأفاخر وسأسـعد بذلـك! ألم يكـن النجـاح حتـى الآن، يـا تُـرى، مـن نصيـب أولئـك الذيـن طُـورِدوا؟! لأنَّ ذاك الـذي يطـارد بشـكلٍ جيـد، لا بـدَّ أن يتعلَّـم تقفِّـي الأثـر أيضـاً؛ فهـو يوجـد في الخلف عـلى الـدوام. بـل إنـه تعاطُفهـم؛ أنـا هـارب مـن تعاطفهـم وأبحـث عـن مـلاذٍ لديـك. أواه، يـا زرادشـت! هيـا دافـع عنـي، فأنـت آخـر أمـلٍ عنـدي، أنـت الإنسـانُ الوحيـد الـذي فهمنـي».

يـأتي مثـل هـؤلاء، الذيـن يسـكنون في وادي «المـوت الثعبـاني» بحثـاً عـن الأمـل لـدى زرادشـت. ولكـن، مـا الـذي يريدونـه؟ اسـمعوا مـا يـلي. يقـول الإنسـانُ الشـنيع جـدّاً: «كان كلُّ شـخص في مكانـك سـيعطيني صدقـةً - تعاطفـه معـي بكلمـةٍ أو بنظـرة. بيـدَ أننـي لسـتُ متسـوِّلاً، وأنـت خمَّنـت ذلك. فأنـا غنـيٌّ بـما هـو عظيـم وبـما هـو رهيـب، بـما هـو شـنيع إلى أقـصى درجـات الشـناعة، وبـما لا يُوصـف. لقـد هربـتُ بصعوبـةٍ مـن حشـد النـاس المتعاطفـين معـي والمشـفقين عـليَّ، وذهبـت أبحـثُ عـن ذلـك الإنسـانِ الوحيـد الـذي يلقِّـن الآن أن الشـفقةَ أمـرٌ اسـتحواذي، أبحـث عنـك. أواه يـا زرادشـت!

يـا مَـن تُعلِّـم أنَّ غيـابَ الرغبـة في تقديـم المسـاعدة أكثـرُ نبـلاً بكثـير مـن تلـك الفضيلـة التـي تقفـز إلى الواجهـة. لكـن الشـفقةَ باتـت تُعـرَف بأنهـا فضيلـة عند جميـع النـاس الصغـار؛ فهـم لا يتقنـون تقديـرَ الشـقاء العظيـم والقبـح العظيـم والفشـل العظيـم».

تقديرُ الشقاءِ العظيم والقبح العظيم والفشل العظيم!

تلك هي الكلمةُ الأخيرةُ في فلسفةِ المعاناة.

إذ لا يجـوز نقـلُ فظائـعِ الحيـاة كافـةً إلى مجـال Ding an sich، إلى مـا وراء حـدود التراكيـب الصنعيـة a priori، بـل يجـبُ تقديرُهـا واحترامهـا! لعـلَّ المثاليـةَ أو الفلسـفة الوضعيـة تتعامـل بهـذه الطريقـةِ مـع «الشـناعة»؟ عندمـا أحـرق غوغـول المجلـدَ الثـاني مـن كتابـه «النفـوس الميتـة» عـدَّه البعضُ مجنوناً، وإلا لَمـا كان ممكنـاً إنقـاذُ المُثـل العليـا بطريقـةٍ أخـرى. لكـن غوغـول كان محقّـاً بدرجـةٍ أكـبرَ عندمـا أحـرق مخطوطَـه الثمـين الـذي كان يمكنـه أن يمنـحَ الخلـودَ في الأرض لدزينـةٍ كاملـةٍ مـن النقّـاد الذيـن لم يكونـوا «مجانـين» قبـل أن يكتبـه. لـن يسـمح المثاليـون بذلـك أبـداً، بـل هـم بحاجـة إلى «أعـمال غوغـول الإبداعيـة» دون أن يشـغَلوا بالهـم بغوغـول نفسِـه و«بفشـله العظيـم وشـقائه العظيـم، وشـناعته العظيمـة». دعْهـم يغـادرون، إذن، ميـدانَ الفلسـفةِ إلى الأبـد! ثـمَّ، مـا هـي حاجتهـم إليهـا، في نهايـةِ الأمـر؟ ألا يمكـن تبريـرُ مآثرهـم، يـا تُـرى، عـن طريـقِ الاستشـهادِ بسـكك الحديـد وبأعمـدةِ الهاتـف والـبرق، وبالجمعيـات الاسـتهلاكية، وحتـى بالمجلَّـد الأول مـن روايـة «النفـوس الميتـة»، مـا دام أنـه يسـاعد في عمليـةِ التقـدُّم؟ أمـا الفلسـفة فهـي فلسـفة المأسـاة.

لا تكـفُّ روايـات دوستويفسـكي ومؤلَّفـات نيتشـه عـن الحديـث عـن «البشَـر الدميمـين والمشـوَّهين جـداً»، وعـن تسـاؤلاتهم. لقـد كان كلٌّ مـن

نيتشـه ودوستويفسـكي وغوغـول مـن أشـنعِ النـاس، ولم يكـن لديهـم آمـالٌ بسـيطة ومبتذَلـة. حـاول كلٌّ منهـم أن يجِـدَ مـا يخصُّـه هنـاك، حيـث لا يسـعى أيٌّ إنسـانٍ عـلى الإطـلاق، حيـث لا يوجـد ولا يمكــن أن يوجـد، حســب القناعــة العامــة، أيُّ شيء ســوى الظــلام السَّرمــدي والفــوضى الدائمــة، وحيــث يمكــن حتــى لـ «مِـل» أن يعتقـدَ باحتـمال حـدوث الفعـل مـن دون سـبب. ربـما كلُّ إنسـان مـن العـالَم السـفلي هنـاك يمكِـن أن يعنـي مـا قـد يعادل الكـون بـأسْره، وهنـاك ربـما سـيجد أبنـاءُ المأسـاة مـا بحثـوا عنـه طويـلاً ... لـن يرغـب أبنـاءُ الابتـذال في أن يتخطـوا التخـمَ القاتـل أثنـاء ركضهـم وراء تلـك الـ «ربـما» المسـتحيلة. ولكـن، للعلـم، مـا مِـن أحـد يدعوهـم إلى القيـام بذلـك. ومـن هنـا كان ذلـك السـؤالُ الـذي يطرحـه الشـاعر:

aimes-tu les damnés, dis-moi, connais-tu l'irrémissible?[1]

(1) «هل يروقُ لك الملعونون؟ هل تحبُّ ما هو ممنوع؟» – بودلير (فرنسي).

## دوستويفسكي ونيتشه
## فلسفة المأساة

كان صدور كتاب: «دوستويفسكي ونيتشه: فلسفة المأساة»، في أولى طبعاته عام 1903، سبباً في ذيوع شهرة المؤلِّف، وترسُّخ اسمه بوصفه فيلسوفاً أصيلاً، ومفكراً ذا مكانة مرموقة في المشهد الثقافي الروسي. ناقش «شِستوف» في هذا الكتاب فكرةَ فلسفة المأساة بوصفها مفهوماً فريداً، وعالجها على نحوٍ يكشف عن توجُّهاته الفلسفية الوجودية، ويُظهِر خلفياته الباطنية القروسطية التي أعلنت عن ولادتها الجديدة في أوروبا مطلعَ القرن العشرين. وطرحَ فكرة المعرفة القائمة على الوحي الإلهي ذي الطبيعة الغامضة وغير العقلانية، في مواجهة الفلسفة الوضعية والمعرفة الفلسفية العقلية، معلناً بذلك عن موقفٍ مناهض لسلطة العقل، ورافض للمعرفة القائمة على قمع العنصر الشخصي المتعلِّق بهوية الإنسان. وقد عالج هذه الإشكاليةَ الفلسفية من خلال التحليل المقارن بين إبداع كلٍّ من الأديب الروسي «دوستويفسكي» والفيلسوف الألماني «نيتشه»، وتوصَّل إلى نتائجَ وخلاصاتٍ مهمَّة تساعد أيضاً على صياغة وجهة نظر جديدة ومغايرة حول إبداع «دوستويفسكي» وشخصيته، وتساعد في فهمِ التقلُّبات الفكرية في أعمال «نيتشه» الناجمة عن انكسارات في طبيعته السيكولوجية العميقة.


السعر 60 درهماً

9 789948 770305

مركز أبوظبي للغة العربية
Abu Dhabi Arabic Language Centre

كلمة
KALIMA


المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة/التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة